الجامعة الإسلامية – بغزة
عمادة الدراسات العليـــا
كليـــة الآداب
قســم التـــاريـخ

موقف الشيعة من غزو المغول للعراق

إعداد الطـــالب

غســان محمــود وشــاح

إشــراف الدكتــور

خــالد يونــس الخــالدي

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في التاريخ

(١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م)


بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــداء

ما أجملَ أن يَغدو بِبَابكَ جدولاً..

تغترفُ من صافيه..

ويعتلجَ في صدركَ عَبَقُه..

وترسوَ على ضِفَافِ عقلك لآلؤه ..

فتنير أنحاء روحك.. وتُذَوبَ كل كؤودٍ..

واتحد الفكر مع النقد ليعلو البناءُ ويقوى أساسُهُ وتَعمُق فكرتُه

إنهما الدكتوران خالد الخالدي ورياض شاهين

إنهما جدولاً ينهر بالمعرفة والعلم

إليهما ُأهدي بحثي هذا علني أرد لهما شيئاً من الصافي والعبق واللؤلؤ والنور.

الباحث

غسان محمود وشاح

كلمة شكر وتقدير

أجد في نفسي رغبة جامحة تقودني إلى كلامٍ سيد المرسلين: "لا يشكر ا من لا يشكر الناس" صدق رسولنا الكريم. إنها لمسة الوفاء لمن كان معي في دربي هذا إنها ليست كلمة شكرٍ فقط إنها لمسة وفاء. ونسمة روح عبقت بأريجها أرجاء حياتي فأحببت أن تفوح على من حولي. أقدم شكري الخالص إلى أستاذي الدكتور خالد يونس الخالدي المشرف على رسالتي حفظه ا ورعاه الذي لم يتوانَ لحظة في إمدادي بآرائه السديدة وأفسح لي داراً في نفسه وسعت أعمالي الكتابية وآرائي وشعرت بأني كل مرة أجد تجدداً وانسياباً في آرائه وأفكاره حتى غدوت أحب طريق الذهاب والإياب إليه في شوقٍ غريب يشدني إلى بحر علمه. إليك مني كل التحية والإجلال. فهو بها أهل.

ولا يسعني إلا أن أقدم خالص امتناني وشكري إلى قلعة الزمان في تزامن الإباء مع الصبر إلى مجد أمة يبنى بالأمل والحب والعطاء إلى عملاقٍ يقف وسط قطاع غزة شامخاً ماجداً إلى الجامعة الإسلامية التي احتلت النفوس والقلوب والعقول واعتلت عرش الأدب والعلم والسبق في سماء فلسطين.

كما وأجد نفسي أقدم تباعاً وسراعاً الشكر الجزيل لقسم التاريخ، هؤلاء الأفذاذ الذين يغوصون في أمجاد تاريخنا، تارة يجدون أعلام المجد فيلوحون بها لكل ضال، وتارة ينفحون ما أفسدته أيادي الحاقدين. إليهم أقدم الشكر لأننا بحاجة إلى أقلامهم وعيونهم وقلوبهم في الحفاظ على الحقيقة من الضياع، فمجدها في تاريخها وثباتها في ماضيها، وحاضرها ملتصق بأمسها هم الضاغطون بقوة على صفاء الصفحة ورقراقة الواقع وحقيقة الماضي المشرق إليهم كل الاحترام. ولأكون منصفاً فلقد كتبت في التاريخ وعلمت بكل قوة أن التاريخ هو الأمة والإنصاف والوفاء للعزة والكرامة والحقيقة والمجد، تلك المعاني الغالية جعلت مني منتمياً لكل كلمة كتبتها في بحثي فهذه المرة لن أنسى الأستاذ الدكتور رياض شاهين الذي من علي بأربع كلمات كانت بالنسبة لي معراجاً إلى سماء التاريخ يوم أن عرضت عليه بحثي فقال إنه بحث هام وخطير.

بقيت كلماته تتردد في أرجاء نفسي فدقت خيوطها في كل أنحاء أفكاري وكان بحثي هذا. إليه أقدم عميق حبي وخالص شكري لأن كلمته بوابة البحث إلى سماء تاريخ الفكرة.

وما أجمل أن تلتقي الروح ودماء الجسد في دفعة نجاح إنه الدكتور يوسف الزاملي صاحب دفعة النجاح في نفسي جعلني بكلامه الغزير امتلأ بالحيوية والنشاط والإصرار فلقد منحني جزءاً من روحه العملاقة فجعلني أدور مع العلم حيث دار إليه شكري واعترافي الدقيق له بالإجلال.

كما وأسجل شكري إلى الأستاذ حسن عبد الواحد الذي واجه كل الصعاب في سبيل طباعة هذه الرسالة.

المحتويـ ـ ـات

الموضوع	الصفحة

بسم ا الرحمن الرحيم

المقدمة

إن سقوط العراق بيد المغول (سنة ٦٥٦هـ = ١٢٥٨م) يعد حدثاً كبيراً في تاريخ الأمة الإسلامية، حيث قام المغول بإنهاء منظومة الخلافة الإسلامية بقتلهم آخر الخلفاء العباسيين الخليفة المستعصم وأبناءه وكبار مساعديه إضافة إلى آلاف من علماء بغداد ووجهائها، كما ذبح المغول نحو مليون مسلم، ودمروا المكتبات فقد دمروا وأتلفوا ما لا يحصى من الكتب، وقد تناثرت مادة هذا الموضوع بين ثنايا المصادر التاريخية، واختلف حوله المؤرخون، فمنهم من حمل شيعة العراق كامل المسئولية في سقوط بغداد، بأن قادتهم كل من الوزير الشيعي ابن العلقمي والعالم الشيعي نصير الدين الطوسي قاما بالاتصال بهولاكو وشجعاه على غزو العراق ووعداه بالمساعدة، فعملوا على إفقار البلاد وتسريح الجيش.

ومن المؤرخين من دافع عن الشيعة ورفض كل الروايات المتعلقة بخيانتهم، وما يزال الموضوع حياً بالرغم من مرور نحو ثمانية قرون بسبب الموقف الحالي للشيعة من الغزو الأمريكي للعراق، فقد قام بعض قادتهم وعلمائهم باستدعاء الأمريكان، ومساعدتهم، فجاءوا وارتكبوا المجازر، وقتلوا مئات الألوف ودمروا المكتبات ومعالم الحضارة في العراق، فكافئهم الأمريكان بإعطائهم حكماً شكلياً بعد نزعه من أهل السنة.

وهناك أسباب عديدة دفعتني إلى دراسة هذا الموضوع، وجعلتني أقبل عليه برغبة وشغف، وتحدٍ لكل الصعاب التي توقعتها وحذرت منها.

وأهم هذه الأسباب:

١- ندرة الدراسات العلمية الأكاديمية الجادة التي تناولت هذا الموضوع بالرغم من أهميته.

٢- حساسية الموضوع اجتماعياً وسياسياً جعلت الطلاب والباحثين يحجمون عنه إضافةً إلى أن كثيراً من الجامعات العربية لا تسمح بدراسته.

٣- دراسة الموضوع تمكننا من فهم الموقف الشيعي الحالي المؤيد للاحتلال الأمريكي والأجنبي للعراق.

٤- للتعرف على حقيقة الموقف الشيعي من الغزو المغولي، وهل هو موقف مقتصر على أشخاص أم أنه موقف شيعي شعبي.

٥- للتعرف على الأسباب التي تجعل شيعة العراق يتصرفون هذا التصرف الغريب والشاذ فيفتحون في كل مرة أبواب بلادهم للعدو ويعينونه على القتل والتدمير لشعبهم وحضارتهم.

٦- لحسم الخلاف القائم حالياً بين المهتمين والمثقفين حول مدى صـحة الروايـات التـي تتحدث عن تعاون شيعي مع المغول لاحتلال بلادهم.

وقد جاء البحث في مقدمة وأربعة فصول وخاتمة. أما المقدمة فقد تضمنت لمحة موجزة عن الموضوع، والأسباب التي دفعت الباحث لدراسته.

وأما الفصل الأول فقد تناول أوضاع الخلافة الإسلامية قبيل الغزو المغولي.

وقد بحث الفصل الثاني العلاقات الشيعية المغولية قبيل سقوط الخلافة.

وقدم الفصل الثالث دراسة لموقف الشيعة من غزو المغول للعراق حيث بحث فـي تعـاون الشيعة مع المغول وقدم دراسة لموقفهم من ممارسات المغول في بغداد.

أما الفصل الرابع فقد كان بعنوان "علاقة الشيعة بالمحتل المغولي للعراق" حيث بحـث فـي موقف المغول من الأحياء والمقدسات الشيعية، واستخدام المغول للشيعة في حكم الأقاليم، وناقش دوافع الشيعة في موقفهم من المغول.

وقد انتهى البحث بخاتمة تضمنت أهم النتائج التي توصـلت إليهـا الدراسـة وكـذلك التوصيات التي يوصي بها الباحث.

وإذ لا بد لكل عملٍ جاد - لكي ينجح - من اجتياز صعاب وكسـر عقبـات وتفتيـت مشكلات، ولقد واجه الباحث العديد من المشكلات وعلى رأسها انقطاع التيار الكهربي لفتـرات طويلة، فكنت ألاحق التيار حتى أتمكن من إنجاز الطباعة وأحياناً يتصل معـي الليـل بالنهـار انتظاراً للتيار الكهربي، وأما المشكلة الثانية فهي ندرة المصادر الأساسية للرسـالة فـي قطـاع غزة، حيث سخر ا تعالى لي إخوة في القاهرة أعانهم ا تعالى فصوروا لي هذه المصادر من جامعة القاهرة فاستطعت بكل صعوبة اجتياز هذه المحنة والحمد .

الفصل الأول

أوضاع الخلافة الإسلامية قبيل الغزو المغولي

المبحث الأول: الأوضاع السياسية

المبحث الثاني: الأوضاع الاجتماعية

المبحث الثالث: الأوضاع الاقتصادية

المبحث الأول

الأوضاع السياسية

وصل إلى منصب الخلافة في بغداد المستعصم با [*]، وذلك بعد وفاة أبيه المستنصر با (سنة ٦٤٠هـ = ١٢٤٢م)[1]، ومثلما أجمعت المصادر على وصف المستنصر با بالحزم وسداد الرأي فقد أجمعت على نعت المستعصم باللين والضعف وعدم الاهتمام بكبائر الأمور على أنه كان متدينا، متمسكاً بتعاليم الدين[٢].

ويذكر بعض المؤرخين أن كبار رجال الدولة كانوا حريصين على إسناد الخلافة للمستعصم با بعد وفاة والده المستنصر با ، بالرغم من وجود أخ له يعرف بالخفافجي يزيد عليه في الشجاعة والشهامة، إذ كان يقول: "إن ملكني ا تعالى أمر الأمة لأعبرن بالعساكر نهر جيحون وأنتزع البلاد من يد التتار"[٣]، ويبدو أن ضعف شخصية المستعصم هو الذي شجع كبار رجال الدولة على المساعدة في توليته الخلافة، إذ أن وجود رجل قوي في سدة الخلافة يعرضهم للرقابة المستمرة ويقطع عليهم آمالهم وطموحاتهم.[4]

ويرى أحد المؤرخين المحدثين[5] أن الدولة العباسية في أواخر عهدها كانت أمام فرصة ثمينة وهي الاستقلال من سيطرة العناصر الخارجية وإعادة سيطرتها ومكانتها الفعلية على جميع البلاد التي تدين بالتبعية الروحية لها، خاصة بعد تخلصها من السيطرة السلجوقية عام (٥٩٠هـ = ١١٩٣م)[٦]، ويبدو أن الدولة العباسية في أواخر عصرها كانت تتبع سياسة الاعتراف بمن يغلب، فلقد استطاعت التخلص من السيطرة البويهية على يد السلاجقة الأتراك[٧]، ويبدو أن دخول الخلافة الإسلامية تحت وصاية السلاجقة بعثت فيها حيوية جديدة وكفاية لم تكن لها قبل مجيئهم، كما بعثت بفضلهم قوة جديدة في الإسلام، حيث أن هذا الشعب القادم من آسيا الوسطى ضخ دماءً جديدة للإسلام في صراعه الذي كان يقوم به ليحصل على السيادة، ويرى أحد الباحثين أن انضمام السلاجقة للإسلام يعد حادثة مهمة في تاريخ هذا الدين[٨].

وبعد أن تمزقت دولة السلاجقة وسادها الضعف والنزاع وبدأت تعمل على السيطرة على العراق مركز الخلافة، استنجدت الخلافة بالدولة الخوارزمية العتيدة، واستطاع السلطان

(*) للإطلاع على تسلسل الخلفاء العباسيين أنظر: ملحق رقم (٤).

(1) أبو الفداء: تاريخ أبو الفداء، ج٢، ص٢٧٦.

(2) أنظر: ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية، ص٢٤٤؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٢٥٤؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٤٦٤.

(3) اليونيني: مرآة الزمان، ج١، ص٢٥٤؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٤٦٤.

(4) أبو الفداء: تاريخ أبو الفداء، ج٢، ص٢٧٦.

(5) الخضري: تاريخ الأمم الإسلامية، ج٢، ص٤٨٥.

(6) الجويني: تاريخ جهانكاشي، ج٢، ص٣٢؛ طقوش: تاريخ الدولة العباسية، ص٢٤٧.

(7) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٣٢٩.

(8) الخشت: حركة الحشاشين، ص١٢.

تكش الخوارزمي هزيمة السلطان طغرل السلجوقي في معركة عنيفة بالقرب من الـري، وقتـل السلطان طغرل في ساحة المعركة، وأُرسل رأسه للخليفة العباسـي الناصـر لـدين الله عـام (٥٩٠هـ = ١١٩٣م)[1].

وبدأ الخوارزميون يعملون على بسط سلطتهم على الخلافة، وفرض وصايتهم عليها كما كان السلاجقة و البويهيون من قبل[2] ودخلت العلاقات بين الطرفين أزمة حادة من الاتهامـات والشك[3]، والتحريض والاغتيال[4]، أدى في النهاية إلى زحف السـلطان عـلاء الـدين محمـد الخوارزمي[*]، بجيش عظيم إلى الخلافة العباسية في العراق بهدف خلع الخليفة السني ووضـع خليفة علوي مكانه، إلا أن هذه الحملة لم تصل إلى العراق بسبب العواصف الثلجية التي مزقـت الجيش في الطريق و أثنتها عن الوصول إلى العراق فرجعت الحملة إلى بلادها[5]. وكانت هـذه الحملة عام (٦١٤هـ = ١٢٢٧م)، ومنذ ذلك التاريخ والدولة العباسية لم تتعرض لوصاية سلطة خارجية[6]، ويقدر أحد المؤرخين المحدثين هذه المدة بأنها ٦٦ عاماً لم يكونوا فيها تحت سلطان أحد بل كانوا مستقلين بملك العراق إلى أن قام المغول والتتار بحركتهم[7].

ويرى مؤرخ أجنبي أن الخليفة المستعصم كان يأمل فـي أن يعيـد للخلافـة سـلطتها ومجدها، إذ أضحى للخلافة السيادة التامة منذ انهيار الدولة الخوارزمية، كذلك فإن ما وقع مـن تنافس بين الأمراء في القاهرة ودمشق هيأ للخليفة الفرصة لأن يكون حكماً بـين المسـلمين[8]، ويبدو أن الوقت كان مناسباً لإعادة بناء وترتيب الصف الإسلامي من جديد بقيادة الخليفـة فـي العراق حيث كانت قوة دولة الخلافة من الناحية الدينية أعظم من قوتها من الناحيتين السياسـية والحربية، مما يجعل أية قوة تسيطر على أي جزء من أراضي دولة الخلافـة تحـرص علـى إظهار ولائها للخليفة لتظفر باعتراف وتنال منه الشرعية، وتوطد نفوذها، وتكسب قبول النـاس لحكمها، والتفافهم حولها، لذلك كان يتوجب على الخلافة العباسية أن تنهض وتجمع شتات هـذه الكيانات الإسلامية المتناثرة، في مصر والشام وإيران والعراق لتكوين جبهـة إسـلامية قويـة تتصدى للأخطار الخارجية.

---

(1) الجوبنى: تاريخ جهانكشاي، ج٢، ص٣٢.
(2) المصدر نفسه، ج٢، ص٩٧؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج٤، ص٢٤-٢٥.
(3) الجويني: تاريخ جهانكشاي، ج٢، ص٩٧؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج٤، ص٢٤-٢٥.
(4) أنظر: النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص٥٢.
(*) للإطلاع على تسلسل السلاطين الخوارزميين أنظر: ملحق رقم (١).
(5) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٤٤٩.
(6) أنظر: ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص٣١٣؛ النسوي: سيرة جلال الدين منكبرتي، ص٦٢؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج٤، ص٢٤.
(7) الخضري: تاريخ الأمم الإسلامية، ج٢، ص٤٨٥.
(8) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية،ج٣، ص٥١٨.

وسوف يقوم الباحث بعرض لأهم الكيانات السياسية في الحقبة التـي سـبقت اجتيـاح المغول لأراضي العالم الإسلامي وتحديداً العراق. واصفاً هـذه الكيانـات بعلاقاتهـا الداخليـة والخارجية للحصول على صورة واضحة عن الأوضاع السياسية للخلافة الإسلامية والدول التي تسبح في فلك هذه الخلافة، حيث كانت أهم الكيانات الإسلامية تقوم في خراسـان[*]، والعـراق والشام ومصر.

- **خراسـان:**

قامت الدولة الخوارزمية في خراسان، وتنسب إلى مؤسسها نوشتكين الذي كان عبداً اشتراه أحد أمراء السلاجقة ثم شغل منصب الطشتدار[**] إلى أن نصب حاكماً على إقليم خوارزم وتلقب بلقب خوارزم شاه سنة (٤٩٠هـ = ١٠٩٦م)[١].

ومنذ ذلك الوقت بدأ خلفاء نوشتكين يعملون على الاستقلال عن الدولة السـلجوقية عنـدما شعروا بضعفها بل عملوا على القضاء عليها وتم لهم ذلك وأقاموا دولتهم على أنقـاض الدولـة السلجوقية وميراثها[٢] . واستطاع السلطان علاء الدين محمد الخوارزمي مد حدود بـلاده إلـى الهند من ناحية الشرق بعد أن ضم بقايا الدولة الغورية إلى ملكه عام (٦١١هـ = ١٢١٤م)[٣]، وكانت هناك دولة الخطا التي تفصل بين الدولة الخوارزمية والمغول حيث كانت هذه الدولة تمتد شرقاً وغرباً من صحراء جوبي إلى نهر سيحون، ومن هضبة التبت إلى سيبيريا[٤].

وكانت هذه الدولة تدين بالبوذية[٥] وبتحريض من بعض الأطراف زحف علاء الدين محمد خوارزم شاه على ممالك القراخطائيين واستأصل شأفتهم واستولى على ممتلكـاتهم وأزال هـذه الدولة في سنة (٦٠٧هـ = ١٢١٠م)[٦] [***]، ومنذ ذلك الحين أصبحت الخريطة السياسية التي نناقش الأحداث عليها تشمل دولة المغول في الشرق، وبينها وبين أراضي الخلافة تقوم الدولـة الخوارزمية وإلى الغرب من أراضي الخلافة تمتد بلاد الشام التي بدأت تشهد صـراع أمـراء البيت الأيوبي بالإضافة إلى بقايا الصليبيين ثم مصر التي انتهت دولة الأيوبيين فيها وتسلم الحكم

(*) أنظُر: ملحق رقم (٦)، وملحق رقم (٧).

(**) الطشتدار: هو أحد الموظفين الذين يعملون في (الطشت خانه) أي المكان الذي يحوي الطشت الذي تغسل فيه الأيدي والطشت الذي تغسل فيه الأقمشة. وكان الطشت خانه يحوي ملابس السلطان وسجاده الذي يصلي عليه؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص١٠-١١.

(1) صبح الأعشى، ج٤، ص١٠-١١.

(2)ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص٢٨٠؛ الجويني: تاريخ جهانكشاي، ج٢، ص٣٢؛ الفوطي: الحوادث الجامعة، ص١١٩؛ أنظُر: ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص٩٤.

(3) مجهول: وقائع قزان، ج١، ص٣٤٠-٣٤٥.

(4) الصياد: المغول في التاريخ، ج١، ص٦٥.

(5) الذهبي: العبر، ج٥، ص١٦.

(6) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص٢٩١.

(***) أنظُر: ملحق رقم (٦)، حيث تظهر الدولة الخوارزمية في أقصى اتساعها.

من بعدهم المماليك. حيث أصبحت الدولة الخوارزمية وجهاً لوجه مع دولة المغول في الشرق[1].

ويرى الباحث أن الدولة الخوارزمية قد ارتكبت خطأً كبيراً عندما استأصلت دولة الخطا التي كانت بمثابة السد المنيع بينها وبين دولة المغول في الشرق حيث أصبح الطريق مفتوحاً للمغول نحو العالم الإسلامي ولا يفصلها عن الخلافة إلا الدولة الخوارزمية[2]، ويرجح الباحث أن السلطان أتسز والد علاء الدين محمد عندما كان يدفع جزية لدولة الخطا التي بلغت ثلاثين ألف دينار من الذهب سنوياً[3]، لم يكن ذلك من باب الضعف ولكنه كان عن حكمة سياسية ودراية وتجربة، خاصة أن الدولة الخوارزمية في ذلك الوقت بلغت من القوة والسطوة مبلغاً تستطيع به أن تمتنع عن دفع الجزية[4]، ويبدو أن سياسة التوسع التي انتهجها السلطان علاء الدين محمد الخوارزمي قد خلقت لديه أزمة مع جيرانه جميعاً. إضافة إلى ذلك كان السلطان علاء الدين محمد الخوارزمي يعمل على بسط سيطرته على الدولة العباسية الخلافة حيث كان يرغب أن يأتمر الخليفة بأمره، وتذكر الخطبة باسمه على منابر بغداد كما كان الوضع زمن السلاجقة والبويهيين وأمام رفض الخلافة ذلك قرر السلطان الخوارزمي دخول بغداد بقواته[5].

ويبدو أن السلطان بدأ يروج إعلاميا لضربته العسكرية القادمة فقام بإعلان أن الخلافة العباسية لا تقوم بواجبها في الجهاد ومتقاعسة عن حماية الثغور و إخماد الثورات[6]، كما أعلن بعد ذلك بقليل أن العباسيين مغتصبون للخلافة، وأن آل علي أحق منهم بها، كما تطورت الأمور معه فقام باعتناق مبادئ الشيعة، واستصدر فتوى من العلماء بتأييد قراره بعزل الخليفة وإسقاط اسمه من السكة والخطبة، وأعلن عن خليفة جديد وهو رجل علوي من مدينة ترمذ[*] اسمه علاء الملك، فنادى به خليفة وخطب، له على المنابر وضربت السكة باسمه[7].

ومن المرجح أن خوارزم كان يهدف لاستمالة الشيعة في المنطقة لمساعدته في مخططاته خاصة شيعة العراق، وتدخلت السفارات عند السلطان علاء الدين محمد الخوارزمي، ولكن ذلك لم يثنه عن غزو بغداد[8]، وتحرك بجيش جرار قدره اليافعي بأربعمائة ألف فارس[9]، ولما

---

(1) الصياد: المغول في التاريخ، ج١، ص٦١-٦٨.
(2) النبراوي: قضايا العالم الإسلامي ومشكلاته، ص٦٦-٦٧.
(3) أنظر: ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص٤.
(4) المصدر نفسه، ج٩، ص٤.
(5) اليافعي: مرآة الجنان، ج٤، ص٢٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٧.
(6) النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص٥٢؛ أنظر: الجويني: تاريخ جهانكشاي، ج٢، ص٩٦-٩٧.
(*) هي مدينة مشهورة من أمهات المدن راكبة على نهر جيحون من جانبه الشرقي، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص١٧٦.
(7) النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص٥٢؛ الجويني: تاريخ جهانكشاي، ج٢، ص٩٧.
(8) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦، ص٢١٩-٢٢٠.
(9) مرآة الجنان، ج٤، ص٢٤.

وصل إلى أسداباد(*) هبت عواصف ثلجية شديدة فأهلك البرد كثيراً من جنوده وعتاده ودوابه وتعرض الجنود الباقون لغارات الأتراك والأكراد مما أضطره إلى العودة إلى بلاده(1)، ويبدو أن هذه الحادثة كان لها أهمية كبيرة حيث كانت عاملاً قويا في إشاعة أن البيت العباسي مؤيد من السماء، خاصة وأن الخليفة كان دائماً يعتقد ذلك(٢)، كما أن الأزمة استنزفت طاقات الدولة الخوارزمية والخلافة العباسية التي حشدت كل طاقاتها للمواجهة(٣)، مما سهل مهمة المغول باجتياح الدولتين فيما بعد ويرى الباحث أن الدبلوماسية الإسلامية كانت غير موفقة في تلك المرحلة إذ لم يتمكن الخوارزميون والعباسيون من بناء علاقات وطيدة وتحالفات بينهم، كما لم يوفق الخوارزميون في كسب ثقة القوى الإسلامية القريبة منهم، ويبدو أن الجهود كانت مبعثرة ويعوزها التنسيق فيما بينها.

وفي عام (٦١٢ هـ = ١٢١٥م) كانت جيوش المغول قد دخلت بكين عاصمة أعظم قوة في الشرق في ذلك الوقت وسيطرت عليها، وبدأ جنكيز خان زعيم المغول يهتم بالبناء الداخلي(٤)، فعمل على تنشيط التجارة الخارجية خاصة بعد حملاته على الصين وحالات الخراب والدمار والحرق التي أحدثتها الحروب، فكانت المدن والقرى الكبيرة هناك بحاجة ماسة إلى الحبوب خاصة التي في منغوليا، حيث كان يأتي بها تجار قادمون من الغرب منهم المسلمون(5)، وعلى ذلك قام جنكيز خان بإرسال سفارة إلى الدولة الخوارزمية لعقد معاهدة تجارية بين البلدين تهدف إلى تأمين طرق التجارة في المنطقة(٦)، وكانت السفارة تحمل معها رسالة خطية من السلطان جنكيز خان إلى السلطان الخوارزمي، واستخدم جنكيز خان مصطلح الابن للسلطان الخوارزمي حيث خاطبه بأنه كالابن لجنكيز خان(٧).

و يرى أحد المؤرخين أن هذه الرسالة كانت أول تهديد مبطن من المغول للدولة الخوارزمية، ويرى المؤرخ الأجنبي شبولر أن استخدام المصطلحات مثل الابن "سمة من سمات التعبير اللغوي في هذا العصر، وهو يعبر عن صلة الحاكم بالمحكوم"(٨)، فقد كان لهذه الرسالة أثر سيء على السلطان الخوارزمي خاصة أنه كان عائداً من حملته الفاشلة إلى بغداد التي تحطم فيها جزء عظيم من قواته وعتاده(9). وإنها نقطة تحول في سياسة السلطان الخوارزمي الخارجية

(*) هي منطقة تقع في همذان، أنظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص١٧٦.
(1) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٤٤٩.
(2) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٥١هـ - ٦٦٠هـ)، ص٢٦.
(3) اليافعي: مرآة الجنان، ج٤، ص٢٤.
(4) النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص٨٣-٨٤؛ مجهول: وقائع قزان، ج١، ص٣٥٤.
(5) العريني: المغول، ص١١٦؛ النبراوي: قضايا العالم الإسلامي ومشكلاته، ص٧٣.
(6) النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي: ص٨٣-٨٤.
(7) المصدر نفسه، ص٨٣.
(8) تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ص٤٢.
(9) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٧٦.

فهي المرة الأولى التي يهدد خارجياً، وإن كان بطريقة مبطنة، وذلك من ملك مغولي في أقصى الشرق.

على أية حال استطاعت السفارة أن تعقد المعاهدة مع الدولة الخوارزمية[١]، خاصة بعد إجابة السفارة - التي كان أفرادها الثلاثة مسلمين - على استفسارات السلطان الخـوارزمي وكانـت إجاباتهم مرضية للسلطان، وهدأت من روعه، وأخمدت ثورة الشـك التـي أشـعلتها الرسـالة بداخله[٢]، وما صدر من العاهل المغولي من تعهدات بأنه لن يخرق العهد والميثاق حتـى ولـو حرق بالنار ما لم ينقضه خوارزم شاه، فضلاً عن وجبة الهدايا العظيمة التي أرسلها جنكيز خان للسلطان الخوارزمي[٣]، و استمرت المعاهدة سارية المفعول ثلاث سنوات تقريباً[٤]، حتى قيـام حاكم مدينة أترار المحاذية لدولة المغول على نهر سيحون بقتل مجموعة من التجار والاسـتيلاء على ممتلكات القافلة جميعها، واستطاع أحد أفراد القافلة الخلاص بنفسه ليبلغ ما حدث لجنكيـز خان[٥]، ثم أرسل إلى السلطان الخوارزمي بأنه قبض على جماعة من الجواسيس بزي التجـار، وضخم له الأمر فأصدر السلطان أمراً بقتلهم جميعاً[٦].

ولكن أحد المؤرخين يحمل السلطان علاء الدين محمد الخوارزمي كامل المسـئولية حيـث يُروى أن السلطان هو من أصدر أمراً بمصادرة أموال التجار وإرسالها إليه، وأمر بقتلهم جميعاً، ثم باع السلع لتجار بخارى وسمرقند[٧]، وعلى أثر ذلك قام جنكيز خان بإرسال سفارة للسـلطان الخوارزمي تحمل رسالة احتجاج على هذا العمل جاء فيها "إنك قد أعطيت خطك ويدك بالأمـان للتجار ألا تتعرض إلى أحد منهم، فغدرت ونكثت والغدر قبيح، ومن سلطان الإسلام أقبح، فـإن كنت تزعم أن الذي ارتكبه ينال خان كان من غير أمر صدر منك، فسلم ينال خان إلي لأجازيه على ما فعل حقنا للدماء وتسكينا للدهماء، وإلا فأذن بحرب ترخص فيها غوالي الأرواح"[٨].

ويؤكد ابن كثير أن جنكيز خان قام بإرسال سفارة تحمل رسالة لخـوارزم شـاه، لتسـوية الأزمة، حيث يطلب فيها محاكمة حاكم أترار والقصاص منه داخلياً، أي في الدولة الخوارزمية، ولم يطلب تسليمه للمغول. ولكن خوارزم شاه قام بقتل رجال السفارة [٩]، ويـذكر ابـن الأثيـر

---

(1) النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص٦٨-٦٩.
(2) المصدر نفسه، ص٦٨-٦٩؛ مجهول: وقائع قزان، ج١، ص٣٥٤.
(3) مجهول: وقائع قزان، ج١، ص٣٥٤.
(4) المصدر نفسه، ج١، ص٣٥٤.
(5) النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص٦٨.
(6) الجويني: تاريخ جهانكشاي: ج١، ص٦١؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص١١٧.
(7) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص٣٣١.
(8) النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص٨٧؛ مجهول: وقائع قزان، ج٢، ص٣٥٦-٣٥٧.
(9) البداية والنهاية، ج١٣، ص١١٩.

رسالة أخرى لجنكيز خان بعد قتل التجار "تقتلون أصحابي وتجاري، وتأخذون مـالي مـنهم، استعدوا للحرب فإني واصل إليكم بجمع لا قبل لكم فيه" [1].

ويرى الباحث أن هذه الرسائل التي أوردها عدد من المؤرخين لا تتنـاقض مـع بعضـها البعض، وذلك ظاهر من نص الرسائل، فالرسالة التي يوردها النسوي يبدو واضحاً فيهـا مـن سياق النص أن هناك مراسلات قبلها خاصة عندما نأخذ "فإن كنت تزعم أن الذي ارتكبه ينـال خان كان من غير أمر صدر منك"[٢]، هنا يظهر واضحا أن هناك رسالة كانت مـن السـلطان الخوارزمي إلى جنكيز خان يبرر ساحته ويلقي بالتهمة على حاكم أترار ينال خان فيـرد عليـه جنكيز خان بتسليم ينال خان للقضاء المغولي أما في رسالة ابن كثير فيرجح الباحث أنها كانـت الرسالة الأولى من جنكيز خان وهي عبارة عن رسالة استيضاح لما حدث، حيث يطلب جنكيـز خان من السلطان الخوارزمي فتح تحقيق في القضية وخضوع الجـاني للقضـاء الخـوارزمي، ويطلب منه استنكار ما حدث، أما الرسالة التي يوردها ابن الأثير فمن المرجح أنها كانت آخـر الرسائل لأن فيها الإنذار بالحرب خاصة بعد قتل السلطان الخوارزمي رسل جنكيز خان وتظهر الرسالة قصيرة ومقتضبة[*]، ولذلك يكون خوارزم شاه قد قطع بذلك كل أمر ممكن في التفـاهم مع المغول وأصبحت الحرب بين الطرفين أمراً لا مفر منه.

وبهذا جر السلطان الخوارزمي على نفسه وعلى العالم الإسلامي الدمار والخراب ويقـول الجويني "إن كل قطرة من دماء هؤلاء التجار، قد أجرت نهراً مـن دمـاء المسـلمين، وكـان القصاص لكل شعرة مئات الآلاف من الرؤوس" [٣].

وزحف جنكيز خان بجيوشه وأبنائه إلى ما وراء النهر في خريـف سـنة (٦١٦ هـ = ١٢١٩م)، وقسم جيشه إلى أربعة أقسام عبر خطة محكمة للاستيلاء على هذا الإقليم بحيث يـتم غزو الدولة الخوارزمية من أربعة جهات[٤]، ويرى أحد المؤرخين أن السلطان الخوارزمي لـم تكن لديه خطة محكمة في الدفاع والمقاومة وذلك لجهله بمخطط المغول، حيث كان القسم الأكبر من جيشه متمركزاً على الحدود الشمالية من بلاده ووزع باقي جيشه بين حاميات منطقـة مـا وراء النهر، مثل بخارى[**] و سمرقند[***] وغيرها حيث أدى ذلك إلى إضعاف قـدرة الجـيش

(1) الكامل، ج١٢، ص٣٦٣.
(2) النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص٨٧.
(*) لمقارنة الرسائل أنظر: ملحق رقم (١٠).
(3) تاريخ جهانكشاي، ج١، ص٦١.
(4) النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص٨٧.
(**) بخارى: من أعظم مدن ما وراء النهر وأملها، فتحها عبد الله بن زياد سنة ٥٣هـ؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٣٥٣.
(***) سمرقند: بلد مشهور قريب من بخارى، فيما وراء النهر، حاصرها سعيد بن عثمان سنة ٥٥هـ وغزاها قتيبة بن مسلم سنة ٨٧٠هـ؛ أنظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٣٥٣.

رغم تفوقه العددي على جيش المغول، مما أدى إلى الهزيمة وسقوط المدن الخوارزمية الواحـدة تلو الأخرى(١).

ويذكر الجويني أن مدينة أترار صمدت خمسة أشهر وصمد حكامها شهراً آخر في القلعـة بعد ذلك سقطت المدينة والقلعة وأحدث المغول فيها مذبحة رهيبة وتم قتل حاكمها(٢)، وزحفـت جيوش المغول إلى سمرقند حاضرة إقليم ما وراء النهر ولم يجد المغول مقاومة تـذكر إلا فـي بعض المواقع وسقطت المدينة بعد الحصار، وأُعمل السيف في رقاب أهلها واستولى على قلعـة سمرقند وقتل كل من فيها(٣)، ويبدو أنه بسقوط سمرقند استكمل جنكيز خان سيطرته على كامل إقليم ما وراء النهر الذي كان بمثابة خط الدفاع الأول للدولة الخوارزمية، فمن المرجح أن ذلـك انعكس سلباً على الخطط الدفاعية لعلاء الدين خوارزم شاه، وتحطمت معنويات جنده مما سـهل للمغول السيطرة على باقي الأقاليم الخوارزمية.

ويروي لنا أحد المؤرخين المعاصرين للأحداث روايات مروعة من جرائم المغول في المدن الخوارزمية، حيث كانوا يقتلون جميع أهل المدينة وحتى يتأكدوا من موتهم جميعاً كانوا يصنعون هرماً من رؤوس الرجال وهرماً من رؤوس النساء وثالث من رؤوس الأطفـال، وفـي بعـض المدن مثل بخارى ذبحوا من ذبحوا وأخرجوا الناس وقسموهم بين جنودهم وفرسانهم فكان الأب من نصيب فارس وزوجته من نصيب فارس آخر وأبناؤه من نصيب آخرين "وكان ذلك اليـوم يوماً فظيعاً كان بكاء الناس فيه يشق عنان السماء" (٤).

وفي بعض المدن الخوارزمية كان الناس يذبحون كما تذبح الخراف حيث يوضع الشـخص على الأرض ويسند بحجر صغير ثم يذبح(٥)، ودمرت المكتبات وذبح العلماء(٦)، وبعـد أربعـة شهور كانت الدولة الخوارزمية قد دمرت تماماً، وفضت هذه القوة العظيمة علـى يـد جحافـل المغول القادمين من الشرق، وقد فر السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه والتجأ إلى جزيـرة أبسكون(*) في بحر قزوين وتوفي فيها في شوال عام (٦١٧هـ = ١٢٢١م) بعد أن عهد بالبيعة لولده جلال الدين منكبرتي(٧).

وبعد أن تسلم الراية السلطان جلال الدين منكبرتي قام بتجميع جيوشه واستطاع أن ينـزل الهزيمة بالمغول في بعض المعارك، ولكنه اضطر إلى التراجع والهرب إلى الهند ليستجمع قواه

---

(1) حطيط : حروب المغول، ص٣١-٣٢.
(2) تاريخ جهانكشاي، ج١، ص١٠١-١٠٣.
(3) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص٣٣٣.
(4) المصدر نفسه، ج٩، ص٣٣٣.
(5) النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص٨٧.
(6) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٥٠٩-٥١٠.
(*) إن بحر قزوين كان يسمى غالباً بحر أبسكون، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٣٤٢.
(7) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص٣٣٤؛ الذهبي: العبر، ج٥، ص٩٥٠.

ويستعيد بناء قواته[1]، وبعد أن سيطر المغول سيطرة كاملة على بلاد الدولة الخوارزمية، حيث تتبعوا الخوارزميين في كل مكان تقتيلا وتشريداً، صمم جنكيز خان على العودة إلى منغوليا، خصوصاً عندما علم أن ثورة قامت ضده في شمال الصين والتبت، وأن الظروف تستدعي حضوره[2]، حيث توفي هناك في النصف الأول من رمضان عام (٦٢٤هـ = ١٢٢٧م) وحمل جثمانه ودفن في منغوليا[3].

وبعد وفاة جنكيز خان أخذ المغول في ترتيب أمورهم الداخلية، وضعفت سيطرتهم على البلاد التي احتلوها مسبقاً، وكان جلال الدين منكبرتي قد استطاع في ذلك الوقت أن يستعيد بناء جيشه في الهند، فاستغل هذه الظروف وعبر نهر السند سنة (٦٢٢هـ = ١٢٢٥م)، وقصد إيران في سبيل استعادة مملكة آبائه وأجداده، واستطاع تحقيق انتصارات باهرة على جيوش المغول، وتمكن من استعادة مناطق مهمة من الدولة الخوارزمية[4]، حتى جمع المغول له جيشاً لم يسبق له مثيل وأوقعوا به هزيمة منكرة، ولاحقه المغول للقضاء عليه ففر هارباً حتى وصل جبال كردستان، حيث لقي مصرعه على يد أحد الأكراد عام (٦٢٨هـ = ١٢٣١م) [5].

ويرى الباحث أن هناك سؤالاً كبيراً بعد هذه الأحداث المؤلمة التي مرت منذ اجتياح المغول للدولة الخوارزمية وحتى القضاء على السلطان جلال الدين منكبرتي، لقد كان المغول يتوسعون في أقصى الشرق حيث سهول الصيد الفسيحة، فما الذي حول وجهتهم للتوسع ناحية الغرب حيث العالم الإسلامي؟ من المسئول عن ذلك؟ يرى أحد المؤرخين أن المسئول الأول هو الخليفة العباسي الناصر لدين ا لأنه استعان واتصل بالمغول ضد الخوارزميين[6]، حيث يرى حسن إبراهيم حسن أن الخلفاء العباسيين استخدموا هذه السياسة من قبل، فراسلوا بني بويه ليخلصوهم من استبداد الأتراك، وكتبوا إلى طغرلبك السلجوقي ليخلصهم من تحكم البساسيري حيث أراد تحويل الدعوة إلى الفاطميين في مصر، كما راسلوا خوارزم شاه ليقيهم شر السلاجقة[7]، كذلك يعتقد فيليب حتي أن الخليفة هو من اتصل بالمغول ولفت أنظارهم للعالم الإسلامي عندما كانوا غارقين في فتوحاتهم في قلب آسيا والصين[8]، وهناك مؤرخ مجهول يورد الرأي نفسه[9]، وربما يستند أغلب المؤرخين المحدثين وغيرهم إلى رواية ابن الأثير حيث قال: "وكان سبب ما

---

(1) أنظر: ابن الوردي: تتمة المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص١٥٥.
(2) الجويني: تاريخ جهانكشاي، ج٢، ص١٤٢.
(3) الهمذاني: جامع التواريخ، ج١، مج٢ ص٥٢٢-٥٢٣.
(4) ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨، ص٦٦٤.
(5) أنظر: النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص٣٧٥-٣٨٤؛ ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص٣٧٦؛ ابن العبري: مختصر تاريخ الدول، ص٢٤٧.
(6) حسن: تاريخ الإسلام، ج٤، ص١٤٤.
(7) المصدر نفسه، ج٤، ص١٤٤.
(8) تاريخ العرب، ج٢، ص٥٧٨.
(9) وقائع قزان، ج١، ص٣٥٢.

ينسبه العجم إليه صحيحاً من أنه هو الذي أطمع التتار في البلاد و أرسلهم في ذلك فهو الطامـة الكبرى التي يصغر عندها كل ذنب عظيم"[١].

ويرى الباحث أن الرأي الذي يُرجع غزو المغول للعالم الإسلامي إلى اتصال الخليفة بهم رأي غير مقنع من عدة وجوه.

حيث كان للمغول في ذلك الوقت معاهدة حسن جوار مـع السـلطان الخـوارزمي ومعاهـدات تجارية، وظهر كم كان جنكيز خان حريصاً على الالتزام بالميثاق والمعاهدات حتى ولو حـرق بالنار ما لم ينقضه الخوارزميون[٢]. أما الوجه الآخر وهو أن خليفة بغداد يعلم جيداً أن الدولـة الخوارزمية تعد سداً منيعاً وخط الدفاع الأول لبلاد المسلمين من الأعداء الوثنيين، ويظهر ذلـك من تصريح أحد الأمراء في الشام بعدما جاءه خبر مقتل السلطان جلال الدين منكبرتي، حيـث جاءه أحد أتباعه ليهنئه بذلك الخبر لما كان هناك خلافات بينهم فقال الأشرف موسى الأيـوبي: "تهنوني به وتفرحون سوف ترون غبه[*]، وا لتكونن هذه الكسرة سبب لدخول التتار إلى بلاد الإسلام، ما كان الخوارزمي إلا مثل السد الذي بيننا وبين يأجوج ومأجوج" [٣].

أما احتجاج بعض المؤرخين بأن الخلفاء العباسيين جـرت عـادتهم علـى الاتصـال بالأطراف الأخرى، مثل اتصالهم بالسلاجقة ضد البساسيري، أحد قـادة بنـي بويـه الأتـراك المتشيعين عندما سيطر على بغداد وما جاورها وأصبح يخطب له على المنـابر فـي العـراق، فالبساسيري قام بطرد الخليفة من بغداد وقام بالاتصال بالدولة الفاطمية الشيعية ليتم وضع خليفة شيعي في العراق[٤]، والخليفة عليه في هذه الظروف أن يبحث عـن طريقـة للخـلاص مـن البساسيري والنفوذ الفاطمي، العدو التقليدي للدولة العباسية، فقام بالاتصال بالقوة الغالبة في ذلك الوقت خاصة أنها تدين بالمذهب السني وتحترم الخلافة وتدين لها بالولاء[٥]، واستنجد بالسلطان السلجوقي طغرلبك طالباً مساعداته ضد البساسيري، وتم القضاء على البساسيري عام (٤٤٧هـ = ١٠٥٥م)[٦].

ويرى الباحث أن تصرف الخليفة لا يخالف المنطق خاصة أن البساسيري يعمل لصالح القوة الفاطمية الشيعية الخارجية. وكذلك اتصال الخلافة بالخوارزميين، والبويهيين، فهم جميعـاً أطراف إسلامية ويختلفون عن المغول الوثنيين. أما اتهام ابن الأثير للخليفة الناصر أنه "سبب ما

(1) الكامل، ج٩، ص٣٦١.
(2) مجهول: وقائع قزان، ج١، ص٣٥٤.
(*) الغب: هو المذبح، حيث كان هناك نصب في الجاهلية يتم عليه ذبح الذبائح، والغبب هو المنحر بمنى، أنظر: ابن منظور: لسان العرب، ج١، ص٦٣٧.
(3) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦، ص٢٧٧.
(4) ابن الأثير: الكامل، ج٨، ص٧١.
(5) نظام الملك: سياسة نامة، ص٦٢-٦٣.
(6) ابن الأثير: الكامل، ج٨، ص٣٤٢-٣٤٣.

ينسبه العجم إليه صحيحاً من أنه هو الذي أطمع التتار في البلاد وأرسلهم في ذلك فهو الطامة الكبرى التي يصغر عندها كل ذنبٍ عظيم"[1]، ويبدو واضحاً من النص أن أساس هذه الروايات ومصدرها الأول أقوال عدد من الرواة الحاقدين على الخليفة العباسي وهم ليسوا عرباً.

ولكن عند مناقشة قضية انهيار الدولة الخوارزمية بسرعة ملفتة للنظر أمام ضربات المغول وتحول المغول وجهة هذه الدولة، فالباحث يرى أن الإدارة الخوارزمية كانت في تخبط داخلي وخارجي، حيث قام السلطان الخوارزمي خارجياً بالقضاء على جيرانه الغوريين وكذلك القراخطائيين فتخاص من أهم حلفائه عند الشدائد خاصة القراخطائيين الذين كانوا يمثلون فاصلاً وسداً بينه وبين المغول، فالسلطان ارتكب خطأً استراتيجياً بالقضاء على الدولة القراخطائية خاصة بعد اتصالهم بالسلطان الخوارزمي للتحالف معه ضد المغول[2]، كذلك فشلت الإدارة والدبلوماسية الخوارزمية في كسب ثقة الخلافة الإسلامية، القوة الشرعية والروحية للمسلمين، كما فشلت في بناء تحالفات مع الكيانات الإسلامية الأخرى.

كما أن إدارة القيادة الخوارزمية لأزمة التجار مع المغول كانت غير موفقة، فالقيادة والدولة الخوارزمية كان يجب أن تحدد موقفها من جيرانها المغول، هل هي تعدهم أعداء لها، أم جيراناً، وإذا كانوا أعداء كان لا بد أن تبدأ في الإعداد والاستعداد لأي هجوم من قبلهم وتعد نفسها داخلياً وخارجياً، ولكن هذا لم يحدث على الإطلاق بل كان هناك بناء داخلي ضعيف وفشلاً سياسياً وخارجياً في المحيط الإسلامي والدولي، وسقوط الدولة الخوارزمية في عدة شهور أمام ضربات المغول رغم تفوقها العددي[3]، يدلل على ذلك ما ذهب إليه الباحث.

أما إذا عدت المغول جيراناً، عندها كان يجب أن تتعامل وتحافظ على حقوق الجوار، وحتى لو كان التجار جواسيس للمغول كما يعتقد أحد المؤرخين[4]، فهناك طرق يتم فيها التعامل مع هذه الأزمة تضمن حق احترام الجوار، ومن المرجح أن الخوارزميين كان باستطاعتهم في ذلك الوقت الإملاء على المغول لأنهم ما زالوا دولة قوية يحسب لها حساب في المنطقة، فهي على الأقل أكثر حضارة ورقياً ومدنية من المغول، ودولة المغول حديثة عهد بالسياسة والعلاقات الدولية. كذلك عندما وقعت حادثة قتل التجار لم تستطع القيادة الخوارزمية معالجة الموقف بطريقة حكيمة، وبدراسة مقارنة بين موقف جنكيز خان وموقف خوارزم شاه، يظهر جنكيز خان بتصرفه ومعالجته للقضية و إرساله سفارة احتجاج واستيضاح للأمور[5] شخصية سياسية محنكة وواعية أما خوارزم شاه فلم يستطع الخروج من هذه الأزمة بل زادها تعقيداً بقتله السفراء.

---

(1) الكامل: ج٩، ص٣٦١.
(2) الذهبي: العبر، ج٥، ص١٦.
(3) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص٣٣٤؛ الذهبي: العبر، ج٥، ص٩٥٠.
(4) شبولر: المغول في التاريخ، ص٣٥.
(5) النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص٨٧.

و السؤال هنا، هل كان بإمكان خوارزم شاه أن يسلم حاكم أترار؟ فإن كان بإمكانه فعل ذلـك، فلماذا لم يسلم حاكم أترار ويجنب البلاد الإسلامية هذه الحروب المدمرة؟ ويبدو أن هناك سـببا لعدم تسليم خوارزم شاه حاكم أترار، ينال خان إذ أنه ابن أخ تركان خاتون والدة السلطان وقـد كانت ذات شخصية قوية ومن قبيلة متنفذة ولها سيطرة كبيرة على الجيش[1]، و ربما لـو فعـل السلطان ذلك لتعرض لثورة من الجيش أو من خاصته، كذلك ربما اعتقد السلطان الخـوارزمي أنه لو سلم ينال خان حاكم أترار سيكون قد أقر بالضعف أمام القوة الجديدة في المنطقة، ومـن المرجح أن هذا السبب هو الذي دفعه لقتل الرسل.

لذلك يُحَمل كثيرٌ من المؤرخين خوارزم شاه مسئولية زحف المغول للدولة الخوارزمية، خاصة أن سياسة خوارزم شاه الداخلية كانت قد أفرزت بناءً داخليا هشاً ممزقاً غير مؤهل لصد عدوان بقوة عدوان المغول[2]. حيث أقدم خوارزم شاه على تصرفات أضعفت تمسك شعوب هذه الدولة بقيادتها، ومن هذه التصرفات إجبار العلماء على إصدار الفتاوي ضـد الخليفـة، وقتـل بعضهم مثل الشيخ مجد الدين البغدادي[3]، مما سبب نقمة وسخطاً في صفوف علماء خـوارزم على السلطة، و أخذ بعضهم يتضرع إلى ا بإزالة ملك خـوارزم شـاه[4]، ويبـدو أن الدولـة الخوارزمية في تلك الحقبة قد خسرت أهم العناصر المؤثرة في المجتمع الإسلامي عندما تسلطت على العلماء واستخدمت أسلوب الجبر معهم مما أدى إلى ضعف سلطتهم وغياب دورهـم فـي تحريض المجتمع على صد العدوان الخارجي.

فبدلاً من أن تكون سلطة وبقعة جاذبة للعلماء أصبحت منفرة لهم يبتعدون عنها، ومـن المرجح أن الإدارة الخوارزمية عندما فقدت التفـاف العلمـاء والفقهـاء، وفقـدت نصـائحهم وإرشاداتهم بدأت تدخل في مرحلة التخبط و عدم تقدير الأمور، ويبدو أن هذا الوضع قد أسـهم في ارتكاب تلك الأخطاء سالفة الذكر، كما أن الدولة الخوارزمية في نهاية عهدها أراقت كثيـراً من الدماء لإخماد ثورات الشعوب التي تحكمها والتي اندلعت نتيجة سوء تصرف حكام الأقـاليم مع الرعية[5]، ومن المرجح أن ذلك كان له أثر كبير في عدم صمود الخوارزميين أمام ضربات المغول ويُحَمل بعض المؤرخين الغربيين خوارزم شاه المسئولية بقتله التجار ويعدون مسـئوليته أكبر لعدم صموده في وجه الزحف المغولي مما أغرى المغول فـي التقـدم حيـث "انتعشـت آمالهم"[6]، فالسلطان الخوارزمي إن لم يكن هو سبب الحرب فهو على الأقل عجـل بقيامهـا[7]،

---

(1) الجويني: تاريخ جهانكشاي، ج١، ص٦١.
(2) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٧٦.
(3) المصدر نفسه، ج١٣، ص٧٦.
(4) مجهول: وقائع قزان، ج١، ص٣٥٠.
(5) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٧٦.
(6) فامبري: تاريخ بخارى، ص١٥٧.
(7) شبولر: تاريخ الترك في آسيا الوسطى،ص١٤٩؛ الفقي: الدولة العباسية، ص٢٧٩.

فمن المرجح أن تصرف خوارزم شاه أعطى جنكيز خان مبرراً لإعلان الحرب علـى الدولـة الخوارزمية حتى من وجهة نظر القانون الدولي المعاصر(١).

ويرى الباحث أن الصدام كان متوقعاً بحكم التجاور بين الدولتين القويتين، دولة المغول والدولة الخوارزمية، خاصة أن سياسة المغول كانت مبنية على التوسع وضم الأراضي بـالقوة، بل إنهم كانوا ينظرون إلى بناء إمبراطورية عظيمة لهم ولأبنائهم، يظهر ذلـك مـن مقـدمات رسائلهم للملوك مثل: "من نائب رب السماء ماسح وجه الأرض ملك الشـرق والغـرب قـاان قان"(٢). لكن حادثة قتل التجار في أترار قد عجلت بالصراع المسـلح بـين المغـول والدولـة الخوارزمية، وهكذا تحطمت الدولة الخوارزمية في الشرق بعد أن كانت سداً منيعاً فـي وجـه القوى المعادية للإسلام من جهة الشرق، ولقد استعرض الباحث غزو المغول لهذه الدولة، للـرد على المؤرخين الذين حملوا مؤسسة الخلافة مسئولية غزو المغول للعالم الإسلامي وهـذا فـي صلب موضوع البحث. خاصة بعد اكتمال الصورة وتركيز الأضواء على الأوضاع السياسية في باقي الكيانات الإسلامية في ذلك الوقت.

- الإسماعيلية:

عاشت الطائفة الإسماعيلية في خراسان، في الجهـة الشـمالية الغربيـة بالنسـبة للدولـة الخوارزمية(٣)، وسميت بالإسماعيلية لأنها نادت بإمامة إسماعيل بن جعفـر الصـادق(٤) حيـث استطاعت الباطنية(*) الإسماعيلية استمالة قبيلة كتامة في بلاد المغرب، مما ساعدها كثيراً علـى قيام أول دولة لها سميت بالدولة الفاطمية أو العبيدية حيث كانت هذه الدولـة تـدين بالمـذهب الإسماعيلي، واتخذت مصر مقراً لها.

وبعيد وفاة الخليفة الفاطمي المستنصر انقسم الإسماعيليون إلى نزاريين ومستعلية(**) (٥) في تلك الحقبة نشط دعاة الباطنية في شمال أفريقيا ومصر، وامتد نفوذهم إلى البلاد التي كانـت تسيطر عليها الخلافة العباسية، بل هددوا بغداد عاصمة الخلافة، وأخـذوا يروجـون المـذهب الشيعي في الشرق الإسلامي(٦) ويبدو أن مدارس الدعوة الشيعية في مصر أعطت دفعـة قويـة

---

(1) الصياد: المغول في التاريخ، ج١، ص١١٧.
(2) ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٣، ص١٥٦.
(3) الجويني: تاريخ جهانكشاي، ج٣، ص١٤٣؛ الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، ص٢٤٦؛ تامر: معجم الفرق الإسلامية، ص١١٧.
(4) الجويني: تاريخ جهانكشاي، ج٣، ص١٤٣؛ الشهرستاني: الملل والنحل، ج٢، ص٢٣٦؛ تامر: معجم الفرق الإسلامية، ص١١٧.
(*) الباطنية: سميت بالباطنية لأنهم كانوا يبطنون خلاف ما يظهرون وهو (الإسرار للشريعة)؛ الشهرستاني: الملل والنحل، ج٢، ص٢٣٦.
(**) أنظر: ملحق رقم (٥) حيث يظهر تفرعات الشيعة وحكام الإسماعيلية.
(5) الجويني: تاريخ جهانكشاي، ج٣، ص١٤٤.
(6) أنظر: المصدر نفسه، ج٣، ص١٤٣-١٧٩.

للفكر الشيعي، كما شتتت أفكار كثير من المسلمين خاصة أنها تدعي أنها من ذريـة آل النبـي وبأحقيتهم أن يكونوا أئمة المسلمين، بعد أن كان المسلمون في العالم يتجهون بأنظارهم للخليفـة العباسي في بغداد.

وبقي الفاطميون يتزعمون الحزب الإسماعيلي حتى عهد الخليفة المستنصر الفاطمي حيـث دان له الإسماعيلية بالطاعة في الشرق والغرب، حيث أوصى المستنصر بأن يكون ابنه الأكبـر نزار ولياً لعهده، غير أنه بعد وفاته خلع نزار وتم تولية المستعلي الخلافة فانقسم الإسماعيلية إلى فرقتين فرقة تؤيد المستعلي، وهي في مصر وسوريا وشمال أفريقيا، والثانيـة النزاريـة التـي تمثلت بالفرع الشرقي، الذي انتشر في إيران ثم مد نفوذه إلى الشام، وهذا الفرع هو الذي كـان يضم طائفة الإسماعيلية بزعامة حسن الصباح، سموا بالنزارية حيث آلت لهم زعامة الإسماعيلية في جميع الأقطار الإسلامية بعد سقوط الدولة الفاطمية عام(٥٦٧هـ = ١١٧١م)(١).

ويعد الحسن الصباح المؤسس الحقيقي للطائفة الإسماعيلية في إيران إذ أخذ بالاستيلاء على بعض القلاع الحصينة(٢) لتكون مركزاً لدعوته ومقراً لدولته(٣) حيث كانت أقواها وأشهرها قلعة "ألموت"(*) وميمون دز ولنيه سر وكانت قلعة ألموت عاصمة ملكهم(٤) ولقد استطاع حسـن الصباح أن يستولي على المنطقة الواقعة جنوبي بحر قزوين بأكملها(٥)، ولقد أعلن الإسماعيليون في قلاعهم عقيدة جديدة منحرفة تلغي التكاليف الشرعية وتتخلى عن الإسلام عقيدة وعملاً، حيث يقولون بالحلول وتناسخ الأرواح، ويدعون الألوهية والإباحية(٦).

ويرى أحد الباحثين أن هذه الفرقة تأثرت بالأفكار المجوسية والنصرانية(٧)، وقد أحلت لعناصرها الفواحش والمنكرات، وأخذ أموال الناس بكل طريق، وأسقطت عنهم الصلاة والصيام والزكاة، وهم يستهينون بذكر ا واسمه حتى أن أحدهم يكتب اسم ا واسم رسوله فـي أسـفل قدمه وأمثال ذلك من كفرهم كثير(٨)، ومن المرجح أن هذه الأمور هي التي جعلت خصوم هـذه الفرقة تطلق عليهم الملاحدة، كما أطلق عليهم الحشاشون لأنهم كانوا يستعينون بالحشـيش فـي الترويج لمذهبهم وفي حوادث الاغتيال(٩).

---

(1) الجويني: تاريخ جهانكشاي، ج٣، ص١٤٤.
(2) الهمذاني: جامع التواريخ، ج١، مج٢ ص٢٤٦.
(3) الأمين: دائرة المعارف الشيعية، ج٤، ص٨٠.
(*) ألموت: وهي قلعة حصينة تقع بين قزوين وبحر الخزر على قمة جبل، وهي قاعدة ملك الإسماعيلية وتعني عش العقاب، أنظر: القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص٣٠١؛ ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٣١٦.
(4) الهمذاني: جامع التواريخ، ج١، مج٢ ص٢٤٦.
(5) الجويني: تاريخ جهانكشاي، ج٣، ص١٨٦.
(6) الشهرستاني: الملل والنحل، ج٢، ص٢٣٦-٢٥٠؛ البغدادي: الفرق بين الفرق، ص٢٦٩.
(7) الغرابي: الفرق الإسلامية، ص٢٩٦.
(8) ابن تيمية: مجموعة الفتاوى، ج٣٥، ص٨٠٤.
(9) الشهرستاني: الملل والنحل، ج٢، ص٢٠٠؛ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص٣١؛ القلقشندي: مآثر الأناقة، ج١، ص٢٥٥؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج١، ص١٢٠؛ الصياد: المغول في التاريخ، ج١،ص٧٥.

ويبدو أن هناك من تأثر بهذه الأفكار الإلحادية إذ أن تلك الحقبة كانت تمتاز بحركة فكرية نشطة، بسبب ظهور مذهب الشيعة الإسماعيلية الذي يحمل في ثناياه كثير من الأفكار الشرقية القديمة، ويجعلها مكان بعض الأفكار الإسلامية، وكان للإسماعيلية دور كبير في مزج هذه الأفكار بالعقائد الإسلامية[1] "فالضلال لم يتفشى في العالم الإسلامي بقدر ما تفشى بسبب الفرق الشيعية، وما غير السنن إلا المتشيعون الذين دخلوا الإسلام لهدمه وتقويض أركانه"[2].

ويرى الباحث أن أفكار هذه الفرقة كان هدفها إزالة حالة القداسة عن العقائد الإسلامية، ووضعها تحت مجهر العقل والحس، وقد تجرأ على ذلك أصحاب النفوس المريضة الذين دخلوا الإسلام رياءً ونفاقاً أو خوفاً، إذ مهدوا لإظهار أفكار ومذاهب وثنية، مهدت السبيل للمجوس والفلاسفة والصابئة الذين كانوا يتربصون للنيل من الإسلام والمسلمين، ولقد أُغرقت هذه الفرقة بالتجسيم والمادية، والآراء الأسطورية، مما جعلها لا تتميز عن الوثنية[3]، وقد اتبعت هذه الحركة في عملها ونشر أفكارها وتنفيذ مهماتها السرية[4]، حيث كونت تنظيماً سرياً يتكون من طائفة من الشباب المغامرين، لديهم القدرة على التخفي، إذ امتدت شبكاتهم السرية حتى عمت العالم الإسلامي من الشام وحتى بلاد ما وراء النهر وتمكنت من التغلغل داخل أجهزة صنع القرار في الدول الإسلامية، مما جعلها تثير الفزع والرعب في أعلى المستويات في الدول[5].

ويبدو أن شعار هذه الجماعة كان التخلص من أي زعيم سني(*) قوي يظهر على الساحة الإسلامية، وذلك للقضاء عليه قبل أن يوجه إليها أي ضربة قاضية، إضافة إلى بث الرعب والخوف في أرجاء العالم الإسلامي ونشر الفتن والاضطرابات، لأنهم لا يستطيعون نشر أفكارهم في الظرف الطبيعي، وقد تمكنوا من توجيه ضربة قوية للدولة السلجوقية باغتيال الخواجة نظام الملك عام (٤٨٥هـ = ١٠٩٢م) [6] وربما كانت ضرباتها للدولة السلجوقية هي التي عجلت بزوال دولة السلاجقة.

ومن المؤسف أن الحكام والولاة المسلمين استعانوا ببعض عناصر هذه الطائفة ضد بعضهم، حيث اتهم السلطان السلجوقي مسعود بأنه أوعز إلى جماعة الحشاشين بالتخلص من الخليفة المسترشد فقتلوه سنة (٥٢٩هـ = ١١٣٤م) ومثلوا به أشنع تمثيل حيث قطعوا أنفه

---

(1) الخطيب: الحركات الباطنية، ص٤٣٨.
(2) المجذوب: الصراع المذهبي في أفريقيا، ص١٨٣.
(3) تسيهر: العقيدة والشريعة في الإسلام، ص١٨٥.
(4) الجويني: تاريخ جهانكشاي،ج٣، ص٢١٣-٢١٤
(5) المصدر نفسه، ج٣، ص٢١٣-٢١٤؛ للمزيد أنظر: ابن الأثير: الكامل، ج٨، ص٢٠ وما بعدها.
(*) لقد رصد أحد الباحثين عشرات القيادات الإسلامية السنية التي تم تصفيتها على يد الباطنية الإسماعيلية، أنظر: شيخ العيد: أثر الحركات الباطنية، ص٣٠١-٣٠٥.
(6) الجويني: تاريخ جهانكشاي، ج٣، ص٢١٣-٢١٤.

وأذنيه وتركوه عرياناً[١]، كما اغتالوا ابنه الراشد[٢]، وكان الحشاشون يتحالفون مـع الصـليبيين ضد المسلمين[٣]، فقد استطاع الصليبيون "بفضل مساعدة الحركات الباطنية لهم بطريق مباشر أو غير مباشر تحقيق معظم أهدافهم التي جاءوا من أجلها"[٤]، حيث تحالفوا مع الصليبيين ضد نور الدين محمود عندما أنزل الهزيمة بالصليبيين عام (٥٤٣هـ = ١١٤٨م) بل حاولوا اغتيال نور الدين[٥]، كذلك حاول الحشاشون اغتيال صلاح الدين الأيوبي بعد هزيمته للصليبيين ودحرهم[٦]، كذلك سببت هذه الطائفة التعب والعناء للدولة الخوارزمية حيث راسل زعماؤهم جنكيـز خـان بهدف التقرب إليه وحثه على حرب الدولة الخوارزمية[٧]، كما اغتالت نائب الخوارزميين فـي العراق العجمي[٨]، ويبدو أن عداء هذه الفرقة كان موجهاً نحو المسلمين السنة فقط "فلـم يقاتـل الحشيشية [النزارية] الإثني عشرية أو الشيعة الآخرين"[٩]، فربما هذا ناتج عن التقائهم في أصول الفكر الشيعي.

على أية حال هذه الطائفة امتدت وسيطرت على مناطق مهمة من العالم الإسلامي فـي زمن قوة وجبروت الدولة السلجوقية التي عرف عنها القوة والدقة والتعصب للمذهب السني[١٠]، ويبدو أن هذه الطائفة كانت تستغل المتناقضات بين الحكام والسلاطين لتحقيق أهدافها، والتخلص من بعض الحكام وأضعاف الكيانات الإسلامية وإرهاقها واستنزاف قواها وعملت علـى نشـر سياستها بين الناس مستغلةً العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ويرجح الباحـث أنهـا كانت من أقوى أسباب ضعف المجتمع الإسلامي قبيل الغزو المغولي للبلاد بل أضعفت المؤسسة الرسمية للخلافة العباسية بسبب الاغتيالات المتكررة للقادة ومواقف هذه الفرقة وتحالفاتها أثنـاء تعرض بلاد المسلمين لأي خطر خارجي ويبدو أن مفهوم وحدة الأمة غائـب علـى مسـتوى الإدراك السياسي والحركي لهذه الجماعة[١١].

ويرى الباحث أن هذه الفرق الشيعية الباطنية لم تمثل امتناعاً عضوياً وعسـكرياً ضـد الدولة إنما مثلت أيضاً امتناعاً ثقافياً وعقائدياً هدد هوية الدولة وعقيدتها بصفة أساسية فالتشـيع كان مأوى يلجأ إليه كل من أراد هدم الإسلام لحقد أو عداوة ومن أراد أن يُدخِل تعاليم آبائه من

(1) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢، ص٢٠٧؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٤٣٣.
(2) الذهبي: دول الإسلام، ج٢، ص٥٣.
(3) ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٦٥٦، ص٦٥٧؛ أنظر: أبو الفداء: تاريخ أبو الفداء، ج٣، ص٢، ص٣.
(4) شيخ العيد: أثر الحركات الباطنية، ص٢٦٤.
(5) الجويني: تاريخ جهانكشاي، ج٣، ص٢١٠؛ النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص٥٧.
(6) الجويني: تاريخ جهانكشاي، ج٣، ص٢٢٥؛ ابن الأثير: الكامل، ج١١، ص٤١٩؛ أبو الفداء: تاريخ أبو الفداء، ج٣، ص٥٧؛ الذهبي: دول الإسلام، ج٢، ص٨٥؛ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص٣٠٠.
(7) الجويني: تاريخ جهانكشاي، ج٣، ص٢١٣-٢١٤؛ النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص٥٥.
(8) النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص٥٥.
(9) لويس: الحشيشية، ص١٥٣.
(10) نظام الملك: سياسة نامة، ص٦٢-٦٣.
(11) حبيب: الأقليات السياسية، ص١٧٥-١٧٦.

يهودية ونصرانية وهندية، أو أراد استقلال بلاده والخروج على الدولة والخلافة فقد كان يتخـذ حب آل البيت ستاراً يخفي وراءه أغراضه، ومن المثير للالتفات أن الدعاة إلى المذاهب الباطنية معظمهم من الفرس مما يدلل إلى أن هذه الحركات كانت تهدف إلى هدم الإسلام مـن الـداخل وإعادة الدولة إلى الفرس ويشير البغدادي إلى ذلك فيقول: "إن الذين وضعوا أساس دين الباطنية كانوا من أولاد المجوس وكانوا موالين إلى دين أسلافهم"[1]، وربما ما سبق يكـون رداً مناسـباً على المؤرخ الشيعي الذي يدعي أن الإسماعيلية كانت من أسباب النهضة الفكرية فـي الدولـة العباسية[2].

القضاء على الإسماعيلية:

في عام (٦٥١هـ=١٢٥٣م) انطلق جيش ضخم من عاصمة المغول قراقورم[*] للقضاء على الخلافة العباسية في العراق حيث كان المغول قد فرغوا من تنظيم أمورهم الداخليـة وتـم تنصيب خان جديد لقيادة دولة المغول[3]، وفي عام (٦٥٣هـ=١٢٥٦م) عبر هولاكو بجيشه نهر جيحون وتقدم نحو قلاع الإسماعيلية المنيعة [4]، وبدأ المغول يحاصرون تلك القلاع، حيث سارع أمراء المناطق إلى تسهيل الطرق وتنظيمها أمام هذا الجيش وقدموا له المساعدة، وكان موضـع تكريم جميع الوجوه والأعيان في خراسان، ولقد سارع هولاكو بتوجيه رسائله[**] إلى الملـوك والسلاطين في إيران بتقديم المساعدة لحملته ضد الإسماعيلية ومن سيتخلف سيحل به ما سيحل بالملاحدة[5]. ولقد صحب هولاكو معه في حملته فريقاً يضم ألفاً من المهندسين لآلات الحصـار والحرب للإشراف على إدارة تلك الآلات[6]، وكان قائد الإسماعيلية في ذلك الوقت ركن الـدين شاه حيث استخدم هولاكو معه أسلوب الترهيب والترغيب، حتى استطاع إقناعه بالنزول وتسليم نفسه بعد سلسلة طويلة من المراوغة والحيل استخدمها ركن الدين خور شاه، ولكنه سلم نفسـه بعد أن أطمأن على حياته بوعد قطعه هولاكو له[7]، وبمساعدة ركن الدين خور شاه بدأت تسقط قلاع الإسماعيلية الواحدة تلو الأخرى[8]، وبذلك تم التخلص من قلاع الإسماعيلية.

---

(1) البغدادي: الفرق بين الفرق، ص٢٦٩-٢٧١.
(2) الأمين: دائرة المعارف الشيعية، ج٤، ص٨٠.
(*) لم يجد الباحث لها تعريف في كتب المعاجم الجغرافية.
(3) الهمذاني: جامع التواريخ، ج١، مج٢ ص٢٤٠.
(4) المصدر نفسه، ج١، مج٢ ص٢٨٥.
(**) للاطلاع على الرسالة كاملة أنظر: ملحق رقم (١٤).
(5) الهمذاني: جامع التواريخ، ج١، مج٢ ص٢٤٠.
(6) ابن العبري: تاريخ الزمان، ص٢٩٨.
(7) المصدر نفسه، ص٢٩٩-٣٠١؛ الهمذاني: جامع التواريخ، ج١، مج٢ ص٢٥٨.
(8) الهمذاني: جامع التواريخ، ج١، مج٢ ص٢٥٨؛ الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٢٢٥.

ويورد أحد المؤرخين أن هولاكو أكرم ركن الدين خور شاه كبير الإسماعيلية و أرسله إلى قزوين حيث الخان الأكبر(1)، لكن الخان رفض مقابلته، وأوعز إلى قواته القضاء عليه وعلى أسرته في طريق عودته، كما صدرت الأوامر لهولاكو باستئصال شأفة الإسماعيلية وتم ذلك بالفعل بعد حكم دام ما يقارب مائتي عام (2) ويرى الباحث أن موقف هولاكو والخان الأعظم يبدو متناقضاً من ركن الدين خور شاه ولكن من المرجح أن هولاكو أكرم ركن الدين وأحسن له كي يشاع أنه أمنه وأكرمه وذلك ليكسب مساعدته ونفوذه في فتح باقي القلاع فهي تقارب خمسين قلعة(3)، وكذلك ليشجع أمراء باقي القلاع على الاستسلام، ولا يستبعد أن يكون هولاكو هو الذي اتصل بالخان ونسق معه طريقة التخلص من كبير الإسماعيلية بعيداً عن مواقعهم، ويتهم بعض مؤرخي الشيعة المسلمين السنة أنهم الذين استنجدوا بالمغول لهدم قلاع الإسماعيلية والقضاء عليها(4)، ويستندون إلى رواية تبين أن القاضي شمس الدين أحمد الكافي القزويني، قد طلب من الخان الأعظم للمغول أن يضع حداً لهذه الطائفة المتحصنة في الجبال وتوقع الأذى والقتل والإرهاب في المسلمين(5)، ولقد أورد أحد المؤرخين أن الإسماعيلية كان لهم اتصالات مع المغول ودعوهم أكثر من مرة لمهاجمة السلطان جلال الدين منكبرتي والقضاء نهائياً على الدولة الخوارزمية(6)، وربما هذا يفسر مهاجمة السلطان جلال الدين منكبرتي لقلاع الإسماعيلية ونهبها(7).

ولكن السؤال هو ما الدافع للقضاء على الإسماعيلية رغم الاتصالات بين الطرفين؟ ومن المرجح أن الذي دفع المغول للقضاء على الإسماعيلية بالرغم من الاتصالات بينهم هو أن الإسماعيلية عندما رأت أطماع المغول لا تقف عند حد وأن فتوحاتهم مستمرة في الصين وأوروبا وخراسان والعراق العجمي وآسيا الصغرى، خافوا خطرهم وبدأوا يعملون على عقد تحالفات مع انجلترا وفرنسا سنة (٦٣٧هـ = ١٢٣٩م) طالبين المعونة من الأوربيين الذين سبق معرفتهم لهم في الحروب الصليبية ولكنهم لم يجدوا مجيباً ويؤكد ذلك ما قاله أحد الأساقفة: "دع هؤلاء الكلاب يأكل بعضهم بعضاً حتى يقضى عليهم نهائياً عندئذ سوف تقيم على أنقاضهم الكنيسة الكاثوليكية العالمية فتكون حقاً راعياً واحداً وقطيعاً واحداً"(8)، وربما هذا يفسر المعاملة السيئة التي تلقاها رسل الإسماعيلية في قراقورم، الذين وفدوا إلى هناك للاشتراك في مراسيم

---

(1) ابن العبري: تاريخ الزمان، ص٣٠١.
(2) الهمذاني: جامع التواريخ، ج١، مج٢، ص٢٥٨.
(3) الأمين: دائرة المعارف الشيعية، ج٤، ص٨٠.
(4) الجوزجاني: طبقات ناصري، ص٤١٣-٤١٤؛ ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية، ص٢٥-٢٦.
(5) أنظر: ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص٣٨٣؛ النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص٢٤٦.
(6) النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص٣٨٢-٣٨٣.
(7) أنظر: المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٣٨٣، حاشية٤.
(8) المصدر نفسه، ج١، ق٢، ص٣٨٣.

تتويج الخان الجديد للمغول عام (٦٤٤هـ = ١٢٤٦م)[1]، ويشك الباحث فيما ذهب إليه حسن الأمين أن سبب المعاملة السيئة هو صمود الإسماعيلية في وجه جيوش جنكيز خان عندما اجتاحت البلاد قبل وفاته[2]، ويرجح الباحث أنه وصل المغول أخبار التحالفات التي تعقدها الإسماعيلية ضدهم مع الأوروبيين خاصة أن مستشاري الخان كانوا نصارى، وأن الخان نفسه كان نصرانياً متعصباً[3]، ويبدو أن المغول أدركوا خطورة غزو العراق والإطاحة بالخلافة العباسية مع بقاء قوة الإسماعيلية، لذلك عمدوا إلى استئصال شأفة هذه الفرقة، فعمت الفرحة جميع البلاد الإسلامية، وللجويني المعاصر قولٌ يصلح للرد على ما زعمه حسن الأمين إذ يقول: "حقا؟ ... لقد كان هذا العمل مرهماً لجراح المسلمين، وتداركاً للدين من الخلل. وإن الناس الذين يبقون من هذا العهد، يعرفون إلى أي حد بلغت فتنه هذه الطائفة، وإلى أي مدى بلغ اضطراب الناس وانزعاجهم، وإن الشخص الذي كان على وفاق معهم منذ عهد الملوك السالفين حتى عهد ملوك هذا العصر، إنما كان مدفوعاً بدافع الخوف منهم وأما إذا عاداهم فكان عليه أن يعيش ليله ونهاره سجيناً خوفاً من عدائهم لقد كان كأساً طافحاً ورياحاً عاتية ولكنها أخمدت"[4].

ويرى أحد المؤرخين الغربيين أن المغول قد عطلوا الحياة الفكرية والثقافية نحواً من قرنٍ كامل في المناطق التي اجتاحوها ولكنهم أسدوا إلى العالم الإسلامي خدمة لا تنكر وهي القضاء على الفرقة الإسماعيلية و "قضى على الإرهاب الذي عرفته الديار الإسلامية طوال مائتي سنة"[5]، ولقد فاز هولاكو بنصير الدين الطوسي عندما دخل قلعة ألموت حيث كان الطوسي في خدمة علاء الدين محمد بن الحسن الإسماعيلي حيث حضر بين يدي هولاكو "فحظي عنده وأنعم عليه"[6]، وأصبح الطوسي المستشار الأول لهولاكو[7].

الشام ومصر:

أما الشام ومصر فلقد كانت بيد السلاطين الأيوبيين، خلفاء صلاح الدين الأيوبي، الذين أضحوا منقسمين على أنفسهم، وشغلتهم صراعاتهم الداخلية واستنزف قواهم الاحتلال الصليبي[8]، فلقد ضل هؤلاء درب صلاح الدين، ومشروعه الوحدوي لطرد الصليبيين الأجانب من أرض المسلمين، هذا المشروع الذي رسمه عماد الدين زنكي، ووضع خطوطه العريضة

(1) ابن العبري: تاريخ الزمان، ص٢٩١.
(2) دائرة المعارف الشيعية، ج٤، ص٨٠.
(3) ابن العبري: تاريخ الزمان، ص٢٩١.
(4) تاريخ جهانكشاي، ج٣، ص٢٧٨.
(5) روم لاند: الإسلام والغرب، ص١١٤.
(6) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٢٢٥.
(7) المصدر نفسه، ص٢٢٥.
(8) اليافعي: مرآة الجنان، ج٤، ص٤٣.

نور الدين محمود فتم تخليص مصر في عهده من الفاطميين وإعادتها إلى حظيرة الخلافة العباسية في بغداد[1]، وجاء صلاح الدين الذي آمن بأهمية الوحدة وما زالت رسالته للخلافة العباسية خالدة "ولو أن أمور الحرب تصلحها الشركة لما عز علينا أن يكون هناك كثير من المشاركين، ولا أساءنا أن تكون الدنيا كثيرة المالكين، وإنما أمور الحرب لا تحتمل في التدبير إلا الوحدة فإذا صح التدبير لم يحتمل اللقاء إلا العدة" [2]، لذلك مكث صلاح الدين الأيوبي خمسة عشر عاماً يعمل على جمع الشمل والتوحيد حتى استطاع تكوين جبهة إسلامية قوية متماسكة من برقة غرباً إلى الفرات شرقاً ومن الموصل وحلب شمالاً إلى النوبة واليمن جنوباً[3]، بهذه الوحدة استطاع صلاح الدين تحطيم أسطورة الصليب، وداست حوافر خيل المسلمين في حطين أحلام الصليبيين بتحطيم أكبر قوة صليبية حيث تجمعت عليه جُل جيوش أوروبا وملوكها وأمرائها وحقق نصراً مؤزراً في حطين على تراب فلسطين سنة (٥٨٣هـ = ١١٨٧م) وكان من يرى القتلى يحسب أن ليس هناك أسرى ومن يرى الأسرى يحسب أن ليس هناك قتلى[4]، واستطاع صلاح الدين أن يبني دولة أيوبية قوية، ويمهد لزوال الصليبيين نهائياً من المنطقة.

ولكن للأسف بعد وفاة صلاح الدين قسمت دولته إلى خمسة عشر قسماً بين أبناء البيت الأيوبي، وعمل الملك العادل على أن يعيد تجميع الدولة الأيوبية[5]، ولكنة لم يستطع ذلك حيث أصبحت في عهده موزعة إلى سبعة أقسام[6]، حيث كانت هناك أقاليم خاضعة للسلطة الأيوبية اسمياً، ومنها ما هو مستقل تماماً، بل كانت متنازعة فيما بينها حيث يحتدم النزاع فيستعين بعضهم بالصليبيين على إخوانهم المسلمين[7]، ويبدو أن الصليبيين كانوا حريصين على استغلال هذه الحالة من التفكك والانحسار للمسلمين ففي الوقت نفسه الذي كانت تعبر فيه جيوش المغول نهر جيحون وتدمر مراكز الحضارة الإسلامية في الشرق مثل بخارى و سمرقند كانت قوات الفرنج تهاجم دمياط بالديار المصرية، ويصف أبو الفداء هذه الحالة قائلاً: "لم ينكب المسلمون بأعظم مما نكبوا في هذه السنة"[8]، و يبدو أن الصليبيين عدو ذلك فرصة لا تضيع للسيطرة على مصر، قلب الدولة الإسلامية، حيث كانت الفكرة السائدة في أوروبا في ذلك الوقت أنه ما دامت مصر باقية على ما هي عليه من القوة والبأس، فإن مشاريع الصليبيين في الشام ستكون

---

(1) ابن الأثير: الكامل، ج١١، ص٢٢٤.
(2) أبو شامة: الروضتين، ج٢، ص٤٨.
(3) العبادي: قيام دولة المماليك الأولى في مصر، ص٨٥.
(4) ابن الأثير: الكامل، ج١١، ص٢٢٤.
(5) المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص١٥٥.
(6) أبو الفداء: تاريخ أبو الفداء، ج٢، ص٢١٦.
(7) ابن العبري: تاريخ الزمان، ص٢٨٩؛ حمدي: الشرق الإسلامي قبل الغزو المغولي، ص١٣٠.
(8) تاريخ أبو الفداء، ج٢، ص٢١٦-٢١٧.

فاشلة، لذلك لا بد من حرمان الأمة الإسلامية من تلك القاعدة المهمة المغذية لصمود المسـلمين بمواردها البشرية والمادية والمعنوية[1].

ولقد استطاع الصليبيون أن يقتطعوا أجزاء من الشام، وينتزعوا بيـت المقـدس مـن المسلمين نتيجة التنافس والانقسام والنزاع الذي كان يسود أفراد الأسرة الأيوبيـة[٢]، ويبـدو أن انقسام المسلمين مهد الطريق للمغول كذلك بالاستفراد بالسلطان جلال الدين منكبرتي الذي سـار خطوات ناجحة في مشروع الاسترداد للإمبراطورية الخوارزمية[٣]، والغريب أن سلاطين بـلاد الشام كانوا يدركون أهمية الوحدة وخطر المغول عليهم[٤].

ويبدو أن المسلمين في الشام ومصر وصلوا إلى حد كبير من التمزق الداخلي، والتهديد الخارجي، وفقدان الأمن في البلاد وقد أثر سلباً على الحياة الاقتصادية مـن زراعـة وتجـارة وصناعة، كما أن حال التشويش الفكري التي غذتها الفرق الشيعية في البلاد، بالإضافة إلى فقدان عنصر القيادة في ذلك الوقت، كل ذلك جعل المسلمين في مصر والشام ينظـرون إلـى الدولـة الإسلامية وهي تطعن في خاصرتها الشرقية (الدولة الخوارزمية) وتلتهمها جيوش المغـول دون أن يحركوا ساكناً أو يكونوا حلفاً إسلامياً لمواجهة التحديات.

ويورد الفوطي أن رحلات الحج تعطلت لعدة سنوات[5]، حيث كانت تتعـرض معظـم أجزاء الخلافة الإسلامية للغزو الخارجي، فالشام تتعرض للصليبيين ومصـر تتعـرض عـام (٦٤٧هـ =١٢٤٩م) إلى حملة فرنجية قصدت دمياط تحاصرها وتستولي عليها، وفـي الوقـت نفسه تتعرض أجزاء العراق لغارات متكررة من قبل المغول تؤدي إلى قتل ونهب وسلب وحرق للحقول والمزارع[٦]، وبعد أن تمكنت مصر من دحر الفرنجة عن دمياط، دار صراع بين أفراد أقطاب القيادة في مصر على السلطة راح ضحيته عددٌ من السلاطين هناك[٧]، في الوقت نفسـه يستغل الأمراء الأيوبيون في الشام هذا الصراع في مصر فيعمل البعض على الاسـتيلاء علـى مدن ومقاطعات وبلاد أخرى بهدف توسيع رقعة ملكه[٨]، ففي عام (٦٥٥هـ = ١٢٥٧م)، عندما كان المغول على أبواب العراق تعرضت مصر لغزو خارجي مرتين متتاليتين من قبل سلاطين الأيوبيين في الشام حيث قام السلطان المغيث عمر الأيوبي صاحب الكرك بغزو مصر مـرتين وذلك بتحريض من المماليك البحرية الفارين إلى بلاد الشام بعد موجة الصـراع علـى عـرش

---

(1) حمدي: الشرق الإسلامي قبل الغزو المغولي، ص١٣٠.
(2) المقريزي: السلوك ج١، ق١، ص٢٢١-٢٢٣.
(3) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص٣٣٠.
(4) أنظر: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦، ص٢٧٧.
(5) الحوادث الجامعة، ص١٩٧.
(6) المصدر نفسه، ص١٨٨؛ أبو الفداء: تاريخ أبو الفداء، ج٢، ص٢٨٠-٣٠١.
(7) ابن العبري: تاريخ الزمان، ص٢٩٥؛ الفوطي: الحوادث الجامعة، ص١٩٤.
(8) ابن العبري: تاريخ الزمان، ص٢٩٥.

مصر ومقتل قائدهم أقطاي، فقد غزا مصر المرة الأولى عام (٦٥٥هـ = ١٢٥٧م) والثانية (٦٥٦هـ = ١٢٥٨م) وفشلت المحاولتين[1].

ويبدو أن الحالة السياسية التي كانت عليها الخلافة الإسلامية في العراق والشام ومصر قد أثرت سلباً على الحياة الاجتماعية والاقتصادية ولكن هل كان للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية تأثير على الحياة السياسية للخلافة، هذا ما سيظهر من خلال عرض الباحث للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للخلافة الإسلامية قبيل غزو المغول للعراق.

---

(1) أبو الفداء: تاريخ أبو الفداء، ج٢، ص٢٨٠-٣٠١؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٥١هـ - ٦٦٠هـ)، ص١٠، ص٣٠.

المبحث الثاني

الأوضاع الاجتماعية

لاشك أن هناك علاقة وثيقة بين الأحوال الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأحداث التاريخية حيث يعرف ابن خلدون جوهر التاريخ بأنه "خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من خلال الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال"(١)، لذلك يتجه الباحثون اليوم إلى الاهتمام بدراسة الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع العربي الإسلامي حيث يركزون على الوقائع الاقتصادية والاجتماعية في الديناميكية التاريخية(٢)، فمن المرجح أن تسليط الضوء على الأوضاع الاجتماعية في دولة الخلافة الإسلامية سيعطي صورة أوضح وقدرة أدق لقراءة وتفسير وتحليل الأحداث في تلك الحقبة التي تسبق الاجتياح المغولي.

كان الخليفةُ العباسي هو رأس هرم المجتمع العباسي ويقيم في بغداد عاصمة الدولة العباسية، وكانت مصر والشام وبلاد الجزيرة العربية تتبع اسمياً لهذا الخليفة بل إن هناك كيانات في الشرق الإسلامي بدأت تطمع في السيطرة على الخلافة الإسلامية، وأن يذكر هؤلاء السلاطين في الخطبة وتنقش أسماؤهم على السكة، وزحفت جيوش الدولة الخوارزمية من أجل تحقيق هذا الهدف، ولكنها في النهاية فشلت في ذلك(٣)، و في الوقت نفسه كانت الخلافة الإسلامية تتمتع بقوة روحية ودينية مما جعل الدويلات الصغيرة تحرص على إرضاء الخليفة لنيل الشرعية وكسب الجماهير الخاضعة لها(٤).

ويبدو أن سلطات الخليفة الفعلية كانت في ذلك الوقت هي العراق فقط، وهذا ما صرح به المستعصم بأن العراق تكفيه ولا يريد غيرها(٥)، كذلك يذكر اليافعي أن الخليفة الناصر لدين ا أبو العباس الذي توفي سنة (٦٢٢هـ = ١٢٢٥م) كانت سلطاته الفعلية في العراق، والعراق هي التي كانت تحظى بخدمات الخلافة من شق طرق وأسواق(٦)، ويصف بعض المؤرخين المعاصرين طريقة الدولة العباسية في الحكم أنها كانت تعتمد نظام الإدارة الذاتية للمناطق في العراق ولم تكن الحكومة العباسية تتدخل في شؤون الجماعات إلا بقدرٍ محدود، بل كانت كل

---

(1) المقدمة، ص٣٥.
(2) أبو طالب: الصراع الاجتماعي في الدولة العباسية، ص١٧.
(3) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص١٧.
(4) نظام الملك: سياسة نامة، ص٦٢-٦٣؛ حسنين، ايران والعراق، ص١٠.
(5) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٢٥٤.
(6) مرآة الجنان، ج٤، ص٤١.

بلدة أو قرية تدير شؤونها الخاصة بنفسها ولا تتدخل الحكومة إلا في حالـة نشـوب الفـتن أو الامتناع عن دفع الضرائب، غير أنها كانت تقوم بالرقابة الفعالة على جميع الشئون[1]، ولا بد أن ضعف الخليفة سيكون له آثاراً سلبية على المجتمع العباسي، فقد كانت الدولة العباسية تعتمد في ذلك الوقت على نظام وزارة التفويض في إدارة الدولة، وفي هذا النظام تكون جميع مقاليد الدولة بيد الوزير ولا يكون دور الخليفة إلا شكلياً[٢].

ويرى أحد الباحثين أن هذا النظام له آثار سيئة على المجتمع خاصة في حالـة ضـعف الخلفاء، وذلك عندما يحدث تنافس بين كبار رجال الدولة يؤدي إلى سوء حال الطبقات الفقيـرة وينعكس ذلك على حالتها المعاشية، فتبطل شؤون الدولة وتحتكر الأموال وتقطع الرواتب فتعلـو الأسعار وهذا ما حدث بالفعل في حالات ضعف الخلفاء[٣]، حيث استفرد الوزير بالإدارة وبقـي الخليفة معزولاً عن الأحداث ويلهو في أدق وأحدق المواقـف[٤]، فهـو معـزولاً عـن الإدارة والأحداث، وكان أيضا هنا منصب أستاذ الدار[٥]، فهو منصب يشبه منصـب رئـيس الـديوان الملكي اليوم أو القصر الجمهوري حيث صلاحياته تشمل غلمان الخليفة وداره[٦]، كمـا عـرف منصب الشحنكيه وهو مسئول عن فرض الأمن ومطاردة اللصوص ومعاقبة المسيئين[٧]، وعرف منصب الحاجب حيث أنه كان مسئولاً عن مجموعة من الحجاب الذين هم أقل منـه [٨]، كمـا عرف منصب نقيب النقباء، ويبدوا أن هدا المنصب رفيع المستوى من الناحية الروحية والدينيـة حيث كان هو الذي يقوم بتغسيل الخلفاء بعد موتهم، كذلك هو مسئول عن عدد من النقباء مثـل نقيب العباسيين ونقيب الطالبيين[*]، وغيرهم[٩].

---

(1) حسن: تاريخ الإسلام، ج٢، ص٢٦٩.
(2) ابن خلدون: المقدمة، ص٢٣٨.
(3) العش: تاريخ عصر الخلافة العباسية، ص١٧١.
(4) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٨٩.
(5) المصدر نفسه، ص٢٦.
(6) المصدر نفسه، ص٢٦.
(7) المصدر نفسه، ص٣١.
(8) المصدر نفسه، ص٤٧.
(*) نقيب الطالبيين: منصب استحدثه العباسيين فيكون صاحبه مسئولاً عن العلويين أمام الخلفاء والملوك ويقوم بتدبير أمورهم وإقامة العدل بينهم ومعاقبة المسيء وله واجبات اجتماعية أخرى؛ أنظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٣٧.
(9) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص١٢٩

عناصر السكان

لقد تكون النسيج السكاني في دولة الخلافة الإسلامية من عناصر عدة حيث كان هناك المسلمون الذين ينقسمون إلى سنة وشيعة[1]، كما أن المجتمع ضم الموالي وهم مسلمون من أصل غير عربي مثل الفرس، والترك حيث كان للموالي أهمية كبيرة فقد اعتمدت عليهم الدولة العباسية في الإدارة [2]، كما أن المجتمع العباسي شمل الرقيق من الترك والأحباش منهم الذكور والإناث[3]، كذلك كان المجتمع العباسي يضم عنصر المماليك الذين كان الخلفاء يشترونهم ويجلبونهم لخدمتهم فيعتلون المناصب في الحكم والإدارة [4]، كما ضم النسيج الاجتماعي العباسي أهل الذمة وهم اليهود والنصارى[5].

ويورد المقدسي أن الخلافة الإسلامية قد اعترفت بالمجوس أهل ذمة إلى جانب النصارى واليهود وتلقوا المعاملة نفسها ودفعوا الجزية[6]، ولقد ضم المجتمع العباسي في العراق جميع المذاهب لأهل السنة، فقد كانت الدولة تقيم المدارس مثل المدرسة المستنصرية التي تم إنشاؤها في عهد الخليفة المستنصر، حيث كانت هذه المدرسة مقسمة إلى أربعة أقسام تدرس المذاهب الأربعة[7]، كذلك كانت هناك مدارس تدرس مذهب واحد مثل المدرسة الشرقية شرق واسط على نهر دجلة حيث كانت تدرس المذهب الشافعي[8]، كما انتشرت الصوفية في المجتمع العباسي وأصبح للصوفية أربطة خاصة بهم يتعلمون بها، وكان لهم شيخاً خاصاً بهم يقوم بمسئولية الرباط ويعلمهم[9]، ويبدو أن الصوفية كان لها شأن في المجتمع العباسي حتى عند الخلافة فقد كان كبار الصوفية يدعون في أعظم المناسبات مع الولاة والعلماء والوزراء [10].

أما الشيعة

حيث كان الشيعة عنصراً مهماً في النسيج الاجتماعي في الخلافة وكانوا يتركزون في جنوب العراق[11]، وأحياناً في مناطق خاصة بهم مثل الحلة والكرخ وهي أحياء في مدينة بغداد[12]، ولقد كانت الخلافة تعطي اهتماماً كبيراً للشيعة وتقربهم وتجلهم بل كانوا يتمتعون بشبه حكم ذاتي حيث كان لهم نقيباً مسئولاً عنهم وهو أحد كبارهم يقوموا هم باختياره وبإرادة حرة ثم

---

(1) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٥١هـ - ٦٦٠هـ)، ص٢٩.
(2) ابن خلدون: المقدمة، ص١٣٦.
(3) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص١٣٦.
(4) المصدر نفسه، ص١٤٢.
(5) ابن الأثير: الكامل، ج٨، ص٢٢٢؛ الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٦٨-٦٩.
(6) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص١٢٦.
(7) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٥٨-٥٩.
(8) المصدر نفسه، ص٧٤.
(9) المصدر نفسه، ص٨١؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٥١هـ - ٦٦٠هـ)، ص٣١.
(10) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٥٨-٥٩.
(11) المصدر نفسه، ص٢٨.
(12) المصدر نفسه، ص٢١٧.

يقوم الخليفة بتسليمه كتاب التكليف بشكل رسمي وسط مهرجان عظيم من التكريم والحفاوة ولقد كانت صلاحيات نقيب الطالبيين تتمثل بأنه المتحدث باسم الشيعة على مساحة الخلافة الإسلامية(١)، وكان موكل في جميع أمور الشيعة مثل أقامة العدل فيهم ومعاقبة المسيء ومعاقبة مدعي النسب، كذلك كان النقيب يتلقى مبالغ من الدولة يقوم بتوزيعها على فقراء الشيعة (٢)، ولقد كانت الخلافة الإسلامية تولي الشيعة اهتماماً ملحوظاً وتقربهم حيث كانوا يتقلدون أعلى المناصب في الدولة مثل الوزارات ونقابة الأشراف ومسئولية الحج وولاية المظالم(٣).

وكانت الخلافة تحرص على بناء جسور الثقة مع الشيعة حيث يقوم الخليفة بزيارة بعض مقدسات وأضرحة الشيعة مثل مشهد موسى بن جعفر، ويقدم مبالغ كبيرة ليقوم بتوزيعها على العلويين المقيمين في مشهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في الكوفة والحسين وموسى بن جعفر(٤) كما أن الدولة العباسية كانت تخصص ميزانيات خاصة لتعمير مساجد الشيعة في الكرخ والحلة وغيرها من المناطق وتقوم بتوكيل أمور الأئمة والمؤذنين إلى مسئولي الشيعة(٥)، وعندما تصاب مشاهد وأضرحة ومزارات الشيعة بأذى كأن يشب حريق فيها يقوم الخليفة بعمارة هذه المشاهد والأضرحة وإعادتها إلى أجمل ما كانت عليه(٦) ويبدو أن الخلافة العباسية كانت تحرص على المحافظة على المجتمع من التمزق والتفكك لذلك كانت تحرص على التواصل مع الشيعة فهم يشكلون نسبة لا يستهان بها في المجتمع العباسي خاصة في مقر الخلافة في العراق.

ورغم ذلك كان شيعة العراق خاصة يتطلعون دائماً إلى الخارج، فعندما كانت الدولة الفاطمية في مصر قام أحد أعيان الشيعة في الدولة العباسية في العراق بنظم أبيات شعر يذكر فيها إقامته على الذل في العراق وهناك في مصر الخليفة العلوي فوصلت هذه الأبيات إلى الخليفة فقام بمعاتبة والده حيث كان صاحب الأبيات ناظراً في النقابة والحج "فيما هو أجل الأعمال وأقصاها علواً في المنزلة، وعساه لو كان بمصر لما يخرج من جملة الرعية"(٧)، ويبدو أن الشيعة كانوا يعيشون في العراق تحت ظلال الخلافة وهم يشعرون بأنهم مسلوبو الحق، فمن المرجح أنهم يتعاملون مع العباسيين أنهم مغتصبون للخلافة بل ينظرون لأهل السنة أنهم اغتصبوا الخلافة من أمير المؤمنين علي بعد وفاة الرسول مباشرة فهم يعيشون بهذه العقدة وتصرفاتهم تعكسها أفكارهم.

---

(1) ابن الجوزي: المنتظم، ج٨، ص٣٨-٤٠.
(2) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٣٧
(3) ابن الجوزي: المنتظم، ج٧، ص٢٧٦.
(4) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٨٦.
(5) المصدر نفسه، ص٢٨.
(6) المصدر نفسه، ص١٢٥.
(7) ابن الجوزي: المنتظم، ج٧، ص٢٨٢.

لذلك فهم يثيرون الشغب في البلاد ويجاهرون بمذهبهم، فقد وصل بهم الأمر إلى الاعتداء على خطيب الجمعة في بغداد لأنه لم يوافق أهواءهم ومذهبهم فلم يتمكن من إكمال الخطبة[١]، بل إن الشيعة أخذوا يطبقون طقوس عاشوراء و يقرأون المقتل في شوارع العراق، مما دفع الخليفة أن يصدر أمراً للمحتسب بتحديد مكان لهم ليقيموا طقوسهم وهو مشهد موسى بن جعفر[٢]، فمن المرجح أن الخلافة كانت تعمل على الحد من هذه الطقوس التي تلهب نار العداوة بين فئات المجتمع وتؤدي إلى التجاوزات، ثم إلى فتنة بين المذاهب.

ويروي ابن الفوطي أن أمير مكة في عام (٦٤٨هـ = ١٢٥٠م) وضع إماماً شيعياً في الحرم الشريف يقول: "حي على خير العمل"[٣] تقرباً إلى صاحب اليمن[٤]، فهم كلما سنحت لهم الفرصة كانوا يغيرون الأذان ويعلنون شعائرهم[٥]، ورغم كل ما تبذله الحكومة إلا أن أفكار الشيعة كانت سبباً في نشوب معارك طاحنة في المجتمع، حيث أن ابن الجوزي يعد يوم اصطلاح أهل الكرخ مع باقي جيرانهم من العجائب، بسبب فظاعة الأحداث التي مر بها المجتمع[٦]، فالشيعة في المجتمع العباسي كانوا عاملاً مهدماً، وبناء على فكرهم كان موقفهم سلبياً من عملية الإصلاح الاجتماعي[٧] فهم يشعرون بعدم الانتماء للمجتمع وليس لديهم الاستعداد للتضحية في سبيله أو الدفاع عنه حيث يقول الطوسي في الجهاد: "إن الجهاد مع أئمة الجور أو من غير إمام خطأ يستحق فاعله به الإثم، وإن أصاب لم يؤجر وإن أصيب كان مأثوماً"[٨].

بهذه الأفكار انطلق الشيعة في العراق، فكانت الصراعات بين السنة والشيعة لا تهدأ[٩] إلا في أوقات قليلة من عمر الدولة العباسية خاصة العصور المتأخرة[١٠]. ولقد اشتد الصراع بين السنة والشيعة في أواخر عهد الدولة العباسية، حيث وقعت مصادمات عام (٦٥٣هـ =١٢٥٥م) بين أهل الرصافة وبين أهل محلة أبي حنيفة والخضيريين حيث استظهر أهل محلة أبي حنيفة والخضيريين على الرصافة وأوقف شحنة بغداد القتال، ولكن بعد أيام قام أهل الكرخ بنصرة الخضيريين ضد أهل الرصافة، وتدخل أهل البصرة، لنصرة أهل الرصافة، واستمر القتال أياماً حتى استطاعت الدولة أن تحتوي الفتنة وتصلح بين الفريقين بواسطة العقلاء منهم[١١]، وفي العام

---

(1) ابن الجوزي: المنتظم، ج٨، ص٤٢-٤٣.
(2) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص١٩٤.
(3) المصدر نفسه ص١٩٧.
(4) المصدر نفسه ص١٩٧.
(5) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٤٧٦.
(6) ابن الجوزي: المنتظم، ج٩، ص١٣١.
(7) الكاتب: تطور الفكر السياسي الشيعي، ص٢٧١-٢٩٠.
(8) المبسوط، ص٢٨١، عن الكاتب: تطور الفكر السياسي الشيعي، ص٢٧١-٢٩٠.
(9) أنظر: ابن الجوزي: المنتظم، ج٩، ص٥٨، ص١٥-١٦؛ ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص١٤٥، ص١٥٧.
(10) ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٤٦٩-٤٧٠.
(11) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٢١٧.

نفسه حدثت فتنة بين أهل الكرخ وباب البصرة وقتل عدد كبير من الفريقين واستطاع الجيش أن يوقف القتال ولكن تجددت الاشتباكات مرة أخرى واضطر الجيش أن ينصب الأخشاب على مداخل البلادات لمعاقبة المشاغبين وجلادهم حيث أوقف القتال. ويذكر الفوطي المعاصر للأحداث أنهم "اصطلحوا ظاهراً"[1]، حيث تجدد القتال بين الشيعة والسنة في مدينة بغداد في السنة نفسها مرة ثالثة[2]، وأدت العداوة المحتدمة في المجتمع بين الفريقين عام (٦٥٤هـ = ١٢٥٦م) إلى إحراق الشيعة مسجد الرسول صلى ا عليه وسلم حيث احترق سقف الحجرة النبوية، وكتب الشعراء شعرهم في ذاك

"لم يحترق حرم الرسول لحادث يخشى عليه ولا دهاه العار

لكنها أيدي الروافض لامست ذاك الجدار فطهرته النار" [3]

ويبدو واضحاً كم هو خطر الصراع المحتدم في المجتمع، فهم يتهمون الشيعة بالنجاسة، ويبدو أن الناس كانوا لا يشعرون بانتماء شريحة الشيعة لمجتمعهم فهم يعتدون على مقدساته وتراثه وحضارته، وفي المقابل يبدو أن الشيعة كانوا يتصرفون بفكر الانتقام كأصحاب حق مسلوب، لذاك فالمجتمع العباسي كان يعاني من عدم استقرار، فهذه الصراعات تفسد حالة الهدوء والدعة في المجتمع وتستنزف مقومات وموارد المجتمع وتصرف اهتمامات المجتمع عن الإبداع إلى الصراعات الداخلية، ويبدو أن المذهب الشيعي كان يدخله عناصر كثيرة بهدف الكيد للإسلام "فالضلال لم يتفشى في العالم الإسلامي بقدر ومثل ما تفشى بسبب الفرق الشيعية، وما غير السنن إلا المتشيعون الذين دخلوا الإسلام لهدمه وتقويض أركانه"[4]، ولم تقتصر صدامات الشيعة مع أهل السنة بل تعدت إلى أهل الذمة خاصة اليهود[5].

ويرى أحد المؤرخين المعاصرين في دراسته للمجتمع العباسي أن أخطر مشاكل المجتمع العباسي هي الصراعات الاجتماعية التي كان سببها الرئيس هو الصراع الفكري[6]. ويرى الباحث أن شيعة العراق كانوا من أقوى أسباب ضعف المجتمع، مرتكزين على أفكارهم التي تبرر لهم تمزيقهم لمجتمعهم الذي يحتضنهم.

---

(1) الحوادث الجامعة، ص٢١٣.
(2) المصدر نفسه، ص٢١٣.
(3) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٥١هـ - ٦٦٠هـ)، ص٢٤.
(4) المجذوب: الصراع المذهبي، ص١٨٣.
(5) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص١٩٤.
(6) أبو طالب: الصراع الاجتماعي، ص٨٩.

- **المماليك:**

لقد تميز المجتمع العباسي بوجود عنصر المماليك أو الرقيق، حيث كان الخلفاء العباسيون هم الذين يجلبونهم ويشترونهم بكميات ضخمة حيث كان منهم السود ويسمون العبيد ويستخدمونهم في الخدمة ومنهم البيض ويسمونهم المماليك، وكانوا من جنسيات شتى منهم الترك والأحباش[١]، ولقد انتشر اتخاذ الرقيق انتشاراً كبيراً خاصة منذ العصر السلجوقي حيث كانت سمرقند من أكبر أسواق الرقيق، كما كانت بيئة صالحة لتربية الرقيق المجلوبين من بلاد ما وراء النهر، حيث كان أهلها يتخذون ذلك صناعة لهم يعيشون منها[٢]، ولقد كانت هدايا الولاة والوزراء لبعضهم البعض في المناسبات "الرقيق من الترك والخدم والحبوش"[٣]. ولقد اعتمدت الدولة العباسية على المماليك بشكل كبير وأكثرت منهم، وتقلدوا أعلى المناصب في الحكم والسياسة والإدارة[٤]، حيث كان استخدام هذه العناصر غير العربية على حساب العنصر العربي فقد استبعد العرب عن مراتب الجندية في بغداد العباسية، ليقتصر عملهم على الصناعة والتجارة والزراعة[5]، بل إن المماليك أقاموا دولاً دعيت باسمهم وكان لها دور في التاريخ[٦].

ويرى أحد المؤرخين المعاصرين أن من أسباب ضعف الخلافة العباسية اعتمادها على العنصر غير العربي من سلاجقة وأتراك وأكراد وأرمن[٧]، ويرى الباحث أن العنصر غير العربي إذا انتمى للإسلام بصدق سيعطي قوة لهذا الدين ودولته، فالعنصر غير العربي أمثال المماليك هم من أوقف الزحف المغولي، كذلك السلاجقة كانوا من أشد المسلمين تحمساً ودفاعاً عن الإسلام[٨]، ويبدو أن المماليك زاد عددهم في العصور المتأخرة خاصة بعد اجتياح المغول للدولة الخوارزمية واسترقاق عشرات الألوف من أهلها وبيعهم في الأسواق[٩]. ويحدثنا الفوطي أن كثيراً من السرقات والنهب والسطو كان يقوم بها الجواري والمماليك[١٠] ويبدو أن هذه العناصر المجلوبة لم يتمكن الدين في أعماقهم، كذلك من المرجح أنها ما زالت تشعر أنها لا تنتمي للمجتمع الذي تعيش فيه، خاصة الفقراء منهم فهم يرتكبون جرائم السرقة والسطو

(1) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٨٦.
(2) متز: الحضارة الإسلامية، ص٢٦٨.
(3) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص١٣٦.
(4) المصدر نفسه، ص١٣٦.
(5) شبارو: الشرق العربي الإسلامي، ص٤٨-٤٩.
(6) أبو الفداء: تاريخ أبو الفداء، ج٢، ص٣٠١.
(7) الصياد: المغول في التاريخ، ج١، ص٢٤٩.
(8) نظام الملك: سياسة نامة، ص٦٢-٦٣.
(9) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص٣٣٣.
(10) الحوادث الجامعة، ص١٨٤.

ليحصلوا على الثروة بطرق أسرع، وكان بعض المماليك الهنود والأحباش يقومون أحياناً باستئجار أحد البيوت لممارسة الفساد فيه بعيداً عن الأنظار[(١)].

والواضح أن المجتمع العباسي لم ينظر إلى الرقيق نظرة ازدراء، لأن كثيرين منهم كانت أمهاتهم من الرقيق، فالمستعصم أمه أم ولد تدعى هاجر[(٢)]، وهي إحدى الجواري الحبشيات[(٣)]، وقد أولع الخلفاء وكبار رجال الدول باتخاذ الإماء من غير العرب حتى أنهم كانوا يفضلونهن -أحياناً- على العربيات الحرائر[(٤)]، ولقد انتشرت الإماء والجواري في البيوت والقصور أكثر من الرقيق الذكور[(٥)]. كما انتشر في المجتمع العباسي الخصيان الذين كانوا يخصون خارج حدود الدولة العباسية ثم يباعون في أسواق خاصة بهم في بغداد[(٦)]، ويبدو أن موقف الإسلام من الخصي هو الذي دفع تجار الخصيان إلى خصيهم خارج حدود الدولة العباسية، وكذلك عرف في المجتمع العباسي ظاهرة عتق الرقيق فكان من يريد أن يتقرب إلى ا يقوم بإعتاق بعض الرقيق[(٧)].

أهل الذمة

وأهل الذمة هم اليهود والنصارى[(٨)]، ويذكر ابن الفوطي أن أهل الذمة في العراق تمتعوا بقدر كبير من الحرية والتسامح "ليس لهم في بلد من الحرمة والجاه والمكانة ما لهم في مدينة السلام"[(٩)]، ولقد تمتعوا بكثير من ضروب التسامح الديني ويقيمون شعائرهم الدينية في حرية وأمن لما عرف به المسلمون من تسامح مستمد من مبادئ الإسلام القويم، فلم تتدخل الحكومة الإسلامية في وقت من الأوقات في شعائر أهل الذمة[(١٠)].

وتظهر أوضاع أهل الذمة من رسالة ناظر ديوان الجوالي[(*)] الموجهة إلى الخلافة في بغداد يصف أوضاع أهل الذمة إذ جاء فيها "منهم من هو في خدمات الديوان، وله المعيشة السَنِية غير بركة يده الممتدة إلى أموال السلطان والرعية من الرشا والبراطيل، ولعل الواحد

---

(1) الفوطي: الحوادث الجامعة ، ص١٨٤.
(2) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٢٥٤؛ العيني: عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص٢٠٥؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٤٦٤.
(3) ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية، ص٢٤٤؛ رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص٥١٨.
(4) ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية، ص٢٤٤؛ حسن: تاريخ الإسلام، ج٣، ص٤٢٤.
(5) ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية، ص٢٦٠؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٣، ص٢٣٤.
(6) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٦٦.
(7) المصدر نفسه، ص٦٦.
(8) حسن: تاريخ الإسلام، ج٣، ص٤٢٤.
(9) الحوادث الجامعة، ص٦٦.
(10) حسن: تاريخ الإسلام، ج٣، ص٤٢٤.
(*) ديوان الجوالي: هو الديوان المسئول عن جمع ما يؤخذ من أهل الذمة من الجزية المقررة على رقابهم في كل سنة، أنظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٥٣٠.

منهم ينفق في يومه القدر المأخوذ منه في السنة، هذا مع ما لهم من الحرية الزائدة والجاه القاطع والترقي على رقابِ خواص المسلمين"[1]، كما أن أهل الذمة من يهود ونصارى فـي الخلافـة الإسلامية وخاصة العصور المتأخرة منها أصبحوا لا يميزون عن المسلمين بشيء من لباس أو قلادة أو بيوتهم أو نسائهم مثلما كان سابقاً، فلم يعد أهل الذمة يجـزون نواصـيهم أو يختمـوا أعناقهم بخواتم من رصاص أو حديد، أو يشدوا الزنانير على أوساطهم ليتميزوا عن المسـلمين، ولم تعد توضع على بيوتهم صوراً أو قطعاً خشبية ليتميزوا عن المسلمين، كما لم تعد النساء من أهل الذمة يميزن أنفسهن بالخف أو اللباس أو الزنانير، فكل هذه الأمور حُطت عن أهل الذمـة في المجتمع العباسي، واختلطوا في المجتمع بشكل كبير ومارسوا معظم الحـرف[2]. ويبـدو أن أهل الذمة استغلوا هذه الحرية أسوأ استغلال حيث تقلدوا مناصب عالية في الدولة، فعملوا فـي الدواوين، وعملوا في الطب لأنها تدر أرباحاً ومكاسب جزيلة، وعملوا في العطارة والصـرافة واستخدموا كل طرق التلاعب والغش في أعمالهم[3]، ويبدو واضحاً اختيار أهل الذمة لهذه المهن بالذات، فالطب يدر مكاسب كبيرة خاصة أن المسلمين جرت عادتهم على إكـرام الأطبـاء[4]، كذلك تجدهم يختارون مهنة الصرافة وبيع الذهب والحلي والعطارة، فهذه المهن جميعـاً قابلـة للتلاعب بسهولة ويسهل فيها الغش وهذا ما أكده الفوطي فقد كانوا يغشون الـذهب، ويتعـاملون بالربا، ويتدربون في أبدان الناس بالعطارة، والعطار يسمي نفسه طبيباً، ويبدأ في الجلوس علـى ناصية الطريق، وعندما يعرفه الناس يبدأ بدخول بيوتهم ويسلب أموالهم بألاعيبه[5] .

يبدو أن العراق كان بها نسبة من اليهود خاصة مدينة بغداد[6]، ويقدر أحـد المـؤرخين عدد اليهود بنحو أربعين ألف يهودي[7]، حيث كانوا يعيشون في العراق حياة مرفهة، فقد كـان لهم رئيس، يدعى "رأس مشيئة اليهود"[8]، ويسميه المسلمون سيدنا ابن داود[9]، حيـث يسـتمد سلطانه من كتاب رسمي يستلمه من الخليفة العباسي وذلك بعد اختيار اليهود له اختيـاراً حـراً بإرادتهم، وتنتشر كنائس اليهود في أنحاء العراق خاصة في الرصافة والكرخ في بغداد[10]، ولقد تميز اليهود بتمسكهم الشديد بالتقاليد الدينية وتعصبهم لها ولو أدى ذلك إلى هلاكهم، مثل عطلـة

---

(1) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٦٦.
(2) المصدر نفسه، ص٦٧-٦٩.
(3) المصدر نفسه، ص٦٩.
(4) المصدر نفسه، ص٦٧.
(5) المصدر نفسه، ص٦٧.
(6) المصدر نفسه، ص٩١
(7) شندب: الحضارة الإسلامية في بغداد، ص١٦٥.
(8) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٢٦.
(9) شندب: الحضارة الإسلامية في بغداد، ص١٦٦.
(10) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٢٦-٢٧.

يوم السبت[١]، كذلك كان هناك بعض اليهود يدخلون الإسلام ويتزوجون من المسلمات ثم يرتدون إلى اليهودية[٢]، وكان اليهود والنصارى يدفعون الجزية، التي كانت تخفض عنهم، ولكـن فـي الأزمات كانت الدولة تأخذ منهم الجزية كاملة[٣].

ويرى الباحث أن اليهود هم أحد عناصر نسيج المجتمع إلا أنهم كانوا أحد أقوى عوامل تهديم وإضعاف المجتمع، فلقد استغلوا تسامح الدولة معهم ومارسوا الفساد، وعملوا في حرف هم انتقوها لأنفسهم لاستغلالها أبشع استغلال، واستغلوا مناصبهم في الدولة في السـرقة والرشـوة والربا، وجمع الأموال بطرق غير شرعية لا يستطيع المسلم في المجتمع نفسه أن يتبعها لـذلك كانوا يدفعون الجزية بكل استعلاء، فكان لا يأتي الواحد ويدفعها بنفسه بل كـان يرسـلها مـع غيره[٤]، ويبدو أن هذه المعطيات كونت غضباً وحالة من الاحتجاج في صفوف المجتمع ضـد هذه الفئة التي تنخر في بناء المجتمع العباسي لذلك نرى حالات اعتداء على اليهـود مـن قبـل بعض المسلمين، فمن المسلمين من تأخذه الحمية ويضرب الذين يشربون المسكرات، أو إذا رأوا يهودياً راكباً على حصان حيث كان في وقت من الأوقات يمنع أن يركب اليهود والنصارى على الخيل بل يركبون البغال[٥]، كذلك يتعرض أثرياء اليهود للاعتداء والسرقة[٦] فالمسلمون ينظرون لليهود وهم يجمعون أموالهم بطرقهم غير الشرعية والدولة لا تحرك ساكناً بل ربما كانت معيناً لهم من حيث لا تدري، فمن المرجح أن جسد المجتمع العباسي أخذ بالضعف والتمـزق وكـل طرف يتحين الفرصة للانتقام من الطرف الآخر، فسرعان ما كان اليهود يتجمعـون ويحملـوا السلاح "ونادوا يا آل خيبر" [٧]، وكان على السلطة أن تطبق على اليهـود الأحكـام الشـرعية الخاصة بأهل الذمة، فتعطيهم حقوقهم دون مبالغة في التسامح وتلزمهم بواجباتهم دون تفريط.

كما تمتع النصارى بحرية واطمئنان كغيرهم من أهل الذمة، حيث تمتعوا بحرية دينيـة تمثلت باختيارهم لرؤسائهم الروحانيين، ولقد وصلت إلى درجة إزالة الغيار عن أهل الذمة[٨]. ولقد كانت الخلافة الإسلامية تقوم بسد حاجة الذميين الذين ضاقت بهم الحالـة[٩]، ولقـد تقلـد النصارى في المجتمع العباسي أعلى المناصب، وكان لبعضهم مكانة عالية في العلم، فمنهم مـن

(1) ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٤٥٥.
(2) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٢٦.
(3) المصدر نفسه، ص٢١.
(4) المصدر نفسه، ص٦٩.
(5) المصدر نفسه، ص٦٨.
(6) المصدر نفسه، ص١٩٨.
(7) المصدر نفسه، ص٢٨٧.
(8) ابن الجوزي: المنتظم، ج١٠،ص١٤٣.
(9) الغزالي: فضائح الباطنية، ص١٨٩-١٩٠.

كان رئيس الطب في العراق، وكان النصارى يدفعون الجزية كاملة وبأنفسهم[١]، ولكن بعد ذلك أصبحت مخفضة إلا في الأزمات، وكان بعضهم يرسلها مع غيره[٢]، كذلك تنوعت أعمال النصارى، فمنهم من عمل في دواوين الدولة، ووصل إلى مناصب مرموقة، وقد عاشوا في مستوى مرتفع، حيث كان أحدهم ينفق في يوم واحد ما تأخذه الدولة منه في السنة من الجزية، حيث "تمتعوا بالحرية الزائدة والجاه القاطع والترقي على رقاب خواص المسلمين" [٣]. ولقد تمتعوا بحرية وجاه لم يتمتعوا بهما في أي بلد آخر[٤].

ولقد نعم أهل الذمة بقسط وافر من العدالة والمساواة وساهموا في مختلف مجالات الحياة الاقتصادية والعلمية ونبغ منهم في ميدان الأدب والطب أعلام حصلوا على شهرة عالية[5]. كما وانتشرت أديرة النصارى على مساحة الخلافة الإسلامية، وتحديداً العراق، بل كانت هذه الأديرة تحتفل بأعيادها، وكان النصارى يحتفلون بأعيادهم بطريقتهم الخاصة من لهو ومجون وهزل، ويقومون بدعوة شباب المسلمين لهذه الأعياد للمشاركة في الاحتفالات، وكان بعض الشباب يشاركونهم في الشرب واللهو خاصة في عيد الميلاد الذي كانوا يكثرون فيه من إيقاد الشموع والنيران[٦].

ويبدو أن أديرة و حانات أهل الذمة المنتشرة كانت عاملاً من عوامل تخلخل المجتمع الإسلامي في العهد العباسي، حيث كان عمالها من أهل الذمة وكانت تعج بالجواري الفاتنات، ويلقى بها الشعر الهابط والغناء[7]، ويبدو أن النصارى كانوا يعيشون في العصر الأخير من عمر الدولة العباسية بانتعاش، حيث كانت جيوش المغول قد حطمت الدولة الخوارزمية، ووصل إلى سدة الحكم عند المغول خان جديد واتخذ من النصارى مستشاريه فاتخذ منهم "مديراً ومدبراً"[٨]، لأنه كان "مسيحياً قويماً" [٩].

ومن المرجح أنه تبادر إلى أسماع النصارى في الدولة العباسية هذه الأخبار، خاصة وأن دولة المغول تعد القوة الأولى بعد انتصارها الساحق على الدولة الخوارزمية حيث يقول ابن العبري عن هذا الخان: "ارتفع شأن المسيحيين في عهده وحفل معسكره بالأساقفة والكهنة والرهبان"[١٠]، كذلك كانت زوجة هولاكو نصرانية متعصبة تعمل على نصرة النصارى أينما

---

(1) الفوطي: الحوادث، ص٨٦.
(2) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٢١.
(3) المصدر نفسه، ص٦٨-٦٩.
(4) المصدر نفسه، ص٦٨-٦٩
(5) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص٣٤٢.
(6) ابن الأثير: الكامل، ج٨، ص٢٢٢.
(7) ضيف: تاريخ الأدب العربي، ص٩٣-٩٤.
(8) ابن العبري: تاريخ الزمان، ص٢٩١.
(9) المصدر نفسه، ص٢٩١.
(10) المصدر نفسه، ص٢٩١.

كانوا "وارتفع بها شأن المسيحيين في كل الأرض" [1]، ويبدو أن للنصارى الحرية الزائـدة مـن دولة الخلافة، وأخبار انتصارات المغول في الشرق، وكذلك الضغط الصليبي في بلاد الشام قـد ولدت عند النصارى نظرة استعلاء على المجتمع المسلم، وقد أغضب ذلـك بعـض المسـلمين فاعتدوا على النصارى في بعض الأحيان[2]، ولا بد أن ذلك ساهم في إضعاف بنيـة المجتمـع وقلل الثقة بين عناصره

أما بالنسبة لعادات المجتمع العباسي وتقاليده فلقد كانت بغداد عاصمة الخلافة الإسـلامية قبل احتلال المغول "أنس المدن كلّها"[3]، وأرقى المدن الإسلامية بل العالمية، حضارة وعمـارة وعلماً وأدباً[4]، ولقد كانت مدن العراق تنظم بطريقة دقيقة حيث كانت بيوت المواطنين بجانـب السوق، ويوجد بالقرب من الأسواق الحمامات العامة حيث كانت تنتشر بكثرة[5]، وكانت منـازل المواطنين تطين بالطين بعد عجنه بالماء حيث كان هناك متخصصون في ذلك، فتبـدو أسـطح المنازل ناعمة وجميلة المنظر[6]، وكانت تبني جدران المنازل من الحجارة، وبعض الناس كانوا يطلبون من الصناع بعمل جدران سميكة للمنزل خوفاً من العيارين[*] الذين كانوا ينقبون جدران المنازل لسرقتها[7]، كما كانت منازل الميسورين من السكان مميزة حيث يتكون البيت من غرف عدة وكل غرفة بها خادم وجارية، وكان من عادة الناس الميسورين وضع مخاد تصنع من جلود الحيوانات في حمامات المنزل تستخدم لتدليك الجسم[8].

وكانت المدن مثل بغداد تحتوي على أزقة[9]، ومن المؤكد أنها كانـت تعـج بالسـكان والبنايات، كما انتشرت المستشفيات في المجتمع العباسي ومنها مستشفيات للمرضـى النفسـيين تقدم لهم الرعاية خشية أن يوقعوا الأذى بالآخرين في المجتمع[10]، وانتشرت المساجد، وكانـت تبنى من الحجر ومن نوع خاص، كما اعتاد الأمراء عند بناء المساجد أن يقوموا ببناء أربطـة تابعة لها ليسكنوا الصوفية فيها [11]، وكان في المساجد دور للكتب فكان لكل مسجد خزانـة أو مكتبة غنية بالكتب ولاسيما الدينية، حيث كان الناس يهبونها لها، أو يوقفونها فيها على القـراء،

---

(1) المصدر نفسه، ص٢٩٠.
(2) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص١٢٤.
(3) العيني: عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص١٧٤.
(4) المصدر نفسه، ص١٧٤.
(5) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص١١٠
(6) المصدر نفسه، ص١١٥.
(*) العيارين: هم لصوص من الصعاليك والشطار والفتيان والزعار وأصحاب المهن المحقرة والمعدومين والجياع والعاطلين عن العمل الذي طحنهم الفقر وأعجزتهم البطالة بسبب سوء تدبير الزعماء والحكام، النجار: حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي، ص٧، ص٨، ص١٤٩.
(7) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص١٩٩.
(8) المصدر نفسه، ص١٤٨.
(9) اليافعي: مرآة الجنان، ج٤، ص١١٤.
(10) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٢٠٧.
(11) المصدر نفسه، ص١٤٠.

كما انتشرت دور الكتابة في جميع المجالات كالمنطق والفلسفة والفلك حيث كانت أبوابها مفتوحة لطالبي العلم والمعرفة، وأحياناً تكون منتدى للعلماء يتداولون فيها البحوث العلمية والمنـاظرات الأدبية[1]، كما انتشرت المدارس التي تقسم إلى غرف وساحات للعـاملين، وتـدرس المـذاهب الأربعة، وكذلك تضم كثيراً من التخصصات مثل الطب والحساب والقرآن وتقوم الدولة بالنفقـه عليها[2]، وأحياناً كان الناس عند حدوث فيضانات يسكنون هـذه المـدارس[3]، كمـا انتشـرت الأسواق في المجتمع العباسي وكانت مقسمة حسب الحرف [4]، وانتشر الحمالون في الأسـواق، وكذلك المدروزون وهم المتسولون على جوانب الطرق[5].

ويبدو أن الحركة التجارية كانت نشطة في أسواق العراق لذلك كانت أسـعار الـدكاكين مرتفعة. أما ملابس السكان، فكان لباس العامة المتواضع يصنع من القطن[6]، وكان مـن عـادة السكان لبس العمائم، ولبست النساء البرقع، ويبدو أنها تغطي جزءاً من الوجه، وانتشر الخياطون للملابس[7].

ولقد كان للمرأة دور مميز في المجتمع العباسي فكثيراً ما كانت النسـاء يتـدخلن فـي شئون الحكم ويؤثرن على بعض القرارات السياسية والإدارية والتعيينات في الدولـة[8]، ولكـن المجتمع كان يرفض ويعيب أن تتولى المرأة قيادة المجتمع وتصل إلى سدة الحكم[9].

وكانت أطعمة السكان في المجتمع العباسي متنوعة، فكان هناك الخبز الجاهز وكـذلك الكعك، ومن الناس من يشتري الدقيق ويصنع الخبز في البيوت[10]، وكان الخبز أنواعـاً فمنـه الجيد ومنه الرديء[11]، وكان الطعام اللحم المطبوخ والدجاج، والحلويات المتنوعة التي تصـنع من التين والبلح[12]، كما انتشرت الآبار وكان للبئر غطاء وكذلك حرس، حيث تسـتخدم مياهـه للشرب وللبناء، ويبدو أنه كان يخشى على الآبار من العابثين الذين يلقون بها القاذورات[13].

وكان من عادات المجتمع العباسي الاحتفال بالأعياد والمناسبات، ومن أهم هذه الأعيـاد الأول من رمضان وهي مناسبة تتجدد في كل عام و تعرض فيها التهاني للخلفاء باعتباره رئيساً

(1) الغزالي: إحياء علوم الدين، ج١، ص٤٣-٤٩.
(2) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٦٢.
(3) المصدر نفسه، ص٢١٣.
(4) المصدر نفسه، ص٩١.
(5) المصدر نفسه، ص١٠٢.
(6) المصدر نفسه، ص١٠٦.
(7) المصدر نفسه، ص١٠٦.
(8) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١١، ص١٤٦.
(9) أبو الفداء: تاريخ أبو الفداء، ج٢، ص٢٨٠-٣٠١.
(10) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص١٥١.
(11) المصدر نفسه، ص١٦٤.
(12) المصدر نفسه، ص١٧٩.
(13) المصدر نفسه ، ص١١٩.

للدولة ورمزاً دينياً، وتفتح دور الضيافة في بغداد بهذه المناسبة ليوزع فيها الخبز واللحم على الفقراء[1]، وكذلك في عيد الأضحى والفطر، حيث تعرض الجيوش أمام الوزراء، كذلك كان افتتاح المؤسسات العلمية مناسبة سعيدة يشترك فيها أعيان المجتمع من الولاة والحجاب والقضاة والمدرسين والفقهاء ومشايخ الربط والصوفية والوعاظ والقراء والشعراء وأعيان التجار الغرباء، حيث تقدم الأشربة والحلويات والأطعمة وينشد الشعراء شعرهم بهذه المناسبة[2].

كذلك من المناسبات السعيدة في المجتمع عند تحقيق نصر على عدو، إذ تدق الطبول وتزين المدن الكبرى ويبتهج الجميع، كما كان من عادات المجتمع أن ترسل رؤوس العدو إلى المدن الكبرى وتلقى وتعلق أو يدار بها في الطرقات[3]، ويبدو أن هذه الرؤوس تعد دليلاً مادياً للمجتمع على تحقيق النصر والتغلب على العدو، لإدخال السرور إلى صدور الناس، كما كان من عادات المجتمع أنه عندما يحل الصلح بين المتخاصمين من الفرق والمذاهب يقوم كل فريق بزيارة مقدساته ويحملون الزينة والسلاح ويستقبلهم الفريق الآخر بالبخور والطيب والماء المبرد والسلاح[4]، وكانت من المناسبات السعيدة زواج أحد أركان الدولة أو ابناً له، حيث يقام حفل زفاف رسمي يشارك فيه جميع الشخصيات المركزية في الدولة، حيث تنثر الأموال على العروسين كلما مرا من مكان يوجد فيه سكن أحد الولاة أو الوزراء أو الحجاب، وتسير خلف موكب العروسين مسيرة من الأعلام والطبول والكوسات[5].

وكانت من المناسبات السعيدة تولي خليفة جديد، حيث يقوم بتخفيف الضرائب عن الناس، ويصدر العفو عن المسجونين الذين ليس بحقهم حق شرعي[6] ويصدر العفو العام عن المسجونين أيضاً في حالات تحقيق النصر على العدو[7]، وكان من عادات المجتمع انتشار الرقيق حيث كانت هدايا الأمراء في المناسبات لبعضهم الرقيق وكذلك الثياب والطيب والخيل وآلة الحرب ويبدو أن هذه الأشياء التي يتبادلها المجتمع ويتهاداها هي من أسباب ووسائل الراحة في المجتمع، في الوقت نفسه جرت العادة على عتق العبيد تقرباً إلى ا ، ووقف الأملاك [8]، ومن عادات المجتمع العباسي أنه عند قدوم عدو يخرج الناس على مشارف المدن لمقاومة العدو وصده[9]، وكانت وسائل القتال الخيل[10]، والسيوف، وكانت هناك أدوات قتال أخرى تستخدم في

---

(1) الفوطي: الحوادث الجامعة ، ص٥٠.
(2) المصدر نفسه، ص٥٨-٥٩.
(3) أبو الفداء: تاريخ أبو الفداء، ج٢، ص٢٨٠.
(4) الكتبي: فوات الوفيات، ج٤، ص١٤٣؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٥، ص٣٠٨.
(5) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٨٦.
(6) المصدر نفسه، ص١٣٢.
(7) المصدر نفسه، ص٥٣.
(8) المصدر نفسه ، ص١٠٧.
(9) المصدر نفسه، ص١٨٨.
(10) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٥١هـ - ٦٦٠هـ)، ص١٠.

العادة عند اشتعال الفتن الداخلية مثل البندق(*) والمقاليع، وكان في حالة القبض علـى مثيـري الفتنة يصلبوا على أبواب المحال ويجلدوا ومنهم من تقطع أصابعه[1] وكان من أشـهر أنـواع الرياضة في المجتمع رياضة الصيد بالبندق، فكان من يستطيع صيد طائر بالبندق كان الخليفـة يكافئه[٢]، كما اشتهر المجتمع العباسي بتربية الحمام، فقد كان يجمع بأنواعه العديدة وتصنع لـه أبراج عالية[٣]، حيث كانت تربية الحمام تدر أرباحاً كثيرة[٤]، وكانت أبراج الحمام أحياناً تكـون ملاذاً آمنا لبعض المجرمين لأنها عالية جداً[5]، وأحياناً تسبب أضراراً كبيرة عندما تنهار بفعـل الفيضانات والأمطار الغزيرة والرياح[٦]، والجدير بالذكر أن الخليفة المستعصم كان مولعاً بتربية الحمام[٧].

ولقد تميز المجتمع العباسي بالعديد من القيم، فقد كانت الأمانة والصدق والوفاء من القيم التي يعتز بها هذا المجتمع ويحافظ عليها رغم وجود بعض الانحرافات[٨]، كما وإن المقدسـات الإسلامية كانت ذات قيمة رفيعة في هذا المجتمع، فعندما تمس إحدى المقدسـات بسـوء تقـوم الاحتجاجات وينظم الشعر[٩]، كذلك عندما كان يستولي الصليبيون على بيت المقدس في فلسطين يعم الغضب والحزن هذا المجتمع[١٠]، كما وإن مرضاة ا سبحانه كانت قيمة يحرص المجتمـع عليها وخاصة المسلمين، فعندما يشعرون أن هناك غضب من ا يحرص المجتمع على الإقبال على ا والرجوع إليه [١١].

كذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان يتشرف أفراد المجتمـع بالعمـل بهـا والتجرد لها حتى لو أدت بهم أحياناً إلى الأضرار[١٢]، وكان للعلماء مكانة عالية، وربما يرجـع ذلك لقيمة العلم، فالعلماء لهم معاملة خاصة، يدعون إلى أعظم المناسبات وأجلها وتُنفِق علـيهم الدولة ويعاب على الدولة التي لا تهتم بهم[١٣]، كما كان للحج قيمة عظيمة في هـذا المجتمـع،

(*) البندق: وهي كلمة فارسية الأصل معربة، والبندق هو الطين المدور يستخدم لصيد الطيور، ابن منظور: لسان العرب، ج١٠، ص٢٧.

(1) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٤٢.
(2) المصدر نفسه، ص١١٩.
(3) ابن العبري: تاريخ الزمان، ص٢٨٩.
(4) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٢٢١.
(5) المصدر نفسه، ص١٧٧.
(6) المصدر نفسه، ص١٢٧.
(7) ابن العبري: تاريخ الزمان، ص٢٨٨.
(8) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٢٠٧.
(9) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٥١هـ - ٦٦٠هـ)، ص٢٤.
(10) المقريزي: السلوك، ج١،ق٢، ص٣٠٣.
(11) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٥١هـ - ٦٦٠هـ)، ص٢٠.
(12) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص١٢٤.
(13) المصدر نفسه، ص٢١٣.

وحيث تسخر كل إمكانيات الدولة للحجيج وتسهل لهم السبل[1]، وكذلك نظارة الحج تعتبـر مـن أرقى وأشرف المناصب الدينية في المجتمع لما لها وقاراً وتقديراً[2]، وعندما يتوقف الحج فـي سنة من السنوات يكون حدثاً عظيماً يؤرخه المؤرخون ويكتب به شعراً [3]، بل إن سيطرة أحـد على الحرم الشريف تكون المصيبة والطامة عند المجتمع العباسي[4]، كما أن المجتمع كان يقدر مهنة الطب ويحترمها ويغدق على الأطباء حيث كان للأطباء عيادات خاصة بهم ويأتيهم النـاس من كل مكان للعلاج[5].

مظاهر الانحراف في المجتمع العباسي :

تعددت مظاهر الانحراف في المجتمع العباسي، ومن هذه المظاهر:

وجود المردان وتقبيل بعض رجال الدولة لهم دون حياء أو خجل[6]، وانتشار الغناء والحفـلات والسهرات[7]، ووجود دور للفساق والزانيات وخاصة في بغداد تكاد تكـون معروفـة يرتادهـا بعض الساقطين[8]، كذلك وصل الحد إلى أن الخليفة المستعصم كان يقضي كثير من وقته بسماع الأغاني [9]، حيث انتشرت الخمر والزنا وكثر الظلم وانعدم العدل وظهرت البدع[10]، ولقد انتشر الخمر بين كبار رجال الدولة [11]، كما ظهر في المجتمع المغنون والمغنيات والراقصات وآلات العزف والمزامير[12]، كما انتشر في المجتمع ظاهرة حب الغلمان، واتخـاذهم بـدل الخـيلات خاصة بين قادة الجيوش وكبار رجال الدولة[13].

ويرى الباحث أن مظاهر الانحراف في المجتمع العباسي لها أسباب، أولها ضعف القيادة المتمثلة بالخليفة حيث يسيطر عليه فئة من حوله مثل وزيره الذي قد استطاع أن يعزله عن إدارة الخلافة، فالخليفة كان يعيش في خيالات فاسدة إذ يعتقد أن حكم الدولة العباسية لا يزول، وكذلك لن يجرؤ عدو على التقدم إلى حدود العراق، فهو يعد الخلافة ملكاً خاصاً له ورثه عن والده[14]،

---

(1) الفوطي: الحوادث الجامعة ، ص١٥٨.
(2) ابن الجوزي: المنتظم، ج٧، ص٢٨٢.
(3) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص١٣٩.
(4) المصدر نفسه، ص٩٧.
(5) المصدر نفسه، ص٨٣.
(6) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١١، ص٢٩٠.
(7) المصدر نفسه، ج١٢، ص٩٢.
(8) المصدر نفسه، ج١١، ص٣٥٢.
(9) ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية، ص٢٩٠.
(10)الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٣١؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٥١هـ - ٦٦٠هـ)، ص٢٩.
(11) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١١، ص٣٤.
(12) المصدر نفسه، ج١٢، ص٨٢.
(13) المصدر نفسه، ج١١، ص٢٩١.
(14) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٢٢٣.

ويرى أحد الباحثين أن حكام المسلمين في هذه الحقبة كانوا شديدي الحرص على الحياة وشجاعتهم تظهر في قتالهم مع بعضهم البعض[1].

كذلك كان لأهل الذمة دور في هذا الانحلال في العراق وخاصة مركز الخلافة بغداد حيث حولوا أديرتهم إلى دور للعبث واللهو، وقدمت فيها الخمور المعتقة، وكانت هذه الأديرة منتشرة في طول البلاد وعرضها، وتردد عليها الشباب والشعراء، وأكثر الشعراء في وصف متعتها ووصف الرهبان والراهبات حتى أُلفت الكتب في ذلك مثل كتاب الديارات للشابشتي وهو ملئ بشعر ابن المعتز وغيره من الشعراء، حيث يصف في شعره لياليه بالمطيرة إحدى متنزهات سامراء والكرخ وحاناته وبدير السوسي وراهباته[2]، كما أحيا الفرس أعيادهم وأخذوا يحتفلون بها بطريقتهم الخاصة ويكثرون من الشرب والخمور والمأكولات بشكل كبير جداً، مثل عيد النيروز في أول الربيع وهو أول السنة الفارسية وعيد المهرجان في أول الشتاء[3].

لقد ظهر اللصوص في المجتمع حتى أنهم اعتدوا على ممتلكات المدرسة المستنصرية، وسرقوا السكر والشمع ومبالغ من المال، يقول الفوطي: "وكثر اللصوص ببغداد وكانوا يأتون بالعدة ويأخذون أموال الناس" [4]، حيث كانت معظم حالات السطو والسرقة والنهب يقوم بها المماليك الأتراك والهنود والأحباش والجواري[5]، وكان بعض المماليك يسرقون أموال بعض الناس ويستأجرون بيتاً لممارسة الفساد به بعيداً عن أعين الناس[6]، كذلك كانت تتعرض المخازن والدكاكين للسرقة[7]، ويذكر الذهبي بعض العادات السيئة التي ظهرت في المجتمع مثل التآمر، والخيانة، والمنكرات، والكذب والحلفان، والغدر وعدم الإيفاء بالوعد والعهد، وكثر الغلمان في القصور، فهم من يقدم الطعام للسلطان[8].

كذلك من مظاهر الانحراف انتشار الفتن بين طوائف المجتمع الواحد مثل السنة والشيعة والتي تؤدي إلى سقوط قتلى وجرحى وسبايا[9]، وكذلك الخلافات بين الشيعة واليهود[10].

ومن مظاهر انحراف المجتمع ولوج كبار رجال الدولة في الفتن الطائفية وتحول أسواق وساحات العاصمة بغداد مسرحاً للمعارك[11]، كذلك انتشار الصوفية، والزوايا، فكل شخص

---

(1) الخالدي: المغول والدعوة الإسلامية، ص٨٩.
(2) أنظر: الشابشتي: الديارات، ص٣٣٨.
(3) المصدر نفسه، ص٩٥.
(4) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص١٧٠.
(5) المصدر نفسه، ص١٥١.
(6) المصدر نفسه، ص١٨٤.
(7) المصدر نفسه، ص١١١.
(8) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٥١هـ - ٦٦٠هـ)، ص٣٢.
(9) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٢٢٦.
(10) المصدر نفسه، ص١٩٤.
(11) الفوطي: الحوادث الجامعة ، ص٣٢٠؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٣٧٠.

يستطيع أن يصنع لنفسه زاوية، كما أن بعض أصحاب الزوايا كانوا متهمين بالشـذوذ الجنسـي حيث يعاشرون الصبيان الأحداث، إذ يدخلون مع الصبيان الحمام ويمارسون الفاحشة معهم، ولقد أدى هذا الأمر إلى إفتاء الفقهاء بقتلهم[١]. ويرى أحد المؤرخين أن الصوفية انتشرت بفعل تقلب الحياة السياسية في المنطقة، حيث ضعفت عزائم المسلمين وانتشر التواكل بينهم، فمال كثير منهم إلى الزهد والخلوة والاعتكاف والانقطاع عن الحياة بحجة التفـرغ لعبـادة ا ، حيـث دخـل المسلمون مرحلة سبات عميق[٢]. كذلك من مظاهر الانحراف في المجتمع العباسي انتشار البدع والخزعبلات بين الناس، والكذب على الرسول محمد صلى ا عليه وسلم[٣]، وادعاء البعض أنه المهدي المنتظر الذي سيهزم المغول، حيث أباح بعضهم دم أهل الذمـة فقتلـوا مـنهم ونهبـوا بعضهم[٤]، كذلك إرجاع سبب بعض الأمراض إلى غضب الجن الذي يخنق الناس فيموتون، وتم تفسير الوباء وموت مجموعات من الناس بذلك، وقام الناس بالإقامة بجانب بئر مواساة للجن كي يرضى عنهم، ووزعوا الأطعمة والحلوى و أوقدوا الشموع[٥].

ويبدو أن المجتمع العباسي كان يعيش حقبة حالكة من حياته نتيجة الضعف الاجتمـاعي الذي مهد لأرض خصبة لترعرع هذه الخرافات ويبدو أن النشاط الدعوي بين الناس قـد خـف نشاطه وصوته لذلك استطاع المشعوذين التغلب على بعض عناصر المجتمع.

ومن أهم مظاهر الانحراف في المجتمع ظهور طائفة العيارين الذين كـانوا يمارسـون الفساد بكل أشكاله في المجتمع من نهب وقتل وسلب ولم تسلم منهم بيوت كبار رجال الدولـة[٦]، الذين أشاعوا الخوف والرعب في صفوف المجتمع[٧]، بل في أوقات سابقة سيطروا على مناطق في العراق[٨].

---

(1) الفوطي: الحوادث الجامعة ، ص١٨٤.
(2) حسنين، ايران والعراق، ص١٧٥.
(3) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٤٢.
(4) المصدر نفسه، ص١٠٨-١٠٩.
(5) المصدر نفسه، ص١٧٩.
(6) المصدر نفسه ، ص١٨٩.
(7) ابن الجوزي: المنتظم، ج٩، ص١١٣.
(8) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص٣٧٨.

المبحث الثالث

الأوضاع الاقتصادية

وسيتحدث الباحث عن أوضاع الخلافة الاقتصادية بما تشمله من زراعة وتجارة وصناعة.

الزراعة:

عندما فتح المسلمون بلاد العراق في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي ا عنه لم يشجع عمر توزيع الأراضي، بل فضل إبقاءها ملكية عامة بين المسلمين إلا فيما ندر، فعندما افتتح عمر السواد قالوا له: أقسمه بيننا فإننا فتحناه عنوة بسيوفنا، فأبى وقال: "فما لمن جاء من المسلمين بعدنا"[١]، ويورد أبو يوسف أن عمر ابن الخطاب ترك الأرض وأهلها، وضرب عليهم الجزية، وأخذ الخراج من الأرض[٢]، ولعل هذه الروايات توضح تصنيف الأرض في العراق، ولكن في عهد الدولة الأموية كان هناك غضباً بين طبقة الفلاحين في العراق على الولاة بسبب شدة الضرائب، وتسلط بعض الولاة، حيث كانت هناك ثورة من الفلاحين مدعومين بالفقهاء، ساندت أحد الخارجين[*] على الحجاج[٣]، ولكن الحال اختلف في الدولة العباسية حيث اهتمت الدولة بشؤون المزارعين، فعملت على تخفيض الضرائب عليهم في البداية وألغت الضريبة النقدية على بعض المحاصيل الأساسية مثل الحنطة وحل محلها نظام المقاسمة[**][٤]، وإذا كانت الأرض ممتازة الخصب ولا تحتاج إلى عمل كثير، ألزم المزارع بتقديم نصف غلة أرضه، أما إذا صعب عليه إرواؤها وزراعتها دفع الثلث أو الربع أو الخمس تبعاً لحالة الأرض، أما الكروم والنخيل فكانت غلتها تقوم بالمال[٥].

وهكذا فإن العباسيين نقلوا الخراج من المساحة إلى المقاسمة، وذلك عندما حصروه في الأرض المزروعة خلافاً لأسلافهم الذين كانوا يتقاضون الخراج عن الأرض المزروعة وغير المزروعة[٦]، وبلغ الاهتمام بالأرض درجة متقدمة إذ بدأوا يبحثون فيها عن قوانين تضبط واجبات الدولة والرعايا التابعين لها، فكان كتاب الخراج لأبي يوسف وهو استجابة لمتطلبات التقدم الاقتصادي في الدولة العباسية، حيث وضع أسس جباية الخراج، والعشور والصدقات

---

(1) فتوح البلدان، ص٣٧٦.

(2) الخراج، ص٣٣؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص٤٣٣.

(*) الخارج هو ابن الأشعث، ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج٣، ص٣١٦.

(3) ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج٣، ص٣١٦.

(**) نظام المقاسمة: وهو أن يدفع جزء من المحصول للدولة بدلاً من الخراج، وبدأ استخدامه في العراق خاصة في أرض السواد، حيث استخدمه الخليفة أبو جعفر المنصور، ويعد هذا النظام مريحاً للمزارع لأنه لا يدفع ضريبة نقدية على المحصول، القلقشندي: صبح الأعشى، ج١، ص٤٨٢.

(4) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٣١.

(5) حسن: تاريخ الإسلام، ج٢، ص٣٠٥.

(6) زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، ج٥، ص٦٩.

والجوالي[١]، كذلك ظهر كتاب الكسب من تصنيف محمد بن الحسن الشيباني[*]، بين فيه موقف الشريعة من الكسب وطرقه وقوانينه، وفي هذا المصنف إشارات مهمة تدل على اهتمام المجتمع العباسي بالتكسب والارتزاق[٢].

ولقد عملت الدولة على فرز نسبة من الأرض تسمى ملكية المتاع وتشمل أراضي الرعي، والصيد، والأراضي الزراعية المشتركة التي تستغل بشكل جماعي من قبل أهل القرى، وتتركز هذه الأراضي المشتركة في الأماكن التي يصعب زراعتها باستمرار، وبشكل فردي مثل الأراضي التي تزرع فيها الحبوب فيكون حرثها جماعياً ودورياً، وهي لا تعتمد على الملكية الخاصة لأن زراعتها تخضع للظروف الطبيعية، ويدخل في ذلك الإطار ملكية الأنهار والآبار، والمسلمون جميعاً شركاء في دجلة والفرات وكل نهر عظيم نحوهما، ومن حق الجميع أن يسقي دوابه وأرضه، ولا يحق لأحد احتكار تلك الموارد، فهي ملك مشاع للجميع[٣].

والجدير بالذكر أن الزراعة كانت تتعرض لعصور ضعف وإهمال خاصة عندما سيطر البويهيون على العراق[٤].

لقد تعددت المحاصيل الزراعية في الدولة العباسية، فقد كان هناك الليمون الجيد، والأترج، والتفاح، والكمثرى، والخوخ، والرمان، والعنب، والباذنجان[٥]. كما اشتهرت زراعة البطيخ، وكثرت زراعة الفواكه حيث كانت لها أسواق وشوارع خاصة ببيع الفواكه الطازجة، وقد اشتهرت العراق بالنخيل، حيث كان تمر العراق ذو سمعة كبيرة [٦]، ولقد طبقت الخلافة الإسلامية في أواخر عصرها نظام الإقطاعات في الزراعة، حيث تقطع مساحات واسعة من الأراضي على الأمراء لجمع خراجها، وضرائبها[٧]، وبعض القرى كانت تسعى إلى أن يمثلها أحد أبنائها في جباية الضريبة[٨]، ويقول حسن إبراهيم حسن معلقاً على ذلك: "تقوم بالرقابة الفعالة على جميع الشؤون التي تتصل بالزراعة من بناء القنوات وترميمها"[٩].

كما ظهر نظام ضمان القرى الزراعية حيث يقوم رجل ميسر بضمان القرية الزراعية، ويقوم هو برعايتها من الناحية الزراعية والإشراف على جمع الضرائب من المزارعين ويكون

(1) أبو يوسف: كتاب الخراج، ص٣.
(*) إن كثرة مؤلفات هذا العالم تدل على اتساع حركة الاقتصاد في الدولة العباسية فقد ذكر ابن النديم في الفهرست، ص٢٠٤ أنه ألف عدة رسائل في البيوع والشفعة والمزارعة والقسمة...إلخ.
(2) أبو طالب: الصراع الاجتماعي في الدولة العباسية، ص٥٠.
(3) أبو يوسف: كتاب الخراج، ص١١٦.
(4) مسكويه: تجارب الأمم، ج٢، ص٩٧.
(5) الفوطي : الحوادث الجامعة، ص١٥٠.
(6) المصدر نفسه: ص٩١، ص٢١٣.
(7) المصدر نفسه: ص٣٣.
(8) المصدر نفسه، ص٣١.
(9) تاريخ الإسلام، ج٢، ص٢٦٩.

قد أعطى الدولة مبلغاً متفق عليه مسبقاً مقابل ضمانه للقرية[١]، ويبدو أن هذا النظام طبـق فـي العصور المتأخرة عندما بدأ الضعف الإداري يظهر في إدارة الخلافة العباسية وخاصة في عهد المستعصم، فقد كان هذا الخليفة شبه مغيب عن إدارة الدولة[٢]، ولقد كان في العراق أفرع مائية تفرعت من نهري دجلة والفرات، وذلك كي تصل المياه إلى الأراضي الداخلية، مثل نهر الدجيل الذي يتفرع من دجلة[٣]، حيث تزرع البساتين والحدائق ومنها تجلب الفواكه خاصة في الجانـب الغربي من بغداد، فقد تميز بكثافة بساتين الفواكه[٤]، ويبدو أنه كان لنظـام الإرواء الصـناعي الأثر الكبير في رفع المستوى الاقتصادي للدولة، حيث كان هناك جهـاز المهندسـين الخـاص بتنظيم الماء في أراضي الدولة[5]، وكان هناك ما يسمى بديوان الماء، وكـان صـاحبه يـرأس عشرة آلاف عامل، حيث كانت الدولة تستخدم الطريقة المناسبة في سقاية الأرض فكانت تختلف أنظمة السقاية في مناطق السهول عن الجبال عن الواحات وهكذا[٦]، ولا شك أن تلك الطريقـة المستخدمة كانت تنعكس على ارتفاع إنتاجية الأرض الزراعية من جهة، كما تعبر عن اهتمـام الدولة بالأرض والفلاح والمالك[٧]، وشاعت طريقة المناوبة في الزراعة، فكان الفـلاح يـزرع نصف الأرض ويترك نصفها الثاني دون زرع لوقت آخر، وعند إذ قد يستغلها للرعي[٨]، أمـا أدوات الفلاح آنذاك فكانت المسحاة والمنجل والمحراث الذي تجره الثيران[٩].

ولكن كثيراً ما كانت أراضي العراق تتعرض لفيضان دجلـة والفـرات وتهلـك آلاف النخيل، حيث يقدر الفوطي أنه في عام واحـد أتلفـت سـبعين ألـف نخلـة بفعـل الفيضـان والعواصف[١٠]، كما انتشر في العراق تربية الحمام فكانت بمثابة هواية يولع بها كبـار رجـال الدولة حتى الخلفاء مثل الناصر لدين الله، ثم ابنه المستعصم، كما كانت تجارة رابحة لكثير مـن السكان، فقد روى الفوطي أن رجلاً كان يتاجر بالحمام وعندما توفي قـاموا بكسـر صـندوقه الخاص به فوجدوا فيه أرطالاً من الذهب مع أن الرجل كان لا يبدو عليه ملامح الغنى، ولقد كان المزارعون والسكان يبنون للحمام أبراجاً عاليةً جداً[١١]، كما أنها كانت تشكل خطراً فـي حالـة انهيارها بفعل الفيضانات والعواصف وكثيراً ما هدمت البيوت وقتلت السكان[١٢].

---

(1) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص١١٠.
(2) ابن العبري: تاريخ الزمان، ص٢٨٩.
(3) ابن جبير: الرحلة، ص١٦٦.
(4) المصدر نفسه، ص١٦٣.
(5) المصدر نفسه، ص١٥٧.
(6) المصدر نفسه، ص١٦٥.
(7) متز: الحضارة الإسلامية، ج٢، ص١٣٥، ص١٣٦، ص٣٤٠، ص٣٤٢.
(8) الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي، ص٤٩.
(9) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص١١٠.
(10) المصدر نفسه، ص٢١٣.
(11) المصدر نفسه، ص١٢٧؛ ابن العبري، تاريخ الزمان، ص٢٨٩.
(12) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص١٢٧.

كما عرف في العراق مزارع الأسماك، فقد كانت من أفضل وأطيب وأشهر الأنواع[١]، ويبدو أن السكان في العصور المتأخرة خاصة قبيل غزو المغول للعراق بدأو يتجهون إلى حرف أخرى غير الزراعة، مثل تربية الحمام والأسماك، وبعض التجارات الداخلية، ولعل سبب ذلـك هو كثرة الفياضانات التي عملت على تدمير المزارع وعشرات آلاف النخيل، فضلاً عن حملات المغول على العراق المتتالية، حيث كانت أراضي المزارعين مسرحاً لكثير مـن المعـارك[٢]، والدولة منصرفة عن الاهتمام بالمزارع وتعويضه، حيث أُوكلت الخلافة للوزراء وكان الـوزير هو المستبد بالسلطان في الخلافة وليس للخليفة إلا الدور الشـكلي[٣]، وأدى اسـتئثار الـوزراء بالأموال إلى حصول تنافس بينهم وبين كبار رجال الدولة مما أدى إلـى تضعضـع الأحـوال الاقتصادية والاجتماعية فالتنافس كثيراً ما أدى إلى سوء حال الطبقات الفقيرة، وانعكـس علـى حالتها المعاشية خصوصاً عندما تتردى إمكانات الدولة وتحتكر الأموال، وتقطع الرواتب، وتعلوا الأسعار، ومن المرجح أن ذلك أدى أيضاً إلى إهمال الزراعة والمزارع[٤].

حيث يروي الفوطي أن السنوات الأخيرة من عمر الدولة العباسية تعرضت كثيـر مـن الأراضي إلى الغرق بفعل الفيضانات، وأتلفت المزارع والنخيل والبساتين وهدمت الدور علـى رؤوس ساكنيها ودمرت الثروة الحيوانية للبلاد، ورغم هذه الفيضانات إلا أنه كان هناك أراضي زراعية تموت و هلكت مزارعها بفعل العطش وعدم وصول الماء إليها[٥]، ويروي الفـوطي أن عام (٦٥٤هـ=١٢٥٦م) قد شهد بوادر ارتفاع في منسوب الماء بنهر دجلة وأُبلغ الوزير بـذلك ولكنه لم يكن جاداً في العمل على منع الفيضانات، حيث قام بمحاولة لسد بعـض الفتحـات ثـم تركها وبعد قليل غرقت البلاد وأتلفت المزارع وهدمت البيوت والمحال وتأثرت البنية التحتيـة للبلاد[٦]، ويذكر رشيد الدين الهمذاني أن فيضان عام (٦٥٤هـ=١٢٥٦م) أدى إلى إتلاف نصف أراضي ومزارع العراق حيث أصبحت خراباً[٧].

---

(1) ابن جبير: الرحلة، ص١٧٢.
(2) ابن العبري: تاريخ الزمان، ص٢٨٩؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٥١هـ - ٦٦٠هـ)، ص٢٣؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج٤، ص١٠٤.
(3) ابن خلدون: المقدمة، ج٣، ص٢٣٨.
(4) العش، تاريخ عصر الخلافة العباسية، ص١٧١.
(5) الحوادث الجامعة، ص١٧٧-٢١٣؛ تاريخ الخلفاء، ص٣٥٠.
(6) الفوطي: الحوادث، ص٢٢٧؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٥١هـ - ٦٦٠هـ)، ص٢٣؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج٤، ص١٠٤.
(7) جامع التواريخ: ج١، مج٢ ص٢٦٢.

التجارة والصناعة

لقد اتجهت الدولة العباسية للاهتمام بالتجارة، إذ احتلت التجارة المرتبة الأولى من موارد الدولة العباسية[(١)]، كما اتجه العنصر العربي في الدولة العباسية للعمل في التجـارة والصـناعة والزراعة وذلك لاعتماد الدولة على عناصر غير عربية في إدارة الدفة[(٢)]، بل إن توجه المغول لاحتلال الجانب الشرقي من العالم الإسلامي كان بسبب نقض الدولة الخوارزمية لمعاهدة تجارية قد أبرمت مع المغول[(٣)]

لذلك كانت الدولة العباسية قد اهتمت بالتجارة اهتماماً كبيراً، وقد ازدهرت التجارة نظراً لأهمية الموقع الجغرافي الذي تمتاز به العراق نظراً لتشجيع الدولة لها، فقد سـيطرت تجـارة الدولة العباسية على معظم الطرق والبحار، "وأخذت تجارة المسلمين المكان الأول في التجـارة العالمية وكانت الإسكندرية وبغداد هما اللتان تقرران الأسعار للعالم ... في البضـائع الكماليـة على الأقل"[(٤)]، وقد شكلت التجارة المورد الرئيس للدولة إلى جانـب الضـرائب علـى الأرض المأخوذة من بعض السكان مقابل الإشراف والحماية[(٥)].

ويبدو أن التجار هم أول من أحس بخطر المغول، إذ يروي ابن الأثير رسالة أحد التجار من الري إلى أصحابه بالموصل، يحذرهم فيها من الاستخفاف بالمغول[(٦)]، ويبدو أن أول من بدأ يتأثر بالأحوال السياسية هم التجار، لأنهم الأكثر حاجة للأمن وتأثراً بفقده.

كانت أسواق العراق وما تزال تعج بأصحاب التجارة الداخليـة، حيـث كانـت أجـرة الدكاكين في أسواق بغداد مرتفعة[(٧)]، وكانت الأسواق مقسمة فكان سوق للخيل، وسوق للخضار، وسوق العطارين، وسوق الحدادين، والنجارين، وسوق الفواكه مثل درب البطيخ[(*)] ببغداد[(٨)]، كما اشتهرت بغداد والبصرة بتجار المجوهرات والثياب الفاخرة وتجار الرقيق حيث كانوا يقيمـون هناك[(٩)].

ويذكر ابن جبير أن تجار الشام والموصل كانوا يأتون بغداد ويروحون[(١٠)]، وكان فـي العـراق الأسواق العامة التي يجتمع فيها التجار والمشترين من كل الأنحاء[(١١)]، ومن أسواق بغداد سـوق

(1) المقدسي: أحسن التقاسيم، ج١، ص١٢٠.
(2) ابن جبير: الرحلة، ص١٦٢.
(3) النسوي: سيرة جلال الدين منكبرتي، ص٨٧.
(4) متز: الحضارة الإسلامية، ج٢، ص٣٧١.
(5) العش: تاريخ عصر الخلافة العباسية، ص١١٤.
(6) الكامل، ج١٢، ص٥١٣.
(7) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص١٤٠.
(*) درب البطيخ: محله ببغداد كان يباع فيها الفواكه؛ معجم البلدان، ج٢، ص٤١٩.
(8) الفوطي الحوادث الجامعة، ص٩٠.
(9) المصدر نفسه، ص٩٠.
(10) ابن جبير: الرحلة، ص١٦٦.
(11) المصدر نفسه، ص١٧٣.

يسمى سوق السلطان[1]، وقد غصت أسواق العراق بالملابس، والأقمشة الحريريـة، بمختلـف الألوان[2]، وأسواق العراق منظمة وعظيمة البناء عجيبة الترتيب ومسقفة بالخشب، وكل سـوق يحتوي على مسجد، وحمامات، ليتمكن التجار والمشترين من المحافظة على الصلاة[3]، ويصف ابن جبير أحد أسواق العراق حيث يوجد به مظلة عظيمة كأنها الخان العظيم عليها أبواب حديـد وحولها دكاكين، وبيوت بعضها على بعض، وهي "جميلة البناء لا مثيل لها"[4] بها نافورات ماء جميلة المنظر[5].

ويبدو أن ازدحام بغداد بالسكان قد ساهم بشكل كبير بقوة الحركة التجارية في أسواقها، "تشتمل من الخلق على بشر لا يحصيهم إلا ا تعالى"[6]، كما تميزت الأسواق بوجود المرافـق والحمامات التي كانت تطلى بالقار، فتظهر كأنها رخام أسود مصقول، فقد كان يجلب القار مـن عيون بين البصرة والكوفة، فقد شملت بغداد وحدها على ألفي حمام[7]، ويبدو أن الموصل كانت المحطة التي منها يدخل التجار إلى أراضي دولة الخلافة ومنها يخرجون، لذلك احتـوت علـى فنادق لإقامة التجار الأغراب[8].

وقد أشرف على الأسواق المحتسب الذي تتلخص مهمته في مراقبة المعاملات في البيع والشراء والأوزان والمكاييل ورفع التطفيف في الكيل والوزن أو الغش في الصناعة[9]، وقد أدى نشاط التجارة إلى تنامي دور المؤسسات المالية والمصرفية، حيث كان للصرافة دور مهم فـي تسليف التجار والدولة في الوقت نفسه[10]، وكانت الصكوك وأوراق الدفع تحل محـل التعامـل النقدي والتبادل العيني المباشر، وكانت العملة المتداولة في العراق هي الدينار وهي مصـنوعة من الذهب ولها أوزان مختلفة[11]، وفي آخر سنوات الدولة العباسية ضربت الدراهم من الفضـة بدلاً من الذهب[12].

ومن البضائع الأساسية في أسواق العراق في السنوات الأخيرة السكر والأدوية، حيـث تعرض السكر للغلاء الشديد واختفى من الأسواق مما دفع الخليفة إلى سد حاجة السـكان مـن

---

(1) ابن العماد: شذرات الذهب، ج٥، ص١٧٣.
(2) ابن جبير: الرحلة، ص١٦٢.
(3) المصدر نفسه، ص١٧٥.
(4) المصدر نفسه، ص١٦٨.
(5) المصدر نفسه، ص١٦٨.
(6) المصدر نفسه، ص١٦٤.
(7) المصدر نفسه، ص١٦٤.
(8) المقدسي: أحسن التقاسيم، ج١، ص١٢٠.
(9) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص١٨١.
(10) الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي، ص١٦٤.
(11) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص١٨٤.
(12) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٣٦١.

رصيد الدولة، ولم يذكر الفوطي سبب هذا الغلاء[1]، لكن ابن كثير يروي أنه في هـذه الحقبـة كانت تتعرض قوافل التجار للسلب من قبل المغول، حيث تعرضت قافلة تحمل السكر للسلب من المغول وقتل رجالها وسلبت أموالهم.

كما تعد الحنطة والشعير من السلع الأساسية في الأسواق، وانتشر الحمالون في الأسواق في العراق لمساعدة التجار والمشترين مقابل أجر معين[2]، ومن التجـارات الداخليـة تجـارة الحمام، وتجارة البندق الذي يستخدم في صيد الحمام وكذلك في الحروب[3]، كما كان يباع فـي المحلات التجارية الخبز الجاهز وكذلك الدقيق الذي يدخل في صناعة الحلويات والخبز[4]، وكان كثير من اليهود يعملون في البقالة ولهم محلات تجارية[5]، كما انتشر في أسواق الخلافة السمك من مزارع خاصة ومنه من البحر[6]، كما أنه كان هناك بعض الباعة المتجـولين مثـل الـذين يبيعون القوارير الزجاجية، حيث كانت من أبسط التجارات في بغداد[7]، وكانت الدولـة تضـع الضرائب على السلع التجارية مثل الحنطة والشعير والتمور[8]، وكان الخلفاء عنـدما يتولـون الحكم يقومون بتخفيف الضرائب من مكوس وتقسيطات ومؤن[9]، كما انتشرت تجـارة الرقيـق وكان لها أسواق خاصة بها في بغداد وغيرها[10]، ولقد كان لتجارة الرقيق أنواع فمنهـا تجـارة الجواري ومنها تجارة الخصيان، والمماليك والإماء، والعبيد، حيث كان يشترى كل نوع لغرض معين[11]، ويبدو أن الرقيق زادت في الأسواق بعد اجتياح المغول للدولة الخوارزمية حيث تـم استرقاق مئات الألوف من أهلها[12]، كذلك نظرة الإسلام للرقيق والحث علـى الإحسـان لهـم والمكاتبة بين العبد وسيده[13]، ورغبة كثير من أبناء المجتمع التكفير عن ذنوبهم أو التقرب إلى ا بإعتاق العبيد[14].

فمن المرجح أن شريحة الرقيق ظلت في حالة انحلال وتكون دائم لـذلك بقيـت هـذه التجارة سارية إلى آخر أيام دولة الخلافة، وبقيت الأسواق متعطشة وفي طلب دائم لهذه السلعة.

---

(1) الحوادث الجامعة، ص١٢٧.
(2) المصدر نفسه، ص١٠٢.
(3) المصدر نفسه، ص١١٩.
(4) المصدر نفسه، ص١٥١.
(5) المصدر نفسه، ص١٩٤.
(6) ابن جبير: الرحلة، ص١٧٢.
(7) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣ص١٨٨.
(8) المقدسي: أحسن التقاسيم، ج١، ص ١١٨.
(9) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ١٣٢.
(10) ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية، ص٢٦٠؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٣، ص٢٣٤.
(11) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ٨٦.
(12) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص٣٣٣.
(13) قطب: شبهات حول الإسلام، ص٧٠.
(14) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ١١٧.

ولقد تحولت هذه الفئة من المجتمع في أخر سنوات الخلافة إلى مصدر أفساد في المجتمع فمعظم حالات السرقة والسطو والنهب كان يقوم بها العبيد والمماليك والجواري[1] كذلك انتشرت فـرق العيارين في العراق تخرب وتفسد وتقتل حتى أنهم كانوا يسرقون ثياب الناس من الحمامات فـي وضح النهار ونهبوا المحلات والدكاكين حيث يصف الفوضى أحوال الناس "وصار الناس معهم في ويل عظيم"[٢]، ويبدوا أن التجارة تراجعت في السنوات الأخيرة من عمر الخلافة الإسـلامية حيث كانت تتعرض التجارات الخارجية للنهب والسلب والقتل أحياناً من المغول وأحياناً من فرق الإسماعيلية المنتشرة في أطراف البلاد تقطع الطرق وأحياناً من جيوش أمراء الشام ومصر أثناء عراكهم مع بعضهم فطرق التجارة لم تكن أمنه في الخارج، كما أن أحوال بلاد الشـام ومصـر داخلياً لم تكن مستقرة وتشجع لأحياء حركة تجارية معقولة، خاصة بوجـود الصـليبيين الـذين يسيطرون على أجزاء كبيرة من بلاد الشام.

أما داخلياً فقد توفرت أسباب عدة أضعفت الحركة التجارية. شهدت السنوات الأخيـرة اقتتالا داخلياً ضارياً بين فئات المجتمع العباسي سنة وشيعة ويهود وشيعة، أدى إلـى اسـتنزاف موارد البلاد، بالإضافة إلى غارات المغول على أطراف البلاد[٣]، التي استنزفت كثير من موارد وطاقات البلاد، كذلك الكوارث الطبيعية التي امتدت حتى شملت مناطق من بلاد الشام أيضاً[٤].

فضلا عن إدارة البلاد من قبل مؤسسة الوزارة التي أهملت شئون المزارع وإصلاحات المياه، وتوفير الأمن في أنحاء البلاد، كذلك استنزاف البلاد من فئة أهـل الذمـة حيـث كـانوا ينهشون في جسم الدولة ولا يراعون أي معايير في معاملاتهم المصـرفية والتجاريـة، كـذلك انتشار عصابات العيارين الذين تسلطوا على التجار والمحلات والمشترين، لـذلك لـيس مـن المستغرب في ظل هذه الظروف أن تقوم الدولة بتغيير العملة المتداولـة[5] كمؤشـر لضـعف الاقتصاد فمن المرجح أن التجارة في السنوات الأخيرة كانت في أسوء حال منذ قرون مضـت، فهل كان حال الصناعة أفضل حالاً من التجارة والزراعة.

لقد أضحت الصناعة بفضل التقدم الحضاري الذي أصاب المجتمع العربـي الإسـلامي إبان العصر العباسي، أكثر ازدهارا فتعددت الصنائع وتنوعت ونشأت التنظيمات الحرفية علـى نطاق واسع وعرفت الأسواق المتخصصة حيث كان يتجمع أصحاب كل حرفة أو مهنة في سوق واحد حتى غدت عنصراً مهماً في تخطيط أية مدينة إسلامية ولعل بغداد كان التخصـص فيهـا

(1) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٦٨-٦٩.
(2) المصدر نفسه، ص٢١٤.
(3) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٢٢٣.
(4) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٥١هـ - ٦٦٠هـ)، ص١٦.
(5) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ١٧٧.

أكثر وضوحا ويستدل على ذلك من أسماء أسواقها، فهناك سوق النحاسين والدباغين والصفارين والحدادين والوراقين والصاغة وغيرها[١].

ويقدر أحد المؤرخين أن عدد مصانع الزجاج في بغداد وحدها بلغ أربعة آلاف معمـل وثلاثين ألف معمل لصنع الخزف[٢][*]، ولقد وصف العيني بغداد قبل احتلال المغول لها بأنهـا "أنس المدن كلها"[٣]، وأرقى المدن الإسلامية بل العالمية، حضـارة وعمـارة، وعلمـاً، وأدبـاً وصناعةً[٤]، ولقد تعددت الصناعات في مدن الخلافة الإسلامية وتنوعت لتفي بحاجة التجـارة، والأسواق المحلية المتعددة، وكثافة السكان المتزايدة والتطور الحضاري للأمة الإسلامية[٥].

ولقد تميزت بعض المدن ببعض الصناعات ونالت شهرة عالمية[٦]، فلقد اشتهرت بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية بصناعة الثياب الحريرية بجميع الألوان وتميزت "بثيـاب القـز"[٧]، وكذلك بصنع التحف والطرائف[٨]، وصناعة الأدوية[٩]، وكذلك صناعة الشـمع[١٠]، والملابـس القطنية بمختلف الألوان، حيث كانت الملابس القطنية لباس العامة ورخيصة الأثمـان[١١]، أمـا لباس الخاصة من الأمراء والسلاطين والحكام فقد كانت تصنع في بغداد من الحريـر، والـوبر الغالي الأثمان، ومن الكتان، ويدخل الذهب في صناعة بعض ملابس الأمراء[١٢]، وكانت أفضل الهدايا بين الأمراء والسلاطين أنواع الثياب[١٣]، وانتشرت مصانع خياطة الملابس فـي بغـداد لتوفير احتياجات الخاصة والعامة، من الرجال والنساء، فقد كان يصنع للنساء البراقع التي تغطي جزءً من الوجه حيث كانت تصنع من القطن[١٤].

كما انتشرت مصانع الزجاج وتشكيله وتلوينه بجميع الألوان وصنع من الزجاج القوارير حيث كانت رخيصة الأثمان ومن أبسط التجارات ويتجول بها الباعة فـي الشـوارع[١٥]، كمـا

---

(1) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ٩١.
(2) حسن: تاريخ الإسلام، ج٢، ص٣٠٩.
(*) يروي ابن كثير أن باعة الزجاج كانوا يتجولون في الشوارع من كثرتهم وكانت هذه التجارة تعتبر أبسط التجارات، أنظر: ابن كثير، ج١٣، ص١٨٨.
(3) عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص١٧٤.
(4) المصدر نفسه، حوادث(٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص١٧٤.
(5) ابن جبير: الرحلة، ص١٦٤.
(6) المقدسي: أحسن التقاسيم، ج١، ص ١٣٥.
(7) المصدر نفسه، ج١، ص١٢٥.
(8) المصدر نفسه، ج١، ص١٢٥.
(9) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ١٢٧.
(10) المصدر نفسه، ص١٧٠.
(11) ابن جبير: الرحلة، ص١٦٢.
(12) المصدر نفسه، ص١٦٤.
(13) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ٨٦.
(14) المصدر نفسه، ص١٠٦.
(15) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص١٨٨.

تشتهر بغداد بصناعة أنواع العطور، وآلات الحرب من سيوف ودروع وخوذ وتروس[١]، كما نشطت الصناعات الغذائية في مدن الخلافة الإسلامية مثل ماء الورد، وماء الليمون، وخل العنب[٢] والزيت[٣] والتمور[٤] والعسل والشحوم و الأجبان والألبان والسماق والفواكه المقددة والزبيب وصناعة الفحم[٥]

ولقد تميزت البصرة بعدد من الصناعات مثل صناعة المجوهرات والحلي بأنواعها والتمور والحناء وصناعة الملابس القطنية والألبان ومشتقاتها، وصناعة الثياب الكتانية[٦] وتميزت الكوفة بصناعة الملابس خاصة العمائم[٧]، أما الموصل فقد تميزت بصناعة العسل والفحم والأجبان بأنواعها، والسماق والحديد والأسطال والسكاكين والنشاب والسلال[٨] وعرفت في العراق صناعات أخرى متفرقة، مثل صناعة الموازين، والزيت والأقلام، والفواكه المقددة والزبيب والصابون والسلاسل[٩]، والحصر والبسط، والزيت، والورق والحبر[١٠]، كذلك صناعة الخبز والكعك والحلويات بأنواعها المختلفة[١١].

كما عرفت الصناعات الخشبية مثل أثاث البيوت و المدارس، وقد استورد خشب الصنوبر والعاج من بلاد الشام وغيرها من البلاد[١٢]، وبعض الأسواق غُطيت أسقفها بالخشب[١٣]، كذلك عرف استخدام القار في الطلاء[١٤]، ويبدو أنهم كانوا يستخدمون القار لأنه يعد مادة عازلة، كما نشطت صناعة كرات البندق التي كانت تستخدم لصيد الحمام، وكذلك في الحروب حيث تقذف بواسطة النبل وكانت هواية رمي البندق من الرياضات الشهيرة في ذلك الوقت[١٥]، كما عرفت صناعة السبائك حيث كانت تصنع السكة من السبائك، فصنع الدينار الذهبي، والدراهم الفضية[١٦].

(1) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ٨٦.
(2) المصدر نفسه، ص١٥٠.
(3) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٣٦١.
(4) المقدسي: أحسن التقاسيم، ج١، ص ١٢٦.
(5) المصدر نفسه، ج١، ص١٣٥.
(6) المصدر نفسه، ج١، ص١٣٥
(7) المصدر نفسه، ج١، ص١٢٤
(8) المصدر نفسه، ج١، ص١٣٥.
(9) المصدر نفسه، ج١، ص١٣٥.
(10) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ١٥٠؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٣٦١.
(11) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ١٥١.
(12) المصدر نفسه، ص١٤٠.
(13) ابن جبير، الرحلة، ص١٧٥.
(14) المصدر نفسه، ص١٦٤.
(15) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ٢٥.
(16) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص١٨٤؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٣٦١.

ويبدو أن الصناعة في السنوات الأخيرة من عمر الدولة العباسية شهدت تراجعا ملموساً، حيث تأثرت بالتجارة والزراعة، فلقد تعرضت الخلافة لاستنزاف مواردها الاقتصادية، حيث تعرضت لعدة كوارث طبيعية غرقت فيها المزارع والبساتين من فواكه وقطن وقمح وشعير وحنطة وغيرها[1]، حيث أصبحت نصف أرض العراق خراباً[2]، فمن المرجح أن ذلك أثر سلباً على الصناعة فتوقفت الصناعات الغذائية كما تأثرت صناعات الألبان والأجبان فقد فقدت البلاد نسبة كبيرة من ثرواتها الحيوانية، وحطمت أبراج الحمام بفعل الفيضانات والعواصف[3].

كذلك عاشت الخلافة في عصرها الأخير ظاهرة الإهمال الإداري للبلاد، الذي كان في بعض الأوقات من أسباب الفيضانات على مدن العراق، وانفلات الأمن فانتشرت طائفة العيارين في آخر سنوات الخلافة بعد أن غابت عن مسرح الأحداث منذ عهد السلاجقة، حيث انتشرت طائفة العيارين بقوة ويروي الفوطي المعاصر للأحداث أنهم كانوا يحضرون في جماعات و يأخذون ما يجدونه على وجه القهر والغلبة حتى أنهم اقتحموا بيوت الأمراء وجرحوا وفتكوا، وداهموا بيوت كبار رجال الدولة ونهبوا ما فيها واعتدوا عليهم[4]، ويبدو واضحاً أن البلاد كانت تسير ناحية الهاوية، فلماذا لم تظهر فرق العيارين إلا في ذلك الوقت؟ لقد كان من واجب السلطة التنفيذية في البلاد العمل بقوة للحد من نشاط هؤلاء العابثين.

ويرى الباحث أن الخلافة العباسية في سنواتها الأخيرة، عندما أوكل الخليفة المستعصم إدارة البلاد للوزير، شهدت البلاد تراجعاً على جميع الأصعدة، الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، ويبدو واضحاً أن عناصر المجتمع من شيعة ويهود ونصارى كانوا يفتقرون إلى الانتماء لدولتهم التي يعيشون في ظلها ويحتمون بحماها فلقد كانت كل فئة تعمل جاهدة لاستغلال هذه الدولة بكل وسيلة من أجل تحقيق أهدافها، فقد كان اليهود يعملون جاهدين على استغلال المجتمع الإسلامي بكل الطرق خاصة أنهم يهود وليسوا مسلمين لا تقيدهم الشريعة ويمارسون كل الوسائل لجمع الأموال، وكذلك النصارى، وأما الشيعة فيبدو أن هدفهم كان نصرة مذهبهم بكل السبل والوسائل، لذلك كانوا يتحينون كل فرصة لنشر وإظهار طقوسهم الشيعية واستخدام القوة ضد السكان الآخرين، فمن المرجح أنهم كانوا لا يشعرون أنهم ينتمون لهذه الدولة أو المجتمع، لذلك تطور بهم الحال فاستخدموا أساليب أخطر وأقسى في سبيل تحقيق أهدافهم والنيل من أعدائهم التقليديين، حسب فكرهم -أهل السنة- فكان اتصالهم بالعدو الوثني ضد دولتهم وحضارتهم وإخوانهم في الدين من أهل السنة وهذا ما سيتحدث عنه الباحث في الفصل الثاني.

---

(1) أنظر: الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ١٧٧.
(2) الهمذاني: جامع التواريخ، ج١، مج٢ ص٢٦٢.
(3) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ١٧٩-٢٢٧؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج٤، ص١٠٤.
(4) الحوادث الجامعة، ص١٩٨.

الفصل الثاني

العلاقات الشيعية المغولية قبيل سقوط الخلافة

المبحث الأول: الاتصالات بين الشيعة والمغول.

المبحث الثاني: تهيئة البلاد للسقوط



المبحث الأول

الاتصالات بين الشيعة والمغول

ظهر المغول في منطقة منغوليا في الصين وهي المنطقة الممتدة من جنوب سيبيريا إلى الشمال من التبت إلى الغرب من منشوريا[1]، حيث نشأ المغول في صحراء جوبي القاحلة على هضبة منغوليا، وعاشت قبائل المغول على روافد نهر أمور حيث سيطرت على الأراضي الواقعة بين بحيرة بايكال في الغرب وجبال كانكال على حدود منشوريا في الشرق[2][*].

والمغول شعب يشبه الترك في اللغة والمظهر العام، حيث عاشوا في بلادهم في شظف من العيش، يعملون بالصيد والرعي في حياة كلها ترحال وتجوال، وكثر بينهم النزاع والشقاق وتكررت إغارتهم على المناطق الخصبة المجاورة[3]، ويقال أن غاراتهم على بلاد الصين كانت سبباً في تشييد الصينيين سور الصين العظيم حماية لبلادهم من شر المغول[4]، ويبدو أن البيئة القاسية التي عاش فيها المغول أثرت على طبائعهم، فهم يعيشون في منطقة صحراوية، يبحثون عن العشب والكلأ والماء، فهم من الناحية الاقتصادية رعاة و من الناحية السياسية غزاة، وحاجة المغول للمراعي والمحافظة عليها والمنافسة الدائمة في الحصول عليها تطلبت قيام نظام حربي دائم وثابت يعتمد على ما يمارسه الرعاة من التدريب المستمر من ركوب الخيل من أجل القتال والغزو، وأوجدت فيهم قوة الاحتمال والصبر على التعب فصنعت من المغولي جندياً بارعاً، قادراً على المبادرة والمباغتة السريعة في الهجوم، إذ أن خطتهم الحربية تقوم على الهجوم المفاجئ والارتداد السريع[5]، ويبدو أن هذه الطبائع خاصة السعي إلى الحصول على الفائدة السريعة التي لا تحتاج إلى جهد وعناء هي من الأسباب التي جعلتهم يدمرون المظاهر الحضارية.

كان غذاء المغول الرئيس لحوم الخيل ومنتجات ألبانها، وهم يعيشون في الخيام، ويحترفون رعي الأغنام والصيد في وقت السلم، وحمل السلاح زمن الحرب، كما هو شأن الأمم البادية ينزحون إلى الجهات الشمالية ابتغاء مراعي الصيف إذا ما ذابت الثلوج وينزحون إلى الجنوب سعياً وراء الشتاء، وهم يسعون وراء الربح من خلال تبادل الجلود والدواب مع أقربائهم

---

(١) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢، ص ٧٢.
(٢) الجويني: تاريخ جهانكشاي، ج١ص٦٠.
(*) أنظر: الخارطة في ملحق رقم (٨).
(٣) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢، ص ٧٣.
(٤) الفقي: معالم التاريخ، ص٣٢٣.
(٥) أنظر: الجويني: تاريخ جهانكشاي، ج١ص ٧٥؛ الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢، ص ٧٣.

الخطا أو مع الترك والصينيين[1]، لقد كانت حياتهم رعوية ونظامهم قبلي، ويتميزون بالطاعة لرئيس القبيلة الذي كان دائماً الأكبر سناً والأقوى والأشجع وصاحب الحنكة والدهاء.

وكانت ديانتهم عبادة الكواكب، ويسجدون للشمس عند طلوعها، ولا يُحرمون شيئاً، إذ يأكلون جميع الدواب حتى الكلاب والخنازير، وهم إباحيون لا يعرف الولد منهم أباه، وكانت الشامانية الديانة القديمة للمغول رغم اعترافهم بإله عظيم قادر فإنهم لا يعبدونه ولا يلقون إليه بالمودة ويعبدون عدداً من الآلهة المنحطة خاصة تلك الحيوانات الشريرة حيث يعتقدون بقدرتها على إيذائهم ويعبدون أرواح أجدادهم، ويلجأون إلى القسيس أو الشامان والسحرة أو رجال الحكمة لاعتقادهم بسلطانهم الخفي[2].

وهناك من يعارض القول بأن المغول وثنيون يعبدون الأصنام ومظاهر الطبيعة وحجته في ذلك "أن عقول الأتراك أعلى من أن يعبدوا شيئاً صنعوه بأيديهم"[3]، ويبدو أن المؤرخ المجهول متعصب للجنس التركي الذي ينتمي إليه المغول ولا يملك دليلاً تاريخياً على تعصبه لرأيه، ويذكر المقريزي أن جنكيز خان كان لا يتدين بشيء من الأديان الأرضية[4]، ويبدو أن المغول تعددت لديهم الديانات، لكنها جميعاً كانت ضعيفة الانتشار بينهم، لم يجمع الشعب والقبائل جميعاً على واحدة منها، ولم تتميز واحدة أو ترقى إلى مستوى الديانات الأخرى ذات اللاهوت المنظم الذي يمتلك قوة الإقناع وسد حاجات العقل، ويبدو أن هذا سبب خروج جنكيز خان بقوانين الياسا[*] الشهيرة التي تنظم حياة المغول[5].

وفي مطلع القرن (السابع الهجري = الثالث عشر الميلادي) دخل المغول في صراعات داخلية انتهت بظهور جنكيز خان زعيماً لهم، وقد استطاع أن يوحدهم ويوجه نشاطهم نحو الأقاليم المجاورة، كما وضع قانوناً لهم ينظم حياتهم ومعاملاتهم[6]، ولقد استطاع جنكيز خان أن يجعل من الكتل المغولية وقبائلها دولة مغولية واحدة رهيبة، لها قانون ينظم علاقة الحاكم بالمحكوم وعلاقة المحكومين بعضهم ببعض وعلاقة الفرد بالمجتمع، حيث شمل قانون الياسا عقوبات بالغة الصرامة حتى يقضي على أسباب الفوضى ويحقق الأمن[7]، ولقد اتخذت هذه

---

(١) ابن الأثير: الكامل، ج١٢، ص٢٣٥؛ الهمذاني: جامع التواريخ، ج١، مج٢ ص٧٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج١٢، ص٢٣٥-٢٣٦.

(٣) مجهول: وقائع قزان، ج١، ص٣٥٨.

(٤) المقريزي: الخطط، ج٢، ص٢٢٠-٢٢١.

(*) الياسا: ذكر القلقشندي أن السياسة كلمة مغولية أصلها "ياسة" فحرفها أهل مصر وزادوا بأولها سيناً فقالوا سياسة، وادخلوا عليها الألف واللام، وكلمة ياسة تركية قديمة معناها القانون الاجتماعي: صبح الأعشى، ج٤، ص٢٢٠.

(٥) المقريزي: الخطط، ج٢، ص٢٢٠.

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص١١٨-١١٩.

(٧) المصدر نفسه، ج١٣، ص١١٨-١١٩.

القوانين الصفة الرسمية، فلا أحد يجرؤ على مخالفتها، حتى الخان الأعظم، ومن يفعل ذلك فخلعه واجب(١).

وأمر جنكيز خان أن تكتب قوانين الياسا بالخط الأيغوري، وأن يتعلمها صغار أهل بيته، وأن تجعل في خزائنه، وتتوارث عنه في أعقابه(٢)، ولم يغفل قانون الياسا عن تنظيم حلقات الصيد في الأوقات التي يفرغ فيها المغول من القتال لما لها أهمية في التدريب على أساليب الحرب(٣)، لذلك يعد جنكيز خان مؤسس الإمبراطورية المغولية، فقد استطاع أن يوحد قبائل المغول والتتار في إمبراطورية واحدة، جعل قاعدتها وعاصمتها قراقورم(٤)، وتعتمد هذه الدولة على الخضوع التام والطاعة العمياء للخان الأعظم والعقوبة الشديدة للمخالفين(٥).

ويرى الباحث أن المغول ظهروا على مسرح الأحداث السياسية مع ظهور زعيمهم جنكيزخان، إذ لم يظهر اسم المغول على صفحات التاريخ حتى القرن (الرابع الهجري = العاشر الميلادي)(٦).

وقوة جنكيز خان تكمن في أنه استطاع أن يطوع طبيعة بني جلدته البدائية الخشنة إلى أداة صالحة أمدته بتلك القوة التي اجتاح بها العالم إلى ما وراء حدود مراعيه بكثير، ويبدو أن جنكيزخان لم يظهر على مسرح التاريخ إلا بعد أن تجاوز الأربعين من عمره حيث تجد اسمه يذكر مقروناً باعتداءاته على بني جلدته والأمراء القريبين منه(٧)، وبعد أن أصبح جنكيز خان حاكماً على جميع المغول أصبح اسم المغول يطلق على جميع الشعوب التي خضعت لجنكيزخان، حيث أن التتار هي طائفة كبيرة من القبائل أحرزت شهرة واسعة حتى أن العديد من المؤرخين أطلقوا اسم التتار على جميع قبائل المغول وعم اسم المغول على جميع الشعوب التي خضعت لجنكيزخان بعد أن أصبح خاناً عاماً لجميع المغول (٨).

ولقد كون المغول جيشاً ضخماً، واستطاعوا أن ينزلوا الهزيمة بأعتى القوى في ذلك العصر، حيث كان الجيش منظماً مقسماً إلى فرق تراوحت بين العشرة والمائة والألف والعشرة آلاف وقد كان هناك من يقوم على إعداد الأسلحة وحملها مثل السهام والأقواس، وهناك من عليه مهمة الإشراف على الطعام والشراب للجنود، ومن يقوم على رعاية الدواب، ومن يشرف على إعداد العجلات الحربية، ولقد بلغ حرس جنكيز خان في وقت من الأوقات عشرة آلاف، وقد

---

(١) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص٣٧٣.

(٢) الجويني: تاريخ جهانكشاي، ج١، ص١٧؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٣١٠-٣١٢؛ المقريزي: الخطط، ج٣، ص٣٥٧-٣٥٨.

(٣) الجويني: تاريخ جهانكشاي، ج١، ص١٩-٢١.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٣١٠-٣١٢.

(٥) العدوي: التاريخ الإسلامي، ص٣٨١.

(٦) حسن: تاريخ الإسلام، ج٣، ص ١٣٠.

(٧) فامبري: تاريخ بخارى، ص١٦٢.

(٨) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢، ص ٧٣.

تكون أفراد هذا الحرس الارستقراطية العسكرية في الجيش المغولي[1]، حيث قسم الجيش إلى ثلاثة أقسام جناحين أيمن وأيسر وقلب، تتقدمه الفرق الأمامية أو الطلائع، وكانوا مسلحين بدروع كاملة لوقايتهم من هجمات العدو[2]، حيث أولى خانات المغول جيشهم عناية فائقة وأنفقوا عليه بسخاء، وكان يتبع لجيش المغول فرق استطلاع تأتي بأخبار العدو ثم يتقدم الجيش للحرب[3]، وكانت سرعة تحرك جيش المغول وشدتهم مثيرة للرعب والخوف في نفوس أعدائهم[4].

وبعد أن اطمأن جنكيز خان إلى قوة جيشه ووحدة قبائل المغول تحت رايته بدأ يتطلع إلى توسيع رقعة دولته، وكان المجال الحيوي للمغول بلاد الصين التي تقع جنوب بلادهم حيث الخصب والرخاء والازدهار، وبدأ الجيش المغولي يمارس عملياته الحربية في شمال الصين، وتوالت حملات المغول على الصين حتى سيطر المغول على بكين سنة (٦١٢هـ=١٢١٥م)[5]، وبدأ جنكيز خان يتجه ببصره غرباً حيث الدولة الخوارزمية، وكان عليه أن يقود القبائل المغولية ليضع ثقله العسكري في خدمة الهدف الأكبر وهو إزالة الدولة الخوارزمية، حيث استطاعت الجيوش المغولية أن تهزم الدولة الخوارزمية في عهد السلطان الخوارزمي محمد الثاني خوارزم شاه، وسيطر المغول على إقليم ما وراء النهر في عام (٦١٧هـ =١٢٢٠م)، وسقطت العاصمة الخوارزمية بيد المغول[6] [*]، وتوفي السلطان الخوارزمي في إحدى جزر بحر قزوين في عام (٦١٨هـ =١٢٢١م) فاراً من وجه المغول[7].

ولقد تعرض الأهالي في الدولة الخوارزمية لوحشية رهيبة تمثلت في حمامات الدم والمذابح التي أقامها جنكيز خان، وسقطت تحت أقدام المغول أفغانستان الحالية وشمال إيران ووصلت جحافلهم إلى القوقاز[8]، وفي عام (٦١٩هـ = ١٢٢٢م) غادر جنكيز خان الأقاليم الغربية بعد أن ثبت حكم المغول في إقليمي ما وراء النهر وخراسان بشكل نهائي[9]، وتوفي جنكيز خان في عام (٦٢٤هـ = ١٢٢٧م) وبقي عرش المغول شاغراً عامين حتى تم اختيار أوكتاي[**] ابن جنكيز خان خاقاناً للإمبراطورية من قبل مجلس شورى المغول[10]، وفي عهد أوكتاي تمكن المغول من غزو روسيا وإحراق مدينة موسكو. كما غزوا أوكرانيا ودمروا

(١) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢، ص ٧٧.
(٢) الجويني: تاريخ جهانكشاي، ج١ص ٨٦-٩٠.
(٣) النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص٨٧.
(٤) العريني: المغول، ص٥٦-٥٧.
(٥) النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص٣٧-٣٩؛ مجهول: وقائع قزان، ج١، ص٣٤٨-٣٤٩.
(٦) الجويني: تاريخ جهانكشاي، ج١، ص١١٠-١٣٥.
(*) أنظر: ملحق رقم (٦)، حيث تظهر الدولة الخوارزمية في أقصى اتساعها وحدودها مع بلاد المغول.
(٧) النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص ٢٣.
(٨) المصدر نفسه، ص٣٩٠.
(٩) الجويني: تاريخ جهانكشاي، ج١، ص١٢٠؛ العريني: المغول، ص١٤٢.
(**) أنظر: ملحق رقم (٢)، حيث يظهر جدول يبين خانات المغول منذ جنكيز خان.
(١٠) النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص ٣٨٢-٣٨٣.

عاصمتها كييف سنة (٦٣٨هـ = ١٢٤٠م) ثم زحفوا نحو بولندا وألمانيا، وتقدموا حتى مدينة برلين ناشرين الرعب والخراب والدمار[١].

إن المتتبع لزحف الجيش المغولي بعد هزيمته للسلطان جلال الدين منكبرتي يجد أنه يتجه إلى أقاليم الصين، وبعدها إلى أوروبا الشرقية ولم تتوقف جيوش المغول داخل أوروبا إلا بعد أن وصلت أنباء وفاة الخاقان أوكتاي في قراقورم في ١١ كانون الأول سنة (٦٣٩هـ=١٢٤١م)[٢].

ويرى الباحث أن المغول لو كانوا يريدون أو في نيتهم غزو العالم الإسلامي لتم غزوهم له بعد عام (٦٢٩هـ=١٢٣١م)، خاصة أن الطريق أصبح سهلاً ومفتوحاً، ولما اتجهوا عشر سنوات كاملة للفتح في مناطق أخرى. وفي مصادرنا إشارات تبين أن هناك علاقات قديمة بين المغول والشيعة في العراق، فلقد اشتملت قوانين الياسا التي وضعها جنكيز خان على قانون يقضي بالإحسان إلى ذرية علي بن أبي طالب وإسقاط أي نوع من أنواع الضرائب عليهم[٣]، ويرى حسن ابراهيم حسن بأن جنكيز خان كان يهدف من وراء ذلك التقرب للمسلمين بتعظيم آل نبيهم ورجال الدين عندهم في الوقت الذي كان يعمل فيه على الاستيلاء على بلادهم[٤]، ولا يتفق الباحث مع هذا الرأي حيث أن جنكيز خان أصدر قوانين الياسا سنة (٦٠٢هـ = ١٢٠٦م) حيث لم يكن للمغول أي صدام عسكري مع المسلمين، فعملياتهم العسكرية ضد الدولة الخوارزمية بدأت بعد هذا التاريخ بعشر سنوات تقريباً[٥]، كذلك لو كان المقصود التقرب للمسلمين ونبيهم، لما حدد أولاد علي بن أبي طالب ولذكر المسلمين عامة، كذلك لو كان الهدف التقرب للمسلمين لما ارتكب المغول بحق المسلمين المذابح المروعة[٦]، واتبعوا سياسة الأرض المحروقة[٧].

ويبدو أنه كان هناك تقارب وعلاقات وثيقة بين الشيعة والمغول ارتقت إلى مستوى أن تشغل حيزاً ضمن دستور وقانون المغول الذي ينظم حياتهم وعلاقاتهم، ولقد أورد المؤرخون روايات تؤكد وجود اتصالات متبادلة بين شيعة العراق والمغول، فالذهبي يذكر أن عام (٦٤٤هـ=١٢٤٦م) شهد اجتماعات سرية بين قيادات من شيعة العراق ووفد من المغول، "وفد رسولان من التتار... فاجتمعوا بابن العلقمي وتعمت الأخبار"[٨]، ووصف مؤرخ آخر هذا

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦، ص٢٧٧.
(٢) النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص٣٨٢-٣٨٣؛ شبولر، العالم الإسلامي، ص٣٧-٣٨.
(٣) المقريزي: الخطط، ج٢، ص٢٢٠.
(٤) تاريخ الإسلام، ج٤، ص١٣٩.
(٥) النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص ٣٨.
(٦) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨، ص٦٧٣.
(٧) روم لاند: الإسلام والعرب، ص١١٧.
(٨) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص ١٧٧.

الاجتماع "فتعمت على الناس بواطن الأمور"(١)، كما شهد العام (٦٥٥هـ=١٢٥٧م) وصول عدد من الجواسيس من قبل المغول إلى عاصمة الخلافة العباسية بغداد، وسلموا عدداً من الشيعة في بغداد فرمانات تدل على توسع الاتصالات(٢)، كما شهدت العراق وصول دفعات متلاحقة من المغول دون أن يشعروا بالخوف، وكأنهم يعلمون أن الأمور مرتبة وتسير لصالحهم. "وكانت الفرامين منهم واصلة إلى ناس من بعد ناس من غير تحاش منهم في ذلك ولا خيفة"(٣)، وتميل أغلب المصادر التاريخية إلى تأكيد وجود اتصالات بين شيعة العراق والمغول وأن شيعة العراق يتحملون الوزر الأكبر في سقوط الخلافة الإسلامية في العراق على يد المغول(٤)، كما يرى أحد المؤرخين الأجانب أن اجتياح المغول للخلافة الإسلامية هو نتيجة لحرب كانت مستعرة بين العناصر العربية والعناصر الإيرانية، ويمثل الإيرانية الشيعة في العراق(5)، ويبدو أن الاتصالات بين الشيعة والمغول هي إحدى وسائل هذه الحرب.

ويرى الباحث أن المغول لم يكن في برنامجهم التوسع على حساب الخلافة الإسلامية في العراق أو إسقاطها، فقد كان الطريق مفتوحاً أمام جحافل المغول بعد القضاء على جيش جلال الدين منكبرتي والتخلص منه شخصياً، ويظهر ذلك من خلال رسالة لأحد التجار يرسلها من الري وهو مجهول الاسم، إلى أصحابه بالموصل، أن المغول قد "أخبروا ملكهم بخلو البلاد من ممانع ومدافع"(*) حيث دخلت جيوش المغول على مشارف العراق(٦)، ويذكر الفوطي أن عام (٦٣٣هـ=١٢٣٥م) شهد وصول جيوش المغول أطراف العراق، حيث أصبحوا على مشارف الموصل ولم تتقدم جيوش المغول أكثر من ذلك، رغم استعدادات جيوش إربل وجيش الخلافة في بغداد وانسحب المغول إلى بلادهم(٧).

ويبدو أن المغول حتى ذلك الوقت لم يفكروا بإسقاط الخلافة الإسلامية في العراق رغم وجود علاقات بينهم وبين الشيعة في العراق، ويبدو أن الخلافة الإسلامية في العراق كانت ما تزال تملك تلك الهالة الدينية والروحية والتاريخية التي كونتها بفعل تاريخها وانتصاراتها ونفوذها الروحي على مسلمي العالم خلال خمسة قرون مضت، وربما هذا يفسر تردد هولاكو في غزو العراق وإسقاط الخلافة وهو على أبوابها واستعان بالمنجمين مرات عدة بل عقد

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦، ص٣٥٦.
(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص١٨٠.
(٣) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٥١هـ-٦٦٠هـ)، ص٢٨.
(٤) الجوزجاني: طبقات ناصري، ص٤٢٤-٤٢٨؛ أبو الفداء: تاريخ أبو الفداء، ج٣، ص٢٠٣؛ النويري: نهاية الإرب، ج٢٦، ص١١٢؛ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج٣، ص٥٣٧؛ الذهبي: دول الإسلام، ج٢، ص١٩٦؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٤١٢؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٤٧١.
(٥) شبولر: العالم الإسلامي، ص١٥.
(*) للاطلاع على رسالة التاجر المجهول، أنظر: ملحق رقم (١٢).
(٦) ابن الأثير: الكامل، ج١٢، ص٥١٣.
(٧) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ٩٥.

اجتماعات عدة للمنجمين ولم يقرر الزحف للعراق إلا عندما حسم القضية المنجم المسلم الشيعي والذي ساق الأدلة التاريخية لهولاكو وأقنعه أن إسقاطه للخلافة لن يعود عليه بأي سوء وأن ما يقال هو من قبيل الخرافات "فأضاء قلب الملك من قول العالم"[(١)]، وقد رسخت الأحداث التي مرت بها الخلافة هذا المفهوم، إذ دُمرَ جيش السلطان الخوارزمي عندما تجرأ على الخليفة وأراد غزو الخلافة الإسلامية، فقد هبت عواصف ثلجية على جيشه وهو في طريقه إلى بغداد، فقضت على أغلبه، وشاعت الخرافة التي تقول إن من يحاول المس بالبيت العباسي المؤيد من السماء يحصد غضب ا ، وهذا ما جاء صراحة على ألسنة بعض خواص السلطان محمد الخوارزمي، إذ قالوا له: "إن ذلك غضب من ا حيث قصدت بيت الخلافة"[(٢)]، كما أن قوة شخصية بعض الخلفاء العباسيين قد دعمت هذه الخرافات، فقد أشيع أن الخليفة الناصر يعاونه الجن، حيث كانت تأتيه أخبار كثيرة بطرقه الخاصة، وقد ترسخ هذا المفهوم عند الناس[(٣)]، ويبدو أن الخلفاء أنفسهم أصبح لديهم قناعة بذلك، حيث كان جواب الخليفة المستعصم عندما قيل له إن المغول متأهبون لاجتياح الخلافة: "لن يدخلوها ما لم نأذن لهم"[(٤)]، كما أن كثيراً من القوى التي حاولت السيطرة على الخلافة والمس بها باءت بالفشل ودمرت مثل البويهيين، وكذلك البساسيري الذي سيطر على بغداد عاماً كاملاً وقام بحبس الخليفة، فقد عاد الخليفة مكرماً إلى عاصمته، وقتل البساسيري وعلق رأسه في بغداد[(٥)]، فالخلفاء العباسيون اعتقدوا أن ملكهم "سوف يدوم إلى يوم القيامة"[(٦)].

وهناك من يرى أن الخلافة العباسية في المائة سنة الأخيرة كانت قد استعادت قوتها[(٧)]، فقد امتلكت جيشاً يفوق المائة ألف جندي[(٨)]، ويبدو أن ذلك يفسر عدم جرأة أعداء الخلافة على مهاجمتها خاصة الخوارزمية، وهذا ما جعل الخليفة مؤهلاً للتحكيم بين الأيوبيين في مصر والشام فيما نشب بينهم من خلافات [(٩)].

لقد توفي الخليفة المستنصر با عام (٦٤٠هـ = ١٢٤٢م) بعد حكم دام ثمانية عشرة عاماً، وبويع للمستعصم با في اليوم نفسه ولم يكن المستعصم في مستوى أبيه في قيادة الخلافة[(١٠)]، إلا أنه ورث عنه قوة عسكرية عظيمة تتمتع بأحدث الأسلحة والعتاد[(١١)]، وقد حاول

(١) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢، ص ٢٧٩.
(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٤٤٩.
(٣) المصدر نفسه، ص٣٥٢.
(٤) ابن العبري: تاريخ الزمان، ص٢٨٩.
(٥) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٣٢٨-٣٢٩.
(٦) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢، ص ٢٥٠.
(٧) العريني: المغول، ص٢١٤.
(٨) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٠٢؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص ١٦٧.
(٩) العريني: المغول، ص٢١٤.
(١٠) ابن العبري: مختصر الدول: ص٢٢١.
(١١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٠٢؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص ١٦٧.

المغول عام (٦٤٣هـ=١٢٤٥م) غزو العراق، وتقدموا نحوه، فأعلنت حالة الاستنفار في صفوف جيش الخلافة، واستعد للدفاع عن البلاد "ورأى التتار من كثرتهم وجودة سلاحهم وعددهم وخيولهم ما لم يكونوا يظنونه ولا يحسبونه ... فحملت التتار على عسكر بغداد حملات متتابعة ظنوا أن واحدة منها تهزمهم لأنهم قد اعتادوا أنه لا يقف عسكر من العساكر بين أيديهم"(١)، وهزم التتار في هذه الغزوة واستغلوا سواد الليل وجروا جيوشهم راجعين من حيث أتوا(٢)، ويبدو أن هذا اللقاء العسكري بين المغول وجيش الخلافة جعلهم يغيرون من استراتيجياتهم في الحرب ضد الخلافة، فهو اللقاء الأول منذ عشر سنوات فمن المرجح أن هذا اللقاء كشف قوة جيش الخلافة وقدرته على الدفاع عن البلاد ضد أي اعتداء خارجي .

ويبدو أن ضعف الخليفة المستعصم دفعه إلى الاعتماد الكلي على الوزير مؤيد الدين ابن العلقمي الذي تولى الوزارة منذ بداية عهد المستعصم(٣)، فقد كان والده الخليفة المستنصر لا يتخذ وزيراً بل كان يسمى نائب الوزير "ولم يكن معه وزير"(٤)، وكانت دولته ثلاثاً وعشرين سنة باسم نيابة الوزارة (٥)، ويبدو أن آل ابن العلقمي كان لديهم تغلغل في السلطة العباسية بشكل كبير، فقد كان الوزير ابن العلقمي متزوجاً من بنت الوزير الذي سبقه وهو القمي وكذلك ابن الوزير ابن العلقمي متزوج من البنت الأخرى للقمي(٦)، ولا يستبعد وجود دور للوزير القمي في وصول ابن العلقمي لمناصب رفيعة في الدولة العباسية، فلقد قام هذا الوزير بكتابة ميراثه لابنته زوجة ابن العلقمي وابنته الأخرى(٧)، فضلاً عن أن هذا الوزير تربطه علاقة قرابة بابن العلقمي فهو خاله (٨)، كما أن هناك أخ أخر لمؤيد الدين ابن العلقمي كان حاجباً للخليفة المستنصر(٩)، وفي عام (٦٢٩هـ=١٢٣١م) تولى مؤيد الدين ابن العلقمي منصب أستاذية دار الخلافة وأسكن في دار خاصة تليق بهذا المنصب وذلك في عهد المستنصر (١٠)، ويبدو أن مراكز القوى في الدولة العباسية كانت تسير لصالح الشيعة.

بعد هزيمة المغول على يد الخلافة عام (٦٤٣هـ = ١٢٤٥م) أرسل المغول سفيراً لهم إلى الخلافة، ثم أرسلت الخلافة سفارة إلى عاصمة المغول لحضور حفل تتويج الخان الجديد

(١) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج٨، ص٢٣٩-٢٤٢.
(٢) المصدر نفسه، ج٨، ص٢٣٩-٢٤٢.
(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢١٤.
(٤) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص١٦٢.
(٥) المصدر نفسه، ج٢٣، ص١٦٢.
(٦) الفوطي: الحوادث، ص٢٢١.
(٧) المصدر نفسه، ص٢٢١.
(٨) الطهراني: الأنوار الساطعة، ج١، ص١٥٠.
(٩) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٨٥.
(١٠) المصدر نفسه، ص٤٤؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص ١٦٢؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١، ص ١٥٢؛ الكتبي: فوات الوفيات، ج٢، ص ٢٥٨.

للمغول عام (٦٤٤هـ = ١٢٤٦م)، حيث تم فيه انتخاب كيوك خاناً جديداً للمغول، ووجه الخان الجديد خطاب تهديد ووعيد للسفارة العباسية معلناً بدء نوايا المغول العدوانية تجاه الخلافة، هذه السياسة التي نفذها الخان مانكو بعد انتخابه خلفاً لكيوك من قبل مجلس شيوخ المغول في قرا قورم عام (٦٤٧هـ = ١٢٤٩م) [(١)(*)].

ويرى أحد المؤرخين المحدثين الشيعة أن المغول عقدوا العزم على تنفيذ احتلال العراق قبل أن يصبح ابن العلقمي وزيراً للخلافة ويدلل على ذلك أن المغول لم يحاولوا الاستقرار في المناطق التي كانت مسرحاً لغاراتهم، كديار بكر والجزيرة الفراتية، وإنما كانوا يعودون أدراجهم بعد غاراتهم، حيث أجلوا الاستقرار بعد أن تسقط بغداد[(٢)]، والباحث لا يوافق بدوي فيما ذهب إليه، فالمغول لم يستطيعوا الاستقرار في أطراف العراق لأنهم لم يتمكنوا من تحقيق نصر حقيقي بل جوبهوا بقوة[(٣)]، أما مخطط المغول قبل أن يصبح ابن العلقمي ذا نفوذ في السلطة العباسية فهو مناقض للروايات التاريخية الموثقة حيث أن ابن العلقمي كان في عام (٦٢٩هـ =١٢٣١م) أستاذاً لدار الخلافة[(٤)]، ولقد ذكرت الروايات التاريخية أن الطريق كان مفتوحاً أمام المغول نحو الخلافة الإسلامية في العراق بعد القضاء على جلال الدين الخوارزمي (٦٢٩هـ=١٢٣١م) ولكن زحف المغول تحول فجأة إلى بلاد الصين ليكملوا فتوحهم فيها وفي أوروبا الشرقية[(٥)]، ويرى الباحث أن وصول ابن العلقمي لسدة الوزارة مع وجود خليفة ضعيف كان نقطة تحول في تاريخ الاتصالات بين شيعة العراق والمغول، فمن المرجح وجود اتصالات بين الشيعة في العراق والمغول قبل ذلك ولكن حجم هذه الاتصالات وخطورتها زاد بعد وصول هذا الرجل لسدة الوزارة و تفرده بالحكم[(٦)].

ويبدو أن المغول بعد عام (٦٤٣هـ=١٢٤٥م) أصبحوا على قناعة بأهمية الاتصالات مع عملائهم في العراق خاصة بعد ارتداد جيوشهم خائبة تحت جنح الظلام بعد مواجهة فاشلة ضد جيش الخلافة الذي ورثه الخليفة المستعصم عن والده المستنصر. كما شعروا بأهمية الخلافة في بغداد وخطورة بقائها محافظة على وحدة المسلمين فضرب بغداد سيسهل احتلال باقي البلاد التي تدور في فلكها ويتفق الباحث مع بدوي في هذه القضية[(٧)]، حيث شهد عام (٦٤٤هـ = ١٢٤٧م) قدوم رسولين من المغول للعلقمي وتم عقد الاجتماعات بشكل سري جداً

---

(١) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢، ص ٢٣٣-٢٤٠.

(*) أنظر: ملحق رقم (٢)، حيث يمكن الاطلاع على تسلسل خانات المغول.

(٢) بدوي: التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، ص٢٦٤.

(٣) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج١٣، ص٢٠٤.

(٤) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ٤٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣،ص ٢٢١؛ الكتبي: فوات الوفيات، ج٢، ص ٢٥٨.

(٥) النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص ٣٨٢-٣٨٣.

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣،ص ٢١٣؛ العيني: عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص ٢٠٢.

(٧) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، ص٢٦٤.

"وتعمت الأخبار"[١]، وربما هذا يفسر رسائل التهديد التي وجهت إلى وفد الخلافة أثناء وجوده في قرا قورم خلال تتويج الخان الجديد.

وتوالت المراسلات بين الشيعة والمغول في العراق، ولم تكن لشخص بعينه بل كانت "واصلة إلى ناسٍ من بعد ناس من غير تحاش منهم في ذلك ولا خيفة"[٢]، "وفيها وصلت جواسيس هولاكو إلى الوزير مؤيد الدين محمد بن ابن العلقمي ببغداد، وتحدثوا معه ووعدوا جماعة من أمراء بغداد بعدة مواعيد، والخليفة في لهوه لا يعبأ بشيء من ذلك"[٣]، يكاد يجمع أغلب المؤرخين على وجود اتصالات بين المغول وشيعة العراق بقيادة الوزير ابن العلقمي[٤]، بل إن المؤرخين يصفون ابن العلقمي بأنه هو من اتصل بالمغول وجرأهم[٥]، وكاتب التتار وأطمعهم "في ملك بغداد ويخبره بأخبارها ويعرفه بصورة أخذها وبضعف الخليفة وبانحلال العسكر"[٦]. ويصرح أحد المؤرخين، أن سبب خروج جيوش المغول من العاصمة وتوجههم إلى الغرب هو اتصالات شيعة العراق بهم من داخل العراق[٧].

ويرى بعض الباحثين أن ابن العلقمي هو من كبار رؤوس الشيعة وأن الدور الذي لعبه ابن العلقمي في الاتصال بالمغول يدلل على وجود موقف رسمي عند شيعة العراق في إسقاط الخلافة والتآمر عليها مع الأطراف الخارجية[٨]، ويرى آخرون أن خيانة شيعة العراق قد أنعشت آمال المغول في إسقاط بل السيطرة على خلافة المسلمين ، ودفعتهم لاتخاذ موقف سياسي أكثر عدوانية من السابق[٩]، ومما يدعم ما ذهب إليه الباحث موقف المغول ضد الخلافة في حفل تتويج الخان الجديد في قرا قورم، حيث أعلن الخان موقفاً عدائياً ضد الخلافة[١٠]، فابن العلقمي هو من كاتب وجسر وقوى عزم المغول على قصد العراق[١١]، حيث كانت أعظم داهية "أصيب بها الإسلام"[١٢]، ووصفها مؤرخ آخر بأنها "بلية لم يصب الإسلام بمثلها"[١٣].

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص ١٧٧.
(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٥١هـ -٦٦٠هـ)، ص٢٨.
(٣) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٤٠٠.
(٤) الجويني: تاريخ جهانكشاي، ج٢، ص٤٦١؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١، ص ١٥٢؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج٤، ص١٠٥؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص ٣٦٢؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٤٧؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٥، ص٢٧٢.
(٥) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١، ص ١٥١.
(٦) المكي: سمط النجوم العوالي، ج٣، ص٥١٨.
(٧) القلقشندي: مآثر الأناقة، ج٢، ص٦١٢.
(٨) النبراوي: قضايا العالم الإسلامي، ص٧٩.
(٩) المعاضيدي: حضارة العراق، ج٦، ص٣٧٥.
(١٠) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢، ص ٢٣٣.
(١١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص ٣٦٢.
(١٢) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، مج١، ص٨٥؛ الكتبي: عيون التواريخ، ج٢٠، ص١٣٢.
(١٣) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٤٧٢.

ويكشف أحد المؤرخين عن بعض رسل الشيعة إلى المغول، حيث كان ابن العلقمي يستخدم أخاه مراسلاً بينه وبين المغول، كما استخدم مملوكاً له يثق به ويعتمد عليه[1]، ويبدو أنه كان يستخدم مملوكه في المراسلات السرية قبل أن تتضح الأمور وتصبح هناك خطورة في كشف المراسلات، ولكن عندما اقترب المغول من المنطقة استخدم أخاه في ذلك[2]، ومن الواضح أنه كان حريصاً ألا تكشف المراسلات لخطورتها خاصة في المرحلة الأخيرة.

وقد كشف بعض المؤرخين طريقة اتصال شيعة العراق بالمغول حيث ذكر الكتبي أن ابن العلقمي كان يتحيل في اختيار الطرق التي يتم بها اتصاله بالأعداء، حيث أخذ رجلاً وحلق رأسه حلقاً بليغاً وكتب ما أراد عليه بالإبر ونفض عليه الكحل وتركه عنده إلى أن طلع شعره وستر ما كتب، فجهزه وقال له: مرهم بحلق رأسك ودعهم يقرؤوا ما فيه وكان آخر الكلام اقطعوا الورقة حيث ضربت عنق هذا الرجل من قبل المغول بعد قراءة الرسالة مباشرة[3]، ولقد ساق السبكي طريقة الاتصال نفسها، بل أضاف عليها أن كل حرف ظهر في رأس الرجل كالحفرة[4]، كما أن الصفدي يؤكد القصة نفسها بل يشرح أن العملية كانت بوخز الإبر كالوشم[5]، ويعارض أحد مؤرخي الشيعة المحدثين هذه الروايات ولا يقبلها بحجة أنها غير مقبولة منطقياً[6].

إن اعتراض مؤرخو الشيعة على هذه الروايات شيء متوقع لأن الأدلة على اتصال قادتهم بالمغول دامغة، ومن الطبيعي محاولة الشيعة توهين هذه الروايات التي أكدها ثلاثة من المؤرخين الثقات، فمؤرخو الشيعة اعتراضهم على هذه الروايات أنها غير منطقية، ويرى الباحث أن هذه الروايات منطقية جداً، وربما يسأل سائل كم تتسع الرأس لكتابة رسالة؟ ومن يستطيع تحمل الألم ووخز الإبر؟

والمعروف أن عالم التجسس مليء بالمكر والخداع والتحايل وهذه الرواية تبدو منطقية في قضية غاية في الخطورة ويتوقف عليها مصير سلطة الخلافة وعاصمتها، ولقد ذكر المؤرخون أن ابن العلقمي كان "يتحيل في اختيار الطرق"[7]، لمراسلة المغول، وربما هذه طريقة من الطرق التي استخدمها ابن العلقمي، وتم كشفها للمؤرخين بطريقة ما، أما بالنسبة لحامل الرسالة، فمن المرجح أن حامل الرسالة لم يكن شخصاً عادياً، فربما هو عبد يتم تحريره أو سجين أو مجرم، وأنه مضطر أو مأمور لتحمل الآلام، أما بالنسبة لاتساع الرأس للكتابة، فربما

---

(١) ابن العماد: شذرات الذهب، ج٥، ص٢٧٠.
(٢) أبو الفداء: تاريخ أبو الفداء، ج٢، ص٣٠٢.
(٣) الكتبي: فوات الوفيات، ج٢، ص ٢٥٨.
(٤) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٨، ص٢٦٣.
(٥) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١، ص ١٥٢.
(٦) الأمين: الاسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي، ص ٢٨٠-٢٨٢.
(٧) الكتبي: فوات الوفيات، ج٢، ص ٢٥٨.

الرسالة كانت مقتضبة جداً وقصيرة خاصة أنها خطيرة وسرية، فهكذا هي رسائل التجسس والتخابر عبر الأزمان.

ومن المرجح أن ابن العلقمي كان ينوع في طرقه وأساليبه في الاتصال ليثبت للمغول أنه قام بعمل كبير وخطير عندما سهّل لهم احتلال العرق، وأنه مخلص يستحق التقدير والمكافأة هو وقومه. ومما يؤكد حدوث الاتصال أن الهمذاني يذكر أن قصر الخان الأعظم للمغول كان مفتوحاً لاستقبال المتعاونين وأعوان المغول من جميع البلاد، وأنه يتم استقبال تقاريرهم، وعليه يقوم المغول بإرسال حملات استكشافية(١). ولكن كيف كان الشيعة في العراق بقيادة ابن العلقمي يقومون بهذه الاتصالات في ظل حكومة الخلافة الإسلامية السنية؟ لقد أجمع المؤرخون على ضعف الخليفة المستعصم، كما أن ضعفه كان من أسباب توليه الخلافة من قبل الحاشية وكبار رجال الدولة، رغم وجود عمه الخفافجي رجل الدولة القوي، وذكر المؤرخون أن الهدف من إبعاد الخفافجي هو استبداد الوزراء بالحكم والسلطة. وبمجرد تولي المستعصم الخلافة قام بتولية الوزارة لابن العلقمي الشيعي(٢).

ولا يُستبعد وجود مخطط شيعي في العراق داخل حكومة الخلافة يتضمن تولية المستعصم الخلافة واستبعاد الرجل القوي، وذلك بهدف إفساح المجال لهم بتنفيذ باقي عناصر الخطة بدون عراقيل وربما هذا يفسر تولية ابن العلقمي الوزارة مباشرة بعد وصول المستعصم لسدة الخلافة، ويدعم ما ذهب إليه الباحث التغلغل الكبير لشيعة العراق في حكومة الخلافة في تلك الحقبة(٣)(*)، ويبدو أن ذلك ساعد شيعة العراق في التحرك بحرية دون قيد أو رقابة خليفة قوي ترتعد منه فرائصهم، والروايات التاريخية تؤكد ما ذهب إليه الباحث، حيث كان ابن العلقمي على اتصال سري بالمغول "يسهل لهم الأمر"(٤)، ويحجب المكاتبات عن الخليفة ولا يدعها تصل له، كي لا تصله أي نصيحة، حيث هيأ للخليفة الظروف ألا يسمع إلا من طريق الوزارة وحجب عنه صوت المحيطين به والمراسلين له من خارج البلاد(٥)، فقد كانت الرسائل تصل إلى الوزير ثم يسلمها إلى الخليفة بعد قراءتها(٦)، ويورد بعض المؤرخين أن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل أظهر للمغول تبعيته لهم ومساعدته لهم وفي الوقت نفسه قام بإرسال عدة رسائل للخليفة في العراق يحذره من المغول، حيث كانت تصل رسائله للوزير، ويحجبها عن

---

(١) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢، ص ٢٣٣.

(٢) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ٢٣٠؛ ابن العبري: مختصر الدول، ص٢١؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٠٤؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص ١٧٥؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٥، ص٢٧٠؛ بدران: منادمة الأطلال، ج١، ص٢٢٨.

(٣) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ٨٥.

(*) لقد قام الباحث بمناقشة قضية تغلغل الشيعة في حكومة الخلافة في تلك الحقبة في الصفحات السابقة.

(٤) اليافعي: مرآة الجنان، ج٤، ص١٠٦.

(٥) المصدر نفسه، ج٤، ص١٠٦.

(٦) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢، ص ٢٦٩.

الخليفة فلا تصل إليه كما حجبت رسائل ابن صلايا(*) حاكم إربل عن الخليفة(١)، ويؤكد المؤرخون أن هذه المراسلات لو وصلت للخليفة فلن تجدي لأن الخليفة كان لا يبرم أمراً إلا بمشورة وزيره ابن العلقمي وإذا وصلته رسالة كان يعطيها للعلقمي لدراستها و إبداء رأيه فيها والتصرف(٢)، وذلك لقلة رأي الخليفة وغفلته واعتماده المطلق على الوزير(٣)، ويبدو واضحاً أن الشيعة كانوا حريصين على تغييب الخليفة عن مسرح الأحداث والسيطرة على معظم مرافق ومؤسسات الدولة.

إن خطورة موقف شيعة العراق من سقوط الخلافة الإسلامية لا يكمن في موقف ابن العلقمي نفسه رغم أنه لا يعد شخصاً عادياً فهو من رموز وقيادات الشيعة وألفت لأجله المؤلفات ونظم له شعراء الشيعة شعراً مطولاً(٤)، فابن أبي الحديد نظم له السبع العلويات للوزير الشيعي ابن العلقمي ووضع شرح نهج البلاغة باسم الوزير ابن العلقمي(٥)، ولكن الخطورة تكمن بأن الاتصال بالمغول ومساعدتهم للإطاحة بالخلافة الإسلامية كان موقفاً شيعياً عاماً في العراق ومناطق أخرى، والروايات التاريخية والأحداث تؤكد ما ذهب له الباحث.

فقد جاءت الوفود الشيعية من بغداد والحلة والكرخ تضم كبار فقهاء ومرجعيات الشيعة للمغول أثناء حصار بغداد لمبايعة هولاكو وليضع عليهم أميراً يوجه تحركاتهم وتصرفاتهم وبالفعل أرسل معهم الأمراء، كذلك أرسل المغول مندوبين عنهم أثناء حصار بغداد لأهالي الحلة والكوفة للوقوف على مدى إخلاصهم فوجدوهم قد أقاموا جسوراً على الفرات لمساعدة المغول، كما أقاموا الأفراح ابتهاجاً بقدوم المحتلين، في الوقت نفسه يقوم المغول بذبح أربعين ألف شخص في واسط من السنة وإخضاع البصرة بالقوة(٦)، ويبدو واضحاً أن المغول كانوا يسيرون ضمن رؤية واضحة فهناك مناطق متلاصقة أناس يذبحون وآخرون ينعمون بالأمن والسلامة فمن المرجح أن ذلك كان قائماً نتيجة للاتصالات السابقة، كما يذكر مؤرخ آخر معاصر للأحداث أن سهام المغول كانت تطلق على العراق خاصة بغداد أثناء الحصار مكتوب عليها أن الشيعة

(*) ابن صلايا: هو تاج الدين بن صلايا محمد بن نصر بن صلايا بن يحيى الصاحب تاج الدين أبو المكارم الهاشمي العلوي، وهو نائب إربل للخليفة، وهو شيعي، وكان من رجالات العلم وله رأياً وعقلاً وحزماً وصرامة، قتله هولاكو بعد احتلال العراق. أنظُر: الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٥، ص٨٨؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص١٨١؛ السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٨، ص٢٧٤.

(١) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، مج١، ٨٧؛ السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٨، ص ٢٧٠؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص ١٨١؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٥، ص٢٧٠.

(٢) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، مج١، ص٨٧؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٥، ص٢٧٠؛ بدران: منادمة الأطلال، ج١، ص٢٢٨.

(٣) بدران: منادمة الأطلال، ج١، ص٢٢٨.

(٤) الطهراني: الأنوار الساطعة في المائة السابعة، ج١، ص١٥٠.

(٥) المصدر نفسه، ج١، ص١٥٠.

(٦) أنظُر: الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢، ص ٢٩٦.

آمنون على أنفسهم وأموالهم ونسائهم وبيوتهم[١]، كما أن نجاة كثير من علماء الشيعة دون غيرهم يؤكد ذلك[٢].

ويتفق مع الباحث بعض المؤرخين الأجانب حيث يورد لي سترنج دور سكان العراق من الشيعة وخطورة ذلك في سقوط الخلافة، "وذلك لأن سكان الكرخ والمحلة التي حول مشهد موسى في الكاظمية كانوا من الشيعة، وهم يكرهون الخليفة السني الأمر الذي دفعهم إلى الاتصال سراً بالعدو الكافر"[٣]، ويحاول أحد مؤرخي الشيعة تبرير موقف شيعة العراق في الاتصال بالمغول بأن ذلك سببه ما تعرض له الشيعة في بغداد من سوء معاملة، ويطلق على ذلك "الردة الأخيرة ضد الشيعة واضطهادهم"[٤]، فذلك لا يبرر الاتصال بالمحتل الأجنبي ومساعدته في تحطيم البلاد والحضارة الإسلامية، و إزهاق آلاف أرواح الأبرياء، فهذا تبرير يرفضه المؤرخون الأجانب قبل العرب المسلمين ولا يصفون موقف شيعة العراق إلا بالخيانة[٥].

تميل بعض المصادر الإسلامية إلى إرجاع خيانة ابن العلقمي وشيعة العراق إلى حادثة الكرخ الشهيرة التي تم فيها نهب الكرخ وتخريب مشهد موسى الكاظم على يد أبي بكر بن المستعصم والدويدار، وما تبع ذلك من قسوة وإهانة لحقت بالشيعة[٦]، حيث كانت الخلافات بين الشيعة في العراق والسنة مستمرة، تهدأ ثم تثور، وسبب حادثة الكرخ هو ارتكاب الشيعة جرائم قتل بحق أهل السنة، وكشفت الجرائم أن مرتكبيها الشيعة من أهل حي الكرخ في بغداد، ولم يرتجع الشيعة، فقامت صدامات بين أهل السنة والشيعة في بغداد وتدخل أبو بكر بن الخليفة بفرقة من جيش الخلافة لفك النزاعات فتم إلحاق أضرار كبيرة بأهل الكرخ من نهب وقتل وحرق وذلك لتدخل الجماهير مع الجيش حيث أساء ذلك شيعة العراق وخاصة ابن العلقمي، وأضمر الخيانة والثأر من الدولة العباسية، وبدأ يتصل بالمغول على أثر هذه الحادثة[٧].

ويكشف لنا السبكي عن رسالة للعلقمي أرسلها بعد هذه الحادثة إلى تاج الدين محمد بن صلايا وهو نائب الخليفة بإربل وهو شيعي يشتكي له مما حدث بالكرخ والعترة العلوية "أمور تضحك السفهاء منها ويبكي من عواقبها اللبيب، فلهم أسوة بالحسين حيث نهب حريمه وأريق

---

(١) ابن العبري: مختصر الدول، ص٢٣٧.

(٢) أنظر: الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ٢٣٨؛ أنظر: الطهراني، الأنوار الساطعة في المائة السابعة، ج١، ص٨٨.

(٣) بغداد في عهد الخلافة العباسية، ص٢٩٢.

(٤) الطهراني: الأنوار الساطعة في المائة السابعة، ج١، ص١٥١.

(٥) لي سترنج: بغداد في عهد الخلافة العباسية، ص٢٩٢.

(٦) الجوزجاني: طبقات ناصري، ص٤٢٤-٤٢٨؛ أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج٣، ص٢٠٣؛ النويري، نهاية الإرب، ج٢٦، ص٢٠٦؛ الذهبي دول الإسلام، ج٢، ص١٩٦.

(٧) الجوزجاني: طبقات ناصري، ص٤٤٤؛ أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج٣، ص٢٠٢؛ السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٨، ص ٢٦٣؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٤٦٥.

دمه فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد وقد عزموا لا أتم ا عزمهم ولا أنفذ أمرهم على نهب الحلة(*) والنيل(**) بل سولت لهم أنفسهم أمراً فصبر جميل والخادم قد أسلف الإنذار وعجل لهم الأعذار"[1].

ويبدو أن حادثة الكرخ التي حدثت عام (٦٥٥هـ=١٢٥٧م) لم تكن هي سبب اتصال الشيعة بالمغول، لأن الروايات التاريخية تؤكد وصول جواسيس المغول إلى العراق والاجتماع بالشيعة اجتماعات سرية قبل هذا التاريخ، حيث شهد عام (٦٥٤هـ=١٢٥٦م) عدداً من الاجتماعات والاتصالات السرية بين الطرفين[2].

كما تذكر الروايات التاريخية أن طلائع جيش المغول وصلت قلاع الإسماعيلية وتم الاستيلاء على عاصمة الإسماعيلية ألموت أواخر عام (٦٥٤هـ = ١٢٥٦م)[3]، وبدأ المغول يراسلون الخليفة من أمام قلاع الإسماعيلية في همذان، ويطلب هولاكو من الخليفة المدد والخضوع لسلطته[4].

فمن المرجح أن سياسة المغول تجاه الإسماعيلية وتجاه الخلافة بدأت قبل حادثة الكرخ التي حدثت (عام ٦٥٥هـ = ١٢٥٧م) وهذا يدعم ما ذهب له الباحث أن اتصالات الشيعة بالمغول بدأت قبل حادثة الكرخ الشهيرة.

كما أن عام (٦٤٤هـ=١٢٤٦م) شهد اتصالات بين الطرفين، وكانت السرية تخيم على هذه الاتصالات والاجتماعات[5]، ويفهم من روايات المؤرخين أن هذه الاجتماعات لم تكن هي الأولى من نوعها بل كان هناك اتصالات سرية متبادلة بين الأطراف ومستمرة[6]، ولكن من المرجح أن هذا الحادث قد أثار كوامن الأحقاد على الدولة العباسية[7]، وزاد من وتيرة الاتصالات بل أصبح الشيعة أكثر إصراراً واستعداداً على العمل بل التضحية من أجل زوال دولة الخلافة، ولكنه لم يكن السبب الرئيس بل هناك أسباب أخرى سيقوم الباحث بطرحها ومناقشتها في الفصل الرابع.

(*) الحلة: وهي مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد، كانت تسمى الجامعيين، وأول من عمرها سيف الدولة صدقة بن منصور بن دبيس بن علي بن مزيد الأسدي في العصر السلجوقي سنة (٥٩٤هـ = ١١٩٧م) حيث كانت قبل ذلك مأوى للسباع فبناها وتأنق في بنيانها وقصدها التجار فصارت أفخر بلاد العراق وأحسنها مدة حياة سيف الدولة، أنظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص٢٠٣.

(**)النيل: نهر حفره الحجاج وعمر الأراضي التي حوله، أنظر: ياقوت الحموي: معجم البلاد، ج٥، ص٣٤٨.

(١) طبقات الشافعية الكبرى، ج٨، ص٢٦٣.

(٢) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٤٠٠.

(٣) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢، ص ٢٥٦.

(٤) المصدر نفسه، ج٢، مج٢، ص٢٦٧.

(٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص١٧٥.

(٦) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦، ص٣٥٦.

(٧) الصياد: المغول، ج١، ص٢٥٤.

وهناك شخصية كبيرة ومرجعاً دينياً عند الشيعة، كان له اتصالات بالمغول، ذلك هو الخواجة نصير الدين الطوسي، فقد كان يقيم في قلاع الملاحدة حيث لعب دوراً كبيراً ومهماً في تسليم قلاع الإسماعيلية للمغول، وكذلك كان له دور خطير في غزو المغول للعراق وإسقاط الخلافة الإسلامية هناك[1]، وتكشف الروايات التاريخية أن الطوسي كان له اتصالات بالمغول، حيث عمل هو ومجموعة معه من الشيعة في قلاع الإسماعيلية على صنع شبكة كبيرة من الذين مالوا إلى المغول "مالوا إلى هولاكو خان إلى أقصى حد"[2]، وأخذوا "يتشاورون سراً لكي يجعلوا هذا الملك يخضع لهولاكو على الوجه الأحسن والطريق الأسهل"[3]، وأخذوا يوسعون شبكاتهم في قلاع الإسماعيلية من أجل تنفيذ هذه المهمة الصعبة خاصة أن قلاع الإسماعيلية فشلت في إخضاعها أعتى الدول في التاريخ[4].

ويظهر من روايات الهمذاني أن اتصالات الطوسي وشيعته كانت قديمة وليس تعاون مع الحملة التي جاءت لإسقاط قلاع الإسماعيلية، "ومالوا إلى هولاكو خان إلى أقصى حد ، ومن قبل كانوا يرغبون في ذلك"[5]، ونتج عن هذه الاتصالات "فصاروا يتشاورون سراً"[6]، وبدأ الطوسي يعمل بلا مال في سبيل تحقيق المهمة الموكلة إليه من المغول، وعندما وصلت حملة المغول بقيادة هولاكو إلى مشارف قلاع الإسماعيلية، بدأ الطوسي يمارس دوره هو والقاعدة الكبيرة التي كونها في دولة الإسماعيلية، خاصة أنهم من طبقة مثقفة تضم العلماء والأطباء[7]، وبالتهديد والترغيب استطاع الطوسي إقناع خورشاه كبير الإسماعيلية بعدم جدوى المقاومة وضرورة فتح باب الحوار مع المغول والاتصال بهم، فقام بإرسال الطوسي مع وفد من الوزراء والأعيان والأئمة إلى هولاكو للتباحث وثني المغول عن غزو قلاع الإسماعيلية، وعندما وصلوا أنزلهم المغول في أماكن متفرقة وتحدثوا مع كل واحد منهم على انفراد[8]، ويبدو أن المغول لا يرغبون أن يطلعوا باقي الوفد على ما يتم الاتفاق عليه مع الطوسي، ومن المرجح أن هذا اللقاء كان فرصة ثمينة للمغول والطوسي للاتفاق على الخطوات اللاحقة.

وتؤكد رواية الهمذاني رأي الباحث: أن خورشاه نزل في عام (٦٥٤هـ=١٢٥٦م) من قلاعه بناء على مشورة الطوسي وذلك بعد زيارة الأخير لهولاكو مباشرة[9]، ويرى الباحث أن الطوسي قدم للمغول خدمة عظيمة، حيث استطاع تأمين دخولهم لقلاع الإسماعيلية دون عناء،

(١) أنظر: الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢، ص ١٨٤-١٨٦.
(٢) المصدر نفسه ، ج٢، مج٢، ص ١٨٦.
(٣) المصدر نفسه ، ج٢، مج٢، ص ١٨٦.
(٤) المصدر نفسه ، ج٢، مج٢، ص ١٨٦.
(٥) المصدر نفسه، ج٢، مج٢، ص١٨٤-١٨٦.
(٦) المصدر نفسه، ج٢، مج٢، ص١٨٤-١٨٦.
(٧) المصدر نفسه، ج٢، مج٢، ص١٨٤.
(٨) المصدر نفسه ، ج٢، مج٢، ص٢٥٤.
(٩) المصدر نفسه، ج٢، مج٢، ص١٨٤؛ اليونيني: ذيل مرآة الزمان، مج١، ص٢٦.

وتظهر قيمة وخطورة مهمة الطوسي من رواية الهمذاني أنه: لولا الطوسي لمكث هولاكو أمام قلاع الإسماعيلية سنوات ثم فشل كما فشلت قوى كثيرة من قبل، "وإلا فإن عليه أن يقضي سنوات عديدة حتى يتيسر فتحها"(١).

ويبدو أن الطوسي قد أنجز المهمة بكل جدارة واقتدار لذلك اتخذه هولاكو مستشاره الأول بعد ذلك مباشرة "ولما تأكد هولاكو من صدق وإخلاص الخواجة نصير الدين الطوسي ... شملهم بعطفه وإنعامه وأعطاهم الخيول اللازمة لحمل أهلهم ومواليهم وأقاربهم مع أتباعهم وخدمهم وأشياعهم، وأخرجهم من القلعة وألزمهم حضرته هم وابناؤهم حتى اليوم ملازمون للحضرة ومقربون من هولاكو خان وأفراد أسرته المشهورين"(٢)، وأصبح نصير الطوسي المستشار الأول لهولاكو، بل رسائل هولاكو بعد انضمام الطوسي له أصبحت من مهام الطوسي فالرسالة التي وجهت إلى الخليفة ويعاتب فيها الخليفة بعدم إرساله قوات عسكرية لمساندة المغول أثناء حصارهم للإسماعيلية، ويطلب فيها من الخليفة إرسال ثلاثة من كبار رجال الدولة الوزير والدويدار وسليمان شاه، ويهدد الخليفة في حالة رفضه فليعد ساحات القتال واستخدم في الرسائل مصطلحات إسلامية مثل "وإلا سيرى كيف ستكون إرادة ا "(٣)، وبتحليل الرسالة يظهر أن كاتب الرسالة يعتبر ما يفعله هولاكو هو واجب ديني بل إن ذلك إرادة ا ، كذلك تحتوي الرسالة على معلومات دقيقة عن تركيبة الدولة العباسية حيث طلب مقابلة أكبر ثلاثة رجال في الدولة، كما أن الرسالة احتوت على سرد تاريخي للدولة العباسية وعلاقتها بالسلاجقة والبويهيين(٤).

ويبدو أن هذه الرسائل كاتبها مسلم، ومن المرجح أن يكون نصير الطوسي هو كاتبها فهو من تولى كتابة رسائل هولاكو بعد سقوط قلاع الإسماعيلية على يديه وانضمامه إلى هولاكو، وهناك رواية تؤكد ما ذاهب إليه الباحث، حيث يذكر الهمذاني أن الرسالة التي أرسلت إلى حاكم حلب بعد غزو المغول للعراق وارتكابهم المجازر كانت من كتابة الطوسي "أما بعد فقد نزلنا بغداد سنة ست وخمسين وستمائة فساء صباح المنذرين، فدعونا مالكها فأبى فحق عليه القول فأخذناه أخذا وبيلا وقد دعوناك إلى طاعتنا فإن أتيت فروح وريحان، وإن أبيت فخزي وخسران فلا تكن كالباحث عن حتفه بظلفه، والجادع مارن أنفه بكفه فتكون من الأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، فما ذلك على ا بعزيز والسلام على من اتبع الهدى"(٥)، وبتأمل هذه الرسالة يظهر أسلوب الرسائل نفسه التي أرسلت للخليفة العباسي بعد انضمام الطوسي لهولاكو، حيث يستخدم الكاتب مصطلحات القرآن

(١) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢، ص ٢٥٥-٢٥٦.
(٢) المصدر نفسه، ج٢، مج٢، ص٢٥٥-٢٥٦.
(٣) المصدر نفسه، ج٢، مج٢، ص٢٩٦.
(٤) المصدر نفسه، ج٢، مج٢، ص٢٩٦.
(٥) المصدر نفسه، ج٢، مج٢، ص ٢٩٦.

وكذلك يعتبر أن غزو المغول هو قدر ا وإرادته بل هو الهدى، فمن المرجح أن الطوسي هو من كان يكتب الرسائل المرسلة من المغول إلى الخليفة العباسي، خاصة أنه في هذه الرسالة يقول عن الخليفة "فحق عليه القول فأخذناه أخذاً وبيلاً"(*)[1]، وتظهر أهمية الطوسي عند المغول وعلاقته من رواية الهمذاني، حيث أن الخان الأعظم للمغول في العاصمة عندما ودع أخاه هولاكو أوصاه بأن يرسل إليه الخواجة نصير الدين الطوسي بعد أن يستولي على قلاع الإسماعيلية "فلما أن كان منكو يودع أخاه، كلفه بأن يرسل إليه الخواجة نصير الدين بعد أن يستولي على قلاع الملاحدة"[2]، فمن المرجح أن الرجل له مكانة عظيمة عند المغول جعلت آخر كلمات الخان الأعظم للجيش الفاتح تكون الوصاية على الطوسي فقد شغلت شخصيته حيزاً كبيراً من الأهمية عند قيادة المغول، في أضيق المواقف والأوقات.

وأحد المؤرخين يرجح أن من أسباب غزو المغول للإسماعيلية، هو اتصال الإسماعيلية بفرنسا وإنجلترا ومحاولتهم تكوين حزب ضد المغول[3]، ومن المرجح أن الطوسي كانت له خدماته الجليلة للمغول في تلك المواقف حيث نبه المغول لذلك، ومن هنا كانت التوصية عليه من إمبراطور المغول في العاصمة.

ولقد انبرى أحد المؤرخين الشيعة لإبعاد التهمة الموجهة لشيعة العراق باتصالهم بالمغول، فحسن الأمين ينفي التهمة الموجهة للشيعة بأنهم اتصلوا بالمغول، وحجته أن المغول لديهم مشروع للسيطرة على العالم بدأه جنكيز خان وتم الاستيلاء على أماكن عظيمة من العالم مثل الصين ووسط آسيا وإيران وأوروبا الشرقية وبقيت بلاد الإسماعيلية ومصر والعراق وسوريا جيباً جغرافياً وعسكرياً كان لا بد من الاستيلاء عليه وهذا ما قام به هولاكو، ويشارك مؤرخ آخر حسن الأمين الرأي[4].

والباحث يخالف الأمين الرأي، فإذا كان سبب سقوط بغداد هو مشروع المغول الاستعماري لاحتلال العراق وسوريا ومصر فما تفسير حسن الأمين لسقوط العراق بهذه السرعة وعدم سقوط مصر؟! بل إن الجيش الذي اجتاح العراق وارتكب المجازر هو نفسه الجيش الذي هُزم في عين جالوت على يد جنود مصر بعد عامين فقط، إنها خيانة الشيعة التي تعرض لها العراق إذ وجد المغول من يتصل بهم ويساعدهم في تسهيل مهمتهم ولم يجدوا ذلك في مصر، والجدير بالذكر أن مصر كانت تعيش ظروفاً سياسيةً أصعب من الظروف التي تعيشها

(*) للمقارنة بين الرسالتين أنظر: ملحق رقم (٩)، الذي يحتوي على رسالة الطوسي التي كتبها بخط يده، وملحق رقم (١٥)، الذي يحتوي على الرسالة الثانية التي رجح الباحث أنها من صناعة الطوسي.

(١) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢، ص٢٩٦.

(٢) المصدر نفسه، ج٢، مج٢، ص٣٠٣.

(٣) العريني: المغول، ص٢١٠.

(٤) الأمين: الاسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي، ص ٢٨٣؛ حسن: تاريخ الإسلام، ج٤، ص١٦٢.

العراق[1]. ومن المرجح أن اصطفاف كل فئات المجتمع في مصر خلف المقاومة، وتنقية الصف من كل الشوائب هو ما حقق النصر وليس قوة جيش مصر.

ويستند هؤلاء المؤرخون إلى رواية الهمذاني، وهي أن الخان الأعظم للمغول قد كلف هولاكو -عندما سلمه قيادة الجيش الذي أرسله لفتح الغرب- بفتح الرقعة الممتدة من جيحون وحتى أقاصي بلاد مصر[2]، وهذه الرواية لا تبرئ الشيعة من تهمة الخيانة العظمى للبلاد، فهل كان مشروع المغول قدراً على المسلمين ويجب مساعدة المغول؟ أولم تكن مصر ضمن المشروع؟ فلماذا لم تسقط مصر كما سقطت العراق؟! فبعض المؤرخين الأجانب يرى أن سبب سقوط الخلافة هو عداوة الشيعة الفرس لها[3].

ويرى أحد الباحثين أن الهمذاني يورد روايات الشيعة الفرس[4]، ويرى آخر أنه كان يكتب باسم سلطة المغول، إذ كان أحد وزرائهم فيما بعد[5]، كما أن الهمذاني من أصل يهودي وتوفي والده على دين اليهودية[6]، ويرتكز الشيعة على روايات الهمذاني في أحداث العراق "وحين نريد الاعتزاز بما جرى لا نجد أمامنا ما يمدنا بمثل ما أمدنا به رشيد الدين في كتابه"[7]، ومن المؤكد أن روايات رشيد الدين الهمذاني لا يمكن الاطمئنان إليها لأنها روايات غير محايدة فهو يتحدث باسم سلطة الاحتلال المغولي للعراق، ويعمل جاهداً على تحسين صورة المحتل والمتعاونين معه من الشيعة، وهذا ما ذهب إليه المؤرخ عماد الدين خليل[8].

وينفي بعض مؤرخي الشيعة تهمة الاتصال بالمغول عن ابن العلقمي والطوسي وشيعة العراق كلياً بحجة أن جميع المؤرخين الذين يتهمون الشيعة بالاتصال بالمغول هم من السنة كما أنهم لم يعاصروا الحادثة مكانياً، وإن عاصرها بعضهم زمانياً مثل أبي شامة عبد الرحمن بن إسماعيل ت:(٦٦٥هـ=١٢٦٦م)، ولكنه كان في الشام والحادثة في العراق أي لم يعاصرها مكانياً[9].

والجدير بالذكر أن هناك مؤرخين من علماء الشيعة معاصرين للحادثة قد اعترفوا صراحةً بالدور الذي لعبه الشيعة في اتصالاتهم بالمغول مثل القاضي نور ا الششتري حيث

---

(١) أنظر: ابن كثير: البداية والنهاية، ح١٣،ص٢١٥.
(٢) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢، ص ٢٣٦-٢٣٧.
(٣) شبولر: العالم الإسلامي، ص١٥.
(٤) العريني: المغول، ص٢١٥.
(٥) شلبي: التاريخ الإسلامي، ج٨، ص١٣١.
(٦) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١٧، ص٣٤٣؛ شبولر: العالم الإسلامي، ص٧٥.
(٧) الأمين: دائرة المعارف الشيعية، ج٤، ص٣٩٣.
(٨) الوحدة والتنوع في تاريخ المسلمين، ص١٤٠.
(٩) الأمين: الاسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي، ص ٢٨٣؛ الساعدي: مؤيد الدين بن ابن العلقمي وأسرار سقوط الدولة العباسية، ص٦٥.

قال: "إنه كاتب هولاكو والخواجة نصير الدين الطوسي وحرضهما على تسخير بغداد للانتقام من العباسيين بسبب جفائهم لعترة سيد الأنام صلى ا عليه وسلم وآله" [١].

كما أن هناك شهادة مهمة لأحد كبار المؤرخين تتوفر فيه ثلاث صفات أولاً: أن الشيعة يعدونه من رجالهم، والثانية : أنه من بغداد، والثالثة أنه متوفي سنة (٦٧٤هـ=١٢٧٥م) فهو شيعي بغدادي معاصر للحادثة مكاناً وزماناً، وذلك هو الإمام الفقيه علي بن أنجب المعروف بابن الساعي الذي شهد بدور ابن العلقمي وشيعة العراق فقال: "وفي أيامه [يعني المستعصم] استولت التتار على بغداد، وقتلوا الخليفة، وبه انقضت الدولة العباسية من أرض العراق، وسببه أن وزير الخليفة مؤيد الدين ابن العلقمي كان رافضياً"[٢]. ثم ساق بقية القصة[٣]، والجدير بالذكر أن ابن الساعي ذكره محسن الأمين من رجال الشيعة فقال: "علي بن أنجب البغدادي المعروف بابن الساعي له أخبار الخلفاء (٦٧٤هـ=١٢٧٥م)"[٤].

وقد درس هذا الموضوع عدد من الباحثين الأجانب وتوصلوا إلى ما توصل إليه الباحث[٥] من وجود هذه الاتصالات ومن هؤلاء براون إذ يقول: "ويجب ألا يغيب عن أذهاننا أن ابن العلقمي وكذلك نصير الدين الطوسي كانا من الشيعة وأن الثاني منهماً رغم كتابته في الموضوعات الأخلاقية والدينية قد أنكر جميل مضيفيه من الإسماعيلية كما ساعد على الإيقاع بالخليفة في سبيل أن يرضي فاتحاً وثنياً سفاكاً للدماء"[٦].

في حين يرى كارل بروكلمان "أن هولاكو ما كان في حاجة إلى أن يُحَرضَ من الشيعة الفرس كالطوسي مثلاً، على قصد بغداد والاستيلاء على هذه الغنيمة الباردة" [٧]، وكأنّ بروكلمان يقلل من أهمية الطوسي لهولاكو في حملاته ضد الخلافة في العراق، ويخالفه الباحث في ذلك، فالطوسي هو المستشار الأول لهولاكو، وكذلك هو المناور، والمتحدث باسم جيوشهم كما أنه كاتب الرسائل، كما أنه المفتي في الأرواح[٨]، والمنظر الأول لسياسة المغول في المنطقة، والمنسق بين الشيعة والمغول لتوحيد الجهود خاصة أنه أحد كبار علماء فرقة الاثنى عشرية الشيعية[٩]، وهذا يدحض ادعاء المؤرخين الشيعة عندما يدعون أن الطوسي كان مرغماً عندما

(١) مجالس المؤمنين، ص٤٠٠.
(٢) أنظر: مختصر أخبار الخلفاء، ص١٣٦-١٣٧.
(٣) المصدر نفسه، ص١٣٦-١٣٧.
(٤) أعيان الشيعة، ج١، ص٣٠٥.
(٥) شبولر: العالم الإسلامي في العصر المغولي، ص١٥؛ براون: تاريخ الأدب في إيران، ج٢، ص٥٨٨؛ رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص٥١٨.
(٦) براون: تاريخ الأدب في إيران، ج٢، ص٥٨٨.
(٧) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٣٩٠.
(٨) أنظر: الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢، ص ٢٧٩-٢٨٠.
(٩) المصدر نفسه، ج٢، مج٢، ص٢٦٨-٢٦٩.

رافق هولاكو[1]، كذلك يناقض حسن الأمين نفسه، فهو يذكر أن الطوسي أصبح مشرفاً على الأوقاف الإسلامية ولديه حرية التصرف بمواردها هذا في دولة الاحتلال المغولي في العراق وإيران، كما أصبح مسئولاً عن التعليم في البلاد، وصارت له مكانة عالية عند هولاكو، جعلته يعفو عن الكثيرين الذين لولاه لقتلوا [2].

ودافع المؤرخ الشيعي ابن ابي طباطبا عن شيعة العراق وحاول تبرئتهم من تهمة الخيانة والاتصال بالمغول، وألقى بالتبعية كلها على ضعف الخليفة وظلم ابنه أبي بكر، ونفاق الأمراء وقادة الجيش وتنازعهم، حيث راح يكيل المدح للوزير ابن العلقمي ويصفه بالمهارة والكفاءة وينفي عنه التهمة بحرارة وحماس فيقول: "ونسبه الناس إلى أنه خامر[*]، وليس ذلك بصحيح، ومن أقوى الأدلة على عدم مخامرته سلامته في هذه الدولة، فإن السلطان هولاكو لما فتح بغداد وقتل الخليفة سلم البلد إلى الوزير، وأحسن إليه وحكمه، فلو كان قد خامر على الخليفة لما وقع الوثوق إليه"[3]، ثم أخذ ابن طباطبا يصف دور ابن العلقمي أثناء اجتياح المغول للعراق فسرد رواية سمعها عن أحمد بن الضحاك ابن أخت الوزير مفادها أن ابن العلقمي ظل وفياً للخليفة إلى آخر لحظة، وأنه لم يلب دعوة هولاكو إلا تحت ضغط الخليفة، وأن هولاكو لما استمع إليه، وقع منه موقع الاستحسان، فلما فتحت العراق سلمها إليه، وإلى علي بهادر[**] الشحنة [***]، ولكن لم يلبث الوزير إلا شهوراً قليلة مرض على أثرها ومات في جمادى الأولى سنة (٦٥٦هـ=١٢٥٨م)[4].

ويلاحظ أن ابن طباطبا سعى جاهداً لدفع تهمة الخيانة عن شيعة العراق وابن العلقمي خاصة وذلك لأن هذا الكاتب الشيعي المستنير، قد أحس بفداحة الجرم الذي أقدم عليه هؤلاء، حيث كان اتصالهم بالمغول سبباً في ضياع دولة وذهاب شخصية لها مقام ديني كبير في نفوس المسلمين، خاصة أن ذلك تم على أيدي قوم من الكفرة[5]، ويرى الباحث وبالإضافة إلى تعصب ابن طباطبا إلى المذهب الشيعي الذي أفقده عنصر الموضوعية التاريخية، فإن ابن طباطبا قام بالانتهاء من كتابة تاريخه المسمى الفخري في الآداب السلطانية عام (٧٠١هـ=١٣٠١م)[6]، أي

(١) الأمين: الاسماعيليون والمغول، ص٢٢٦.
(٢) المصدر نفسه، ص٤٤-٤٥.
(*) خامر: أي خالطه، ويقال خالطه داء، أنظر: ابن منظور: لسان العرب، ج٤، ص٢٥٤.
(٣) الفخري في الآداب السلطانية، ص٢٢٧.
(**)علي بهادر: وهو خوارزمي الأصل وهو أول من وُلّي العراق لهولاكو، وكان ظالماً وهو صاحب دهاء ومكر قتله التتار لأمور نقموها عليه سنة (٦٦١هـ = ١٢٦٢م)، أنظر: الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١٠، ص١٨٥.
(***) الشحنة: في اللغة أي شحن البلد بالخيل ملأه، وشحنة الكورة، من فيهم الكفاية لضبطها من أولياء السلطان، أنظر: ابن منظور: لسان العرب، ج١٣، ص٢٣٤.
(٤) الفخري في الآداب السلطانية، ص٣٣٨.
(٥) الصياد: المغول، ج١، ص٢٧٤.
(٦) ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية: ص٣٣٨.

أنه كان يكتب وهو تحت سلطة الاحتلال المغولي التي كان وزراؤها من الشيعة، ومن المؤكد أنه لا يستطيع أن يكتب الحقيقة لأنه تحت الاحتلال(١)، فضلاً عن أنه متهم بالتحيز في رواياته لصالح الشيعة(٢)، ولو كان ابن العلقمي مخلصاً للخليفة وفياً له كما يزعم ابن طباطبا لما سلم من بطش هولاكو الذي قتل مئات الألوف من المسلمين. وقد أحاط المغول ابن العلقمي بمراقبين من المغول خوفاً من طبع الخيانة المجبول عليه والذي لاحظوه واضحاً في خيانته الكبرى لدينه وأمته ووطنه وخليفته(٣)، ويؤكد النويري أن ابن العلقمي تلقى توبيخاً كبيراً من المغول بعد إنجاز مهمته واحتلال العراق(٤)، ويروي السيوطي أن ابن العلقمي لاقى من المغول الذل والهوان(٥)، وهذا هو المصير الذي ينتظر الخائنين حتى عند من باعوا انفسهم لهم من الأعداء(*).

لقد ارتكب شيعة العراق جرماً بحق أمتهم، ودينهم ودولتهم وحضارتهم بتآمرهم مع المغول، حيث كانوا سبباً رئيساً في سقوط الخلافة الإسلامية بعد أن أشرقت شمسها على العالم لأكثر من خمسة قرون(٦)، ولكن الجرم يتعاظم ويصبح أكثر فداحةً عندما تتحدث الروايات التاريخية أن هولاكو بعد خروجه من عاصمة المغول قرا قورم متوجهاً إلى قلاع الإسماعيلية، تعرض له بركة خان(**)(٧)، يريد أن يثنيه عن التوجه إلى الخلافة الإسلامية، لأن بركة خان كان قد أسلم على يد الباخرزي أحد مشايخ الصوفية وأوصاه بالخليفة المستعصم، وكتب بركة إلى الخليفة يعرفه بذلك ويؤكد أنه معاضده ومناصره، "فمر هولاكو على بركة قاصداً بغداد فاعترضه بركة ومنعه من ذلك وقال: إن الخليفة صاحبي فلا سبيل إلى وصولك إليه، وإن لم ترجع عنه حاربتك فتوقف هولاكو حينئذ عن قصد بغداد سنتين"(٨)، ويذكر القلقشندي في موضع آخر أن جيوش المغول انطلقت إلى العراق بناءً على اتصالات شيعة العراق بهم(٩)، ويروي ابن خلدون أن هولاكو قد هزم أمام بركة خان وفقد معظم جنوده "فانهزم هولاكو وهلك عامة

---

(١) حسن: تاريخ الإسلام، ج٤، ص١٦٢.
(٢) براون: تاريخ الأدب في إيران، ج٢، ص٥٨٧.
(٣) تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص٥٢٢.
(٤) نهاية الإرب في فنون الأدب، ج٢٦، ص١٧٠.
(٥) تاريخ الخلفاء، ص٤٧٢-٤٧٣.
(*) سيقوم الباحث بمناقشة هذه القضية في الفصل الرابع بالتفصيل فهي في صلب الفصل الرابع.
(٦) الخضري: تاريخ الأمم الإسلامية، ج٢، ص٤٨٢.
(**) بركة خان: هو بركة بن توشي بن جنكيز خان، أسلم على يد الشيخ الباخرزي وحسن إسلامه حيث كان متزوجاً من عشرات النساء فأبقى على أربعة منهن فقط حسب الشريعة الإسلامية، وكان يحب العلماء ويكرمهم، وتوفي سنة (٦٦٥هـ = ١٢٦٦م)، أنظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص٣٦٦.
(٧) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص٦١٢.
(٨) القلقشندي: مآثر الأناقة، ج٢، ص٩٠.
(٩) المصدر نفسه، ج٥، ص٦١٢.

عسكره"[1]، لذلك ارتد هولاكو إلى بلاد الإسماعيلية، عندها توالت رسائل شيعة العراق لهولاكو يستحثونه للمسير إلى بغداد ويسهلون عليه أمرها[2].

ومن الواضح أن هولاكو كان متردداً في التوجه إلى العراق بعد هزيمته أمام بركة خان وفقدانه معظم عساكره، لذلك قام الشيعة بالاتصال به وتشجيعه، ونحن نفهم هذا الحث والتشجيع من صيغة الروايات التي أوردها المؤرخون، إذ يقول الذهبي: "فكاتبه [ابن العلقمي] وجسره وقوى عزمه على قصد العراق"[3]، ويقول الكتبي: "وأخذ يكاتب التتار إلى أن جر هولاكو وجرأه على أخذ بغداد"[4]، وهذا يفسر تردد هولاكو وهو على أبواب العراق عندما عقد اجتماعاً استشارياً للمنجمين في محاولة منه للإطلاع على مصيره المجهول ولكن الفضل يعود لأحد علماء الشيعة الذي أكمل دور شيعة العراق وأخذ يدفع بهولاكو ويجسره ويبسط له الأمور ويرد على استفساراته ويدحض إدعاءات الآخرين بالحجج والبراهين التاريخية والمنطقية إلى أن "أضاء قلب الملك"[5].

إن هذا الموقف الخياني لساسة الشيعة وعلمائهم تذكرنا بموقفهم اليوم من الإحتلال الأمريكي، فساستهم وعلماؤهم هم الذين شجعوا الأمريكان وساعدوهم على احتلال العراق، وهم الذين حرضوهم على قتل السنة، وشاركوا معهم في ذلك، وقد كوفئوا مثلما كوفئ أجدادهم بحكم محلي هزيل.

(١) تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص٦١٢.
(٢) المصدر نفسه، ج٥، ص٦١٢.
(٣) سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص ٣٦٢.
(٤) فوات الوفيات، ج٢، ص ٢٥٦.
(٥) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢، ص ٢٧٩.

المبحث الثاني

تهيئة البلاد للسقوط

لقد اعتمد برنامج شيعة العراق في إسقاط الخلافة الإسلامية على تهيئة البلاد للسقوط، حيث أثبتت الأحداث التاريخية أنه ليس بمقدور جيوش المغول إسقاط الخلافة الإسلامية والقضاء عليها[1]، وهي تمتلك هذه القوة العسكرية المنظمة[2]، وكذلك القوة الروحية التي تشد نحوها قلوب جميع المسلمين في الأرض[3]، كذلك ما تمتلكه الخلافة من قوة اقتصادية، قائمة على الزراعة والتجارة، إضافة إلى قوة العقيدة للمسلمين الذين شعارهم الموت في سبيل ا أسمى أمانينا[4].

ويبدو أن مخطط الشيعة سار حسب هذه المعطيات فعمل الشيعة على وصول الرجل الشيعي القوي للوزارة، بوجود خليفة ضعيف، ثم عملوا على عزل الخليفة عن مسرح الأحداث، وتقوية الشيعة وإضعاف السنة في العراق، لتتم بعد ذلك باقي الخطوط وهي تدمير الجيش والاقتصاد وإشاعة الفوضى وجعل بغداد مسرحاً للفلتان الأمني، ونشر ثقافات جديدة قائمة على المهادنة والمسالمة للعدو، عند ذلك ستكون البلاد فريسة سهلة للغزاة الوثنيين.

خطوات مرحلة التهيئة

بدأت أولى خطوات الخطة عندما توفى الخليفة المستنصر با ، إذ ساعد بعض كبار رجال الدولة وخصوصاً من الشيعة في وصول المستعصم لسدة الخلافة رغم ضعفه ولينه، وفقدانه كثيراً من الصفات التي تؤهله ليملأ هذا المنصب في أصعب حقبة تمر بها الخلافة العباسية منذ خمسة قرون[5]، ويؤكد الذهبي أن سبب تقديم المستعصم للخلافة هو "لينه وانقياده وضعف رأيه ليستبدوا بالأمور ثم استوزر المؤيد ابن العلقمي الرافضي فأهلك الحرث والنسل"[6]، ويجمع أغلب المؤرخين أن ابن العلقمي كان رجلاً خبيراً يتميز بالمكر والدهاء[7]، وقد أخذ يستبد بحكم البلاد[8]، ووضح الباحث في المبحث الأول من هذا الفصل كيف وصل ابن العلقمي للوزارة ودور الشيعة في وصوله لها وكذلك دورهم في وصول المستعصم للخلافة

---

(١) أنظر: الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ٩٩، ١٦٢، ٩٠؛ أبو الفداء: تاريخ أبو الفداء، ج٢، ص٢٧٩؛ ابن العبري: تاريخ الزمان، ص٢٨٩.
(٢) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، مج١، ص٨٦.
(٣) العريني: المغول، ص٢١٤؛ رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص٥١٨.
(٤) زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، ج٢، ص١٧٢-١٧٥.
(٥) ابن العبري: مختصر الدول، ص٢٢١؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص ١٧٥.
(٦) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص ١٧٥.
(٧) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١، ص ١٥١؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص ١٧٥؛ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج٣، ص٦٦٢.
(٨) القلقشندي: مآثر الأناقة، ج٣، ص٨٩.

وحرفها عن الخفاجي رجل الدولة القوي، والجدير بالذكر أن الوزير السابق القمي هو خال الوزير ابن العلقمي ووالد زوجة ابن العلقمي[١]، وبدأ ابن العلقمي يسلب الخليفة المستعصم صلاحياته الواحدة تلو الأخرى ففي عام (٦٤٥هـ=١٢٤٧م) أصبح الوزير ابن العلقمي وهو من يقوم بتكليف أحد كبار الطوائف ليكون مسئولاً عن الطائفة حيث بدأ بتكليف أحد أعيان اليهود ليكون زعيماً للطائفة وحدد له مهماته رغم أن الخليفة المستنصر والد المستعصم هو من كان يفعل ذلك بنفسه[٢]، ويقول أحد المؤرخين عن ابن العلقمي في معرض حديثة عنه: "وقد حصل له من التعظيم والوجاهة في أيام المستعصم ما لم يحصل لكثير من قبله من الوزراء"[٣]، ويؤكد ذلك أيضاً ابن كثير[٤]، والغريب أن بعض المؤرخين عندما يتحدث عن ابن العلقمي يذكره بأنه ملك[٥]، ويبدو أن اتساع سلطات هذا الوزير هو ما دفع المؤرخين بأن ينعتوه بالملك، ويرى بعض المؤرخين المعاصرين أن ضعف شخصية الخليفة هي التي ساعدت هذا الوزير بالاستفراد في الحكم والتفرد بالقرارات[٦].

ويتحدث ابن خلدون عن الوزير فيقول: "وعظم شأن الوزير وصارت إليه النيابة في إنفاذ الحل والعقد، وتعينت مرتبته في الدولة وعنت لها الوجوه، وخضعت لها الرقاب، وجعل لها النظر في ديوان الحسبان، لما تحتاج إليه خطته من قسم الأعطيات في الجند، ما احتاج إلى النظر في جمعه وتفريقه، وأضيف إليه النظر فيه ثم جعل له النظر في القلم والترسيل لصون أسرار السلطان، ولحفظ البلاغة لما كان اللسان قد فسد عند الجمهور جعل الخاتم لسجلات السلطان ليحفظها من الذياع والشياع ودفع إليه فصار اسم الوزير جامعاً لخطتي السيف والقلم وسائر معاني الوزارة والمعاونة"[٧]، لذلك اتسمت المرحلة الأخيرة من عمر الدولة العباسية بمرحلة سيطر فيها الوزراء[٨]، ولكن صلاحيات الوزير ابن العلقمي فاقت صلاحيات جميع الوزراء في تاريخ الدولة العباسية، فقد قام أحد المؤرخين بتقسيم الوزارة إلى أربعة مراحل حسب عصور الدولة العباسية وخرج بأن الوزير ابن العلقمي تمتع بالسلطة والصلاحيات بمستوى لم يصل له وزير آخر على مدار تاريخ الدولة العباسية، ويرجح هذا المؤرخ أن ذلك سهل على المغول إسقاط الخلافة واحتلال العراق بعد تسهيل الوزير ابن العلقمي لهم المهمة[٩].

(١) الطهراني: الأنوار الساطعة، ج١، ص١٥٠.
(٢) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ١٧٤.
(٣) العيني: عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص ٢٠٢.
(٤) البداية والنهاية، ج١٣، ص٢١٣.
(٥) اليافعي: مرآة الجنان، ج٤، ص١٠٥.
(٦) الرفاعي: الإسلام في حضارته ونظمه، ص١٠٩.
(٧) ابن خلدون: المقدمة، ص٢٣٨.
(٨) محمود: الحركات السرية في الإسلام، ص١١٥.
(٩) عبد المعطي: تاريخ العلوم والحضارة، ص٦٤-٦٥.

ولقد أصبح دور الخليفة شكلياً والوزير هو من سيطر على كل الأمور[1]، حيث عمل جاهداً على عزل الخليفة عن الحكم وتطورت الأحداث الخارجية والسياسية، وحجب عنه كل وسائل الاتصال مع العالم الخارجي فكانت رسائل الأمراء والحكام تصل لابن العلقمي ولا تصل للخليفة ويقرأها الوزير ويرد عليها ويتصرف حسبما يريد ولا يطلع الخليفة إلا على ما أراد أن يطلعه عليه[2]، ويذكر المؤرخون أن بعض الحكام حاولوا مرات عدة تنبيه الخليفة لما يدور حوله، وعندما كانت جيوش المغول تقترب أرسل صاحب الموصل عدداً من الرسائل للخليفة ولكنها كانت تصل لابن العلقمي وكذلك فعل صاحب إربل ابن صلايا ولكن لم تصل رسائله للخليفة الذي كان يغرق في خيالاته، التي أوهمه بها ابن العلقمي، وكان الخليفة يعتقد أن حكم العباسيين مستمر إلى يوم القيامة وأن جميع القوى التي تحاول مهاجمة الخلافة إلى زوال، وسيكون مصيرها مثل مصير البويهيين والسلاجقة والخوارزميين[3]، كما اعتمد الخليفة على القوة المعنوية للخلافة العباسية داخل بغداد لذلك كان يقول: "إن بغداد تكفيني"[4]، وأصبح الخليفة مشغولاً بتربية الحمام، ورياضة الصيد بالبندق[5].

في الوقت نفسه كان الشيعة في العراق يسيرون ضمن مخطط مدروس لتدمير البلاد وإضعافها وتنشيط اتصالاتهم بالمغول لإطلاعهم على الأوضاع داخل العراق وتنسيق الأدوار فيما بينهم، فقد رصد المؤرخون تبادل الاتصالات بين المغول والشيعة في العراق في ذلك الوقت[6]، وربما هذا يفسر إعدام المغول لابن صلايا رغم أنه شيعي[7]، فمن المرجح أن ابن العلقمي قد أبلغ قيادة المغول باتصال ابن صلايا حاكم إربل بالخليفة العباسي، ولم تفلح نداءات الداخل والخارج في إيقاظ الخليفة أو إخراجه من عزلته[8]، ولقد تجرد بعض الشعراء يخاطبون الخليفة ويحذرونه مما يحدث حوله وهو غافل فهذا علوان بن المقنع يخاطب أمير المؤمنين،

"أمير المؤمنين عليـ ـ ـك منـ ـي	سلام ا ما ناح الحمـ ـام
تحيـ ـ ـة حـ ـافظ للعهـ ـد راع	كنشر الروض باكره الغمام
أرى خلل الرمـ ـاد ومـ ـيض جمر	ويوشك أن يكون له ضرام
فإن النـ ـار بالعوديـ ـن تذكـ ـى	وإن الحرب أوله الكـ ـلام
وإن لم يُطْفِها عـ ـقلاء قـ ـ ـوم	يكون وقودها جثث وهـام

---

(١) العش: تاريخ عصر الخلافة، ص١٧١.
(٢) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٨، ص ٢٧٠؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص ١٨١.
(٣) الهمذاني: جامع التواريخ، ج١، مج٢ ص٢٧٥.
(٤) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٢٥٥.
(٥) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص١١٩؛ ابن العبري: تاريخ الزمان، ص٢٨٩.
(٦) أنظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص ١٧٧؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦، ص٣٥٦؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٥، ص٢٧٠.
(٧) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، مج١، ص٨٧.
(٨) اليافعي: مرآة الجنان، ج٤، ص١٠٦.

فقل لبني أمية لـ ـيت شـ ـعري | أيقظان أميـ ـة أم ينـ ـام
وقد ظهر الخرسـ ـ ـاني معـ ـه | بنو العباس والجيـ ـش اللهام
فإن لم تجمعوا جيشاً يضيق العراق | بـ ـه عليهـ ـم والشـ ـام
فلاقوهـ ـم كمـ ـا لاقى عليـ ـاً | بصفين معاويـ ـة الهمـ ـام"[1].

وقال آخر في محاولة منه لإيقاظ المستعصم:

"أرى تحت الرماد وميض نـ ـار | ويوشك أن يكون لهـ ـا ضرام
وإن لم يطفها عقلاء قـ ـ ـوم | يكـ ـن وقودها جثث وهـ ـام
فقلت من التعجب ليت شعري | أيقظان أميـ ـة أم ينـ ـ ـام
فإن يك قومنا أضحوا نيامـ ـاً | فقل هبوا لقد حان الحمـ ـ ـام" [2].

ولكن المستعصم لا يسمع هذه النداءات، رغم وجود الخطر يقترب، حيث كان "التتار جائلين في الأرض يقتلون ويأسرون ويخربون الديار ونارهم في غاية الاشتعال والاستعار والمستعصم ومن معه في غفلة عنهم لإخفاء ابن العلقمي عنه سائر الأخبار"[3].

ويبدو أن نجاح شيعة العراق في السيطرة على مراكز القرار وعزل الخليفة دفعهم للقيام بخطوة أخرى على طريق التمهيد لهدم بناء الخلافة وهذه الخطوة تمثلت بتقوية نفوذ الشيعة في العراق وتقريبهم وعزل السنة وإضعافهم، فقام الوزير ابن العلقمي بتقريب علماء الشيعة والإنفاق عليهم وتشجيعهم في الكتابة، وعلى رأسهم ابن أبي الحديد، الذي تجرد لخدمة المذهب الشيعي، ونظم الشعر مدحاً في الشيعة وابن العلقمي ووضع عدد من الكتابات، حيث أخذ الوزير يغدق على هؤلاء، فقد أعطى أحدهم مائة ألف دينار وخلعة وفرس، في الوقت نفسه الذي يتبنى فيه هذا الوزير سياسة تسريح الجيش بحجة توفير الأموال وعلف الدواب، والمغول يتقدمون نحو الخلافة[4]، ويبدو أن الشيعة كانوا بحاجة لجهاز إعلامي ينشر أفكارهم ويدافع عنها، فقد كان ابن أبي الحديد شيعي متغالي في شيعيته، وكان الكاتب الخاص للوزير وكان "حظياً عند الوزير ابن العلقمي لما بينهما من المناسبة والمهاربة والمشابهة في التشيع"[5]، بل إنه تولى منصباً رفيعاً في عهد الاحتلال من طرف الطوسي[6]، بل كان ابن العلقمي يهدف إلى عمل مدارس خاصة للشيعة لنشر مذهبهم وأفكارهم[7]، وأخذت الحكومة تقدم لنقيب الطالبيين مبالغ كبيرة ليتم توزيعها على

(١) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٨، ص ٢٦٤.
(٢) المصدر نفسه، ج٨، ص ٢٦٤.
(٣) المكي: سمط النجوم العوالي، ج٣، ص٥١٨.
(٤) العيني: عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص ٥٤-٥٥.
(٥) المصدر نفسه،حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص١٩٤؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص ٣٧٢.
(٦) الطهراني: الأنوار الساطعة، ج١، ص٨٨.
(٧) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٣، ص٢٠٢-٢٠٣.

العلويين المتشددين في التشيع، خاصة الذين يقيمون حول مشهد أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب والحسين وموسى بن جعفر[1]، وأخذت تفرز الإمكانيات وخصصت الأموال والطاقات البشرية والمتخصصين لعمارة مساجد الكرخ، وترتيب الأئمة والمؤذنين، وقد أوكل بذلك أحد قادة الشيعة[2]، بل إن الخليفة المستعصم كان يزور مشاهد الشيعة ويزور مشهد أمير المؤمنين علي في الكوفة[3].

وعمل ابن العلقمي على وضع الشيعة في مناصب حساسة في الدولة، ففي عام (٦٥١هـ = ١٢٥٣م) وبينما كانت جيوش المغول بقيادة هولاكو تتحرك من قراقورم إلى بلاد المسلمين كانت التغيرات تُجرى في حكومة الخلافة، حيث عُينَ ابن الوزير العلقمي أبو الفضل محمد صدراً للمخازن بعد أن تم خلع من كان قبله[4]، ولقد أصبح ابن الوزير العلقمي عز الدين ذا مكانة كبيرة في الحكومة العباسية حيث كان يحضر اجتماعات قيادة الدولة[5].

ولقد كشف لنا الفوطي عن بعض الشخصيات التي تعاونت مع المغول وقدمت خدمات وسهلت ومهدت وهيأت لاحتلال البلاد، فقد ذكر الفوطي أن فخر الدين ابن الدامغاني صاحب الديوان أصبح أحد حكام العراق المقربين عند المغول بعد الاحتلال، كذلك نجم الدين أحمد بن عمران حيث كان عاملاً في عهد الخليفة فأصبح أحد الحكام بعد الاحتلال، ويوضح الفوطي بعض الخدمات التي قدمها ابن عمران "حيث أنهى إليه من حال العراق ما أوجب تقديمه وتشريفه وتعيينه في الأعمال الشرقية"[6] ولقب ابن عمران بالملك في عهد الاحتلال[7]، ويبدو أن هذه الشخصيات قدمت خدمات خطيرة للعدو، استحقت أن تكافأ بحكم البلاد في عهد الاحتلال، ويتبين مما سبق حجم الإختراق داخل حكومة الخلافة من قبل الشيعة لصالح المغول.

لذلك فليس غريباً أن يقوم شيعة العراق بإظهار طقوسهم الشيعية والاحتفال بيوم عاشوراء والإنشاد في شوارع بغداد وأهم ميادينها، وتمثيل مقتل الحسين يوم عاشوراء[8]، حيث كان أهل الكرخ والمختارة -وهي مناطق شيعية- يقومون بعقد مهرجانات واحتفالات وإظهار طقوسهم الشيعية، مما كان يسبب استفزازاً لمشاعر أهل السنة[9]، ويبدو أن الشيعة بإظهارهم هذه الطقوس التي تلهب نيران العداوة بين السنة والشيعة كانوا يتهيأون لمرحلة جديدة مقبلة يكونون فيها الحكام لدولة شيعية، في الوقت نفسه كان الوزير ابن العلقمي -الذي تميز بتعصبه لمذهبه

(١) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ٨٦.
(٢) المصدر نفسه، ص ٢٨.
(٣) المصدر نفسه، ص١٤٥.
(٤) المصدر نفسه، ص٢٠٦.
(٥) المصدر نفسه، ص٩٢.
(٦) المصدر نفسه، ص٢٣٨.
(٧) المصدر نفسه، ص٢٣٨.
(٨) المصدر نفسه، ص١٤٥.
(٩) المصدر نفسه، ص١٩٤.

الشيعي، وحقده الشديد على أهل السنة-[1] يعمل على طمس السنة. فقد وصفه المؤرخون "شيعياً رافضياً في قلبه غل على الإسلام وأهله"[2]، ويفسر الصياد سبب حقد ابن العلقمي على الإسلام بأنه إيراني وليس عربياً في الأصل واعتنق المذهب الشيعي[3]، والملاحظ أن معظم الخونة الذين اتصلوا بالمغول وجاءوا بهم إلى بغداد وقدموا لهم العون كانوا شيعة من أصول فارسية مثل ابن العلقمي والطوسي. وهذا ينقلنا إلى واقع العراق اليوم، حيث أن معظم قادة وعلماء الشيعة الذين تعاونوا مع المحتلين الأمريكان وكافأهم الاحتلال بالمناصب هم شيعة من أصول إيرانية.

ويذكر الصياد أن من أهم أسباب ضعف الخلافة سيطرت العناصر غير العربية على الخلافة مثل الفرس، حيث استأثروا بالنفوذ وطغوا على سلطان الخلفاء[4]، ويرى بعض المؤرخين أن الخلافة وصلت إلى مرحلة من الضعف "كعليل على فراش الموت، فانتهز اللصوص فرصة مرضه للإجهاز عليه والقبض على ميراثه"[5].

ويرى الباحث أن الشيعة بقيادة ابن العلقمي هم من وصلوا بالخلافة لمرحلة المرض والضعف عبر مخطط أعد مسبقاً، يؤكد ذلك برتولد شبولر حيث يذكر أن المغول قد أكملوا دور شيعة العراق في القضاء على الخلافة الإسلامية العربية، فالمغول بإسقاطهم للخلافة قد أنهوا الحرب المستعرة بين الإيرانية والعربية لصالح الإيرانية في ذلك الوقت[6]، ويرى الباحث أن سقوط الخلافة ليس سببه قوة جيوش المغول، بل ضعف الخلافة "بحيث أصبحت عاجزة عن المقاومة"[7]، لأن المغول سبق أن هُزموا مرات عدة على يد جلال الدين منكبرتي[8]، وبعد عامين فقط من احتلالهم للعراق هزموا شر هزيمة في عين جالوت بجيش مصر فقط[9].

ويبدو أن شيعة العراق بعد تغلغلهم في السلطة والعمل على عزل الخليفة وإضعاف أهل السنة في العراق وتقوية نفوذ الشيعة كانوا يعملون بجد على إضعاف القوة العسكرية للبلاد، فبدأت عملية إهمال الجيش[10]، ويكاد يجمع أغلب المؤرخين أن المستعصم قد ورث جيشاً عظيماً عن أبيه المستنصر يفوق المائة ألف جندي مدربين أفضل تدريب ومجهزين بكامل العتاد والسلاح[11]، ويبدو أن غارات المغول المتكررة على أطراف العراق وفشل جميع هذه الغارات

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص ١٧٥؛ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج٣، ص٦٦٢.
(٢) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٨، ص٢٦٢.
(٣) المغول، ج١، ص٢٧١.
(٤) المصدر نفسه، ج١، ص٢٤٩.
(٥) حتي: تاريخ العرب مطول، ج٢، ص٥٨٠.
(٦) العالم الإسلامي في العصر المغولي، ص١٥.
(٧) فوزي: الدولة العباسية السقوط والانهيار، ج٢، ص٢٥٣.
(٨) النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص٢٦٥-٣٧٠.
(٩) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٣٧٣.
(١٠) العيني: عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص ١٧٠-١٧٠
(١١) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، مج١، ص٨٦؛ أبو الفداء: تاريخ أبو الفداء، ج٢، ص٣٠٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٠٢؛ العيني: عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص١٧٠-١٧١.

من تحقيق نصر أو تقدم[1]، هو ما دفع شيعة العراق إلى العمل على التخلص من القوات العسكرية للعراق وإضعافها وإفراغها من محتواها، فقد ظهر واضحاً قوة جيش الخلافة، والخطر الذي يشكله هذا الجيش في إبطال كل محاولة تهدف إلى المس بالكيان الإسلامي خاصة في عام (٦٤٣هـ=١٢٤٥م) عندما حقق نصراً مؤزراً على المغول، بشهادة علماء الشيعة أنفسهم "ورأى التتر من كثرتهم وجودة سلاحهم، وعددهم وخيولهم ما لم يكونوا يظنونه ولا يحسبونه ... فحملات التتار على عسكر بغداد حملات متتابعة، ظنوا أن واحدة منها تهزمهم لأنهم قد اعتادوا أنه لا يقف عسكر من العساكر بين أيديهم"[2]، وقد هزم المغول في هذا اللقاء العسكري، واستغلوا سواد الليل ليسحبوا جيوشهم خائبين[3]، ولقد نظم ابن أبي الحديد شعراً تخليداً وفرحاً بهذا النصر

"فرجت غمرتها بقلب ثـــابت	في حملة ذعرى ورأي ثـاقب
ما غبت ذاك اليوم عن تدبيرها	كم حاضر تعصى بسيف الغائب
عمر الذي فتح العراق إنمـــا	سعد حسـام في يمين الضـارب"[4].

ويبدو أن عملية إضعاف الجيش بدأت بعد هذه الحرب، حيث اجتهد ابن العلقمي في إضعافه بطرق عدة، منها تقليل عدد الجيش وعدم استيعاب جدد، وإهمال الجيش في التدريب والتجهيز، وإسقاط اسمهم من الديوان، ومنع رواتبهم[5]، حيث كانت عمليات تسريح الجيش بالآلاف، وإسقاط أسمائهم من دساتير ديوان العرض، ويصف الفوطي المعاصر للأحداث عملية التآمر على الجيش "وقد أهمل حال الجند ومنعهم أرزاقهم وأسقط أكثرهم من دساتير ديوان العرض، فآلت أحوالهم إلى سؤال الناس وبذل وجوههم في الطلب في الأسواق والجوامع"[6]، وأصبح قادة الجيش وضباطه يعملون في العتالة والأسواق وتنظيف القاذورات وعملوا بأبخس المهن وأدناها وذلك من شدة ما تعرضوا له من المهانة والفقر[7]، ويذكر ابن كثير أن ضباط جيش الخلافة اضطروا إلى التسول في الطرقات والأسواق وعلى أبواب المساجد[8]، ولقد ذكر أحد المؤرخين أن ابن العلقمي قام بتسريح عشرين ألفاً من العسكر دفعة واحدة، كذلك يذكر المؤرخون أن عام (٦٥١هـ = ١٢٥٣م) شهد عملية نزوح للجنود وضباط الجيش من العراق إلى بلاد الشام بسبب قطع أرزاق الجنود[9]، ومن بقي في العراق كانت حالهم سيئة، ويعملون

(١) أنظر: الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ٩٥، ٩٩.
(٢) ابن أبي حديد: شرح نهج البلاغة، ج٨، ص٢٣٩-٢٤٢.
(٣) أبو الفداء: تاريخ أبو الفداء، ج٢، ص٢٧٩؛ الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ١٦٢.
(٤) ابن أبي حديد: شرح نهج البلاغة، ج٨، ص٢٣٩-٢٤٢.
(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٠٢.
(٦) الحوادث الجامعة، ص ٢٢٩-٢٣٠.
(٧) المصدر نفسه، ص ٢٢٩-٢٣٠.
(٨) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٠٠-٢٠١.
(٩) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٥١هـ-٦٦٠هـ)، ص٨.

بأخس المهن، ومنهم من كان "يكاري على فرسه ليصلوا إلى ما يتقوتون به"[1]، ولقد قام الشعراء بنظم الشعر يصفون ما وصل له حال الجنود والعسكر في العراق على يد ابن العلقمي.

"يا سائلي و لمحض الحـق يرتـاد أصِخْ فعندي نشدان وإنشاد
واسمع فعندي روايات تحققهـا دراية وأحاديث و إسنـاد
فهـم ذكيّ وقلب حـاذقٌ يَقِـظٌ وخاطر لنقود النقد نقـاد
عن فتية فتكوا في الدين وانتهكـوا حماه جهلاً برأي فيه إفساد"[2].

واستمرت المؤامرة ضد جيش الخلافة من قبل الوزير "فلم يزل يجتهد في تقليلهم، إلى أن لم يبق سوى عشرة آلاف"[3]، وهكذا استطاع شيعة العراق أن ينجزوا أهم وأخطر مهامهم على طريق إزالة الخلافة الإسلامية في العراق، فشيعة العراق يتحملون القسط الأكبر في ضعف الخلافة الإسلامية في العراق[4]، ويرجح الباحث أن سبب بعض حالات التمرد التي حدثت في صفوف جيش العراق أثناء اجتياح المغول هو ما تعرض له الجيش من الإهانة وسياسة ترقين القيد والإهمال ووضع الخصيان قادة لبعض فرق الجيش[5].

ولقد اجتهد أحد الباحثين الشيعة بدفع تهمة تسريح الجيش عن الوزير ابن العلقمي فمنهم من ألصق هذه التهمة بالخليفة، بحجة أنه كان يتميز بالبخل والشح وحب المال، لذلك قام بتسريح الجيش كي يوفر رواتب الجنود ويكنزها[6]، ويرى أحد الباحثين أن هذه الروايات التي تتحدث عن بخل المستعصم واكتنازه الذهب والجواهر وعدم الاستفادة من هذه الأموال الطائلة لتنظيم جيش جديد قوي قادر على مقاومة المغول وأن هولاكو لامه على تصرفه هذا هي روايات مبالغ فيها[7].

ويلاحظ أن الباحثين الشيعة يتمسكون بهذه الروايات بهدف إبعاد المسئولية والتهمة عن الوزير الشيعي وتحميل الخليفة المسئولية كاملة، ويرى الباحث أن ابن العلقمي هو المسئول بالدرجة الأولى لأن الخليفة قد أوكل إليه كوزير جميع أمور الدولة، وسلمه مقاليد الحكم فهو المتصرف الأول في البلاد، ومن الشيعة من يدفع التهمة عن الوزير الشيعي بطريقة أخرى حيث يقول: "إن صح تفريق الجيش فالمسئول هو صاحب الصلاحيات"[8]، حيث يتهم الدويدار الصغير أنه هو المسئول عن الجيش وليس ابن العلقمي، والدويدار كان عدواً لابن العلقمي، كما يذكر

(١) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٨، ص ٢٦٢.
(٢) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ٢٢٩
(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٠٢.
(٤) حتي، تاريخ العرب، ج٢، ٥٨١.
(٥) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ٢٢٨-٢٢٩.
(٦) بدوي: تاريخ المذهب السني، ص٢٦٧-٢٦٨.
(٧) فوزي: الدولة العباسية السقوط والانهيار، ج٢، ص٢٥١.
(٨) الأمين: الاسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي، ص ٢٧٦-٢٧٨.

حسن الأمين أن الجيش كان مشرذماً قبل وصول ابن العلقمي للوزارة[١]، ويحتج برواية ذكرها الفوطي وملخصها أن جماعة من الجيش اعتصمت خارج البلد يطالبون بزيادة رواتبهم حيث أن هذا الحدث كان قبل تولي ابن العلقمي الوزارة[٢].

ويرى الباحث أن الرواية التي ذكرها الفوطي ليست دليلاً على ضعف وتسريح الجيش، فمن الممكن حدوث إشكاليات في الجيش، ولكن هذا لا يعني فساد الجيش بالكامل، وكذلك الرواية لم تذكر أن الجيش أصبح عدده عشرة آلاف جندي، كما أن انتصار جيش الخلافة على المغول عام (٦٤٣هـ=١٢٤٥م)[٣]، يثبت أن ابن العلقمي تولى الوزارة والجيش سليماً قوياً، فقد تولى ابن العلقمي الوزارة عام (٦٤١هـ=١٢٤٣م)، كذلك بالرجوع إلى باقي الرواية عند الفوطي تتضح الصورة ويظهر أن القضية بسيطة جداً وقد تم حلها، وكما يظهر من سياق الرواية أن الجنود كانوا مخطئين بدليل استغفارهم وشعورهم بذنبهم حيث "اجتمع بهم الشيخ السبتي الزاهد فعرفهم ما في ذلك من الإثم ومخالفة للشرع فاعتذروا وسألوه الشفاعة لهم"[٤]، أما حجة الأمين الأخرى أن ابن العلقمي لم يكن مسئولاً عن الجيش وأن المسئول هو الدويدار، فقد ذكرت الروايات التاريخية المعاصرة أن الوزير هو من كان يستعرض الجيش في المناسبات، فقد كان نائب الوزير القمي وهو خال ابن العلقمي، والوزير السابق الذي لم يتمتع بصلاحيات الوزير ابن العلقمي، فقد كان يسمى نائب وزير وليس وزيراً[٥]، كما أن الرواية تدلل على وجود قوات عسكرية مجهزة ومدربة يتم استعراضها للتفاخر بها واستعراضها في المناسبات، ويذكر بعض المؤرخين المعاصرين أن من صلاحيات الوزير "النظر في أمر الجيش واستعراض الجيش في المناسبات وقيادة العسكر"[٦]، ويذكر ابن خلدون أن الوزير كان من صلاحياته جمع الجيش وتفريقه[٧]، ويؤيد ذلك أحد المؤرخين المعاصرين حيث جعل مهمة الإشراف على الجيش من مهام الوزير[٨]، ولقد تمتع ابن العلقمي بصلاحيات كبيرة جداً، فقد جمع في يده كل خيوط الدولة[٩].

والمؤكد أن هذا الوزير تمتع بجاه وصلاحيات فاقت كل الوزراء الذين سبقوه في الدولة العباسية، أما بالنسبة لوظيفة الدويدار فهي وظيفة محصورة في استتباع كاتب السر صاحب

---

(١) الاسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي، ص ٢٧٦-٢٧٨.
(٢) الحوادث الجامعة، ص ١٣٦.
(٣) ابن أبي الحديد: نهج البلاغة، ج٨، ص٢٣٩؛ الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ١٦٢؛ أبو الفداء: تاريخ أبو الفداء، ج٢، ص٢٧٩.
(٤) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ١٣٦-١٣٧.
(٥) المصدر نفسه، ص٣٦-٣٧.
(٦) نخبة من الباحثين العراقيين: حضارة العراق، ج٦، ص١٠٥.
(٧) المقدمة، ص٢٣٨.
(٨) أبو طالب: الصراع الاجتماعي، ص٦٩.
(٩) اليافعي: مرآة الجنان، ج٤، ص١٠٥.

البريد المتصرفين في حاجات السلطان بالقاصة الحاضرة[١]، ويقول ابن خلدون عن الدويدار: "وكان من وظائفه ... الوقوف في مجلس السلطان، أو التقدم بين يديه بالوفود وتقديم التحية"[٢]، ولقد ذكر ابن أبي الحديد الشيعي أن الوزير ابن العلقمي هو من كان يوجه الجيش ويصدر الأوامر للعسكر ويأتمرون بأمره[٣] .

وفي محاولة أخرى للشيعة لدرء التهمة عن أنفسهم في إضعاف الجيش وتسريحه يفسر المؤرخ الشيعي حسن الأمين سبب اتهام المؤرخين لابن العلقمي بأن الدويدار هو سبب إشاعة هذه الروايات وهو مصدرها، وسبب ذلك هو حقد الدويدار على الوزير ابن العلقمي لأنه كشف مخططاً للدويدار يقضي بخلع الخليفة وتولية ابنه بدلاً منه، والسبب هو ضعف الخليفة، ويستند الأمين إلى رواية ساقها الهمذاني في ذلك[٤]، حيث يروي الهمذاني أنه في عام (٦٥٤هـ=١٢٥٦م) عندما جاء السيل المستعصمي الذي أغرق نصف أرض العراق فأصبحت "خراباً يباباً"[٥]، في هذا العام كان الدويدار يجمع حوله المشاغبين والرعاع والسفلة فأراد أن يخلع الخليفة لأنه ضعيف ويضع خليفة عباسي مكانه، فعلم الوزير فأخبر الخليفة فقام باستدعاء الدويدار وراجعه في الأمر فبرأ الدويدار نفسه، وقام الخليفة بإصدار مرسوم براءة بحق الدويدار، وأصبح اسم الدويدار يذكر في خطبة الجمعة بعد اسم الخليفة، ويدعي الهمذاني أن قضية اتصال ابن العلقمي بالمغول وغيرها هي من نسيج الدويدار لأن الوزير هو من كشف مخطط الدويدار للخليفة[٦]، كما يقوم حسن الأمين باتهام كبار العلماء والمؤرخين بأنهم سفلة التاريخ لأنهم يتهمون ابن العلقمي بالمؤامرة ضد الجيش والخلافة "فإن سفلة التاريخ وأوباشه هم من تبناها ونشرها"[٧]، حيث يورد ما رواه أبو شامة (٦٦٥هـ = ١٢٦٢م) عن حوادث سنة (٦٥٦هـ=١٢٥١م) "استولى التتار على بغداد وبمكيدة دبرت مع وزير الخليفة"[٨]، وكذلك قطب الدين اليونيني والذهبي والشيرازي وابن شاكر الكتبي و تاج الدين السبكي[٩].

وللرد على مؤرخي الشيعة في ذلك سيقوم الباحث بتحليل رواية الهمذاني بموضوعية تاريخية، فالرواية التي ساقها الهمذاني عن نية الدويدار خلع الخليفة هي: "ولما لمس في نفسه القوة، ورأى الخليفة المستعصم شخصا عاجزاً لا رأي له ولا تدبير وساذجاً اتفق مع طائفة من

---

(١) أنور الرافاعي: الإسلام في حضارته ونظمه، ص١٠٧.
(٢) المقدمة، ص٢٣٨.
(٣) شرح نهج البلاغة، ج٨، ص٢٣٩-٢٨٨.
(٤) الاسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي، ص٢٧٨-٢٨٨.
(٥) جامع التواريخ، ج٢، مج٢، ص٢٦٣-٢٦٤.
(٦) المصدر نفسه، ج٢، مج٢، ص٢٦٣-٢٦٤.
(٧) الاسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي، ص٢٨٠.
(٨) المصدر نفسه، ص٢٨٠.
(٩) المصدر نفسه، ص٢٨٠.

الأعيان على خلعه وتولية خليفة آخر من العباسيين في مكانه"[١]، وعندما علم ابن العلقمي أبلغ الخليفة على انفراد بذلك قائلاً: "يجب تدارك أمرهم"[٢]، لو افترضنا صحة هذه الرواية، فالدويدار هَم بخلع الخليفة هو ومجموعة من الأعيان وليس الأوباش السفلة والرعاع كما ادعى الأمين، كذلك نجد سبب خلع الخليفة هو ضعف الخليفة وقلة حيلته وعدم تدبيره، وسيطرة الوزير عليه، كذلك يظهر من الرواية نفسها أن الدويدار لم يكن يطمع بالخلافة فسيقوم بتولية آخر من أسرة العباسين نفسها ولن تخرج الخلافة خارج البيت العباسي، ويرى الباحث أن ما ساقته رواية الهمذاني من الإقدام على خلع الخليفة وتولية غيره من الأسرة نفسها، ويكون رجلاً قوياً ربما يكون ذلك واجباً شرعياً على أعيان البلاد وأهل الحل والعقد وهو ما حدث في مصر عندما عُزل السلطان الصبي ونصب قطز سلطاناً للبلاد وذلك لقدرته على مواجهة الخطر القادم[٣].

كذلك نجد الهمذاني يروي أن الخليفة قد برأ الدويدار من التهمة التي نسبت له بل إن الخليفة يكافئ الدويدار حيث أمر أن يذكر اسمه في خطبة الجمعة ويبدو أن الخليفة قد اقتنع بوجود علاقات بين ابن العلقمي والمغول حيث يطلب من الدويدار اليقظة والحرص من الوزير على الدولة "منذ اللحظة كن يقظاً وعاقلاً"[٤]، كما أن الخليفة وجه كتاباً رسمياً للأمة "إن ما قيل في حق الدويدار إنما هو محض افتراء وبهتان، ونحن نعتمد عليه اعتماداً كلياً وهو في أمانتنا"[٥].

ومن العجيب أن المؤرخين قد رصدوا تحركات الجواسيس المغول في العراق والتقائهم بالوزير ابن العلقمي وبعض قيادات الشيعة[٦] في العام نفسه الذي حدث به السيل المستعصمي الذي غرقت به نصف أراضي العراق حتى أصبحت "خراباً يباباً"[٧] عام (٦٥٤هـ=١٢٥٦م) كذلك هو العام نفسه الذي تحدث فيه وشاية ابن العلقمي على الدويدار وتظهر براءة الدويدار أمام الأمة بمرسوم رسمي من الخلافة، حيث أورد المقريزي في معرض حديثه عن حوادث عام (٦٥٤هـ=١٢٥٦م) "وفيها وصلت جواسيس هولاكو إلى الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي ببغداد، وتحدثوا معه، ووعدوا جماعة من أمراء بغداد بعدة مواعيد، والخليفة في لهوه لا يعبأ بشيء من ذلك"[٨]، ويرى الباحث أن شيعة العراق كان هدفهم في عام (٦٥٤هـ=١٢٥٦م) هو التخلص من رجل قوي في الخلافة وصاحب مواقف صلبة ويعارض ما يتعرض له جيش

---

(١) جامع التواريخ، ج٢، مج٢، ص٢٦٢.
(٢) المصدر نفسه، ج٢، مج٢، ص٢٦٢.
(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢١٥.
(٤) جامع التواريخ، ج٢، مج٢، ص٢٦٢.
(٥) المصدر نفسه، ج٢، مج٢، ص٢٦٢.
(٦) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٤٠٠.
(٧) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢، ص ٢٦٣-٢٦٤.
(٨) السلوك، ج١، ق٢، ص٤٠٠.

الخلافة من مؤامرة، وبالإضافة إلى أنه استطاع أن يكشف بعض خيوط مؤامرة الشيعة للإطاحة بالخلافة وتسليمها لأطراف خارجية فتم تدبير هذه القصة للتخلص من الدويدار الذي كان يقول دائماً: "لو مكني أمير المؤمنين المستعصم لقهرت التتار ولشغلت هولاكو بنفسه"[١]، فمن المرجح أن ذلك يأتي في سياق إضعاف الجبهة الداخلية للبلاد، لذلك لا يحق لحسن الأمين اتهام المؤرخين والعلماء الذين كشفوا عن موقف شيعة العراق بكل جرأة وموضوعية بأنهم سفلة التاريخ.

ويرى أحد المؤرخين الأوربيين أنه كان يتوجب على الحكومة العباسية بقيادة ابن العلقمي أن تقوم بحشد جيش جرار، وأن تضع المقاومة إحدى استراتيجياتها لدفع الخطر القادم نحو الخلافة الإسلامية[٢]، ويبدو أن الوزير ابن العلقمي لم يضع ضمن استراتيجياته خيار المقاومة، بل الراجح أنه كان يسعى لإضعاف البلاد عسكرياً واقتصادياً على هدي خطة رسمت ودبرت جيداً مما أثر على باقي مناحي الحياة خاصة الاجتماعية، فإن سياسة التهدئة واسترضاء العدو هي سياسية فاشلة وتشجع العدو وتجسره، ويشاطر الباحث ستيفن رنسيمان الرأي إذ يقول: "قَلّ أن تنجح هذه السياسة القائمة على التهدئة"[٣]، ويبدو أنه نتج عن حل الجيش والقوى العسكرية للبلاد، شيوع حالة من الفوضى والفلتان الأمني عمل شيعة العراق على إذكائها بكل الطرق.

ويصف شبولر حال العراق قبل الغزو المغولي فيقول: "كانت بغداد عاصمة الخلافة تتعرض لأقسى ظروف الفوضى، لم تكن موارد الدولة وخصوصاً القوى العسكرية والطاقة البشرية كافية لتحمل مقاومة فعالة"[٤] ولقد أصبحت شوارع بغداد وأسواقها مسرحاً للمعارك الداخلية بين شيعة العراق من أنصار ابن العلقمي وأهل السنة[٥]، ويبدو أن البلاد العراقية شهدت حالة من الفلتان الأمني، كانت متعمدة من قبل شيعة العراق وعلى رأسهم الوزير ابن العلقمي، فمن المرجح أن مرحلة الفلتان الأمني هي آخر حلقات المؤامرة على تدمير البنية التحتية للبلاد، واستنزاف موارد البلاد المتبقية عن طريق الصراعات الداخلية لتكون العراق فريسة سهلة وجاهزة يتسلمها المغول.

والجدير بالذكر أن حالات الفلتان الأمني تشهد كثيراً من الجرائم والصراعات، فمن المرجح أنها ستكون غطاءً فاعلاً لشيعة العراق للتحرك بحرية وإكمال دورهم. وهناك من يعتقد

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص ٣٧١.
(٢) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص٥١٨.
(٣) المصدر نفسه، ج٣، ص٥١٨.
(٤) العالم الإسلامي في العصر المغولي، ص٤٦.
(٥) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ٣٢٠؛ ابن العبري: المختصر، ص٣٧٠.

أن الوزير ابن العلقمي كان "وراء الفوضى التي عاشتها بغداد قبيل الغزو المغولي لها"[١] وذلك حينما أهمل شئون البلاد، وتولى حبك المؤامرات داخل الحكومة على الدويدار[٢]، وعين مسئولين يتسلطون على الناس، فهب الناس ضدهم وحدثت صدامات وسقط قتلى وجرحى[٣]، ومن المسئولين الأمنيين الذين عينهم في بعض المناطق من سُجلت ضدهم مخالفات ضد النساء، أدت إلى تقديم الأهالي الشكاوي ضدهم ولكن دون جدوى[٤].

ويرصد الفوطي المعاصر للأحداث أن السنوات القليلة التي تولى فيها ابن العلقمي الوزارة شهدت العراق أسوأ حالات الفوضى والفلتان الأمني والاقتتال الداخلي، فقد شهدت ظهور حركة العيارين من جديد بعد أن اختفت هذه الحركة منذ عصر السلاجقة، وقد أخذت هذه الحركة تعبث بالأمن في البلاد[5]، حيث مارست كل أنواع الجرائم من قتل وسلب ونهب وسطو على البيوت والمحلات، حتى أنهم تجرأوا واقتحموا بيوت بعض الأمراء وجرحوا وفتكوا بمن فيها[٦]، ولقد أوجدت حالة الفلتان الأمني وانتشار اللصوص حالة نفسية صعبة عند السكان، فدفعتهم لزيادة ومضاعفة استحكامات بيوتهم ومحلاتهم التجارية، فهم أصبحوا غير آمنين على أنفسهم وأموالهم وممتلكاتهم[٧]، كما شهدت العراق منذ تولي ابن العلقمي الوزارة زيادة ملحوظة للصوص خاصة مدينة بغداد، حتى أنهم اعتدوا على ممتلكات المدرسة المستنصرية، وسرقة السكر والشمع والأموال ويصف الفوطي ذلك: "وكثر اللصوص ببغداد وكانوا يأتون بالعدة ويأخذون أموال الناس"[٨] وتذكر الروايات التاريخية المعاصرة أن معظم اللصوص والمفسدين هم من أصول غير عربية[٩]، ولقد هزت هذه الأحوال مشاعر الشعراء فنظموا شعراً يصفون فيه إهمال الوزير للبلاد وإدارتها وانشغاله بأشياء أخرى وهذا ما كتبه الشاعر المجد النشابي وهو شاعر معاصر للأحداث ولد بإربل سنة (٥٨٢هـ=١١٨٦م) ومات سنة (٦٥٦هـ=١٢٥٨م) .

"إذا ترامت أمور الناس ليس لهم	فيها رواء ولا حزم وإنجاد
أما الوزيـر فمشغـول بعنبـره	والعارضان منساج ومـداد"[١٠]

كما شهدت البلاد كثير من حالات السرقة والسطو يقوم بها أبناء مسئولين كبار[1]، ومما

(١) النبراوي: قضايا العالم الإسلامي ومشكلاته، ص٧٨.
(٢) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ٢١٦.
(٣) المصدر نفسه، ص٩٠.
(٤) المصدر نفسه، ص٢١٩.
(٥) المصدر نفسه، ص١٧٧
(٦) المصدر نفسه، ص١٩٨.
(٧) المصدر نفسه، ص١٩٩، ص٢١٤.
(٨) المصدر نفسه، ص١٧٠.
(٩) المصدر نفسه، ص١٨٤-١٥١.
(١٠) المصدر نفسه، ص٣٢١-٣٢٢.

زاد الأمور تعقيداً، انتشار الفقر بين الناس نتيجة لعملية الإهمال في إدارة شئون البلاد وإصلاح ما تدمره الكوارث الطبيعية، حيث تكونت طبقة فقيرة جداً في المجتمع العراقي، واندفع بعضهم لارتكاب بعض المغامرات من شدة ضيق الحال[٢]، ولقد استغل اليهود والنصارى هذه الأحوال وبدأوا يستغلون ظروف البلاد فأخذوا يجاهرون بالمعاصي فيشربون الخمر، ويعملون في الربا مستغلين أحوال الناس، وتسلقوا في هذه الظروف إلى مناصب رفيعة في الدولة، ومارسوا من خلال مناصبهم كل أشكال الفساد، من رشوة ومحسوبية وظلم للرعية[٣].

ويبدو أن سلوك اليهود والنصارى ولد حقداً جارفاً عند المسلمين عليهم مما كان له الأثر أيضا في حدوث بعض المنازعات بين الأطراف[٤]، يحدث ذلك والحكومة العباسية بقيادة ابن العلقمي مشغولة بالمؤامرات والصراعات مع أهل السنة[٥]، ويبدو أن ذلك أثر سلباً على البناء الداخلي للمجتمع وعمل على تمزيق النسيج المجتمعي للبلاد فقد أصبحت أديرة النصارى مراكز لنشر الإفساد والانحلال في المجتمع، فقد أصبحت الأديرة دوراً للعبث واللهو خاصة مع وجود الخمور بأنواعها والتي تقدمها لروادها، وتناثرت الأديرة في مناطق العراق خاصة في ضواحي بغداد، وسامراء والكرخ ولقد نظم شعر في وصفها[٦]، ويبدو أن الفرس كذلك بدأوا يحيون أعيادهم ويحتفلون بها بطريقتهم الخاصة حيث يكثرون من الشرب والخمور والمأكولات بشكل كبير، مثل عيد النيروز في أول الربيع، وهو أول السنة الفارسية، وعيد المهرجان في أول الشتاء[٧].

وفي الوقت الذي كانت تتعرض الدولة العباسية من الداخل لعملية إهمال إداري وتدمير لقواتها العسكرية وحالة فلتان أمني، كانت فرق الاسماعيلية الشيعية تشيع الرعب والخوف في أرجاء العالم الإسلامي[٨]، بل يرى بعض المؤرخين أن الشيعة الإسماعيلية كانت سبباً من أسباب الفساد المعنوي والتفرق في العالم الإسلامي[٩]، كما تعرضت الدولة العباسية في العراق لعملية استنزاف مستمر، بفعل الاقتتال الداخلي بين السنة والشيعة أتباع الوزير حيث استمرت اعتداءات الشيعة على جيرانهم السنة، ولم تستطع قوات الأمن ضبط الأوضاع[١٠]، ويبدو أن السبب تعدد مجالات الفلتان الأمني ومن جهة أخرى أن قوات الأمن أصبحت لا تكفي للسيطرة على مساحة

---

(١) المصدر نفسه، ص١٩٨.
(٢)الفوطي: الحوادث الجامعة ، ص ٣٦.
(٣)المصدر نفسه ، ص٦٨-٦٩.
(٤) المصدر نفسه، ص١٧٤.
(٥) المصدر نفسه، ص٢٨٧.
(٦) الشابشتي: الديارات، ص١٤، ١٤٩، ٣٣٨.
(٧) ضيف: تاريخ الأدب في إيران، ص٩٥.
(٨) الجويني: تاريخ جهانكشاي، ج١، ص٢٧٨.
(٩) الصياد: المغول، ج١، ص٢٤٤.
(١٠) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ٢٢٦؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٥١هـ-٦٦٠هـ)، ص٢٥.

البلاد في جميع المجالات خاصة أنها قد سرحت ولم تعد تملك الإمكانيات الكافية لمثل هذه العمليات المعقدة.

ويصرح المؤرخون بمسئولية ابن العلقمي عن الاقتتال الداخلي "ولا زال يثير الفتن بين أهل السنة والرافضة حتى تجالدوا بالسيوف"[١]، ويعد المؤرخون أن هذه الصراعات سببها الحقيقي هو الصراع الفكري[٢]، ومن المؤرخين من أطلق مصطلح "جيل ثورة العصابات"[٣]، على السنوات الأخيرة من عمر الدولة العباسية[٤]، ولكل ما سبق تعطلت رحلات الحج عشر سنوات كاملة في عهد الوزير ابن العلقمي[٥]، وتذكر الروايات التاريخية أن عام (٦٤٧هـ=١٢٤٩م) كانت رحلات الحج ما زالت معطلة في ذلك الوقت كانت الحكومة العباسية تقوم بإصلاح وترميم مشاهد وأضرحة الشيعة وتزينها[٦] ويبدو أن تحكم الشيعة في الحكومة العباسية جعلهم يسخرون كل إمكانيات البلاد لخدمة أغراضهم، وإهمال المصالح العليا للبلاد، مثل تسيير رحلات الحج وضبط الأوضاع الأمنية في داخل العراق، بحيث يشعر المسلم بالأمن والأمان.

وتوجد روايات تاريخية تؤكد قدوم وفود إلى بغداد وعقد اجتماعات مع ابن العلقمي وذلك من أجل حشد قوات عسكرية للتصدي للمغول قبل مهاجمتهم للعراق ولكن الوزير لم يقم بأي خطوة عملية في هذا الاتجاه وصرف الوفد وكان ذلك عام (٦٥٠هـ=١٢٥٢م) في الوقت الذي كان يعمل على تسريح الجيش[٧]، ويبدو أن هذا التنبيه لم يرق لمستوى ردع ابن العلقمي بأن يكف عن سياسته.

ويبدو أن الرأي العام في العراق كان يتجه نحو تبني خيار مقاومة الغزاة، فقد عقد كبار رجال الدولة من السنة اجتماعاً سريعاً بحضور كبار العلماء والأعيان حيث أجمع الجميع على رفض خيار الوزير بالإذعان للمغول والتسليم ورغم ذلك قام الخليفة بإرسال الرسل يحملون الهدايا لهولاكو ولكن كان رد هولاكو تحقيرهم، وبدأ سقف طلباته يرتفع فقام بطلب تسليم أكبر شخصيات في الدولة ويبدو أنها من التي تبنت خيار المقاومة مثل الدويدار وسليمان شاه[٨]، وهذا يرجح وجود خطوط اتصالات مفتوحة وسريعة من داخل بغداد مع قيادة المغول.

ولكن الغريب أن المؤرخ الشيعي ابن طباطبا أراد الدفاع عن ابن العلقمي فأورد أن ابن

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٤٧.
(٢) أبو طالب: الصراع الاجتماعي، ص٨٩.
(٣) المرجع نفسه، ص٩١.
(٤) المرجع نفسه، ص٩١.
(٥) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ١٩٧؛ ابن كثير، ج١٣، ص١٨٤، ٣٩.
(٦) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ١٩١.
(٧) المصدر نفسه، ص ٢٠١.
(٨) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢، ص ٢٧٢.

العلقمي كان يشير على الخليفة بالتيقظ والاستعداد وأخذ الاحتياطات ولكن خواص الخليفة هم من وهن خطر المغول ومنع الوزير من تجنيد العساكر ضد المغول[1]، ويبدو أن ابن طباطبا لم يحسن الدفاع عن شيعة العراق في هذا الموضع حيث خالف رواية مؤرخ المغول الرسمي الهمذاني[٢]، وكذلك خالف ابن العبري، الذي ذكر أن الوزير هو الذي أشار على الخليفة بحمل الأموال إلى هولاكو والاعتذار إليه والدخول في طاعته، غير أن الدويدار اعترض على ذلك واتهم الوزير بالتقرب من هولاكو[٣].

ويبدو أن الفكر الشيعي القائم على نظرية الغيبة قد أثر سلباً عند الشيعة في الاجتهاد كما أنهم حرموا الجهاد في عصر الغيبة حتى يظهر الإمام المهدي الغائب، ويقول الطوسي في الجهاد "إن الجهاد مع أئمة الجور أو من غير إمام خطأ يستحق فاعله به الإثم وإن أصاب لم يؤجر وإن أصيب كان مأثوماً"[٤]، ويبدو أن مواقف شيعة العراق بتحالفهم مع المغول ضد بلادهم سببها انحراف في الفكر لديهم، لذلك كان أثرهم بالغاً في تدمير نفوس كثير من الناس بإشاعتهم ثقافة المهادنة وأن لا جدوى من مقاومة العدو، لذلك يعتبر المؤرخون المعاصرون أن أقوى أسباب انهيار الخلافة وسيطرة المغول عليها هو شيوع هذه الأفكار وعدم التجرد للجهاد ومقاومة الغزاة، لأن مقاومة الغزاة تذيب مشاكل البلاد الداخلية وتكشف المعادن النفيسة وتذيب المعادن الرخيصة، فقد كانت الحاجة ماسة لرفع راية الجهاد[5]، ويشاطر الباحث الرأي أحد المؤرخين الأجانب بقوله: "وقلما تنجح سياسة المهادنة"[٦].

ولقد تأثر الخليفة نفسه بهذه السياسة، ويعلق ابن العبري على المستعصم: "فهذه الخيالات الفاسدة وأمثالها عدلت به عن الصواب فأصيب بمكاره لم تخطر بباله"[٧]، ويبدو أن شيعة العراق استطاعوا خلق مناخ من التهدئة لمصلحة العدو الكافر، رغم وجود تيار عظيم يدعو إلى تبني المقاومة ضد الأعداء وعدم التسليم ولكن من المرجح أن إمكانيات البلاد لم تعد في مستوى مواجهة مع عدو قوي متمرس "ففي عاصمة الخلافة كانت تسود فوضى كاملة بحيث أن الدولة والجيش لم يكن في إمكانهما تنظيم مقاومة جدية" [٨].

ومن المفيد أن نعقد مقارنة بين ما حدث في العراق وما حدث في مصر عندما أُرسِلَت لهم رسائل المغول يطلبون التسليم، حيث تم الاستعداد على جميع المجالات وفي جميع

---

(١) الفخري في الآداب السلطانية، ص٣٣٣

(٢) جامع التواريخ، ج٢، مج٢، ص ٢٧٢.

(٣) تاريخ مختصر الدول، ص٤٧١-٤٧٢.

(٤) الطوسي: المبسوط ، ص٢٨١، عن الكاتب: تطور الفكر السياسي الشيعي، ص٢٧١-٢٩٠.

(٥) عويس: أوراق ذابلة من حضارتنا، ص١٢٤-١٢٧.

(٦) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص٥١٨.

(٧) تاريخ مختصر الدول، ص٢٢٣.

(٨) شبولر، المغول، ص٤٦.

المستويات وتم إعداد غرفة عمليات مشتركة كان العز بن عبد السلام أحد أكبر العلماء في ذلك الوقت أحد أعضاء هذه الغرفة، وتم إصدار الفتاوي والتجهيز، وتم سحب كل ممتلكات الأمراء والدولة وتسخيرها للقاء العسكري مع العدو وإن لم تكف أملاك الدولة والأمراء عندها يتم الاستعانة بضرائب تفرض على السكان[١].

لذاك التحم الشعب مع الحكومة والجيش حيث أصبحوا جسداً واحداً لمقاومة العدو عكس ما جرى في العراق، فقيادة الحكومة تبنت خيار المهادنة وعملت على نشره بين الناس رغم تهديد العدو المستمر للبلاد، لذاك قامت الشيعة بتشجيع الصوفية من خلال تقديم التسهيلات لهذه الفرق[٢]، فإن رواج سوق الصوفية ساعد على إضعاف عزائم المسلمين ونشر التواكل بينهم ومال كثير منهم إلى الزهد والخلوة والاعتكاف والانقطاع عن الحياة بحجة التفرغ لعبادة ا [٣]، فقد انتشرت الزوايا في العراق، رغم أن هذه الزوايا كانت مصدر فساد في المجتمع لما يحدث داخلها من انحرافات أخلاقية[٤]، بل إن الاتجاه إلى التصوف وصل إلى قادة في الجيش[٥]، ويرى بعض المؤرخين المعاصرين أن انتشار التصوف في أواخر العصر العباسي ظهر واضحاً على الشعر حيث تأثر الشعر بذلك[٦][*].

فقد أوصل ابن العلقمي البلاد إلى مرحلة عدم القدرة على تنظيم مقاومة جدية، "فالذين لا يملكون إرادة الهجوم يفقدون القدرة على الدفاع!!"[٧]، هكذا كانت العراق عندما جاء لغزوها المغول، فقد أصبحت لقمة سائغة. وسيقوم الباحث بعرض ومناقشة موقف شيعة العراق من الغزو العسكري للبلاد في الفصل الثالث.

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢١٥.
(٢) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ١٠٨-١٠٩؛ حسنين: إيران والعراق، ص١٧٥.
(٣) حسنين: إيران والعراق، ص١٧٥.
(٤) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ١٨٤.
(٥) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٥١هـ -٦٦٠هـ)، ص٣١.
(٦) نخبة من الباحثين: حضارة العراق، ج١١، ص١٦٥.
(*) أنظر: الفصل الأول "الأوضاع الاقتصادية" حيث قام الباحث بمناقشة قضية التصوف.
(٧) عويس: أوراق ذابلة من حضارتنا، ص١٢٧.

الفصل الثالث

موقف الشيعة من غزو المغول للعراق

المبحث الأول: تعاون الشيعة مع المغول

المبحث الثاني: موقف الشيعة من ممارسات المغول في بغداد

المبحث الأول

تعاون الشيعة مع المغول

انطلق هولاكو على رأس جيش ضخم من (قراقورم) عاصمة المغول سنة (٦٥١هـ = ١٢٥٣م) وذلك بتكليف من أخيه الخان الأعظم الجديد للمغول منكوخان الذي نصب خاناً للمغول عام (٦٤٦هـ = ١٢٢٨م)، وكانت مهمة هولاكو هي إخضاع الرقعة الممتدة من نهر جيحون حتى أقاصي بلاد مصر، وقد حددت قيادة المغول إطار العلاقة مع الخليفة العباسي، بألا يتعرضوا له إذا قدم لهم فروض الولاء والطاعة(*)[1].

تم الإعداد لهذه الحملة جيداً، وجُهز كل شيء بدقة وعناية، فتقرر إصلاح الطرق التي تجتاز تركستان وفارس، وجرى تشييد الجسور، وتم تجهيز العربات اللازمة لجلب أدوات الحصار من الصين، وخلت المروج من القطعان، حتى تغزر الأعشاب اللازمة لخيول المغول[2]، واصطحب هولاكو زوجته طقز خاتون(**)[3]، وزوجتين أخريين، وولديه الكبيرين، وبذلت كل قبيلة من قبائل الحلف المغولي خمس رجالها المقاتلين[4]، واشترك في الحملة نحو ألف من الرماة الصينيين الذين برعوا في قذف السهام التي تحمل اللهب والنار، وفرق من المهندسين من بلاد الخطا لإدارة الأسلحة الجماعية، وآلات الحصار وقذف النيران[5]، ولقد قدر المؤرخون عدد جنود حملة هولاكو بمائتي ألف مقاتل[6]، وكان أكثر من نصف جيش هولاكو من المرتزقة، "الأتراك الذين اجتذبتهم تلك المنطقة اجتذاباً كلياً"[7]، و يرى أحد المؤرخين أن اصطحاب هولاكو لزوجته طقز خاتون النصرانية معه كان في صالح النصارى، "وكانت شديدة التعلق بالنسطورية، فلم تخف كراهيتها للإسلام، وحرصها على مساعدة المسيحيين على اختلاف مذاهبهم"[8]، ويبدو أن النصارى كانوا غير قلقين من حملة هولاكو رغم ما عرف عنه من عصبية زائدة، أثرت في مزاجه الذي لا يصح الركون إليه والوثوق به[9]، من جهته وضع هولاكو خطة عسكرية تقضي أولاً بالقضاء على الإسماعيلية، ثم الزحف إلى الخلافة الإسلامية في العراق[10].

(*) للاطلاع على وصية الخان منكو لأخيه هولاكو عندما كلفه بقيادة الجيش أنظر: ملحق رقم (١٣).

(1) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٣٦-٢٤٠.

(2) المصدر نفسه، ص٢٤٣.

(**) لم يجد الباحث لها تعريف في كتب التراجم.

(3) ابن العبري: تاريخ الزمان، ص٢٩٨.

(4) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٤٤.

(5) ابن العبري، تاريخ الزمان، ص٢٩٨.

(6) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٠٠.

(7) شبولر: العالم الإسلامي، ٥٧.

(8) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص٥١٤-٥١٥.

(9) المصدر نفسه، ج٣، ص٥١٤-٥١٥.

(10) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٤٠.

ومن أسباب مهاجمة المغول للإسماعيلية قبل الخلافة، أنه لا يمكن أن يتم إنشاء كيـان سياسي جديد ومستقر للمغول مع وجود هذه الفرقة التي عرف عنها أنها تبث الخوف والرعـب في القلوب من خلال اغتيالاتها للشخصيات المهمة، وقد تمكنت من اغتيال جغتاي ثـاني أبنـاء جنكيز خان[١]، والمتوقع أن تكون كالشوكة في ظهر المغول أثناء عملياتهم العسكرية لاحـتلال العراق، إضافة إلى ما اكتشفه المغول من تحالف ضدهم بين الإسماعيلية مـن جهـة وفرنسـا وإنجلترا من جهة أخرى[*].

قام هولاكو بتوجيه رسائله[**]، إلى حكام وملوك المنطقة ليقدموا له المساعدة والمساهمة بالقوات وآلات الحصار في حملته ضد الإسماعيلية، ومن يتخلف سيلقى مصير الإسماعيلية على يد المغول[٢]، وهنا يحتج مؤرخو الشيعة على من يلقي باللوم على شيعة العراق أو على نصـير الدين الطوسي، في موقفهم من حملة هولاكو على العراق فقد قدم كثيرون مـن أمـراء العـالم الإسلامي المساعدة لهولاكو ضد قلاع الإسماعيلية، فلماذا يتم اللوم والتشهير بالشيعة فقط علـى حد تعبير حسن الأمين[٣]، فمؤرخي الشيعة كأنهم يقولون أن الجميع قد اشـترك فـي الجـرم، والواضح أن هدفهم هو تبرير لموقف الشيعة بطريقة غير مباشرة، ولكنه تبرير لا يقبله الـدين والعقل، إذ من الواجب على كل مخطئ أن يتحمل نتيجة خطأه أمام التاريخ. والجدير بالذكر أن هؤلاء الأمراء ساهموا في حملة هولاكو ضد قلاع الملاحدة، وليس ضد الخلافة الإسلامية، وأنه كان هناك إجماع في الرأي العام الإسلامي على ضرورة اقتلاع هؤلاء الملاحدة، لما يشكلوه من خطر، ورعب، وإرهاب منظم في المنطقة[٤].

وعلى أية حال فلقد تم تصفية قلاع الإسماعيلية على يد المغول، بمساعدة نصير الـدين الطوسي، وتم استسلام رئيس الإسماعيلية خورشاه لهولاكو "على الوجـه الأحسـن والطريـق الأسهل"[5]، كما رسم لذلك نصير الدين الطوسي[٦]، ويبدو أن إنجـاز الطوسـي لهـذه المهمـة بجدارة، وكذلك توصيات قيادة المغول من العاصمة لهولاكو بضرورة الاسـتفادة منـه، جعـل

(1) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٤٠.
(*) أنظر: الفصل الأول الأوضاع السياسية ؛ أنظر: المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٣٨٣.
(**) للاطلاع على رسالة هولاكو أنظر: ملحق رقم (١٤).
(2) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص١٤٥؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٥١هـ - ٦٦٠هـ)، ص٢٥.
(3) الإسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي، ص١٢١.
(4) أنظر: النسوي: سيرة جلال الدين منكبرتي، ص٥٥-٥٦.
(5) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص١٨٣-١٨٤.
(6) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص١٨٣-١٨٤ ؛ اليونيني: ذيل مرآة الزمان، مج١، ص٨٦.

هولاكو يتخذ من الطوسي مرافقاً ومستشاراً، بعد أن مكث في قلاع الإسـماعيلية ٢٨ عامـاً[١]، كانت أخصب مراحل حياته العلمية[٢]، حيث خان مضيفيه من الإسماعيلية وتآمر عليهم[٣]،

لقد توثقت علاقة الطوسي بهولاكو حتى صورها الرازي بقوله: "لقد احتوى النصير على عقل هولاكو، حتى أنه لا يركب ولا يسافر إلا في وقت يأمر به"[٤]، ويحـاول مـؤرخ شـيعي تبرئة نصير الدين الطوسي من مذهب الإسماعيلية، ويبرر وجوده ثمانية وعشرين عامـاً فـي قلاعهم بأنه كان مجبراً على العيش هناك، وهو ينكر على ابن تيمية أنه عد الطوسـي وزيـراً للإسماعيلية أو واحداً منهم[٥]، ومن الشيعة من يدعي أن الإسماعيلية قاموا بخطف الطوسي من مسقط رأسه مدينة طوس وحملوه إلى ألموت فعاش أسيراً، سجيناً، مرغماً على إسـماعيليته[٦]، ويعود حسن الأمين ويبرر وجود الطوسي في قلاع الإسماعيلية بأنه فر مـن المغـول عنـدما اجتاحوا نيسابور حيث أعملوا السيف في هذه المدينة ففر إلى قلاع الإسماعيلية واستقربها[٧].

فمؤرخي الشيعة يجتهدون في تبرير وجود الطوسي في قلاع الإسماعيلية هذه السـنوات الطويلة وذلك لتبرير دور الطوسي في خيانة مضيفيه، وتسليمهم للمغول، كذلك لأنه بعـد ذلـك أصبح أستاذ الشيعة الإثنا عشرية على الإطلاق بعد احتلال العراق[٨]، ومـن المؤكـد أنهـم لا يرغبون إظهار هذه المرجعية الدينية، بالتقلب بين المذاهب، وخيانة الآخرين.

إن مؤرخي الشيعة لم يقدموا أي دليل في دفاعهم عن الطوسي، إذ تعد مرحلـة إقامـة الطوسي بين أحضان الإسماعيلية من أخصب مراحل حياته في التأليف، "حيث بالمقارنة نجد أن معظم مؤلفات الطوسي كانت في فترة الـ ٢٨ عاماً التي قضاها في ظلال الإسماعيلية"[٩] ولقـد نشر في هذا المناخ مجموعة خطيرة من مؤلفاته هاتيك من الناحية السياسـية، كتـاب أخـلاق ناصري الذي كتبه بالفارسية وترجم بعدها إلى العربية، فضلاً عن كثير من المؤلفات التي تمدح الإسماعيلية[١٠].

---

(1) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٥٥-٢٥٦.
(2) الرازي: محصل محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين، ص٢٠؛ الأمين: الاسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي، ص٤١-٤٢.
(3) براون: تاريخ الأدب في إيران، ص٥٨٨.
(4) محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين، ص١٨.
(5) الأمين: الإسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي، ص٤١-٤٢.
(6) نعمة: فلاسفة الشيعة، ص٤٥.
(7) الإسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي، ص٤١-٤٢.
(8) الأعسم: الفيلسوف نصير الدين الطوسي، ص٣٢-٣٣.
(9) المصدر نفسه، ص٣٢-٣٣.
(10) المصدر نفسه، ص٣١.

ويرجح الباحث أن الطوسي كان مقيماً في قلاع الإسماعيلية برغبته، بدليل كثرة مؤلفاته في هذه السنوات باعتراف مؤرخي الشيعة "وأحدث قفزة علمية عظيمة عنـد الإسـماعيلية"[١]. إضافة إلى عدم وجود أدلة تاريخية تؤيد ما ذهب إليه الشيعة في دفاعهم عنه.

كما يحاول مؤرخو الشيعة تبرير مؤلفات الطوسي الضخمة في ظلال الإسماعيلية بأنـه كان مجبراً على كتابة ما يتفق مع مذهبهم الإسماعيلي تقيةً لهم ودفاعاً عـن نفسـه[٢]، ويـرى الباحث أن الشيعة بهذا الإدعاء قد أساءوا إلى مرجعيتهم الدينية حيث يقول الخميني: "وإذا كانت ظروف التقية تلزم أحداً منا بالدخول في ركب السلاطين فهنا يجب الامتناع عن ذلك حتـى لـو أدى الامتناع إلى قتله"[٣]، ويرجح الباحث أن الطوسي كان من الإسماعيلية ثم تحول إلى الإثنـى عشرية قبيل غزو العراق برفقة هولاكو، إذ ذكره ابن تيمية أنه وزير الإسـماعيلية[٤]، ووضـع كتاب للنصيرية الذين "يعتقدون ألوهية علي"[٥]، ويذكر مؤرخو حملة هولاكو علـى العـراق أن الطوسي وعطا ملك الجويني[*] كانا مستشارين مقربين من هولاكو[٦].

وينبري مؤرخو الشيعة للدفاع عن الطوسي في مرافقته لهولاكو، أثناء اجتياحه للعراق، حيث برر الشيعة ذلك بأنهم صوروا الطوسي مروضاً لهولاكو، وأنه قام بتوجيه هولاكـو إلـى الاهتمام بالقضايا الاجتماعية والثقافية والفنية، وصوروا هولاكو أنه كان يحب العلماء والفضلاء ويحسن إليهم[٧]، وأنه "لم يكن يلتقي مع هولاكو شارب الدم في جامع، وأن الظروف فـي ذلـك الزمن هي التي جمعت بينهما"[٨]، ويستشهد حسن الأمين بمصطفى جواد مغنية أحـد مـؤرخي الشيعة المحدثين الذي يقول: "التحق نصير الدين الطوسي بهولاكو لينجي نفسه من الهلاك وليأتي بمعجزة القرن السابع، وهي نشر العلوم في الشرق، وتأسيس أول أكاديمية بالمعنى العلمـي"[٩]،

(1) الأمين: الإسماعيليون المغول ونصير الدين الطوسي، ص٤١-٤٢.
(2) نعمة: فلاسفة الشيعة، ص٤٨ ؛ الأمين: الاسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي، ص٤٣.
(3) الحكومة الإسلامية، ص١٤٢.
(4) الفتاوى الكبرى، ج٣٥، ص١٤٥-١٦٠.
(5) الرازي: محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين، ص٢٠.
(*) عطا ملك الجويني: وهو الخواجة علاء الدين صاحب الديوان ابن بهاء الدين محمد بن محمد بن محمد الجويني، وزير أبق خان المغولي الذي حكم سنة ٦٦٤هـ ومات سنة ٦٨١هـ، ولد عطا ملك في سنة ٦٢٣ ومات في الرابع من ذي القعدة لعام ٦٨١ هـ، ولقد افتخر قيادات الشيعة بعهد الجويني بسبب انجازاته لصالح الشيعة مثل صدر الدين علي بن الخواجة نصير الدين الطوسي في تاريخ، أنظُر: الكتبي: فوات الوفيات، ج٢، ص٣٢؛ الطهراني: الأنوار الساطعة، ج١، ص١٥٣.
(6) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٨٢؛ براون: تاريخ الأدب في إيران، ج٢، ص٢٨٢؛ حسن: تاريخ الإسلام، ج٤، ص١٥٧؛ أنظُر: الأعسم: الفيلسوف نصير الدين الطوسي، ص٣٣.
(7) أنظُر: الأمين: الاسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي، ص٢٩؛ نعمة: فلاسفة الشيعة، ص٥٢.
(8) نعمة: فلاسفة الشيعة، ص٥١.
(9) الاسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي، ص٤٤٥.

ويضيف الأمين أن الطوسي كان لديه منهج يريد تنفيذه في نهضة الأمة الفكرية، حيث أن الأمة في ذلك الوقت كانت تعاني من الانحلال الفكري حيث أصبح العلم قشوراً لا لباب فيها[١].

ويرى الباحث أن مبررات الشيعة تفتقر إلى الأدلة التاريخية، فالأمة الإسـلامية كانـت متقدمة في جميع العلوم والمجالات، ولم تكن بحاجة لفيلسوف جديد بقدر ما هي بحاجة لمن يدرأ عنها شر العدو الوثني الذي يلتهم أرضها ويحطم حضارتها، كما تتعارض مبرارتهم مع ما ساقه الشيعة من أن الطوسي التحق بهولاكو ليحمي نفسه، كيف ذلك والروايات التاريخية المعاصـرة للأحداث تعارض ذلك، حيث كان هولاكو لا يتحرك إلا بمشورته، وكان حظياً عنده، ومسـموع الكلمة، ومستشاره الأول[٢]، إذ احتوى على عقل هولاكو[٣].

ويبدو أن الطوسي تحول للمذهب الإثنا عشري وذلك إرضاءً للمغول، كما سيؤهله ذلـك للعب دور مهم فيما بعد[٤].

ويرى الباحث أن هولاكو عندما صحب الطوسي، لم يصحبه لأنه فيلسوف من الطـراز الأول، وأنه يحمل منهج كما يدعي الشيعة[٥]، فهذا مشكوك فيه، فهولاكو لم يستخدم الطوسي إلا منجماً له، ومستشاراً وكاتباً لمراسلاته، وخضعت معرفته بالتنجيم للاختبار الأول أثناء البدء في اجتياح العراق[٦].

ولقد كانت الخطوة الثانية بعد القضاء على الإسماعيلية هي القضاء على الدولة العباسية. ففي شهر رمضان لسنة (٦٥٥هـ = ١٢٥٧م) أرسل هولاكو إلى الخليفة العباسي فـي بغـداد رسالة مليئة بالتهديد والوعيد، لامتناعه عن إرسال المساعدة والمدد لهولاكـو أثنـاء حصـاره للإسماعيلية[*][٧]، ويبدو أن هولاكو اتخذ ذلك ذريعة لمهاجمة العراق، كمـا تضـمنت رسـالة هولاكو المطالبة بالاعتراف بسلطة المغول على العراق، كما كان الأمر مـن قبـل للبـويهيين والسلاجقة، كما طلب من الخليفة الحضور شخصياً لمقابلته أو إرسال أكبر ثـلاث رجـال فـي الدولة وهم الوزير، و الدويدار وسليمان شاه، وهدم حصون العراق وهدده إن لـم ينفـذ ذلـك بالقول: "لن أدع حياً في مملكتك، وسأجعل مدينتك وإقليمك وأراضيك طعمـة للنـار"[٨]، وقـال أيضاً: "وإلا فسأرى كيف تكون إرادة ا "[**][١].

---

(1) الاسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي، ص٤٤٥.
(2) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص١٨٦.
(3) الرازي: محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين، ص١٨.
(4) شبولر: العالم الإسلامي، ص٥٧.
(5) الأمين: الاسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي، ص٢٩٠.
(6) أنظر: الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٧٢.
(*) للاطلاع على رسالة هولاكو للخليفة أنظر: ملحق رقم (١٥).
(7) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٢٣٦-٢٣٨؛ الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٦٧-٢٧١.
(8) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص ٢٦٨.
(**) أنظر: ملحق رقم (١٥)، يحتوي على رسالة هولاكو كاملة للخليفة.

كان رد الخليفة سريعاً على هولاكو بالرفض، ونصح هولاكو بالرجوع إلى بلاده، لأن الخليفة يستطيع أن يجمع ملايين البشر من جميع البلاد ومن جميع الطبقات، ولكـن الخليفـة لا يريد الحرب والنزاع، "وإن كنت تريد الحرب والقتال فلا تتوان لحظة ولا تعتذر إذا استقر رأيك على الحرب، إن لي ألوفاً مؤلفة من الفرسان والرجال وهم متأهبون للقتال، وإنهم ليثيرون الغبار من ماء البحر وقت الحرب والطعان"(*)(٢).

ويبدو أن هولاكو عندما أرسل رسالته الأولى للخليفة يطلب فيها المدد والمساعدة أثنـاء حصاره للإسماعيلية، كان يهدف إلى التخلص من القوة المتبقية من الجيش العراقي، لذلك عندما عقد الخليفة الاجتماع الطارئ مع كبار رجال الدولة وقدم الوزير رسالة هولاكو أمام الحضـور، كان هناك إجماع على عدم تلبية رغبة هولاكو في طلبه رغم معارضة الـوزير(٣)، ويبـدو أن الخطة المعدة بين ابن العلقمي والمغول هي إفراغ البلاد تماماً من أي قوات، أي تسهيل وتيسير مهمة قوات التحالف في احتلال البلاد كما فعل الطوسي مع الإسماعيلية.

لقد فشلت هذه الخطوة أمام إصرار وإجماع كبار رجال الدولة، فلم ترسل قوات مسـاندة لحملة المغول ضد الإسماعيلية، ويبدو أن خط الاتصال بين شيعة العراق والمغول كان سـريعاً حيث جاءت رسالة هولاكو الثانية بعد الانتهاء من إخضاع الإسماعيلية تحمل التهديد والوعيـد، وتطلب مطالب أخرى تأتي في السياق نفسه، وهي إضعاف قوة البلاد، حيث طلب تسليم الوزير وسليمان شاه والدويدار، وكذلك هدم حصون البلاد، ويبدو أن الهدف من مطالبة هولاكو بهؤلاء الثلاثة هو القضاء على رأس المقاومة في العراق سليمان شاه والدويدار، خاصـة أنهـم أثنـاء المشاورات في الاجتماع المغلق هما اللذان صرفا الخليفة عن تلبية رغبة هولاكو فـي إرسـال قوات عراقية إليه للقضاء على الإسماعيلية(٤)، حيث كان رأي الوزير هو الاعتذار لهولاكو، ثـم حمل كل نفيس في العراق وتقديمه بين يديه واسترضاء هولاكو بكل السبل، بل طالـب الخليفـة بأن تصبح الخطبة والسكة في العراق باسم هولاكو، ولكن التيار السني في الحكومة عارض ذلك وطالب بأن تصطف البلاد صفاً واحداً خلف مقاومة العدوان(٥)، ويبدو أن الرأي العام في العراق كان مع المقاومة للغزاة خاصة أن العامة تعرضوا بالإيذاء لرسل المغول، بتظاهرات واضـحة

---

(1) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص ٢٦٨.
(*) للاطلاع على رسالة الخليفة كاملة أنظر: ملحق رقم (١٦).
(2) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٦٩-٢٧٠.
(3) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٢٣٦-٢٣٨.
(4) المصدر نفسه، ص٢٣٦.
(5) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٢٢٨-٢٢٩.

تندد بالغزاة، فضلاً عن إيذاء رسلهم[١]، فقام الخليفة بإرسال رسله يحملون بعض الهدايا والتحف ورسالة من الخليفة[٢].

ومن المرجح أن هذه الأخبار قد نقلت بسرعة ودقة إلى هولاكو، عن طريق الوزير ابن العلقمي، أو من خلال شخصيات أخرى غيره، تحضر وتشارك في جلسات الحكومة الخاصـة، خاصة أن التيار الشيعي في الحكومة في ذلك الوقت كان متغلغلاً بقوة، ويسيطر على كثير مـن المراكز المهمة، وقد تم مناقشة ذلك في الفصل الثاني.

ترى لماذا كان هولاكو يطالب بحضور الوزير ابن العلقمي لمقابلته؟! إن ذلك يرجع في تصوري إلى أن المغول مقبلون على خطوات كثيرة، منها الزحف بقـوات ضـخمة للعـراق، وحصارها، ثم اقتحامها، وقيادة الحملة تحتاج للمزيد من المعلومات، كما تحتـاج إلـى تنسـيق وترتيب للأدوار، إنهم بحاجة ماسة لحلفائهم في الداخل.

ويرى أحد المؤرخين المحدثين أن موقف الخليفة من رسالة هولاكو الثانيـة ورفضـه مطالبه ورده برسالة تهديد مفعمة بعبارات القوة والتهديد والثقة، هو الذي عجل بغـزو المغـول للعراق[٣].

ويرى بعض المؤرخين المحدثين أن رسائل هولاكو للخليفة كانت رسائل شكلية ولـيس لها أي قيمة، حيث أن المخطط لاحتلال العراق قد أعد مسبقاً وتم الاتفاق عليه[٤]، ويرى الباحث أن موقف الخليفة العباسي من رفضه لطلبات هولاكو، ومراسلته بقوة وإصرار، برسالة يفـوح منها رائحة الثقة بالنفس، كان موقفاً صحيحاً ولكن يحتاج إلى مقدمات ومتممات، حيث أن رسالة للغزاة تحمل عبارات التهديد والوعيد والثقة الزائدة[٥]، كان من المفترض أن يكون الخليفـة قـد أعد جيشاً جراراً، وبدأت عمليات شحذ الهمم في الأمة، وإجراء اتصالات كثيرة لتكوين حلف أو جبهة تستعصي على الانكسار.

ومن المفيد هنا إجراء مقارنة بين هذا المشهد و ما حدث بعد عامين بالضبط في مصر عند وصول رسل المغول يهددون مصر، حيث تم قتل الرسل فوراً ثم بدأت خطوات كثيرة مـن الإعداد على جميع الأصعدة، والتصق الشعب بحكومته والتحم العلماء بالسلطان لمواجهة الخطر، وصدرت الفتاوى الجريئة، والشجاعة[٦].

---

(1) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٧٠.
(2) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٢٢٨-٢٢٩؛ الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٦٩-٢٩٧.
(3) طقوش: تاريخ الدولة العباسية، ص٢٥٤.
(4) فوزي: الدولة العباسية السقوط والانهيار، ج٢، ص٢٦٠
(5) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٧.
(6) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢١٥.

ولكن بتحليل موقف الخليفة، يلاحظ أن الخليفة أراد أن يثني المغول عن إقدامهم لغـزو العراق بعبارات التهديد والوعيد، فقد ذكر المغول بما جرى لكل الذين أرادوا غزو العراق أمثال البويهيين والبساسيري والخوارزميين فكلهم أهلكهم ا ، كما حـاول إقنـاع المغـول أن حكـم العباسيين مؤيد من السماء، وهو دائم إلى يوم القيامة، ويبدو أن خليفة بغداد لا يعلم أن المغـول لديهم تصور كامل عن قدرات العراق، وقدرات الجيش، وتعداده، ورجاله، وحصـون العـراق واستحكاماتها، إذ قام الطابور الخامس في العراق بتزويد قيادة المغول بذلك أولاً بأول، لقد كانت قيادة المغول على علم بما يدور داخل الجلسات المغلقة للحكومة، وعليه تم تصنيف قيادة العراق، وتم إعداد قوائم للذين يحملون أفكار المقاومة وعدم التهاون مع المعتدين، فالعلقمي "سهل علـيهم ذلك، وحكا لهم حقيقة الحال، وكشف لهم ضعف الرجال"[١]، يؤكد ذلك مطالبة هولاكو المستمرة بتسليم سليمان شاه والدويدار، ويبدو أن الخليفة كان يعتمد على النصرة الخارجية مـن مصـر والشام، يقول العريني: "الواقع أن الخليفة اعتقد بأنه سيلبي نداءه الأيوبيون في الشام والمماليـك في مصر فيهرعون للانضواء تحت العلم الأسود شعار العباسيين، وسوف تعلن إيران وتركستان التمرد والعصيان على المغول"[٢].

ويبدو أن نبوءات الخليفة وكرامات الحكم العباسي التي تحدث عنها في رسالته لم تجـد نفعاً مع العدو الوثني خاصة أن مستشاريه من الشيعة نقضوا له هذه الكرامات بالأدلة التاريخيـة والشرعية، وبرروا له غزو العراق و أفتوا له بأن إرادة ا تباركه بل وتكفل له الانتصـار[٣]، ويبدو أن المماليك والأيوبيين كانوا يعيشون ظروفاً صعبة ومشاكل داخلية منعتهم مـن مسـاندة الخليفة[٤]، كذلك لم "يتحرك الأتابكة الترك والفرس لمساندة الخليفة بعد أن استبد بهـم الخـوف والرعب من المغول"[٥].

فمن المرجح أن خليفة العراق كان مغيباً عن الساحة السياسية لمدة تزيـد عـن عشـر سنوات، تم خلالها إنهاك قوى العراق بالكامل على يد شيعة العراق حتـى تـم تحديـد الوقـت المناسب للغزو وإنهاء الخلافة، فرسالة الخليفة القوية لهولاكو تدل على أنه كان واهمـاً بقـوات العراق ولا يعلم أن جيشه قد سُرح ليصل عدده إلى نحو عشرة آلاف فقط، ولا يعلم أن العـراق تعرضت لإهمال متعمد، وأن الفيضانات الأخيرة قد دمرت البلاد وأن حكومته لم تفعـل شـيئاً لإصلاحها[٦]، لقد اعتقد أن مصير المغول إلى زوال، كمن قبلهم، بل اعتقد أن الخلافة قائمة إلى

(1) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٠٢.
(2) العريني: المغول، ص٢١٦-٢١٧
(3) أنظر: الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٧٩-٢٩٦.
(4) القزاز: الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير، ص٣١٣ ؛ العريني: المغول، ص٢١٦-٢١٧.
(5) العريني: المغول، ص٢١٦-٢١٧.
(6) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٦٢.

يوم القيامة[1]، لذلك اعتمد على القوة المعنوية التي تتمتع بها الخلافة في بغداد، وكان يقول: "إن بغداد تكفيني ... وهي بيتي ودار مقامي"[2].

كان يجب على الخليفة أن يكون يقظاً لبلاده، وألا يوكل أموره للوزير الشيعي، وكان يتوجب عليه أن يبدأ في العمل الجاد بمجرد ظهور المغول عند تخوم خراسان، ويخرج للقائهم بعد أن يكون قد استغل مكانته الدينية وعمل اتصالاته وحشد قوات من جميع مناطق العالم الإسلامي مكوناً جبهة قوية في وجه الغزاة الوثنيين، ليحافظ على تراث أجداده، وحضارة الإسلام، ولا يُعفى الخليفة من المسئولية، إذ يتحمل جزءاً من المسئولية في سقوط الخلافة تحت سنابك جيش المغول، رغم فداحة الجرم الذي ارتكبه شيعة العراق في هذا السقوط، وقد وصف أحد شعراء تلك المرحلة موقف الخليفة بهذا البيت مصوراً عجزه بسبب خيانة الوزير له:

"أروم صبراً وقلبي لا يطاوعني وكيف ينهض من خانه الورك(*)"[3]

أما على الجانب الآخر وقبل أن تتحرك قوات الحملة المغولية على العراق فقد قام هولاكو بعقد اجتماع مع المنجمين لمشاورتهم ومعرفة رأيهم في غزو العراق[4]، وكان يريد أن يختاروا له أفضل الأوقات للتوجه نحو العراق، حيث قال لمنجمه الخاص حسام الدين: "بين كل ما يبدو لك في النجوم دون مداهنة"[5]، ويصف مؤرخ الحملة الهمذاني أن هذا المنجم كان له جرأة على هولاكو فقام بتحذيره من مغبة عمله إذ "قال للملك بصورة مطلقة ليس ميموناً قصد أسرة الخلافة، والزحف بالجيش إلى بغداد، إذ أن كل ملك حتى زماننا هذا قصد بغداد والعباسيين، لم يستمتع بالملك والعمر وإذا لم يصغ الملك إلى كلامي، وذهب إلى هناك، فستظهر ست أنواع من الفساد"[6]، حيث حذره في حالة إقدامه على غزو العراق فسوف تموت الخيول ويمرض الجنود، والشمس سوف لا تطلع، ولن ينزل المطر، وسينهار العالم بالزلازل والرياح ولن ينبت النبات في الأرض، كما هدده في النهاية أنه سيموت في هذه السنة[7]، ويبدو أن المنجم حسام الدين كان يشفق على الخليفة وأهل العراق وربما كان على المذهب السني، ويرى مؤرخ أجنبي أن هولاكو كان يعيش حالة من التردد والاضطراب والقلق[8]، ويبدو أن هذا المنجم كان يهدف إلى ثني المغول عن غزو العراق واستطاع تحقيق تردد وقلق عند قيادة المغول.

---

(1) الهمذاني: جامع التواريخ ، ج٢، مج٢ ص٢٧٥.
(2) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٢٥٥.
(*) الورك: هو ما فوق الفخذ، كالكتف فوق العضد، ومنها التورك في الصلاة، وهي كناية عن عظم الخذلان، أنظر: ابن منظور: لسان العرب، ج١٠، ص٥٩.
(3) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٣٩٢
(4) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٨٠.
(5) المصدر نفسه، ج٢، مج٢ ص٢٧٩.
(6) المصدر نفسه، ج٢، مج٢ ص٢٧٩.
(7) المصدر نفسه، ج٢، مج٢ ص٢٧٩.
(8) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، مج٢، ص٥١٩.

ولكن هنا برز دور الشيعة واضحاً بتقديم العون، والدعم النفسي للقيادة وتحفيزهـا ودب الروح فيها، إذ ظهر الطوسي الذي التحق حديثاً بجيش المغول وأصبح كاتب الرسائل الخاصـة لهولاكو حيث أورد رشيد الدين الهمذاني أن الخواجة الطوسي بعد التحاقه بخدمة هولاكو أصبح كاتباً للرسائل، فهو من كتب رسالة هولاكو لحاكم حلب، تلك الرسالة المليئة بالتهديد والوعيـد، وتعظيم قوة المغول، لأنهم إرادة ا ويقتبس مصطلحات من القرآن الكريم[*][1]، فظهر الطوسي قائلاً: "لن تقع أي واقعة من هذه الأحداث"[2]، بل إنه شجع هولاكو وأمله حيث قال: "إن هولاكو خان سيحل محل الخليفة"[3]، بل أخذ يناظر حسام الدين بأن جمعاً كبيراً من الصحابة استشـهدوا باتفاق آراء الجمهور وأهل الإسلام، ولم يحدث أي فساد مما ذكرت، كما أنه خصص العباسيين حيث قال إن العباسيين ليس لهم مكرمة خاصة بدليل قتل طاهر الذي جاء مـن جهـة الشـرق للأمين ولم يحدث شيء كما أن المتوكل قتل ابنه بالاتفاق مع الأمراء، ولم يحدث شيء، كما وتم قتل المعتز والمنتصر وكذلك قتل عدد من الخلفاء ولم يحدث شيء[4]، ويبدو أن الطوسي بذلك قد أصدر فتوى شرعية بتدمير الخلافة، واستطاع أن يزيل حالة التردد والقلق عند القيادة المغولية، فقد ظهر متحفزاً لإزالة الخلافة أكثر من هولاكو، فقد بسط الأمر بطريقة غريبة، بأن ما سيحدث ليس حدثاً فريداً إذ تكرر كثيراً قبل ذلك، حيث قتل العديد من الخلفاء، وسبق أن جاءت جيـوش من الشرق واستطاعت قتل الخليفة، فالمسألة سهلة وبسيطة، ويذكر مـؤرخ الحملـة المعاصـر للأحداث أن الطوسي استطاع أن يضيء قلب هولاكو "فأضاء قلب الملك من قول العالم، كأنـه زهرة ... في الربيع الباكر"[5].

ويروي الهمذاني أنه لم يحدث أي قرار مغولي رسمي بالهجوم علـى بغـداد إلا بعـد موقف الطوسي القوي "بعد ذلك عقد هولاكو النية على فتح بغداد"[6]، وفي ذلك رد قوي على من يقول: "والحق أن هولاكو ما كان في حاجة إلى أن يُحَرضْ من الشيعة الفرس كالطوسي مـثلاً على قصد بغداد والاستيلاء على هذه الغنيمة الباردة"[7]، كما أن موقف الطوسي هذا يبرهن على بطلان قول بعض مؤرخي الشيعة الذين ادعوا أن الطوسي كان مروضاً لهولاكو[8]، إذ ثبت أنه كان محفزاً لهولاكو للقضاء على حاضرة الخلافة الإسلامية.

(*) للاطلاع على رسالة الطوسي التي كتبها لحاكم حلب يتهدده باسم هولاكو، أنظر: ملحق رقم (٩).
(1) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٩٧.
(2) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٩٧.
(3) المصدر نفسه، ج٢، مج٢ ص٢٩٧.
(4) المصدر نفسه، ج٢، مج٢ ص٢٧٩-٢٨٠.
(5) المصدر نفسه، ج٢، مج٢ ص٢٧٩-٢٨٠.
(6) المصدر نفسه، ج٢، مج٢ ص٢٨١.
(7) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٣٩١.
(8) الأمين: الاسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي، ص٤٤-٤٥؛ نعمة: الفلاسفة الشيعة، ص٤٨.

وبالرغم من كثرة الروايات والأدلة التي تؤكد الموقف الخياني للطوسي إلا أن هناك من يحاول أن يبرر موقفه ويدافع عنه، إذ يدعي بدوي أن الطوسي كان خائفاً من هولاكو في ذلك الوقت واعتبر مشاورة هولاكو له في أمر غزو العراق اختباراً له[1]، كما يستشهد بقول الكتبي أنه كان للطوسي نفع لبعض المسلمين خصوصاً الشيعة والعلويين حيث كان يحمي أوقافهم[2]، وعند تفنيد حجة مؤرخي الشيعة في درئهم الخيانة عن مرجعيتهم، يرى الباحث أن الطوسي لو كان حريصاً على الخلافة الإسلامية وإخوانه في الدين ولا يحمل سوء نية لهم كما يدعي بدوي[3]، لصمت أو أيد منجم الحملة المرافق لهولاكو لكنه أجهد نفسه بحشد أدلة كثيرة وأحداث تاريخية حتى نسف كل ما قاله حسام الدين. وإذا كان الطوسي قد فعل ذلك تقية وحماية لنفسه، فأيّ شريعة هذه التي تسمح لعالم أن يدمر دينه وأمته وخلافة المسلمين من أجل أن يحمي نفسه؟! وقد مر بنا كيف أفتى الخميني للشيعة بحرمة التقية التي تؤدي إلى الدخول في ركب السلاطين الظالمين ولو كان ظرفها سيؤدي إلى القتل[4].

ويبدو أن بدوي لا يدري أن علماء الشيعة يعدون موقف الطوسي وتشجيعه لهولاكو لاحتلال العراق، وسحق الخلافة، وإيقاع القتل العام بالمسلمين، من أعظم مناقب الطوسي، إذ يرون أن هذا القتل هو الطريق الأمثل لإرشاد العباد وإصلاح البلاد، كما أنهم يعتقدون أن مصير المسلمين الذين استشهدوا في العراق إلى جهنم[5]، ويقول الخونساري في ثنايا ترجمته للطوسي ما نصه: "من جملة أمره المشهور المعروف المنقول حكاية استيزاره للسلطان المحتشم هولاكو خان ومجيئه في موكب السلطان المؤيد مع كمال الاستعداد إلى دار السلام بغداد، لإرشاد العباد وإصلاح البلاد بإبادة ملك بني العباس، وإيقاع القتل العام في أتباع أولئك الطغاة، إلى أن أسال من دمائهم الأقذار كأمثال الأنهار، فأنهار بها في ماء دجلة ومنها إلى نار جهنم دار البوار"[6]، تلكم هي الخدمات الجليلة التي قدمها الخواجة نصير الدين الطوسي للمسلمين التي تحدث عنها حسن الأمين، وذلكم هو المنهج العلمي الجديد الذي كان يحمله للمسلمين، ويبدو أن هذا هو ما تحدث عنه الشيعة من أنه جاء برفقة هولاكو ليأتي بمعجزة القرن السابع[7]، ويقول الإمام الخميني عن الطوسي "ويشعر الناس بالخسارة ... بفقدان الخواجة نصير الدين الطوسي، وأضرابه ممن قدم خدمات جليلة للإسلام"[8]. ومن الواضح أن قصد الخميني بالخدمات الجليلة

---

(1) تاريخ المذهب السني، ص٢٧٠.
(2) الكتبي: فوات الوفيات، ج٢، ص٣١٢.
(3) تاريخ المذهب السني، ص٢٧٠.
(4) الحكومة الإسلامية، ص١٤٢.
(5) الطبرسي: مستدرك الوسائل، ج٤، ص٤٨٣.
(6) روضات الجنات، ح٦، ص٣٠٠-٣٠١.
(7) الاسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي، ص٤٤-٤٥.
(8) الخميني: الحكومة الإسلامية، ص١٢٨.

هو إبادة السنة في العراق، وإسقاط خلافتهم مثلما فعل هو عندما أصر على اسـتمرار الحـرب على العراق إلى أن بلغ عدد ضحايا المسلمين من السنة والشيعة نحو مليون مسلم، ومثلما فعـل إخوانه أصحاب المرجعيات الدينية عندما حرضوا الأمريكان وغيرهم من الصليبيين على غـزو العراق ووقفوا إلى جانبهم وأبادوا معاً مئات الألوف من أهل السنة وهجروا الملايين، وجعلـوا العراق جحيماً لا يطاق. ويؤكد المؤرخ الشيعي نور ا الششتري أن المنجمين حذروا هولاكـو من غزو بغداد وقتل الخليفة لأن العالم سيصير أسوداً مظلماً، وتظهر علامـات القيامـة، لكـن مستشاره الشيعي نصير الدين الطوسي فند وسفه آراء المنجمين وأكد لهولاكو أن كل ما قـالوه مجرد هراء، وأن طالع النجم الحقيقي يبارك له قتل الخليفة واستباحة العراق[1].

وبعد أن صدر القرار من القيادة العليا للقوات بالتحرك توجه جيش المغول إلى العراق، وعندها وصلت سفارة من العراق لهولاكو بقيادة ابن الجـوزي[*] تلـتمس أن يعـود هولاكـو ويتراجع في مقابل أن تدفع الخلافة من الخزينة كل ما يقرره هولاكو، ولكن هولاكو رفض ذلك ويفسر الهمذاني ذلك أنه ظن أن الخليفة يريد أن يكسب الوقت ليعد جيوشه للمقاومة فـي حالـة عودة المغول إلى قواعدهم، فكان جواب هولاكو للسفارة "وكيف نترك زيارة الخليفة، بعد كل ما قطعناه من هذا الطريق. سوف نعود بإذنه بعد الحضور للقائه والتحدث معه"[٢] [**].

ويبدو أن المغول كان لديهم أخبار موثقة بما يدور في بغداد من استعدادات للمواجهة. ومع بداية عام (٦٥٦هـ = ١٢٥٨م) كان المغول قد استكملوا حشودهم على الضفة الغربية لنهـر دجلـة، وتولى قيادة هذه الحشود ثلاثة من كبار أمرائهم في حين كان هولاكو وكتبغا يضـيقون الخنـاق على بغداد من الجانب الآخر[٣]، حيث كانت مع هولاكو معظم القوات "جيوش تملأ الفضـاء"[٤]، ومعه آلات الحصار، وضج سكان الجنوب حيث انحدروا إلى بغداد "حتى امتلأت شوارعها"[٥]، وضاقت على وسعتها عنهم فجلس الناس في الطرقات والدكاكين "وقلت الأقوات ووقع الناس في خوف شديد وويل عظيم"[٦]. ويبدو أن المغول كانوا يقصدون ضغط سكان جنوب العـراق فـي بغداد كي تحدث حالة إرباك وخوف واضطراب، ومن المرجح أنهم كانوا يهدفون إلى حصـار سكان جنوب العراق في بغداد وممارسة كل أشكال الضغط عليهم لقبول الاستسـلام، والجـدير

---

(1) مجالس المؤمنين، ص٤١٠.

(*) ابن الجوزي: وهو الشيخ محي الدين يوسف ابن ابي الفرج ابن الجوزي، وكان يعمل في عهد الخليفة المستعصم أستاذاً للدار، أنظر: ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٠١؛ العيني: عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص١٧٣.

(2) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٨٢

(**) للاطلاع على فحوى رسالة الخليفة لهولاكو ورد هولاكو عليها أنظر: ملحق رقم (١٦)، وملحق رقم (١٧).

(3) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٢٣٦.

(4) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٢٣٠.

(5) المصدر نفسه، ص٢٣٠.

(6) المصدر نفسه، ص٢٣٠.

بالذكر أن هذه الرواية تؤكد أن عدد قتلى مذبحة بغداد على يد المغول ليس مبالغاً فيه كما ادعى بعض المؤرخين المحدثين[1]، فمن كان موجوداً في بغداد هم جميع أهل جنوب العـراق ولـيس أهل بغداد فقط.

وبدأ المغول يحكمون الحصار على عاصمة العراق[٢]، كما بدأوا بنصب آلات الحصار حول بغداد، ونصبوا السيب والأسوار العالية، وفي الجانب الغربي قام المغـول بحفـر خنـدق عظيم، ونصبوا المنجنيقات قبالة أسوار بغداد من جميـع الجوانـب ورتبـوا العـرادات وآلات النفط[٣]. كما بادر المغول إلى إقامة الاستحكامات فأقاموا على دجلة بـأعلى المدينـة وبأسـفلها جسرين على السفن إمعاناً في تضييق الحصار على بغداد وكي لا يدعوا لأهلها الفرصـة فـي الرحيل عن طريق النهر، واستخدم المغول جذوع النخيل للرمي بالمنجنيق بدلاً من الأحجار التي لم تكن متوفرة حول بغداد حيث كانوا يأتون بها من مناطق قريبة من هناك[٤].

ويروي الفوطي أن هولاكو عندما أصبح أمام أبواب بغداد أُغلِقت في وجهه فتأكد مـن ضعف العراق، وأمر بحفر خندق و بنى بترابه سوراً يحيط ببغداد، وعمل له أبواباً ورتب عليها أمراء من المغول، و بدأوا في نصب آلات القذف والمجانيق والعرادات، بل أخذ المغول بعمـل حواجز في الماء داخل النهر، لمنع هروب وفرار أحد إلى واسط، وكانت السفن تسلب ويقتل كل من فيها، حيث تم قتل عدد كبير[5]. ويبدو أن المغول أرادوا عزل عاصمة العراق تمامـاً عـن العالم الخارجي، ولكي يأمنوا عدم وصول إمدادات من الخارج.

وفي هذه الأثناء كان جيش العراق الذي لم يتجاوز عشرة آلاف مقاتل قد تهيأ للقاء العدو بقيادة ركن الدين الدويدار[٦]، ويروي ابن العبري أن المسلمين بقيادة الدويدار والمغـول مكثـوا ثلاثة وعشرين يوماً دون أن يحارب أحدهما الآخر[٧]، وفي هذه الأثناء كـان شـيعة العـراق يمارسون أهم أدوارهم في مساعدة الغزاة، فلم تقتصر المساعدة على الناحية الاستخبارية فقـط، بل تعدت ذلك، حيث يصف المؤرخون أن شيعة العراق شاركوا بألوية كاملة، في جيش المغول، بل كانت فرسان الشيعة في مقدمة جيشهم "وجاء بانجونوين[*] في جحفل عظيم وفيه خلـق مـن الكرخ"[٨].

---

(1) خليل: الوحدة والتنوع في تاريخ المسلمين، ص١٤٢.
(2) العيني: عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص١٦٩-١٧٠
(3) ابن العبري، تاريخ الزمان، ص٢٣٦.
(4) المصدر نفسه، ص٢٧١.
(5) الحوادث الجامعة، ص٢٣٠-٢٣١؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٥١هـ - ٦٦٠هـ)، ص٤٢.
(6) أبو الفداء: تاريخ أبو الفداء، ج٢، ص٣٠٢.
(7) تاريخ الزمان، ص٣٠٦-٣٠٨.
(*) لم يجد الباحث له تعريف في كتب التراجم.
(8) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، مج١، ص٨٧. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٤٩.

ويبدو أن هناك موقفاً عاماً لشيعة العراق بتسليم البلاد للمحتل، فلقد كانت قوات الشيعة هي أول من التحم بإخوانهم المسلمين وأسالوا دماءهم[١]، بل إن مؤرخ المغول يروي أن شيعة العراق قاموا باستقبال جيش المغول بالأفراح، ابتهاجاً بقدومهم، بل شارك شيعة العراق في عمليات بناء الجسور لعبور قوات المغول، كما أنهم بدأوا في عمل نقاط تفتيش على الفرات، للبحث عن المطلوبين[٢]، ويبدو أن الأمور كانت منسقة ومرتبة فالقوات المسلحة تهاجم وتحاصر من الخارج، في الوقت نفسه يتم العمل من الداخل، على اتجاهين متوازيين، عمل استخباراتي منسق ومستمر، وإعداد قوائم للمطلوبين وتبليغ قيادة المغول بالأحوال أولاً بأول، في الوقت نفسه تقوم قوات بقطع الطرق ومحاصرة الفارين والبحث عنهم، ومجموعات أخرى تساعد في عبور القوات الفاتحة إلى البلاد.

ولم تتوقف مساعدة الشيعة عند هذا الحد بل قامت فرق منهم بتنفيذ مهمات معقدة، وذلك عندما شعروا بحرج موقف قوات المغول في الخارج، إذ يروي المؤرخون أن الدويدار عبر نهر دجلة بقواته والتقى بجيوش المغول واقتتلوا قتالاً عنيفاً، استطاع جيش العراق هزيمة المغول، فتراجعوا وطاردهم الدويدار، وقتل منهم عدداً كبيراً، وحمل رؤوسهم إلى بغداد، وقضى النهار في تتبعهم، وأقبل الليل على جيوش العراق "وقد تجاوز نهر بشير المتفرع من الدجيل فباتوا هناك"[٣]، وفي الصباح انقض المغول يقاتلونهم بشراسة فتراجعت جيوش العراق لتأخذ مواقعها فوجدت أن نهر البشير قد فاض ماؤه عليهم، وذلك منذ الليل، وملأ الصحراء، فتوحلت خيولهم وغرقت وألقى معظم العسكر نفسه في دجلة حيث هلك أغلبهم[٤]، ويروي ابن العبري أنه بعد انتصار جيش العراق في المعركة الأولى تسلل فريق من أتباع المغول وقاموا بفتح ثغرة تفجرت منها مياه دجلة فأغرقت جيش العراق، وذلك في الليل، وغرق الجيش وأخذ يتراجع، وفي الصباح كر عليهم المغول[٥]، واستغرقت المعركة حتى الساعة التاسعة صباحاً من يوم الخميس، إذ هزم جيش العراق وقتل كبار القادة وتراجع الدويدار قائد القوات إلى بغداد[٦]. ويصف العيني كيف تحول النصر إلى هزيمة بأن المسلمين باتوا ليلتهم موقنين بانتصارهم على المغول بعد هذه المعركة، ولكنهم تفاجأوا برجوع المغول وكأنهم على ميعاد، وأثناء تراجع المسلمين ليأخذوا مواقعهم، وجدوا مياه دجلة عمت المنطقة وأغرقت الطرق والمسالك، وأغرقت الجنود، عندها استطاع المغول تحقيق نصرٍ على جيش العراق وقتلوا كبار قادة الجيش، ويؤكد العيني أن

---

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٤٩.
(2) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٩٦.
(3) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٢٣١-٢٣٢.
(4) المصدر نفسه، ص٢٣١-٢٣٢.
(5) ابن العبري: تاريخ الزمان، ص٣٠٦-٣٠٨.
(6) المصدر نفسه، ص٣٠٦-٣٠٨.

الدويدار قتل في هذه المعركة هو وولده أسد الدين حيث كان ابنه قائداً على خمسة آلاف وكـان يتصف بالشجاعة والإقدام، وقتل سليمان بن برجم أمير علم الخليفة وعدد من الأمـراء، وقـادة الجيش وتم أسر عدد آخر، حيث تم حمل رؤوس كبار قادة جيش العراق الثلاثة الدويدار وابنـه أسد الدين وسليمان بن برجم إلى الموصل وعلقت على باب المدينة إرهاباً وتخويفاً للسكان(1).

ويظهر هنا تعارض في الروايات بالنسبة لمقتل الدويدار وسليمان بن برجم، حيث يذكر العيني أنهم قتلوا في معركة الدجيل أثناء غرق الجيش(٢)، ولكن ابن العبري والفوطي يؤكـدون نجاتهم ووصولهم لبغداد(٣)، ومن المرجح أن الدويدار وسليمان شاه كانا مـن ضـمن النـاجين ووصلا إلى بغداد، وما يؤكد ما ذهب إليه الباحث وجود رسائل لهولاكو بعد معركـة الـدجيل يطالب فيها بتسليم الإثنين له(٤).

ويؤكد المؤرخون أن معركة الدجيل كانت في اليوم الأول لصالح الجيش العراقـي وأن فتح مياه النهر هي التي سببت هزيمة جيش العراق، ويروي الجوزجاني المعاصر للأحـداث أن الوزير ابن العلقمي أصدر أوامره لإحدى الوحدات الخاصة من أتباعه بفتح مياه النهر تحت جنح الظلام حيث تم فتح السد الذي يحجز المياه، وتم إغراق جيش العراق وتحقيق النصـر للمغـول بمساعدة الشيعة من داخل العراق(5). ولقد أكد مؤرخ الشيعة عملية إغراق الجيش حيـث قـال: "وأعانهم على ذلك نهر فتحوه على طول الليل"(٦)، ويبدو أن معركة الدجيل كانت قاسية علـى جيش الخلافة، حيث خسر معظم قواته بالغرق والقتل، وانسحب الجيش إلى بغـداد وفـي ذلـك الوقت شدد المغول حصارهم عليها، وأحكموا الحصار، وبدأت التصفيات على الحواجز المقامـة في الأنهار، وتم حصار المدينة من جميع الجهات(٧)، إن ما تم في الدجيل هو خديعة تم تدبيرها بعد الانتصار الذي حققه جيش العراق على جيش المغول، بعد معركة حامية الوطيس(٨)،وكـان استخدام المياه في المعركة وإغراق الجنود المسلمين بها عاملاً مهماً في حسم المعركة لصـالح المغول خاصة أن جيش العراق كان يدافع بقوة وشراسة بقيادة أيبك الدويدار السني(٩).

ويرى حسن الأمين وهو مؤرخ شيعي في معرض حديثه أثناء مناقشته لمقال نشر فـي الصحف الأمريكية. حيث يعتبر هذا المقال أن جنكيز خان رجل مخطط استراتيجي من الطـراز الأول، حيث يرى حسن الأمين أن معارك جنكيز خان وأحفاده لا تدال على أن جنكيـز خـان

(1) عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص١٦٩-١٧٠.
(2) المصدر نفسه، ص١٦٩-١٧٠.
(3) تاريخ الزمان، ص٣٠٦-٣٠٨؛ الحوادث الجامعة، ص٢٣٠-٢٣١.
(4) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٨٦-٢٨٧.
(5) طبقات ناصري، ص٤٢٧.
(6) ابن طباطبا: الفخري، ص٣٣٦.
(7) ابن العبري: تاريخ الزمان، ص٣٠٦-٣٠٨.
(8) فوزي: الدولة العباسية السقوط والانهيار، ج٢، ص٢٦٥.
(9) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ص٥١٩

وأحفاده مخططون عسكريون، حيث أن انتصارات المغول بسبب ضعف أعدائهم وخيانة بعضهم وليس النصر كامنا في قوتهم وتخطيطهم[1]، والباحث يشاطر الأمين الـ رأي، فـ المغول كـ ان بالإمكان هزيمتهم، بدليل هزيمة المغول بعد عامين من احتلالهم العراق في عين جالوت[٢]، حيث أن المشهد لم يتغير وحال المسلمين كما هو، ولكن في عين جالوت لم تحدث خيانة وتسليم للبلاد كما حدث في العراق.

ومن الملاحظات المثيرة للانتباه أن التاريخ الذي أُغْرق فيه جيش الخلافة بمياه الـ دجيل على يد الوحدات الخاصة الشيعية يوافق يوم عاشوراء[٣]، الذي يتذكر فيـ ه الشـ يعة استشـ هاد الحسين، ويضربون فيه أنفسهم على خذلانهم له، وها هم يكررون وفي اليـ وم نفسـ ه خيـ انتهم ويعرضون دينهم للخطر، وجيشهم، وأبناء شعبهم للقتل، ووطنهم للاحتلال، وخلافتهم للسـ قوط، فيا للعار ويا للخزي لمن يواصلون خيانة الأمة والدين، وقد تسببوا اليوم في سقوط العراق في يد الصليبيين الأمريكان وغيرهم، ولقد أراد شيعة العراق أن ينتقموا عملياً من السنة في هذا اليوم، فتم قتل أكثر من "اثني عشر ألف رجل، فضلاً عمن غرق أو قضى نحبه في الوحل"[٤]، يتبـ ين مما سبق أن مساهمة شيعة العراق في هذه المعركة كان لها نصيب الأسد، وأن هذا الانتصـ ار على جيش الخلافة يستحق أن ينسب لشيعة العراق، فهم من دبر وخطط وهيأ الـ بلاد للسـ قوط، وهم من قاد الحرب الإعلامية ضد العدو وحدد موعد الغزو، ثم هم من أبلى بلاءاً حسـ ناً فـ ي ساحات القتال، فكانت فرقهم في مقدمة الجيش المغولي وطلائعه، بل قامت وحدات خاصة بتنفيذ مهمات معقدة فضربت جيش الخلافة خلف خطوطه، حيث تمت عملية إغراق الجيش العراقـ ي من الخلف وليس من الأمام، ويلاحظ أنه من لم يستطع من الشيعة حمل السـ لاح قـ ام بـ إعلان الأفراح والمهرجانات احتفالاً بالاحتلال الجديد للبلاد، كما أن هناك مجموعات تجردت وعملـ ت بكل سرية وكتمان لإحكام السيطرة على البلاد، فأقامت نقاط التفتيش علـ ى الطـ رق الرئيسـ ة، وداخل مياه الأنهار، وقامت بعمليات سلب ونهب، وإغراق وقتل الكثير من الفارين من حصـ ار المغول.

لقد قام المغول بعد هزيمة الدجيل بإغلاق طريق المدائن والبصرة بعشرة آلاف جنـ دي، وفتشت السفن والقوارب وقتل وأغرق كل من فيها وسلب كل ما فيها، ورُد كـ ل مـ ن يحـ اول الهرب[5]، ويبدو أنه تم عزل بغداد عاصمة الخلافة تماماً هذه المرة، وأحكـ م عليهـ ا الحصـ ار

(1) الاسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي، ص٨٢-٨٣.
(2) ابن العبري: مختصر الدول، ص٢٤٦.
(3) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٨٥؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٥١.
(4) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٨٥.
(5) المصدر نفسه، ج٢، مج٢ ص٢٨٨.

بمائتي ألف مقاتل[1]، ورغم ذلك قام جيش العراق بسد أبواب بغـداد، وأخـذوا فـي المقاومـة والمدافعة[2]، ورمي المغول بالسهام حيث أصيب أحد قادة جيش المغول بسهم في عينه من شدة المقاومة[3].

ويبدو أن هناك دور مهم للعلقمي، لذلك وبغداد تحت وطأة الحصار وقذائف النيـران، والسهام، خرج الوزير ابن العلقمي إلى هولاكو "إلى خدمة السلطان"[4] في جماعة مـن أعوانـه وأتباعه ومماليكه، وأشاع بين الناس أن الصلح سيقع ولا داعي للقتال، وذلك في الوقـت الـذي يكثف فيه المغول من هجمتهم، "سوف يقع الصلح إن شاء ا فلا تحاربوا، هذا وعسكر المغول يبالغون في الرمي وقد اجتمع منهم خلق كثير على برج العجمي"[5].

وعاد الوزير ابن العلقمي من زيارته لهولاكو يطالب الخليفة بخروج الدويدار وسليمان شاه لهولاكو كشرط لوقف القتال، ورفض الدويدار وسليمان شاه الخروج لهولاكو، وخرج بـدلاً منهم جماعة من الأعيان فرفض هولاكو ذلك وطالب بالاثنين شخصياً وأصر على طلبه[6]، فـي هذه الأثناء كان ابن العلقمي يطلب من المقاومين هو وأتباعه بالكف عـن المقاومـة، وحـاول المغول السيطرة على برج العجمي أكثر من مرة، لكنهم فشلوا وأخذوا يلقون بالمنشورات داخل أسوار بغداد عن طريق المنجنيقات، والمنشورات تفيد بأن كل من لا يقاوم سوف يكون آمناً على نفسه، في ذلك الوقت نجحت محاولات المغول في السيطرة على برج العجمي، وقتلـوا جميـع جنود العراق المرابطين عليه[7]، ويفسر ابن طباطبا سبب سيطرة المغول على برج العجمي بأنه أقصر أبراج سور بغداد[8].

ظل ابن العلقمي يتردد بين هولاكو وبغداد ويطالب بخروج قادة الحرب، الدويدار وسليمان شـاه لمقابلة هولاكو، كشرط لوقف القتال ودك المدينة[9]، وتحت هذا الضغط خرج الدويدار وسليمان شاه، حيث تم قتلهما بطريقة سرية دون علم أحد[10]، ويبدو أن قتلهما قد تـم بسـرعة وأحـيط بالسرية لكي يعتقد الجميع أنهما أُبعدا إلى مصر أو إلى الشام، خاصة أن هولاكو كان يطالبهمـا

---

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٤٩.
(2) ابن طباطبا: الفخري، ص٢٣٦.
(3) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٨٩.
(4) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٢٣١.
(5) المصدر نفسه، ج٢، مج٢ ص٢٣١.
(6) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٨٦؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٢٧١.
(7) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٨٨.
(8) الفخري في الآداب السلطانية، ص٣٣٦.
(9) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٣٣٧.
(10) المصدر نفسه، ص٣٤٠.

بالخروج للانضمام لجيشه المتوجه لمصر والشام، ليتم إبعادهما إلى تلك البلاد، كما يرى الهمذاني أنهما لم يخرجا لوحدهما بل كان برفقتهما كثير من الجنود وقد تم قتلهم جميعاً[١].

ويلاحظ أن المغول استطاعوا التخلص من قيادة الجيش العراقي بكل سهولة عن طريق خديعة الوزير ابن العلقمي لهم، ومن الواضح أن إلحاح قيادة جيش المغول على تسليم الدويدار وسليمان شاه، لم تأت من فراغ، فأنها مؤشر على أنه لدى المغول رؤية واضحة عن كبار رجال الدولة، وموقع كل منهم، بل وما يحمله كل واحد منهم من ثقافة وفكر، وأنهم حصلوا على هذه المعلومات بفعل التعاون الاستخباري للشيعة على أعلى المستويات مع قيادة المغول.

ويذكر ابن العبري أن قيادة جيش المغول أمرت رماة السهام أن يكتبوا على سهامهم أن النصارى والعلويين آمنون على أنفسهم فلا داعي للقلق[٢]، ويبدو أن المغول كان لديهم معلومات دقيقة عن كل عناصر القوة والضعف في العراق، وكذلك تركيبة البلاد الداخلية، فالعلقمي "سهل عليهم ذلك، وحكا لهم حقيقة الحال وكشف لهم ضعف الرجال"[٣]. ويشاطر الباحث الرأي مؤرخ أجنبي حيث يقول: "المعروف أن بغداد تقع على ضفتي نهر دجلة، على أن المدينة الغربية التي شملت قصر الخلفاء الأوائل، أضحت أقل أهمية من المدينة الشرقية، التي تركزت بها مباني الحكومة، وركز المغول أشد هجماتهم على الأسوار الشرقية"[٤].

ويبدو أن خطط الغزو كانت تقضي بالقضاء على المقاومة قبل اجتياح العراق، وذلك من خلال تسليم قيادة الجيش بالخديعة وهذا ما حدث، كذلك ضرب مباني الحكومة، لشل قدرة البلاد على الحركة والتدبير ووضع خطط لمواجهة العدوان، وهذا ما يفسر تركيز المغول ضرباتهم على الجهة الشرقية من بغداد التي توجد بها الحكومة، ثم ضرب معنويات المجاهدين والعسكر، بطرق عدة، لذلك قام باستخدام المرتزقة الذين في جيشه، حيث قاموا بالاتصال بالأهالي للكف عن المقاومة ووعدوهم بأنهم سيكونون في مأمن ولن يلحق بهم ضرر، بل إن بعض جنود جيش المغول من الخوارزميين قاموا بكتابة رسائل لجنود الجيش العراقي يرغبونهم باللحاق بجيش هولاكو لأنهم سيكونون في مأمن كما فعلوا هم من قبل[٥]، كما تم الاتصال بقادة الجيش العراقي وقادة الفرق والألوية يحثونهم على الاستسلام مقابل حياتهم ولكن تظهر الروايات مدى تمسك جيش العراق بالمقاومة وإيمانهم بالنصر وإخلاصهم للخلافة الإسلامية[٦][*]، كما تظهر الروايات شراسة مقاومة الجيش العراقي حتى في آخر الأيام عندما تغلب المغول واحتلوا برج العجمي،

(1) جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٣٠٣.
(2) تاريخ مختصر الدول، ص٢٣٦-٢٣٨.
(3) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٠٢.
(4) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص٥٢٠.
(5) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٨٢.
(6) أنظر: المصدر نفسه، ج٢، مج٢ ص٢٨٣.
(*) للاطلاع على تفاصيل الرسالة أنظر: ملحق رقم (١٩).

فإن العراقيين أوقعوا إصابات بالغة في كبار قادة الجيش المغولي(1)، ولقد عرضت رسالة أحد قادة الألوية في جيش العراق التي كتبها رداً على رسالة المغول له يطلبون منه الانضمام إليهم أو الكف عن المقاومة، وقد عُرضت هذه الرسالة على قيادة جيش المغول فأذهلتهم شدة إيمان الجيش العراقي بالمقاومة والدفاع عن الخلافة(2).

في الوقت نفسه كانت العناصر المتحالفة مع المغول داخل العراق تعمل بجد، وبكل الطرق، في إشاعة روح الهزيمة والاستسلام. و إقناع الناس بعدم جدوى المقاومة، وأن لا قِبَلَ لنا بجيش المغول المزود بالسلاح والعتاد والعدة وأن المصلحة تقتضي "حقن دماء المسلمين"(3)، ومصالحة الغزاة وتلبية طلباتهم(4)، بل وصلت الأمور أن قام رأس الشيعة الوزير ابن العلقمي بالاستهزاء بآراء من كان يدعو للمقاومة في الاجتماعات الرسمية، فعندما اشتد الحصار بعد هزيمة الدجيل، قال الخليفة للوزير ما الأمر "ما حيلتنا"(5)، فرد الوزير باستهزاء "لحيتنا طويلة"(6)، ومراده في هذا الأمر الاستهزاء بمن أيد المقاومة وأن المقاومة هي التي أوصلتنا لهذا الحال(7).

ويكاد يجمع المؤرخون أن الوزير الشيعي ابن العلقمي هو أول شخصية خرجت من البلاد والتقت بالغزاة على أبواب العراق(8)، كما يذكر المؤرخون أن ابن العلقمي خرج للقاء هولاكو "فتوثق منه لنفسه وعاد للخليفة المستعصم"(9)، وأخبر الوزير الخليفة أنه استطاع أن يصنع صلحاً مع المغول(10)، حيث تم الاتفاق مع الغزاة على أن يكون للمغول نصف خراج العراق، وللخليفة النصف الآخر، وتصبح علاقة الخليفة بهولاكو كما كانت العلاقة بين الخلافة والسلاجقة(11)، وبدأ يُسَوقْ لهذا الاتفاق عند الخليفة وأن فيه مصلحة للمسلمين وحقن دمائهم، وعلى الخليفة أن يعمل بهذا الاتفاق بناء على القواعد الشرعية، من باب مصالح الأمة وحقن دمائها، بل إنه أبلغ الخليفة أن هولاكو تأكيداً وتوثيقاً لهذا الاتفاق يريد أن يزوج ابنته لابنك أبي بكر، وذلك من باب حسن النوايا عند المغول باتجاه الخلافة، ولكن هذا الاتفاق يحتاج إلى لقاء

---

(1) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٨٩.
(2) المصدر نفسه، ج٢، مج٢ ص٢٨٤.
(3) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٤٩.
(4) المصدر نفسه، ج٧، ص٤٩.
(5) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٩٥.
(6) المصدر نفسه، ج٢، مج٢ ص٢٩٥.
(7) المصدر نفسه، ج٢، مج٢ ص٢٩٥.
(8) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٢٣٧؛ الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٨٦-٢٨٩؛ الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٢٣٠؛ اليونيني: ذيل مرآة الزمان، مج١، ص٨٨؛ أبو الفداء: تاريخ أبو الفداء، ج٢، ص٣٠٢؛ السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٨، ص٢٧٠؛ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص٦١٣؛ القلقشندي: مآثر الأناقة، ج٢، ص٩١-٩٢؛ العيني: عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص١٧٤.
(9) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٨، ص٢٧٠؛ القلقشندي: مآثر الأناقة، ج٢، ص٩٢؛
(10) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٨، ص٢٧٠؛ العيني: عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص١٧٤
(11) أبو الفداء: تاريخ أبو الفداء، ج٢، ص٣٠٢.

قمة بين قيادة المسلمين أي الخليفة وقيادة المغول، لذلك طلب من الخليفة الخـروج كـي يضـع اللمسات الأخيرة على هذا الاتفاق ويتم التوقيع عليه وكذلك يتم عقد قران الأمير أبي بكر علـى بنت هولاكو أمام كبار رجال الدولة وعلمائها وأعيانها وقادة الجيش والأمة[١].

ويذكر المؤرخ الفارسي الجوزجاني المعاصر للأحداث أن الوزير ابن العلقمـي أبلـغ الخليفة أنه مهد طريق الصلح وسوف يأتيه المغول طائعين، وطلب من الخليفة أن يرسل ابنه أبا بكر إلى المغول ليرى مصداق ما يقول قبل أن يخرج الخليفة بنفسه، فاستصـوب الخليفـة رأي وزيره، في الوقت نفسه طلب ابن العلقمي من هولاكو سراً أن يحسن معاملة ابن الخليفة أبي بكر ويخدعه بمعسول الكلام، حتى يتم حبك المؤامرة، ولما مثل أبو بكر أمام هولاكـو، ورأى منـه حفاوة بالغة، ولمس معاملة طيبة، رجع إلى الخليفة وأخبره بما سمع ورأى، ففرح الخليفة، ولـم يشك في حسن نية المغول نحوه، حيث خرج الخليفة من بغداد واصطحب معه ١٢٠٠ رجل من أعيان البلاد وكبار رجال الدولة وعلمائها، بناء على طلب الوزير ابن العلقمي، كـي يحضـروا ويشهدوا على الصلح وكذلك على عقد قران ابن الخليفة[٢]، ويجمع أغلب المؤرخين على هـذه الرواية[٣]، وعندما وصل الخليفة والأعيان إلى معسكر هولاكو تمت عملية الفصل بين الخليفـة والأعيان، حيث وضع الخليفة في خيمة خاصة به وشددت الحراسة عليـه، ووضـع الأعيـان ورجال الدولة والحكم في مكان آخر، حيث ضربت أعناقهم جميعاً[٤]، ثم بدأت الخطوة الأخـرى وهي إفراغ البلاد مما بقي فيها من رجال الحكم والعلماء والشخصيات المحوريـة، فأخـذ ابـن العلقمي باسم الخليفة يطلب جماعة جماعة للخروج لمباركة حفل عقد قران ابن الخليفة الأميـر أبي بكر[٥]، ويقول القلقشندي: "وصار أهل بغداد يخرجون إلـى التتـار طائفـة طائفـة حتـى تكاملوا"[٦]، ثم قام ابن العلقمي بطلب الحضور من حاشية الخليفة، وعندما حضروا تم إعـدامهم جميعاً وفي ذلك يقول السبكي: "ثم طلب حاشية الخليفة فضرب أعناق الجميع"[٧]، والجدير بالذكر أن الهمذاني مؤرخ الحملة يروي أن الذي استطاع إقناع الخليفة بالخروج للقاء هولاكو هو نصير الدين الطوسي[٨]، ويذكر بعض المؤرخين أنه عندما خرج الخليفة لمقابلة هولاكـو مـع أبنائـه

(1) الجوزجاني: طبقات ناصري، ص٢٢٧-٢٢٨؛ اليونيني: ذيل مرآة الزمان، مج١، ص٨٨؛ السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٨، ص٢٧٠.
(2) أنظر: طبقات ناصري، ص٢٢٧-٢٢٨.
(3) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، مج١، ص٨٨؛ السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٨،ص٢٧٠؛ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص٦١٣؛ العيني: عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص١٧٢-١٧٣.
(4) أنظر: ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٢٣٧؛ الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٢٣١؛ الجوزجاني: طبقات ناصري، ص٢٢٧-٢٢٨؛ القلقشندي: مآثر الأناقة، ج٢، ص٩١-٩٢؛ العيني: عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص١٧٢-١٧٣.
(5) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٨، ص٢٧٠؛ القلقشندي: مآثر الأناقة، ج٢، ص٩١-٩٢.
(6) مآثر الأناقة، ج٢، ص٩١-٩٢.
(7) طبقات الشافعية الكبرى، ج٨، ص٢٧٠.
(8) جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٨٨.

الثلاثة، أخذ هولاكو يلاطفهم بالحديث، ولا يبدي أثر غضب، وأخذ يطيب خاطرهم، ثم وضع الخليفة وأبناءه في معتقل محاذ لباب كلواذي وهو أحد أبواب بغداد، وأمر بتشديد الحراسة عليهم، ثم أصدر أمراً باسم الخليفة بخروج الناس لإحصائهم، وتم إعدام كل من خرج من المدينة[1]، ويصف الذهبي ذلك فيقول: "فضرب أعناق الكل بهذه الخديعة"[2]، ويذكر الهمذاني أن الأعيان الذين كانوا برفقة الخليفة وقتلوا كانوا ثلاثة آلاف[3]، ويصف أحد المؤرخين هذا المشهد فيقول: "فراحت المكيدة على المستعصم وخرج في أعيان الدولة، ثم استدعى الوزير العلماء والرؤساء ليحضروا العقد فخرجوا فضربت رقاب الجميع"[4]، ويروي ابن تغري بردي "أن ابن العلقمي هو من تولى عملية إخراج الأعيان والعلماء وكبار رجال الدولة من بغداد للقتل"[5]. واستمر هذا المشهد من الخداع باسم الخليفة، وبيد الوزير رئيس حكومة الخلافة، تخرج طائفة بعد طائفة للقتل، "حتى بقيت الرعية بلا راعي"[6].

ويروي الهمذاني مؤرخ الحملة على العراق أن نصير الدين الطوسي كان ملازماً لهولاكو، يشاوره في كل أمر من الأمور، لذلك قام نصير الدين الطوسي بالوقوف على بوابة الحلة وأخذ يخرج أتباعه الشيعة من المدينة[7]، ويبدو أن هناك خطوة جديدة من خطوات احتلال العراق، إذ أن إقدام الطوسي على الإشارة لهولاكو بهذه الخطوة هو استعداد لبدء الهجوم على المدينة، وتهيئتها للقتل العام وإشعال النيران فيها، لذلك تم إخلاء الأتباع من المدينة كي لا يصيبهم مكروه، لقد بدأت تهديدات المغول للخليفة في رسائلهم بالقتل العام وإشعال النيران في البلاد بالتنفيذ مثلما ورد في إحدى الرسائل: "ولن أدع حياً في مملكتك، وسأجعل مدينتك وإقليمك وأراضيك طعماً للنار"[*][8].

ويرى أحد المؤرخين أن الخليفة كان بإمكانه أن ينتقل من بغداد إلى مدينة أخرى حتى يزول الخطر أو يقوم بالاتصال بأطراف خارجية لتقديم العون له، فيروي الجوزجاني المعاصر للأحداث أن قائدي الجيش الدويدار وسليمان شاه طلبا من الخليفة أن ينقل مركزه من بغداد إلى مدينة أخرى ويركب بقارب عن طريق النهر، واقتنع الخليفة لكن ابن العلقمي هو من أثنى

---

(1) الجوزجاني: طبقات ناصري، ص٤٢٧-٤٢٨؛ الشيرازي: تاريخ وصاف، ص٣٧؛ أبو الفداء: تاريخ أبو الفداء، ج٣، ص٢٠٣؛ ابن الوردي: تتمة المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص١٩٦؛ الذهبي، دول الإسلام، ج٢، ص١٢٢-١٢٣؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٤٧١.
(2) سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص١٨١.
(3) جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٩٢.
(4) بدران: منادمة الأطلال، ج١، ص٢٢٩.
(5) النجوم الزاهرة، ج٧، ص٤٩.
(6) بدران: منادمة الأطلال، ج١، ص٢٢٩.
(7) أنظر: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٨٩.
(*) أنظر: ملحق رقم (١٥)، حيث توجد الرسالة كاملة.
(8) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٦٨.

الخليفة عن ذلك، وأخبره أنه استطاع أن يحقق انتصاراً دبلوماسياً حيث عقد صلحاً واتفاقاً مع المغول، ولا داعي للخروج من العاصمة. ويذكر الجوزجاني أن ابن العلقمي هو من قام بالاتصال بالمغول لوضع حواجز على الأنهار وتشديد الحصار كي لا يستطيع الخليفة أو غيره الخروج[1].

ويتبين مما سبق، أن هدف شيعة العراق كان ضرب البنية الأساسية في المجتمع العراقي، والقضاء على جميع العقول والموارد البشرية السنية، فقد كان التركيز على الكفاءات والقدرات، ويبدو أن العملية كانت عملية تطهير مذهبي ليس هدفها تسهيل عبور القوات الغازية فقط بل يرجح الباحث أن الهدف هو ضمان حياة هادئة للاحتلال في العراق بعد الاستيلاء على البلاد، ثم ليتمكن شيعة العراق من غسل المجتمع العراقي من المذهب السني و إحلال المذهب الشيعي بدلاً منه في المنطقة وبعض الروايات التاريخية تؤكد ما ذهب إليه الباحث، حيث تظهر أن هدف الشيعة هو إقامة خلافة شيعية[2]، يؤكد ذلك أن ابن العلقمي بعد الاحتلال مباشرة عمل على إبطال صلاة الجمعة في العراق وأشرف على بناء مدارس للشيعة[3]. وما أشبه اليوم بالبارحة، فها هم شيعة العراق يلاحقون علماء وأطباء وفقهاء وأئمة أهل السنة ويقتلونهم مستقوين بأعداء الأمة من فرس وصليبيين بعد أن جاءوا بهم وساعدوهم على احتلال العراق، وتدمير حضارته، ونهب موارده.

وبعد أن أشرف نصير الدين الطوسي على عملية إفراغ البلاد من الشيعة، تم اختياره ليكون الرجل الأول للشيعة الإثنا عشرية في المنطقة[4]، ولقد أصدرت قيادة الجيش المغولي تعليماتها بدخول بغداد، فبدأت عملية ردم الخنادق، وهدم الأسوار[5]، ثم قامت قوات المغول بإقامة جسر على نهر دجلة، ثم أعلن الهجوم العام على المدينة، حيث قامت القوات المغولية المتواجدة في شرقي بغداد بدخولها من جهة الشرق وقامت القوات المرابطة على الشاطئ الغربي بعبور الجسر واقتحام المدينة من الغرب، حيث تم اقتحامها من جميع الجهات[6]، واستباحتها وأطلقت يد الجنود المغول في عاصمة الخلافة الإسلامية[7]، وبذل السيف في أهل المدينة وكل من تواجد فيها من العراقيين من أهل الجنوب الذين زحفوا لبغداد تحت ضغط

(1) الجوزجاني: طبقات ناصري، ص٢٢٧-٢٢٨.
(2) ابن العماد: شذرات الذهب، ج٥، ص٢٧٢.
(3) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص١٨٣.
(4) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٨٩.
(5) الجوزجاني: طبقات ناصري، ص٤٢٧-٤٢٨؛ أبو الفداء: تاريخ أبو الفداء، ج٣، ص٢٠٣؛ الذهبي: دول الإسلام، ج٢، ص١٢٢-١٢٣.
(6) الجوزجاني: طبقات ناصري، ص٤٢٧-٤٢٨؛ الشيرازي: تاريخ وصاف، ص٣٧؛ ابن الوردي: تتمة المختصر في أخبار البشر، ج٥، ص١٩٦.
(7) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٤٩.

المغول منذ قدومهم للعراق[1]، وهدمت القصور والمساجد بعد الحصول على قبابهـا المذهبـة، واستباح المغول دماء أهل السنة في بغداد، حيث بلغ استهتار المغول بـالنفوس حـد الفظاعـة، فيروى أن أحدهم دخل زقاقاً وقتل أربعين طفلاً شفقة منه ورحمة حين علم أن أمهاتهم قتلن مـن قبل[2]، ويروي المؤرخون أن عمليات القتل والنهب والاستباحة فضلاً عن إشعال النيـران فـي المدينة استمرت أربعين يوماً[3]، ويصف الذهبي هذا المشهد فيقـول: "وجـرت السـيول مـن الدماء"[4]، يذكر العيني أنه: "صار الدم في الأزقة كأكباد الإبل"[5]، ويرى الهمذاني أن عملية قتل الخليفة تأخرت أياماً عدة إذ لم يقتل مع الأعيان، ويذكر الهمذاني أنه بعد استباحة بغداد ببضـعة أيام دخل هولاكو المدينة[6]، بموكب عظيم وبجانبه كبار مستشـاريه نصـير الـدين الطوسـي والوزير ابن العلقمي[7]، وجلس هولاكو على عرش الخلافة وكأنه يعقد احتفالاً بالنصر وتكريماً للأمراء[8]، وأمر هولاكو بحضور الخليفة فأتوا به تحت حراسة مشددة[9]، حيث خضع لعمليـة تحقيق تم من خلالها الاستيلاء على خزائن ودفائن الدولة العباسية "وقصارى القول أن كـل مـا كان الخلفاء قد جمعوه خلال خمسة قرون"[10].

إن هذه الأحداث الأليمة، والجرائم الفظيعة التي ارتكبها المغول بقيادة هولاكو، وإكـرام الزعماء الخونة من شيعة العراق تذكرنا بما جرى ويجري في العراق من جرائم، حيـث قتـل مئات الألوف من أهل السنة في العراق بينهم الكثير من الأطفال والنسـاء والشـيوخ، وشـرد الملايين على يد الأمريكان وعملائهم وتذكرنا أيضاً بالرئيس الأمريكي بوش الذي دخـل بغـداد بعد سقوطها وحوله قادة الشيعة وزعماؤهم.

ويختلف المؤرخون في تفسيرهم لعملية تأخير قتل الخليفة فـالبعض فسـر ذلـك بأنـه للحصول على خزائن الدولة العباسية ودفائنها وما جمعه الخلفاء طيلة خمسة قرون، "واسـتبقى هولاكو المستعصم أياماً إلى أن استصفى أمواله وخزائنه وذخائره ثم رمى رقاب أولاده وذويـه وأتباعه"[11]، ويفسر آخرون ذلك بأن هولاكو قد عقد اتفاقا مع الخليفة علـى أن يـدفع الخليفـة للمغول نصف دخل العراق وتم الاتفاق ولكن الشيعة من حلفاء هولاكو دمـروا هـذا الاتفـاق

---

(1) بدران: منادمة الأطلال، ج١، ص٢٢٩.
(2) الديار بكري: الخميس، ج٢، ص٤٢٠.
(3) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج١، ص٨٨؛ العيني: عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص١٧٤؛ بدران: منادمة الأطلال، ج١، ص٢٢٩.
(4) سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص١٨١.
(5) عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص١٧٤.
(6) جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٩٢-٢٩٣.
(7) العيني: عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص١٧٤.
(8) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٩٢-٢٩٣؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٢٣٧-٢٣٨.
(9) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٢٣٧-٢٣٨.
(10) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٩٢.
(11) المكي: سمط النجوم العوالي، جج٣، ص٥١٩؛ شبولر: العالم الإسلامي في العصر المغولي، ص٤٧.

وحرضوا هولاكو على قتل الخليفة، لأن المصلحة في قتله، وبرروا ذلك بأن هذا الاتفاق لن يدوم ولن يتم ملك العراق للمغول بصورة كاملة إلا بقتل الخليفة، ويروي الذهبي رواية عـن شـاهد عيان كان أسيراً مع الخليفة وقد كتب ا له النجاة قال: "كان قد مشى حال الخليفة بـأن يكـون للتتار نصف دخل العراق وما بقي شيء أن يتم ذلك فقال ابن العلقمي بل المصلحة قتله وإلا فما يتم لكم ملك العراق"[1].

ومثلما أصر زعماء الشيعة الخونة على قتل الخليفة، وحرضوا هولاكو على قتله حتـى نفذ لهم ذلك، أصر أحفادهم في هذا الزمان على قتل الرئيس العراقي صدام حسين –رحمه ا - وحرضوا بوش على قتله، فسمح لهم بذلك باسم عدالتهم وقانونهم المزيف.

وقد اتفق كثير من المؤرخين على أن الخليفة قُتِلَ دون أن يجري دمه[2]، حيـث قيـل: "جعل في غرارة ورفس إلى أن مات رحمة ا عليه، ودفن وعفي أثره"[3]، وابن خلدون يقـول: "فشدخ بالمعاول في عدل تجافياً عن سفك دمه بزعمهم"[4]، ويبدو أن هناك اتفاق على عدم إراقة دم الخليفة، والباحث يرى أن كيفية قتل الخليفة تدال على وجود اتفاق بين الخليفة وهولاكو، فمن المرجح أن هولاكو كان يعمل على إبقاء الخليفة بعد أن نزل تحت طاعته، وما يؤكد ذلـك هـو وصية خان المغول الأعظم لهولاكو وهو يودعه في عاصمة المغول، إذ أوصـاه ألا يتعـرض لخليفة المسلمين إذا ما أعطى السمع والطاعة للمغول[5](*)، ويدعم ذلك موقف المنجم حسام الدين عندما حذر هولاكو من قتل الخليفة، فأخذ هولاكو في التردد في غزو العراق[6]، كما أن المغول لديهم معتقدات بعدم قتل الملوك والأمراء لأن ذلك يعود عليهم بـالنحس والوبـال[7]، ويشـاطر الباحث الرأي مؤرخ أجنبي إذ يقول: "لأن المغول كان لديهم خوف موروث مصدره خرافي من إراقة الدماء الملكية"[8]، وعليه كانت مهمة الشيعة معقدة، فهم يصرون على قتل الخليفة[9]، فكيف سيمررون عملية قتله على هولاكو؟ ويبدو أن الطوسي استطاع أن يبسط الأمـر لهولاكـو وأن يبتدع طريقة جديدة للتخلص من الخليفة بحيث لا يراق دمه ويغضب هولاكو ويقلقه من عواقب

---

(1) سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص١٨٣.
(2) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٨، ص٢٧١؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص١٨٣؛ القلقشندي: مآثر الأناقة، ج٢، ص٩١-٩٢؛ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص٦١٣؛ بدران: منادمة الأطلال، ج١، ص٢٢٩.
(3) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص١٨٣.
(4) تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص٦١٣.
(5) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٧١.
(*) للاطلاع على وصية الخان الأعظم للمغول لهولاكو أنظر: ملحق رقم (١٣).
(6) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٧٩.
(7) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص٦١٣.
(8) شبولر: العالم الإسلامي في العصر المغولي، ص٤٧.
(9) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص١٨٣؛ ابن تيمية: مجموعة الفتاوى، ج٣٥، ص١٥٠-١٥٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٠١.

إراقة دم الخليفة، وكانت الطريقة أنه "غم في بساط، وقيل رفسوه حتى مات ولما جاءوا ليقتلـوه صاح صيحة عظيمة"[١].

وفي ذلك يقول السبكي: "وأما الخليفة فقيل إنه طلبه ليلا وسأله عن أشياء ثم أمـر بـه ليقتل فقيل لهولاكو إن هذا أهريق دمه تظلم الدنيا ويكون سبب خراب ديارك فإنه ابن عم رسول ا صلى ا عليه وسلم وخليفة ا في أرضه فقام الشيطان المبين الحكيم نصير الدين الطوسي وقال يقتل ولا يراق دمه وكان النصير من أشد الناس حقداً على المسلمين فقيل إن الخليفة غُم في بساط وقيل رفسوه حتى مات"[٢]، ويؤكد ابن كثير مسؤولية الشيعة عن قتل الخليفـة إذ يقـول: "ويقال إن الذي أشار بقتله الوزير أمين ابن العلقمي ، ونصير الدين الطوسي"[٣]، ويؤكـد ابـن تيمية مسؤولية الطوسي عن مقتل الخليفة حيث يقول: "النصير الطوسي ... هو الذي أمر بقتـل الخليفة"[٤]، ويصف اليونيني مذبحة بغداد وقتل الخليفة فيقول: "وما دهي الإسلام بداهية أعظـم من هذه الداهية ولا أفظع"[٥].

ويرى الباحث أنه بعد هذه الأحداث والحقائق والروايات التاريخية لا يعقل الاتفاق مع بعض المؤرخين الذين اعتبروا دور الشيعة في سقوط العراق "مستغلقاً غامضاً ما شاء ا أن يكون"[٦]، ورأوا أن سقوط العراق كان "أمراً واقعاً لا محالة سواء وجد الشيعة أم لم يوجدوا"[٧]، ويرى الباحث أن هذا دفاع عن زعماء شيعة العراق لا يستحقونه.

(1) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٨، ص٢٧١.
(2) المصدر نفسه، ج٨، ص٢٧١.
(3) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٠١.
(4) ابن تيمية: مجموعة الفتاوى، ج٣٥، ص١٥٠-١٥٢.
(5) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، مج١، ص٨٥.
(6) براون: تاريخ الأدب في إيران، ص٥٨٨؛ بدوي: تاريخ المذهب السني، ص٢٧٠.
(7) بدوي: تاريخ المذهب السني، ص٢٧٠.

المبحث الثاني

موقف الشيعة من ممارسات المغول في بغداد

كان مقتل الخليفة المستعصم يوم الأربعاء (١٤- صفر – سنة ٦٥٦هـ = ١٢٥٨م) وقد بلغ من العمر ستة وأربعين سنة وأربعة أشهر "وكانت مدة خلافته ست عشرة سنة وأربعة أشهر وستة أيام"[١].

والجدير بالذكر أن الهمذاني ذكر بعض الروايات التي تظهر شماتة الوزير الشيعي بالخليفة العباسي حتى في آخر ساعاته، فعندما تم تشديد الحصار على بغداد، بعد تسليم الدويدار وسليمان شاه بالخديعة للمغول، طلب الخليفة من الوزير رأيه "ما تدبير أمرنا"[٢] فأنشد الوزير بيتاً من الشعر، تفوح منه رائحة الشماتة بالخليفة:

"يظنون أن الأمر سهل وإنما هو السيف حُدت للقاء مضاربه"[٣].

ويذكر الهمذاني موقفاً آخر للوزير فيه استهزاء بالخليفة عندما كان في معتقل كلواذي بعد أن تم إعدام كبار رجال الدولة، إذ طلب الخليفة من الوزير المساعدة فأخذ الوزير يستهزأ بالخليفة شامتاً به، بينما الوزير بصحبة هولاكو مطمئناً، وخليفته ينتظر ساعة الموت[٤]. ولقد تكرر موقف الشماتة نفسه في زماننا، حيث توجه زعماء الشيعة بصحبة الأمريكان ليشمتوا في الرئيس العراقي صدام حسين وهو مكبل في السجن، وشهد العالم كيف كانوا يهتفون شماتة وفرحاً في رئيسهم وحبل المشنقة حول عنقه.

ويبدو أن مؤرخي الشيعة قد استغلوا إجماع المؤرخين على ضعف الخليفة المستعصم، وأخذوا يحملونه من خلال روايات أرجح أنهم وضعوها مسئولية سقوط الخلافة بطرق غير مباشرة، فنجد المؤرخ الشيعي ابن طباطبا يذكر أن الخليفة أثناء حصار العاصمة بغداد، كان ملهياً مع محظيته الجارية عرفه تداعبه فأصابها سهم من شباك القصر أودى بحياتها، عندها أمر الخليفة بأن توضع ستائر من الخشب على نوافذ القصر كي لا تدخل سهام المغول[٥].

ويرى الباحث أن شخصية الخليفة، كانت مؤهلة لتحميلها أي أعباء، لذلك حاول مؤرخو الشيعة طرق هذا الباب بكل السبل، لكن السبكي ينصفه ويذكر أن الخليفة في ذلك الوقت كان يقرأ القرآن "أن الخليفة كان قاعداً يقرأ القرآن وقت الإطاحة بسور بغداد، فرمى شخص من التتار بسهم، فدخل من شرفات المكان الذي كان فيه وكانت واحدة من بناته بين يديه فأصابها

---

(1) المكي: سمط النجوم العوالي، ج٣، ص٥٢٠.
(2) جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٩٠.
(3) المصدر نفسه، ج٢، مج٢ ص٢٩٠.
(4) المصدر نفسه، ج٢، مج٢ ص٢٩٣.
(5) الفخري في الآداب السلطانية، ص٣٣٥.

السهم فوقعت ميتة"[١]، والغريب أن مؤرخي الشيعة المعاصرون قد زادوا على الرواية، فحسن الأمين ذكر أن الخليفة كان يشاهد الرقص والغناء لإحدى الجواري وهي ترقص بين يديه[٢]، ويظهر جلياً أن هناك هدف من وراء تلفيق الروايات لتشويه شخصية الخليفة، حيث ذكر السبكي أنها واحدة من بناته، وذكر الفوطي أن السهم أصاب طفلة صغيرة[٣]، ويرى الباحث أن الخليفة المستعصم كان يمتاز باللين وعدم التيقظ وضعف الرأي، ولكنه في الوقت نفسه تميز بتدينه، وكثرة صلاته وصدقاته وإكرام العلماء والعباد[٤]، ولذلك فمن المرجح أن رواية ابن طباطبا رواية مكذوبة عليه.

ويصور الفوطي المعاصر للأحداث مذبحة بني العباس، فقد قتل أبناء الخليفة، وهم أبو العباس أحمد و ابنه الأوسط أبو الفضل عبد الرحمن أما أولاده الصغار مبارك وفاطمة وخديجة ومريم فإنهم أسروا، ثم بدأ التطهير في بني العباس جميعاً حيث كان الرجل يخرج بأولاده ونسائه وجواريه فيحمل إلى مقبرة الخلال فيقتلون جميعاً عن آخرهم وهكذا، حتى تم القضاء على جميع بني العباس[*] والحاشية، كما أرسلت رؤوس قادة المقاومة والحرب في جيش العراق لتعلق على أسوار الموصل[5]، ويبدو أن المغول يرمون من وراء ذلك إشاعة الخوف والرعب في المنطقة، وكأنها رسالة بأن كل من يفكر في مقاومة الاحتلال فهذا مصيره. كما أن إبادة كبار رجال الدولة والحاشية وخاصة بني العباس خطوة على طريق بناء نظام سياسي جديد في العراق برموز وشخصيات جديدة موالية للاحتلال، أو جاءت معه في مقدمة جيوشه.

ويبدو أن هذا هو السبب الذي جعل شيعة العراق يصرون على قتل الخليفة وجميع بني العباس فلا يبقى منهم أحد ممكن أن يكون خليفة، ويروي الفوطي رواية عن ابن العلقمي تظهر مفهومه عن الخليفة، حيث كتب إليه بيتاً من الشعر هو:

"فإذا سلمت فكل شيء سالم وإذا بقيت فكل شيء باقي"[٦].

يتبين من خلال هذا البيت أن ابن العلقمي يعرف أن شخصية الخليفة محورية، وأن عدم قتله يعني عدم تغيير النظام السياسي في العراق، ويضاف إلى بقية الأسباب سالفة الذكر التي جعلت الشيعة يحرصون على قتل الخليفة.

---

(1) طبقات الشافعية الكبرى، ج٨، ص٢٧٣.
(2) الاسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي، ص٨١.
(3) طبقات الشافعية الكبرى، ج٨، ص٢٧٣؛ الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٢٣١-٢٣٢.
(4) العيني: عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص٢٠٦.
(*) هناك قصائد شعرية مطولة تحدثت عن مذبحة بني العباس أنظر: ملحق رقم (٢٣)، وملحق رقم (٢٦).
(5) الحوادث الجامعة، ص٢٣٤-٢٣٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٠١؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص٣٧١؛ العيني: عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص١٧٢-١٧٣.
(6) الحوادث الجامعة، ص١٦٧.

والغريب أن الهمذاني الذي طالما تغنى بأمجاد أسرة جنكيز خان، ويعد المؤرخ الرسمي لهولاكو وأبنائه، فإنه لم يسعه إلا أن يردد بأن الخليفة المستعصم وحاشيته ماتوا شهداء في سبيل الدين الإسلامي[1]، أما غيره من مؤرخي الشيعة فإنهم يشمتون بشهداء بغداد وبني العباس والخليفة العباسي ويقولون "دماءهم الأقذار"[٢] كما يجزمون أن مثواهم "إلى نار جهنم دار البوار"[٣].

وفي الثلث الأول من شهر صفر بدأت عمليات القتل العام والاستباحة لمدينة بغداد[٤]، ويبدو أن استباحة بغداد كانت تتم بطريقة غريبة، حيث تم إغلاق المدينة من الخارج، وأحكم الإغلاق عليها، ثم دخلها ٢٠٠ ألف جندي[5]، بعد إفراغ المدينة من الموالين بقدر الإمكان، وتم تحديد بعض المناطق يمنع الجنود المغول من الاقتراب منها وهي للموالين للاحتلال[٦]، وما سوى ذلك هو مباح لجنود الاحتلال، حيث أطلق الهمذاني مؤرخ الاحتلال المغولي على ذلك مصطلح القتل العام "وكان بدء القتل العام والنهب في يوم الأربعاء السابع من صفر، فاندفع الجند مرة واحدة إلى بغداد، وأخذوا يحرقون الأخضر واليابس"[٧]، ويبدو أن سياسة العقاب الجماعي التي تتبعها قوى الاستعمار اليوم هي سياسة قديمة قد سبقهم إليها المغول. ويبدو أن الاستباحة تألفت من عدة عناصر هي القتل العام والنهب بأشكال متعددة، ثم الحرق العام.

أما عمليات القتل، فيتحدث عنها الفوطي ويقول: "فلم يبق من أهل البلد ومن التجأ إليهم من أهل السواد إلا القليل"[٨]، ويبدو أن قتلى المذبحة ليسوا فقط من سكان بغداد ولكن كثير من أهل السواد، أي جنوب العراق الذين ضجوا إلى بغداد أثناء بدء عمليات المغول ضد العراق، ويقول أيضاً: "كانت القتلى في الدروب والأسواق كالتلول ووقعت الأمطار عليهم ووطئتهم الخيول فاستحالت صورهم وصاروا عبرة لمن يرى"[٩]، ولقد جرت "الميازيب من الدماء في الأزقة"[١٠]، ولقد ترتب على عمليات القتل العام عمليات تخريب وتدمير وحرق حيث كان بعض الناس يختبئون في البيوت والمحلات، فيكسرها المغول إما بالنار أو بالكسر ويقتلون كل من

---

(1) أنظر: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٩٥-٣٠٠.
(2) أنظر: الخونساري: روضات الجنات، ج٦، ص٣٠٠-٣٠١؛ الطبرسي: مستدرك الوسائل، ج٣، ص٤٨٣؛ القمي: الكنى والألقاب، ج١، ص٣٥٦.
(3) أنظر: الخونساري: روضات الجنات، ج٦، ص٣٠٠-٣٠١؛ الطبرسي: مستدرك الوسائل، ج٣، ص٤٨٣؛ القمي: الكنى والألقاب، ج١، ص٣٥٦.
(4) الهمذاني: جامع التواريخ، مج٢،ج٢، ص٢٩٢-٢٩٣؛ الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٢٣٥.
(5) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٠٠.
(6) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٢٣٥؛ الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٩٣.
(7) جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٩٣.
(8) الحوادث الجامعة، ص٢٣٥.
(9) المصدر نفسه، ص٢٣٥.
(10) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٣، ص٢٠١.

يجدوه[1]، وبذل السيف في بغداد[2]، وذبح الجميع "فقتلوا جميع من قدروا عليـه مـن الرجـال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان"[3] ودخل كثير من الناس في الآبار وأماكن الأوساخ والمقابر خوفاً من القتل العام[4]، وقتل علماء البلاد وكبار رجال الدولـة وقادتهـا، والحكمـاء، والفلاسفة حيث قتل أستاذ الدار محيي الدين أبي الفرج ابن الجوزي، ويعلق هنا ابن كثير أن ابن الجوزي كان عدواً للوزير، وقتل أولاده الثلاثة، وجميع أمراء السنة وأكابر البلاد، ويصور ابن كثير بعض المشاهد مثل أن يؤخذ الرجل إلى المقبرة ويذبح كما تذبح الشياه هو وأولاده ونساؤه وبناته، ويتم اختيار بعض البنات والجواري لأمراء المغول، فقد قتل شيخ الشيوخ مؤدب الخليفة صدر الدين علي بن النيار[5]، وقتل الخطباء والأئمـة وحملـة القـرآن، و تعطلـت المسـاجد والجماعات والجمعات عدة شهور بعد المذبحة وكذلك الربط، وأصبحت المدينة قاعـاً صفصـفاً ليس بها إلا فئة قليلة مشردة الأذهان[6].

ويذكر العيني أن تعطيل المساجد و الجمعات والربط والمدارس كان بقرار مـن ابـن العلقمي الوزير حيث استمرت مدارس ومساجد الشيعة في العمل، بل زادت عدداً وأخذ الـوزير بعد المذبحة في بناء مدارس للشيعة لنشر المذهب الشيعي في البلاد[7]، ويـذكر المؤرخـون أن المغول قاموا بقتل العلماء في بغداد، وتم إلقاء جثثهم على المزابل أياماً عدة تأكل من لحـومهم الكلاب[8]، كما حدث مع "الشيخ العابد الزاهد علي الخباز"[9]، ويصف بعض المـؤرخين حجـم القتل والتخريب وسبي النساء وسفك الدماء أنه "ما دهي الإسلام بداهية أعظم من هـذه الداهيـة وأفظع"[10]، ووصفها آخر أنها بلية لم يصب الإسلام بمثلها[11].

أما العنصر الثاني من عناصر الاستباحة للمدينة فقد كان النهب، ولقـد شـمل النهـب الأموال، والتحف والذهب والنفائس[12]، والأطفال[13]، وبعض النسـاء والجـواري[14]، ويـذكر

(1) أنظر: ابن العبري: المختصر، ص٢٧٢؛ الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٢٣٥؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٣، ص٢٠١؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٤٩.
(2) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٥٠.
(3) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٠١.
(4) المصدر نفسه، ج١٣، ص٢٠١.
(5) المصدر نفسه، ج١٣، ص٢٠٢؛ العيني: عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص١٧٥.
(6) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٣٣٠-٣٣١؛ العيني: عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص١٧٥.
(7) عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص١٧٥.
(8) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢١٤؛ العيني: عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص١٧٥.
(9) العيني: عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص١٧٥.
(10) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج١، ص٨٩؛ الكتبي: عيون التواريخ، ج٢٠، ص١٣٢.
(11) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٤٧٢.
(12) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٨، ص٢٧١.
(13) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٩٥.
(14) العيني: عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص١٧٥؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٤٩.

الهمذاني أن الطوسي أخذ أحد أبناء الخليفة حيث كان طفلاً صغيراً، وسـافر بـه إلـى مكـان إقامته[1].

ويذكر الفوطي المعاصر للمذبحة أن كثيراً من الناس قتلوا عنـدما كـانوا يتعرضـون للتعذيب ليبوحوا بأماكن أموالهم ودفائنهم "واستخراج الأموال مـنهم بـأليم العـذاب"[2]، ولقـد تعرضت المباني والبيوت للهدم، والحفر بهدف النهب والحصول على الدفائن والأموال، "وكانوا يدخلون الدار فيجدون الخبيئة فيها وصاحب الدار يحلف أن له السنين العديدة فيها ما علم أن بها خبيئة"[3]، كما تعرضت البيوت والمحلات للهدم والتدمير بهدف قتل الذين اختبأوا بهـا[4]،كمـا هدمت المساجد والقصور والمدارس بهدف التدمير وقتل من فيها وكذلك الحصول على ما بهـا من قباب مذهبة وتحف ثمينة[5]، كما يذكر الفوطي أن قبور الخلفاء نبشت وأخرجـت الـرؤوس والعظام وأحرقت[6]، ولقد وضع أحد المؤرخين الأجانب عنواناً خاصاً في كتابه بهذا الخصوص "المغول ينهبون بغداد سنة ١٢٥٨م"[7]، ويصف مؤرخ أجنبي آخر أن سياسة المغول في بغـداد كانت سياسة "الأرض المحروقة"[8].

أما العنصر الآخر من عناصر خطة الاستباحة فهو الأرض المحروقة، فقد كان المغول يقومون بإشعال الحرائق في المكان الذي يتم الانتهاء منه[9]، ويبدو أن هدفهم كان القضاء علـى كل حي كي يضمنوا أنه لم يبق أحياء تنفيذاً لسياسة الأرض المحروقة، والنـاظر إلـى بغـداد يشاهدها وقد اندلعت ألسنة النيران فيها من كل مكان حيث حرق مسجد الخليفة وقبـور الخلفـاء ومعظم الأماكن المقدسة في المدينة[10]، ويبدو أن شدة النيران وقوتها جعلـت المغـول يفقـدون السيطرة عليها فوصلت إلى أحد مشاهد الشيعة فأحرقته وهو مشهد موسـى الجـواد[11]، كمـا أضرمت النيران بالمكتبات ودور العلم[12]، وتعرضت الثقافة العربية لخسارة فادحة مع سـقوط بغداد وإحراق ألوف الكتب والمخطوطات وإغراقها، بالإضـافة إلـى قتـل العلمـاء والأدبـاء والصناع[13].

---

(1) جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٩٥
(2) الحوادث الجامعة، ص٢٣٥.
(3) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٨، ص٢٧١.
(4) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٠١؛ العيني: عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص١٧٤.
(5) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٠١؛ العيني: عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص١٧٤؛ الذهبي: دول الإسلام، ج٢، ص١٢٣.
(6) الحوادث الجامعة، ص٣٣٠-٣٣١، ص٣٣٥
(7) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ص٥٢٠.
(8) روم لاند: الإسلام والعرب، ص١١٧.
(9) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٩٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٠١
(10) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٩٢.
(11) المصدر نفسه، ج٢، مج٢ ص٢٩٢.
(12) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٥١؛ المكي: سمط النجوم العوالي، ج٣، ص٥١٩.
(13) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٣٦٤-٣٦٥.

ويبدو أن الهمذاني عندما وصف النيران بأنها أكلت الأخضر واليابس كان دقيقاً في التعبير[1]، إذ أن النيران استمرت مشتعلة أربعين يوماً، حيث استمرت استباحة المدينة أربعين يوما[2]، ولقد طالت يد التدمير مكتبات بغداد، حيث تم تدميرها بعدة طرق، فألقى كثير منها في نهر دجلة[3]، ويصف أحد المؤرخين المشهد فيذكر أن الكتب من كثرتها أصبحت جسراً تمر عليه جيوش المغول لكثرتها "ورمى كتب مدارس بغداد في دجلة وكانت لكثرتها جسرا يمرون عليها ركباناً ومشاة وتغير لون الماء بحبرها إلى السواد"[4]، ويبدو من الرواية كم هو المشهد مروعاً، عندما تصنع الجسور من كتب العلم ويتغير لون ماء النهر بفعل حبر هذه الكتب، وهذا مؤشر على كثرة وضخامة كمية الكتب التي تم إتلافها "وأحرقت كتب العلم التي كانت بها من سائر العلوم والفنون التي ما كانت في الدنيا"[5]، ويؤكد الهمذاني مؤرخ الحملة إشعال النيران في بغداد حتى أنها أحرقت بعض مقدسات الشيعة[6]، وهذا مؤشر على فداحة وضخامة ألسنة النيران التي اندلعت في أرجاء العاصمة بغداد.

ويفسر المؤرخون سبب إتلاف كتب العراق، بأن ذلك كان انتقاماً من العرب الذين أتلفوا كتب الفرس عندما فتحوا المدائن عاصمة الدولة الفارسية على حد تعبيرهم، خاصة وأن جيش المغول يتكون من كثير من المرتزقة ذوي الأصول الفارسية[7]، وأن معظم زعماء الشيعة في العراق المتعاونين مع الاحتلال من أصول فارسية، ويرى الباحث أن السبب في هذه الحرائق هو وجود فئة كبيرة في جيش المغول من الشيعة ذوي الأصول الفارسية، الذين يعملون على إعادة أمجاد أجدادهم الفرس، ويعشقون الانتقام من المسلمين.

والباحث يحمل مسئولية إغراق وإحراق الكتب العلمية للشيعة خاصة أن كبار مرافقي هولاكو ومستشاريه كانوا من الشيعة، وقد عدهم الهمذاني من "خاصته والمقربين منه"[8] مثل الطوسي وعلاء الدين عطا ملك الجويني[9]، وأطلق المؤرخ الأجنبي براون على عطا ملك الجويني "سكرتيره الخاص"[10].

---

(1) جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٩٣.
(2) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٠٢.
(3) ابن خلدون: تاريخ، ج٥، ص٦١٢؛ المكي: سمط النجوم العوالي، ج٣، ص٥١٩.
(4) أنظر: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٥١؛ المكي: سمط النجوم العوالي، ج٣، ص٥١٩.
(5) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٥١.
(6) جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٩٢.
(7) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص٦١٢.
(8) جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٨٢.
(9) المصدر نفسه، ج٢، مج٢ ص٢٨٢.
(10) تاريخ الأدب في إيران، ج٢، ص٢٨٣.

ويعلق أحد المؤرخين على تبرير المؤرخ الخونساري الشيعي، وجود نصير الدين الطوسي أكبر مرجعيات الشيعة الإثنا عشرية لجانب هولاكو ساعات الاجتياح والدمار[1]، فقد برر ذلك قائلاً بأنه كان هناك "لإرشاد العباد، وإصلاح البلاد وقطع دابر البغي والفساد"[2]، ويبدو أن الخونساري يعد قتل المسلمين السنة هو إصلاح للبلاد، وإرشاد للعباد، ويصف الأعسم ذلك بالمبالغة والعاطفة الجامحة "ولا يخفى علينا الطابع العاطفي المبالغ فيه في هذه العبارة"[3]، ويبدو أن شيعة العراق كان موقفهم واضحاً في هذه المذبحة التي وصفها المؤرخون أنها أكبر المذابح التي ارتكبت ضد المسلمين في كل عصورهم القديمة والحديثة على حد سواء[4]، "فما دهي الإسلام بداهية أعظم من هذه الداهية وأفظع"[5]، لأن موقف الشيعة لم يقتصر على أفراد أو قيادات أمثال آل الجويني وآل ابن العلقمي والطوسي، ولكن المؤسف وجود موقف شعبي بين شيعة العراق مسانداً للمغول وهم يذبحون المسلمين[6]، فبمجرد ظهور المغول على أبواب العراق، قام شيعة العراق بإقامة الأفراح ابتهاجاً بقدومهم، وعقدوا المهرجانات وعمت بين صفوفهم الشعبية حالة من الفرح والابتهاج وكأنها أيام أعياد رسمية لهم[7].

بل يروي مؤرخ الحملة الفارسي أنه و "أثناء حصار بغداد كان قد قدم إليه بعض العلويين والفقهاء من الحلة، والتمسوا إليه أن يعين لهم شحنة، فأرسل إليهم هولاكو خان يوكله والأمير بجلى النخجنواني"[8]، ومن المؤكد أن مؤرخي الشيعة لا يستطيعون إنكار هذه الرواية خاصة أنها من الهمذاني الفارسي مؤرخ الحملة، وهو المؤرخ الذي يثق به الشيعة ويسلمون برواياته الخاصة بمذبحة بغداد، حيث يمتدح مؤرخو الشيعة المعاصرين الهمذاني يقول أحدهم "وحين نريد الاعتزاز بما جرى لا نجد أمامنا ما يمدنا بمثل ما أمدنا به رشيد الدين في كتابه"[9]،

وبالرغم من أن رشيد الدين الهمذاني مؤرخ فارسي يهودي الأصل[10]، يروي الأحداث من وجهة نظر المحتل، باعتباره المؤرخ الخاص لهولاكو أحد وزراء الحكومة المغولية، ويعد من المقربين جداً للسلاطين المغول لدرجة أنه كان وكيلاً لإحدى الأميرات عند زواجها من السلطان[11]، ومعروف بأنه "يورد رواية الشيعة الفرس"[12]، إلا أنه لم يستطع إنكار موقف

(1) الأعسم: الفيلسوف نصير الدين الطوسي، ص٤٥.
(2) روضات الجنات، ص٦٠٥.
(3) الفيلسوف نصير الدين الطوسي، ص٤٥.
(4) العفيفي: ألف حدث إسلامي، ص٢٥٧.
(5) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج١، ص٨٩.
(6) المصدر نفسه، ج١، ص٨٧.
(7) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٩٦.
(8) المصدر نفسه، ج٢، مج٢ ص٢٩٥-٢٩٦.
(9) الأمين: دائرة المعارف الإسلامية الشيعية،ج٤، ص٣٩٣.
(10) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١٧، ص٣٤٣.
(11) مقدمة جامع التواريخ، ج١، مج٢ ص١٨.
(12) العريني: المغول، ص٢١٥.

الشيعة من ممارسات المغول أثناء الاحتلال للعراق، وهذا يدلل على أن موقف الشيعة كان أقوى وأوضح من أن يسكت عنه المؤرخون، فالعاصمة تحاصر وتدك بالنيران وهم يقيمون الأفراح والمهرجانات، بل قدمت وفود المهنئين بالفتح والمبايعين لهولاكو، وكانت طلباتهم واضحة وصريحة، إذ طلبوا من قيادة المغول وضع أمراء عليهم وشحنة لحراستهم، ويبدو أن قيادة المغول كانت متيقظة، إذ أرسلت في أثرهم من تأكد من الموقف الشيعي العام في الشوارع والأسواق والمدارس والمشاهد والأضرحة، وذلك في مناطق الشيعة مثل الحلة والكوفة.[1]

ويبدو أن أمراء هولاكو لم يذهبوا للكرخ للتأكد من ولاء أهلها لأن الكرخ كانت في مستوى متقدم في ولائها للاحتلال المغولي، فقد ساهمت بقوات عسكرية، بل كانت قواتها في مقدمة الجيش المغولي القادم لتنفيذ المذبحة في بغداد[2]، ويروي الهمذاني أن الأمراء والقوات استُقبِلُوا بالزهور والأفراح في الحلة والكوفة و الكرخ، بل أقام الشيعة لهم الجسور تسهيلاً لمهماتهم، ولتعبر القوات المغولية لعمق العراق وتنفذ ممارساتها من ذبح ونهب وقتل، وكي يوفر الشيعة عليهم الوقت والجهد، ويروي رشيد الدين الهمذاني أن هذه القوات انتقلت من المناطق الشيعية بعد أن اطمأنت إلى ثباتهم في ولائهم للمغول "ولما شاهد يوقا تيمور إخلاصهم وثباتهم، رحل في العاشر من صفر، وتوجه إلى واسط فبلغها في السابع عشر، ولكن أهلها لم يدخلوا في الطاعة، فأقام هناك واستولى على المدينة، وشرع في القتل والنهب، فقتل ما يقرب من أربعين ألف شخص"[3].

كما أن الشيعة طلبوا من قيادة الجيش المغولي إرسال قوات لحماية أماكنهم ومقدساتهم كي تكون نقاط يمنع الاقتراب منها ومحمية بجنود مغول، لينام شيعة العراق بطمأنينة وهناء، "والتمس الأمير سيف الدين البتكجي إلى الحضرة أن يرسل مائة مغولي إلى النجف ليحافظوا على مشهد أمير المؤمنين على رضي ا عنه، وعلى أهل تلك البلدة"[4]،

وبذلك كان المغول يحرسون مقدسات الشيعة مكافأة لهم على خيانتهم ويرتكبون أفظع الجرائم ضد أهل السنة ومقدساتهم عقاباً لهم على رفضهم للاحتلال ومقاومتهم له.

ولقد فاضت مشاعر الحزن والأسى عند الشعراء فأخذوا يسطرون هذه المأساة وموقف شيعة العراق منها، فقال أحدهم معلقاً على قتل العباسيين وإحراق عظام خلفائهم بعد نبش قبورهم:

"إن ترد عبرة فتلك بنو العباس	حلت عليهم الآفات
استبيح الحريم إذ قتل الأحياء	منهم وأحرق الأموات"[5]

(1) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٩٦.
(2) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، مج١، ص٨٧.
(3) جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٩٦.
(4) المصدر نفسه، ج٢، مج٢ ص٢٩٦.
(5) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٢٤٠.

وقال آخر:

"يا عصبة الإسلام نوحوا واندبوا — أسفـاً على ما حل بالمستعصم
دست الوزارة كان قبل زمانـه — لابن الفرات فصار لابن العلقمي"[1]،

وتحدث الشعراء عن استباحة النساء المسلمات في العراق، بل إن السبكي يؤكد ما ذكره الشعراء، حيث يذكر أن هولاكو أصر على زوجة الخليفة المستعصم أن يواقعها، فأخذت تقدم له التحف والجواهر وأصناف النفائس تشغله عما يرومه، فلما عرفت تصميمه اتفقت مع جاريتها على مكيدة، وملخصها أن زوجة أمير المؤمنين قدمت سيفاً على أنه سيف له معجزات لا يقتل لأنه سيف الخليفة، وطلبت من جاريتها أن تضربها به بكل قوتها أمام هولاكو، فارتفعت شهيدة في سبيل شرفها ودينها[٢].

ويبدو أن هذه الممارسات المروعة أسالت دموع الشعراء، فهذا الشاعر الشيخ تقي الدين ابن إبراهيم بن أبي اليسر شاكر بن عبد ا التنوخي، وهو معاصر للحادثة يبكي بغداد بقصيدة طويلة هذا مطلعها:

"لسائل الدمع عن بغداد أخبار — فما وقوفك والأحباب قد ساروا"[٣](*)

وفي أبيات أخرى يصف ما حدث في العراق بأنه القيامة

"إن القيامة في بغداد قد وجدت — وحدها حين للإقبال إدبارُ"[٤]

ويبدو أن القيامة لم تحرك مشاعر شيعة العراق نحو رابطة الدين والقومية والحضارة، فوجهة نظر المؤرخين الأجانب يعبر عنها شبولر حينما يقول: "أن الشيعة لم يترددوا في نهب بغداد والدخول في معارك أخرى مع السنة للانتقام منهم"[٥]، ويؤكد ابن كثير أن الشيعة لم يصابوا بأذى أثناء ممارسات المغول في العراق، بل إن بيوت قادتهم كانت نقاط آمنة يمنع الاقتراب منها أثناء تنفيذ عمليات القتل والنهب، "ثم مالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال و النساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى، ومن التجأ إليهم، وإلى دار الوزير ابن العلقمي الرافضي"[٦]، ورواية ابن كثير هي رد صريح على الباحثين الذين ذكروا أن المغول لم يفرقوا في مذابحهم بين السنة

---

(1) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٢٤٠.
(2) طبقات الشافعية الكبرى، ج٨، ص٢٧٢.
(3) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٥١هـ - ٦٦٠هـ)، ص٣٧؛ أنظر: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٥١-٥٢.
(*) للاطلاع على القصيدة كاملة أنظر: ملحق رقم (٢١).
(4) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٥١هـ - ٦٦٠هـ)، ص٣٧.
(5) شبولر: المغول في التاريخ، ص٧٠.
(6) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٠١-٢٠٢.

والشيعة[1]، ويشاطر الباحث الرأي مؤرخ أجنبي حيث يروي أن هولاكو أطلـق العنـان لكـل العناصر الكارهة للمذهب السني الذي كان حتى ذلك الوقت المذهب الراجح فـي الـبلاد، كمـا يروي أن الشيعة تم استثناؤهم من المذابح، إذ أن الطوسي كان مدافعاً عنهم، حيث تم اسـتثناؤهم من كل حالات النهب والقتل التي حلت بالبلاد، بل ويروي أنهم بدأوا ببناء مسـاجدهم ونظمـوا مواكبهم العامة، وانتخبوا نقيباً لهم للإشراف عليهم ليكون حلقة اتصال لهم بالمغول[2].

ويؤكد ما ذهب إليه الباحث رواية أوردها مؤرخ عاصر الأحداث حيث يروي أن الحلة والكوفة، قد انتزحوا إلى البطائح بأولادهم وما قدروا عليه من أموالهم[3]، ويبـدو أنهـا عمليـة الإفراغ التي أشرف عليها الطوسي عند بدء عملية الاجتياح لبغداد، حيث أخذ يفرغ البلاد مـن الشيعة وأتباعهم[4]، ومما يؤكد ذلك أن عملية الإفراغ التي تحدث عنها الهمذاني تمت من بوابـة منطقة الحلة الشيعية "وأمر الخواجة نصير الدين الطوسي بأن يقيم على بوابة الحلة أماناً للناس، فشرع الأهالي يخرجون من المدينة"[5]، وقبل عملية النزوح للشيعة من المدينة كانت الضـربات للمدينة متركزة على الجهة الشرقية، وهي الجهة التي توجد بها الحكومة ودوائرها وقيادة الدولة والخليفة[6]. حيث وصلت سهام المغول ودخلت شبابيك القصر وقتلت إحدى بنات الخليفة بينمـا الجهة الغربية من بغداد التي يوجد بها الشيعة وهي الكرخ لم تستخدم إلا في ساعة الصفر عنـد العبور للمدينة، حيث تم مد الجسور للقوات المغولية من قبل شيعة الكرخ[7]، فضلاً عن أن سهام المغول كان مكتوب عليها أن شيعة العراق آمنون على أنفسهم[8].

ويروي الفوطي أنه بعد انتهاء عمليات الاستباحة لبغداد عاد الشيعة الذين خرجوا مـن المدينة وهم آمنون على أنفسهم وأموالهم، وعين عليهم نقيباً منهم، و بدأوا يفدون إلـى هولاكـو بالهدايا العظيمة بعد أن عين لهم شحنة لحمايتهم من أي مكروه بل كانت مناطقهم تحت حراسـة جنود المغول[9].

ولم يقتصر موقف الشيعة من إخوانهم في بغداد على التعاون مع الاحـتلال ومشـاركة الغزاة، بل نجد جماهير الشيعة في العراق ترى في حصار بغداد فرصة لجمـع الثـروة، فلقـد

(1) الخالدي: المغول والدعوة الإسلامية، ص٦٧.
(2) شبولر: المغول في التاريخ، ص٤٧-٤٨.
(3) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٢٣٧.
(4) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٨٩.
(5) جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٨٩.
(6) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٢٣٢؛ السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٨، ص٢٧٣.
(7) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٩٦.
(8) أنظر: ابن العبري: مختصر الدول، ص٢٣٧.
(9) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٢٣٧.

استغل شيعة العراق وأهل الكوفة والحلة والسيب(*) إخوانهم من السنة المفروض عليهم الحظر، وكانوا يجلبون لهم الطعام ويبيعونه لهم بأغلى الأثمان، ومن لا يملك مالاً كانوا يأخذوا منه بـدلاً عن المال الكتب النفيسة وأثاث بيوتهم، حيث يحسبونها بأقل الأثمان وأرخصها حيـث يصـف المؤرخون أنهم استغنوا من ذلك، حيث يقول الفوطي المعاصر للأحداث: "وكـان أهـل الحلـة والكوفة والسيب يجلبون إلى بغداد الأطعمة ...، وكانوا يبتاعون بأثمانها الكتب النفيسة وصـفر المطعم وغيره من الأثاث بأوهى قيمة، فاستغنى بهذا الوجه خلق كثير منهم"[١]، ويبدو أن شـيعة العراق استغلوا مكانتهم من المحتل الجديد وبدأوا يبتزون إخوانهم العراقيين مسـتغلين ضـعفهم وجوعهم وجراحاتهم وعدم قدرتهم على التحرك لأن رقابهم ما زالت مطلوبة للغـزاة، ويـرى الباحث أنه كان على شيعة العراق استغلال هذا الموقف بشكل أفضل من ذلك فالواجـب يحـتم عليهم الوقوف إلى جانب إخوانهم، فكان من الأجدر بهم أن يقدموا لهم الطعام والشراب والدواء وكل ما يملكون دون أن يأخذوا أجر ذلك، فواجبهم نحو دينهم وإخلاصهم لوطنهم يحـتم علـيهم فعل ذلك، ولكن من المرجح أن هناك موقفاً رسمياً دينياً للشيعة استندت عليه العامة فتصرفت بما يتواءم مع هذا الموقف. ومما يدعم ما ذهب إليه الباحث أن علماء الشيعة في بلاد الشـام كـان موقفهم مؤيداً للمغول فقد قام أهل دمشق بقتل أحد علماء الشيعة في مسجد دمشق الجـامع بعـد هزيمة المغول في عين جالوت حيث كان العالم الشيعي فخر الدين محمد بن يوسـف الكنجـى منحازاً للمغول بقوة، ودخل في طاعتهم، فقد كان عالماً وفقيهاً و"رافضياً خبيثاً"[٢]. فمن المرجح أن نكبة العراق كانت فرصة للشيعة للتشفي بإخوانهم السنة وجمـع الثـروة والغنـى وتصـفية الحسابات.

ويشاطر الباحث الرأي مؤرخ أجنبي إذ يقول: "ولم يتورع الشيعة عن الاستفادة من نهب بغداد، ومن المناسبات الأخرى، وذلك لتصفية الحسابات القديمة بينهم وبـين أهـل السـنة"[٣]، والغريب في الأمر أن المؤرخين المعاصرين للشيعة يرفضون رواية الفوطي التي ذكـر فيهـا استغلال أهل الحلة والكوفة و السيب لإخوانهم السنة عندما كانوا يبيعونهم الطعام بأغلى الأثمان أو يأخذون الكتب النفيسة بدل ذلك[٤]، ويستدل الأمين بما ذكره المؤرخ بدوي في معرض حديثة أثناء رده على رواية الهمذاني[5] والتي ذكر فيها قدوم الشيعة لهولاكو ليعـين علـيهم شـحنه،

(*) السيب: بكسر أوله وسكون ثانيه أصله مجرى الماء كالنهر، وهي كورة من سواد الكوفة وهما سيبان الأعلى والأسفل، أنظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٤١٤.

(1) أنظر: الحوادث الجامعة، ص٢٣٧.

(2) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٨٠.

(3) شبولر: العالم الإسلامي في العصر المغولي، ص٦٥.

(4) الاسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي، ص٨٥.

(5) تاريخ المذهب السني، ص٣٢٤.

واستقبالهم للمغول بالأفراح والمهرجانات[1]، حيث ذكر بدوي أن رواية الهمذاني لا تقوي دليلاً على خيانة الشيعة ويبرر ذلك أن الناس عند غياب القيادة يجتهد كل منهم في ابتكار طريقة لحماية نفسه[2].

ويرى الباحث أن مؤرخي الشيعة مثل الأمين وبدوي يحاولون درء التهمة عن شيعة العراق من خلال تبرير موقف العامة من المغول حيث صوروا العامة أنهم يهدفون إلى النجاة بأرواحهم عندما قدموا لهولاكو، ولكن السؤال كيف سيبرر مؤرخو الشيعة وجود ألوية من شيعة العراق من أهل الحلة والكرخ في مقدمة جيش المغول[3]؟ كيف سيبرر هؤلاء قيام الشيعة بمد الجسور لقوات الاحتلال ومساعدتها في العبور لتدمير البلاد وارتكاب المجازر في المسلمين؟ وكيف سيبررون تنفيذ الشيعة عمليات خاصة خلف خطوط الجيش العراقي وإغراقهم لمعظم القوات العراقية؟ كذلك ما هو تبريرهم لنبش قبور الخلفاء وإحراقها؟ كذلك في الوقت الذي يقتل فيه العلماء وتلقى جثثهم على المزابل تأكل منها الكلاب[4] يتم حماية المناطق الشيعية وحمايتها ووضع حراسات عليها! و الكوفة والحلة تستقبل جيش المغول بالأفراح و واسط يذبح بها أربعين ألف شخص لأنها لم تقدم المساعدة لجنود الاحتلال وتمد الجسور كما فعلت المناطق الشيعية[5]! كذلك النجف تُفرز لها قوات لحراستها وحماية مشاهدها وأضرحتها، وقبور الخلفاء تنبش وتحرق بأيدي شيعية، ما تبرير مؤرخي الشيعة لموقف علمائهم وقادتهم، فالعلماء جرمهم أكبر وأعظم؟! ما تبريرهم لموقف الطوسي وابن العلقمي من قتل الخليفة هو وكل بني العباس؟! ما تبريرهم لموقف علماء الشيعة في دمشق ولكن الشيء الذي لا يستطيع الشيعة إنكاره هو أنهم يفخرون بمواقفهم ومرافقتهم للغزاة واشتراكهم معهم في قتل المسلمين حيث يفتخر الخونساري بما فعله الطوسي من مصاحبة هولاكو وتحريضه على قتل أهل السنة في العراق باتباع القتل العام، وهذا هو النص الأصلي للخونساري بكلماته عندما كان يتحدث عن ترجمة الطوسي "ومن جملة أمره المشهور المعروف المنقول حكاية استيزاره للسلطان المحتشم هولاكو خان ومجيئه في موكب السلطان المؤيد مع كمال الاستعداد إلى دار السلام بغداد، لإرشاد العباد وإصلاح البلاد ... بإبادة ملك بني العباس وإيقاع القتل العام من أتباع أولئك الطغاة، إلى أن أسال من دمائهم الأقذار كأمثال الأنهار، فانهار بها في ماء دجلة، ومنها إلى نار جهنم دار البوار"[6].

---

(1) جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٩٥.
(2) بدوي: تاريخ المذهب السني، ص٣٢٤.
(3) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، مج١، ص٨٧.
(4) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢١٤؛ العيني: عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص١٩٢.
(5) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٩٦.
(6) روضات الجنات، ج٦، ص٣٠٠-٣٠١.

ولم يتفرد الخونساري بذلك بل شاركه الرأي علماء شيعة آخرون يفتخـرون بموقـف شيعة العراق وموقف ابن العلقمي والطوسي ويكيلون المدح لسفاك الدماء هولاكـو[1]، ويـرى الباحث أن علماء الشيعة يتحدثون بفخر عن هولاكو، ويذكرونه أنه السلطان المحتشم المؤيـد[٢]، وكذلك يذكره ابن طباطبا بالسلطان[٣]، بل إنهم يذهبون إلى أبعد من ذلك، فمنهم مـن يـدعي أن هولاكو أصبح مسلماً شيعياً وأنّ الطوسي اختلف معه في آخر حياته لأنه ارتـد عـن المـذهب الشيعي[٤].

وخلاصة القول أن موقف العامة في العراق من الشيعة لم يكن عفوياً أو عشوائياً ولكنه كان يتمشى مع موقف المرجعيات الشيعية سواء في دمشق أو العراق أو الذين جـاءوا برفقـة هولاكو، أما الموقف الطبيعي من المغول بين عامة سكان بغداد فهو مقاومة المغول، حتى بعـد دخولهم المدينة وسيطرتهم عليها، حيث أن العامة في بغداد كانوا يجمعون الحجارة الكبيرة فوق منازلهم وعندما تأتي فرق المغول لاقتحام بيوتهم يقوموا بإلقاء الحجارة عليهم، فيقع مـن بيـنهم القتلى والجرحى، ومن العامة من كان يقاوم بالعصي، أما كبار السن فكانوا يقاومون بالعصـي التي يتكئون عليها، حيث يتحدث المؤرخون عن مقاومة كهل بلغ مـن العمـر ثمانيـة وسـتين عاماً[5].

وبتحليل رسالة نصير الدين الطوسي إلى أهل الشام التي ينذرهم ويتوعدهم بأليم العذاب، ويطلب منهم الاستسلام وإلا سينالون القتل كما حدث في بغداد، يظهر من الرسـالة أن المغـول لاقوا مقاومة من الناس في بغداد[٦].

والغريب أن بعض مؤرخي الشيعة في سبيل نفي الخيانة عن الشـيعة يـذهبون بعيـداً فينفون الدمار والتخريب في بغداد، بل ويصورون أن هولاكو كان فاتحاً متحضراً لم يجر علـى نهج جده جنكيز خان في التدمير[٧]، حيث يقول حسن الأمين: "لم تتعرض أي مدينـة إسـلامية للإحراق والتخريب والهتك في الزحف المغولي الهولاكي ما عدا الموصل التي لم يتعرض لهـا المغول بشيء أول الأمر إلى أن عادت فثارت عليهم فنالها ما نالها من الأذى وعدا حلـب فـي بلاد الشام"[٨] ويفسر الأمين ذلك أن الخواجة الطوسي كان برفقة هولاكو وكـان مروضـاً لـه

---

(1) الطبرسي: مستدرك الوسائل، ج٣، ص٤٨٣؛ القمي: الكنى والألقاب، ج١، ص٣٥٦.
(2) الخونساري: روضات الجنات، ج٦، ص٣٠٠-٣٠١.
(3) أنظر: الفخري في الآداب السلطانية، ص٣٣٨.
(4) الخونساري: روضات الجنات، ج٦، ص٦١٠.
(5) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢١١؛ العيني: عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص١٨٩.
(6) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٩٦-٢٩٧.
(7) خصباك: العراق في عهد المغول الإيلخانيين، ص١٢٠؛ الأمين: الإسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي، ص٢٩٢-٢٩٣.
(8) الإسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي، ص٢٩٢-٢٩٣.

ويمنعه من القتل والتدمير والتخريب[1]، حيث يقول في ذلك: "أما هولاكو الذي لا يقل أصالة في الشر عن جده جنكيز فقد كان له كابح يلوي عنانه ويروض جماحه ويثني مـن انطلاقـه، هـذا الكابح الذي لم يكن مثله لجنكيز، هذا الكابح تمثل في شخص الرجل المخلـص القـوي الـنفس الماضي العزيمة الذي إذا قال عنا السامع لقوله ولو كان هـذا السـامع هـو هولاكـو الجبـار العاتي.."[2]، ويقول آخر: "هولاكو لم يجر على سنة جده جنكيز خان بتخريب أكثر المدن أو كل المدن التي تقع في طريق زحفه وقتل سكانها، ويبدو لنا أن الصورة التي رسـمها المؤرخـون لفاتح بغداد المغولي إنما هي انعكاس للأعمال التي قام بها جده فيما وراء النهر وخرسان"[3].

ويبدو أن خصباك يحاول أن ينكر التدمير والقتل والحرائق التي حدثت في بغداد على يد هولاكو، وهذا الادعاء أمام روايات المؤرخين المعاصرين للأحداث لا يصمد، فرسالة هولاكـو نفسه التي أرسلها إلى الخليفة التي من المرجح أن يكون الطوسي هو كاتبها بيده، حملت عبارات الاستباحة والقتل العام والحرق وإشعال النيران في كل مكان في البلاد "لن أدع حياً في مملكتـك وسأجعل مدينتك وإقليمك وأرضك طعمة للنار"[4]، ولقد تم تنفيذ ما ورد في رسالة التهديد بدقـة متناهية فلم يبق أحياءٌ في المدينة إلا الشيعة[*] "وآل الأمر إلى هلاك الخليفة وأرباب دولته وقتل معظم أهل بغداد ونهبوا ... وما دهي الإسلام بداهية أعظم من هذه الداهية ولا أفظـع"[5]، أمـا بالنسبة لإدعاءات الأمين، فيبدو أن الأمين يناقض نفسه حيث أنكر أن يكون للطوسي تأثير على هولاكو عندما رد على ابن تيمية الذي حمل الطوسي مسئولية قتل الخليفة وأهل بغداد[6].

حيث يذكر الأمين أن الطوسي ليس له علاقة بقتل الخليفة، فهولاكو هو من أصـدر الأمـر وإن كان الطوسي مستشاراً له، فهو ليس له تأثير عليه[7]، وهنا يذكر الأمين أن الطوسي هو من منع هولاكو من ارتكاب المجازر في المدن والبلاد التي تم احتلالها، ولو ذهبنا مع مؤرخي الشـيعة لما ذهبوا إليه، فلماذا لم يكبح الطوسي جماح هولاكو عن قتل الخليفة؟ ولماذا لم يكبح جماحه من قتل ما يقارب ٨٠٠ ألف مسلم في بغداد عندما استبيحت بغداد ما يقارب أربعين يومـاً وجـرت السيول من الدماء[8]، وهو الذي استطاع إنقاذ الكثيرين من الموت وإنقاذ الكتب والمكتبات علـى

---

(1) الإسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي، ص٢٩٢-٢٩٣.
(2) المصدر نفسه، ص٢٩٣.
(3) خصباك: العراق في عهد المغول الإيلخانيين، ص١٢٠.
(4) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٦٨.
(*) أنظر: الصفحات السابقة من هذا المبحث التي تحدثت عن ممارسات المغول في بغداد.
(5) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، مج١، ص٨٥.
(6) الفتاوي الكبرى: ج٣٥، ص١٤٥-١٦٠.
(7) الإسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي، ص١٢٥.
(8) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، مج١، ص٨٥؛ الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٢٣٧؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص١٨١؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١٧، ص٣٤٣؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج٤، ص١٠٥.

حد تعبير الأمين[1]، وبالنسبة لمدينة الموصل فالأمين وكأنه يحمل مدينة الموصل مسئولية المذابح لأنها لم تطع المغول، وهذا مبرر الأمين لمذابح المغول في الموصل، وكان الأجدر بمؤرخي الشيعة أن يذكروا بطولات مدينة الموصل بدل تحميلها المسئولية، فقد ثارت على الاحتلال بعد انتصار عين جالوت، وصمدت أكثر من سنة، حيث عجز العدو على اختراقها، غير أن تدهور الأوضاع داخل المدينة بسبب نقص المؤن أجبر أميرها على طلب الصلح، فوافق المغول وتم عقد اتفاقية الصلح، وعندما خرج الملك الصالح وولده، بادر المغول بقتل ولده وأرسلوا الملك الصالح وأخاه الطفل مع بعض أصحابهما إلى هولاكو الذي أمر بسلخ وجه الملك الصالح وهو حي، ثم قتل أخاه مع من كان يرافقهم من أهل الموصل، حيث دخل جيش المغول الموصل في عام (٦٦٠هـ = ١٢٦١م) واستباح المدينة مثلما استبيحت بغداد من قبل[2]، وكنا نتوقع أن يُظهر مؤرخو الشيعة صمود هذه المدينة، ويبينوا المغول هم الذين خانوا العهد وغدروا بأهلها وملكها، لكن هذا لم يحدث إذ حمّل الأمين أهل الموصل المسئولية عما حدث لمدينتهم.

أما بالنسبة إلى حلب فنتساءل ألم تكن رسائل التهديد والوعيد التي أرسلت لمدينة حلب من صناعة الطوسي وبخط يده وعباراته؟[*] وهذا ما ذكره مرافق الحملة المؤرخ الهمذاني حيث يقول: "وفي التاسع عشر من ربيع الأول أعاد هولاكو خان رسل حلب الذين كانوا قد قدموا إلى بغداد، وحملهم رسالة كتبها بالعربية الخواجة نصير الدين الطوسي ... وهذا نصها"[3]، حيث يحذر أهل مدينة حلب أنه في حالة عدم التسليم والطاعة سيتم استباحة المدينة كما حدث في بغداد من قبل، ويظهر من رسالة الطوسي أن أهل بغداد وخليفتها يستحقون ما جرى لهم، لأنهم لم يتعاونوا مع المغول وهو هنا يحذر أهل مدينة حلب وحكامها من المصير نفسه ويبدو أن الطوسي كما نفذ تهديداته في بغداد بأنه لن يدع حياً ويجعل البلاد طعمة للنيران[4] فقد نالت حلب المصير نفسه على يد الطوسي.

والباحث يود أن يسأل مؤرخي الشيعة عن مدينة واسط. ألم يذكر الهمذاني نفسه أنه ذبح فيها أربعين ألف شخص وذلك بعد أن استقبل بالأفراح والمهرجانات من شيعة الحلة والكوفة، حيث رحل إلى واسط ولأن "أهلها لم يدخلوا في الطاعة، فأقام هناك واستولى على المدينة، وشرع في القتل والنهب فقتل ما يقرب من أربعين ألف شخص"[5]، ويرى الباحث أن ادعاءات مؤرخي الشيعة ركيكة ولا تستند إلى نصوص تاريخية، لذلك فهي لا تصمد أمام النقد التاريخي،

---

(1) الإسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي، ص٤٤.
(2) أنظر: الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٩٦ وما بعدها.
(*) للاطلاع على رسالة الطوسي لأهل حلب أنظر: ملحق رقم(٩).
(3) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٦٨.
(4) المصدر نفسه، ج٢، مج٢ ص٢٩٦.
(5) المصدر نفسه، ج٢، مج٢ ص٢٩٦.

فمن المرجح هو أن المغول اعتمدوا على خطة قوامها سياسة العنف والرعب، اتبعهـا المغـول لتحقيق مطامعهم، عن طريق سرعة التعبئة والمبادرة في الهجوم ومباغتة العدو بعد الاسـتعانة بالجواسيس، فلا يجد من يغزوه مناصاً من الإذعان والاستسلام أمام ضخامة حجم الدمار والقتل والنهب والحرائق والهدف من هذه السياسة هو إثارة الرعب والخوف مما يكفل احتلالهم للمناطق بسلام دون كثير من الخسائر، وهذه سياسة جنكيز خان سار عليها حفيده هولاكو بكل وحشـية، حيث وصف المؤرخون الأجانب هذه السياسة بأنها "سياسة الأرض المحروقة"[(1)]. لـذلك يـرى المؤرخ الأجنبي رنسيمان أن بغداد بعد أربعين سنة لم "تعد سوى مدينة ... لا تتجـاوز عشـر حجمها السابق"[(2)] والسؤال أين ذهب باقي المدينة؟!

ومما يؤكد ما ذهب إليه الباحث من تبني المغول لسياسة الدمار والقتل والإرهـاب مـا فعله هولاكو مع الأمير الكامل محمد بن شهاب الدين غازي الأيوبي صاحب ميافارقين[(*)] التـي سقطت في أيديهم سنة (٦٥٨هـ =١٢٦٠م) حيث اقتطعوا أجزاء من جسـمه وأرغمـوه علـى تناولها حتى لقي حتفه، وتقطيع الأوصال تدريجياً، تمثل طريقة التعذيب الصينية التي تبدأ ببتـر مفاصل الأصابع الصغرى ثم تستمر بقطع الأطراف شريحة بعد أخرى. ويذكر أن المغول علقوا رأس الكامل على رمح وطافوا به كل أرجاء بلاد الشام من حلب حتى دمشق ويتقـدم الموكـب المغنون والطبالون ثم علق رأسه على سور دمشق[(٣)].

كذلك بعد استيلاء المغول على الموصل سنة (٦٦٠هـ=١٢٦١م) وضعوا الملك الصالح بن بدر الدين لؤلؤ في دهن ولباد. وألقوه في الشمس حتى تحول الدهن إلى ديدان، فشرعت هذه الديدان تأكل جسده حتى مات بعد شهر، كما شقوا ابنه نصفين على ساحل نهر دجله، وكان طفلاً في الثالثة من عمره [(٤)].

ومن المعروف أن المؤرخين نوعان: الأول هو الكاتب الذي يريد أن يبحث عن الحقيقة على وجهها فيكتبها كما هي دون تمويه أو تحوير وهذا سبيله شائك وعر.

أما الثاني: فهو طالب المنفعة، فإنه لا يهتم بالحقيقة، لأنها لا تعنيه إلا بمقدار ما توافق نزعتـه، فإن كانت كذلك كتبها، وإلا وأدها، لذلك فهو مسير وإن بدا له أنه مخير، حيث يشـده تعصـبه المذهبي إلى التحويل والتحوير وتجزئة الحقيقة، وهذا ينطبق على مؤرخي الشيعة المعاصـرين،

---

(1) روم لاند: الإسلام والعرب، ص١١٧.
(2) تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص٥٢٢.
(*) ميافارقين: بفتح أوله وتشديد ثانيه ثم فاء وبعد الألف راء وقاف ومكسورة وياء ونون، وهي أشهر مدينة بديار بكر، قالوا سميت بميابنت لأنها أول من بناها وفارقين هو الخلاف، أنظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص٢٣٥.
(3) ابن الوردي: تتمة المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص٢٠٥-٢٠٦.
(4) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٣٨٨.

إذ يقيدهم التعصب المذهبي ويجعلهم يقفون أمام الحقـائق والروايـات التاريخيـة فيحورونهـا ويجزئونها لعلهم يضعوا شيئاً يدافع عن مذهبهم.

ويشكك مؤرخو الشيعة في أن المغول قاموا بإتلاف المكتبات، و حجتهم فـي ذلـك أن بعض المؤرخين المعاصرين للأحداث سكتوا عن ذكر حرق المكتبات وإتلافهـا بـالغرق فـي الأنهار، مثل الهمذاني[1]، ويرى الباحث أن سكوت الهمذاني وغيره عن الحدث لا يعنـي عـدم حدوثه، لأن هناك كثير من المؤرخين ذكروا إتلاف مكتبات وكتـب بغـداد، إمـا بـالحرق أو بإغراقها في الأنهار أو استخدامها في بناء الجسور على الأنهار[2]، كما أن الهمذاني ذكر اندلاع النيران في بغداد في كل مكان حتى أحرقت مشهد موسى الجواد، وهو مكان مقدس للشيعة، وهذا يعد دليلاً على فداحة النيران، حيث اشتعلت في المدينة أربعين يوماً، ومن المؤكد أنها التهمـت دور الكتب والمكتبات، كذلك ذكر الهمذاني القتل العام والنهب "وكان بدء القتل العام والنهب في يوم الأربعاء"[3]، وقال: "فاندفع الجند مرة واحدة إلـى بغـداد، وأخـذوا يحرقـون الأخضـر واليابس"[4]. ويرى الباحث أن القتل العام والنهب، وحرق الأخضر واليـابس يتضـمن إتـلاف وإحراق المكتبات، ويبدو أن الهمذاني لم يذكر المكتبات والكتب تحديداً لأن الكتب والمكتبـات لا تساوي شيئاً أمام قتل آلاف العلماء والمحدثين، وإلقائهم على المزابل لتأكل منهم الكـلاب، كمـا ذكر الهمذاني: "وقد احترق أكثر الأماكن المقدسة في المدينة"[5].

أما ما يذكره بعض مؤرخي الشيعة من أن الطوسي قد فوض خزائن الكتب لابـن أبـي الحديد الشيعي هو وأخيه، لأنهم كانوا من ضمن الناجين من مذبحة بغداد، حيث كانوا من ضمن الشيعة الذين التزموا منزل الوزير ابن العلقمي الذي كان أحد الملاجئ الآمنة للشيعة[6]، ويـرى الباحث أن هولاكو بعد الانتهاء من نهب بغداد قام بإرسال كل الغنائم والذهب والتحف إلى مقره الذي سيدير فيه البلاد التي أصبحت ملكاً له، حيث كلف أحد الأمراء بناء عمارة عاليـة شـديدة الإحكام على جبل، وصهر الكنوز وجعلها سبائك ووضعها في هذه القلعة[7]، ويبدو أن المغـول نقلوا كل ما نهبوه من العراق إلى أماكن بعيدة، من ذهب وفضة وتحف، كما ونقلـوا الأطفـال الذين سرقوهم كذلك، فتعاملوا معهم كأنهم منهوبات، ومن الأفضل إبعادها عن مكانها الأصـلي،

(1) الأمين: الإسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي، ص٤٨.
(2) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٥١؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٣٦٤؛ المكي: سمط النجوم العوالي، ج٣، ص٥١٩؛ ابن خلدون: المقدمة، ج١، ص٣٣٨. ؛ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص٦١٢.
(3) جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٩١.
(4) المصدر نفسه، ج٢، مج٢ ص٢٩١.
(5) المصدر نفسه، ج٢، مج٢ ص٢٩٢.
(6) الطهراني: الأنوار الساطعة، ج١، ص٨٨.
(7) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٣٠٠.

لذاك أخذ نصير الدين الطوسي ابن الخليفة الطفل الذي لم يذبح كباقي الأسرة، حيث سـافر بـه الطوسي إلى قاعدة هولاكو الجديدة حسب رغبة هولاكو(1).

ويبدو أن الكتب التي نهبت تم التعامل معها بالطريقة نفسها حيث نقلت إلى مكان آخـر، إذ أن الطوسي قام ببناء مرصد مراغة(*) عام (٦٥٧هـ=١٢٥٨م) "وأخذ بعض كتب مكتبة بغداد وعمل دار حكمة ورتب فيها الفلاسفة وأجرى عليها الرواتب"(٢).

ويظهر من رواية ابن كثير أن الطوسي أخذ بعض الكتب وليس كل كتب مكتبـة بغـداد، فمـن المرجح أن الطوسي أخذ الكتب التي تهمه وتعنيه في علم التنجيم والفلسفة، وهي التي تم نهبهـا والمحافظة عليها، بالإضافة إلى مؤلفات الشيعة، ويؤكد ما ذهب إليه الباحث أن معظم مؤلفـات الطوسي أثناء مصاحبته لهولاكو كانت في علم الفلك والتنجيم(٣)، كذلك يؤكـد ابـن خلـدون أن عملية إتلاف المكتبات لم تكن قضية عفوية وإنما يسيرها هدف تعصبي، حيث يذكر ابن خلدون أن الذين تولوا إتلاف المكتبات هم الفرس، انتقاماً لما فعله المسلمون في كتبهم عندما تـم فـتح المدائن، لذلك قاموا بإتلاف الكتب في دجلة حتى تغير لونه(٤).

ومن المرجح أن الكتب التي ألقيت في دجلة ليست كتب الفلسفة والفلك والتنجيم وكتـب علماء الشيعة، فالفوطي يقول: "جمع [الطسي] في العراق كتباً كثيرة لأجل الرصد"(٥)، والمقصود بالرصد، كتيب الفلك والتنجيم(٦). لذلك يقول الرازي أنه كان للطوسي: "نفع كبير خاصة للشـيعة والعلويين والحكماء"(٧)، والباحث هنا يوافق مؤرخي الشيعة بأن الطوسي استطاع إنقاذ عدد مـن الكتب وتجميعها في مرصد مراغة(٨)، خاصة من الكتب التي استطاع شيعة العـراق نهبهـا أو ابتزازها من السكان مقابل القليل من الماء والطعام، الذي يسد رمق المنكوبين تحـت الحصـار والذبح(٩)، وقد لاحظ شبولر سرقات الشيعة فقال: "حتى أن الشيعة لم يترددوا في نهب بغداد"(١٠). ويؤكد ابن خلدون أن كثيراً من كتب الحضارة الإسلامية، المعروفة بأسمائها ومؤلفيها، قد غرقت في دجلة على أيدي جنود حملة هولاكو(١١).

---

(1) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٩٥.

(*) مراغة: بالفتح والغين المعجمة، بلدة مشهورة عظيمة، أعظم وأشهر بلاد أذربيجان بناها مروان بن محمد بن الحكم، أنظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص٩٣.

(2) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢١٥.

(3) أنظر: الرازي: محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين، ص١٦؛ الأعسم: الفيلسوف نصير الدين الطوسي، ص٤٣، ص٤٨.

(4) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص٦١٣.

(5) الحوادث الجامعة، ص٣٥٠.

(6) المصدر نفسه، ص٣٥٠.

(7) الرازي: أفكار المتقدمين، ص١٧.

(8) الأمين: الإسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي، ص٤٤.

(9) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٢٣٧.

(10) المغول في التاريخ، ص٧٠.

(11) المقدمة، ج١، ص٦١٢.

ومرة أخرى يحاول مؤرخو الشيعة المعاصرين توهين القضية، بادعائهم أن هناك بعض أمراء المسلمين قدموا المساعدة إلى هولاكو أثناء عملياته العسكرية على العراق[1]، ويذكر الأمين أن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل قدم المساعدات للمغول، ويذكر أن ملوك الأيوبيين هم أول من تعاون مع المغول، وأعلن ولاءه وخضوعه لهم[2]، ويرى الباحث، أن تعاون أي طرف مع الغزاة لا يبرر أو يجيز التعاون مع الغزاة، فكل تعاون مع المغول هو جريمة بحق الأمة الإسلامية وحضارتها، سواء أكان من أقدم على هذا العمل سني أم شيعي، وينسحب ذلك على عصرنا الحاضر عندما يحتج الشيعة اليوم بتعاون أطراف من السنة مع الأعداء، ويقارنون ذلك بما حدث عندما تعاون شيعة العراق مع المغول ضد الخلافة الإسلامية وأهل السنة، والباحث يرى أن ما يحدث اليوم من بعض الفئات المحسوبة على السنة من تعاون مع أعداء الأمة ليس مبرراً ولا حجة على أهل السنة، لأن أهل السنة يرفضون وينبذون هذه الأعمال بل يحاربونها، أما ما حدث في العراق من تعاون الشيعة فقد كان بقيادة علمائهم، واتبعت الجماهير هذا الموقف وتصرفت بمقتضاه، ولكن الخطورة أن علماء الشيعة، يفتخرون بمواقفهم مع الاحتلال ويعدون ذلك إصلاحاً للبلاد وإرشاداً للعباد، ويصرون على أن دماء من قتل على يد المغول قذرة ومثواهم النار[3].

أما بالنسبة لحاكم الموصل بدر الدين لؤلؤ، فلقد تحدث المؤرخون أنه اتصل بالخليفة العباسي، وأرسل له عدداً من الرسائل يحذره من المغول ويدعوه لأخذ الحيطة والحذر، ولكن الوزير الشيعي ابن العلقمي كان يحجب الرسائل عن الخليفة ولا يطلعه عليها[4](*).

كما ذكرت الروايات أن ابن صلايا حاكم إربل كاتب الخليفة وحذره ولكن رسائله لم تصل إلى الخليفة[5]، ويروي ابن العبري أن صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ لم يشارك مع المغول في احتلال بغداد بل بعدما ملك هولاكو بغداد وسيطر عليها تماماً ووضع بها الشحنة والولاة أرسل صاحب الموصل ابنه الملك الصالح إسماعيل ومعه جماعة من عسكره، عندها غضب هولاكو وقال: "أنتم بعد في شك من أمرنا ومطلتم نفوسكم يوماً بعد يوم وقدمتم رجلاً وأخرتم أخرى لتنظروا من الظافر بصاحبه فلو انتصر الخليفة وخذلنا لكان مجيئكم إليه لا

---

(1) خصباك: العراق في عهد المغول الإيلخانيين، ص١٢٠؛ الأمين: الإسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي، ص٧٦، ص١٢٣؛ نعمة: فلاسفة الشيعة، ص٧٥.

(2) الإسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي، ص١٢٣.

(3) الخونساري: روضات الجنات، ج٦، ص٣٠٠-٣٠١؛ الطبرسي: مستدرك الوسائل، ج٣، ص٤٨٣؛ القمي: الكنى والألقاب، ج١، ص٣٥٦.

(4) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، مج١، ص٨٧؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص١٨١؛ السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٨، ص٢٧٠؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٤٩.

(*) للاطلاع على هذه القضية، أنظر: الفصل الثاني، تهيئة البلاد للسقوط.

(5) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، مج١، ص٨٧؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص١٨١.

إلينا"[١]، وأكد الرواية ابن كثير فقد ذكر أن قواته جاءت بعد انتهاء وقعة بغداد، كما يروي أنـه كان محبوباً لدى الناس، لحسن سيرته وعدله[٢].

ولكن بعد أن ملك هولاكو بغداد ما ذا فعل؟ لقد قام بحملة قتل، حيث قام بقتل حاكم إربل ابن صلايا، ثم قتل أحد قواده ومعاونيه، بتهمة مكاتبته للخليفة وتحذيره "ثم ضرب هولاكو عنـق بانجونوين لأنه قيل عنه أنه كاتب الخليفة وهو في الجانب الغربي"[٣].

كما أن الخليفة العباسي أرسل مائة رجل أثناء زحف المغول للعراق إلى منطقة الدربنـد "يطالعون الخليفة بالأخبار"[٤]، فتم قتلهم جميعاً، من قبل المغول الذين أُعلِموا بأمرهم[٥]، والسؤال لمؤرخي الشيعة من أبلغ المغول برسائل ابن صلايا، واتصالات أحد مستشاري هولاكو بالخليفة يحذره وينبهه؟ ومن الذي أبلغ المغول عن المائة رجل الذين ذهبوا ليطـالعوا الخليفـة بأخبـار المغول؟ من المرجح أن الأخبار خرجت من قصر الحكومة، فهذه المراسلات السرية والمهمات كان لا يعلمها إلا الخليفة ووزيره ابن العلقمي، حيث كان الوحيد المطلع على المراسـلات هـو الوزير ابن العلقمي، بل وكان يحجب الرسائل عن الخليفة[٦].

ولقد اختلف المؤرخون في عدد ضحايا هذه المذبحة، فقد قدر بعضهم أن العدد أكثر من "ألف ألف وثمانمائة ألف وكسر"[٧]، وقدر ابن خلدون عدد الضحايا "ألف ألف و ثلاثمائة ألف"[٨]، وبعض المؤرخين أورد ثلاثة أرقام حيث ذكر أنه لم يحدد بالضبط عدد القتلى "فقيـل: ثمانمائـة ألف نفس، وقيل: ألف ألف و ثمانمائة ألف وقيل بلغت القتلى ألفي ألف نفس" [٩]،أمـا الفـوطي المعاصر للأحداث فذكر أن العدد بلغ ثمانمائة ألف نفس عدا من ألقي من الأطفال في الوحـول ومن هلك في القنى والآبار والسراديب والذين ماتوا جوعاً وخوفاً عدا من قتل بفعل الوباء الذي انتشر بعد المذبحة بسبب الروائح التي تصدر من الجثث التي أصبحت كالتلال فـي الطرقـات، فانتشر الذباب وتعفنت الجثث[١٠]، أما الصفدي فقد قدر عدد الضحايا بألف ألف[١١]، بينمـا قـال الذهبي: "فأقل ما قيل بها ثمان مئة ألف نفس وأكثر ما قيل بلغوا ألف ألف وثمان مئة ألـف"[١٢]،

---

(1) تاريخ مختصر الدول، ص٢٤١؛ تاريخ الزمان، ص٣١٤.
(2) البداية والنهاية، ج١٣، ص٢١٤.
(3) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، مج١، ص٨٩؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص١٨٢.
(4) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص.
(5) المصدر نفسه، ج٧، ص٤٩؛ اليونيني: ذيل مرآة الزمان، مج١، ص٨٧؛ السبكي: طبقات الشافعية الكبرى: ج٨، ص٢٧٠.
(6) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، مج١، ص٨٧.
(7) اليافعي: مرآة الجنان، ج٤، ص١٠٥؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٥، ص٢٧١ .
(8) تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص٦١٣.
(9) العيني: عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص١٧٤.
(10) الحوادث الجامعة، ص٢٣٧.
(11) الوافي بالوفيات، ج١٧، ص٣٤٣.
(12) سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص١٨١.

وذكر ابن تغري بردي نقلاً عن الذهبي أن الأصح أنهم بلغوا ثمانمائة ألف[1]، ويرى الباحث أن العدد الذي أورده المؤرخون ينحصر بين مليونين وثمانمائة ألف، لذلك لا بد من عرض بعض الحقائق كي تتضح الصورة.

عندما زحفت جيوش المغول إلى العراق ضج سكان جنوب العراق حيث انحدروا إلى بغداد، أي تكدس سكان جنوب العراق في مدينة بغداد، ويصف الفوطي بغداد عند ذلك بقوله: "فإنه سار نحو بغداد بجيوش تملأ الفضاء واستصحب آلات الحصار وغيرها وأجفل أهل السواد من بين يديه إلى بغداد حتى امتلأت شوارعها فضاقت على وسعتها عنهم، فقعدوا في الطرقات والدكاكين"[2]، أي أن الذين تواجدوا في مدينة بغداد عند فرض الحصار ليس أهل بغداد فقط، بل معهم سكان جنوب العراق حتى ضاقت بهم شوارع المدينة، وهذه الرواية توافق طبيعة السكان فهم في حالة الخطر يهرعون إلى العاصمة لأنها أكثر حصانة من باقي المناطق خاصة بغداد المعروفة بحصانتها. وأحكم الحصار على بغداد من جميع الجهات، بل أقام المغول خندقاً حول المدينة وقاموا ببناء سور جديد حول بغداد من تراب الخندق، وعينوا الأمراء والحراسات حول المدينة[3]، والسور[4]. ودخلت جيوش المغول المدينة وتم استباحة المدينة أربعين يوماً "وقتل المغول جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى، ومن التجأ إليهم، وإلى دار الوزير ابن العلقمي الرافضي"[5]، وتعفنت الجثث وخرجت الروائح وانتشر الذباب[6]، وانتشر الوباء في المدينة، مما أجبر المغول إلى الرحيل عن المدينة[7]، وخرج الناس الذين اختبأوا في المقابر والآبار والسراديب، حيث تم القضاء عليهم بسبب الوباء "ووقع الوباء فيمن تخلف بعد القتل"[8]، وانتشر الوباء في باقي مناطق العراق وأخذ يحصد الناس حصداً، كما وصل الوباء من العراق إلى بلاد الشام بسبب تلوث الهواء حتى أفنى آلاف الناس في بلاد الشام، إذ خرج في يوم واحد من حلب ألف ومائتي جنازة، وكان الوباء بدمشق أعظم من ذلك حيث نفذ الدواء والغذاء ونفذ ما عند العطارين، كل ذلك بسبب "ملحمة بغداد"[9]، وذكر المؤرخون أن الوباء انتشر في باقي العراق

---

(1) النجوم الزاهرة، ج٧، ص٤٩.
(2) الحوادث الجامعة، ص٢٣٠.
(3) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٢٣٦-٢٣٨.
(4) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٨٦؛ السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٨، ص٢٧٠.
(5) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٠١.
(6) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٢٣٥.
(7) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٩٣.
(8) الفوطي: الحوادث، ص٢٣٧.
(9) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٥١هـ - ٦٦٠هـ)، ص٤٢.

والشام وذلك بسب فساد الهواء، كل ذلك بسبب كثرة القتلى في العراق[1]، "ولم ير في الإسـلام ملحمة مثل ملحمة الترك الكفار المسمين بالتتر"[2].

ويرى الباحث أن المؤرخين المعاصرين لم يتقبلوا الأرقام التي قدرها المؤرخون الـذين عاصروا الحادثة زماناً ومكاناً، فقدر بعض المؤرخين المعاصرين ضـحايا المذبحـة بتسـعين ألفاً[3]، ويرى الخضري أن تقديرات المؤرخين الذين عاصروا الحادثة مثل الفـوطي والـذهبي والسبكي هي تقديرات مبالغ فيها، وحجته في ذلك أن مساحة بغداد في ذلـك الوقـت لـم تكـن تستوعب ملايين السكان، كذلك نزوح كثير من سكان بغداد عنها عند اقتراب المغول، كذلك نجاة فئة من السكان مثل النصارى والمقربين من المغول ونجاة فئة أخرى اختبـأت فـي الأمـاكن المهجورة، ويستدل بأن المغول لم يقضوا على جميع السكان[4]، برواية الهمذاني حيـث أعلـن هولاكو وقف القتل لأن بغداد "أصبحت ملكاً لنا فليستقر الأهالي ولينصرف كـل شـخص إلـى عمله"[5].

ويقدر العريني عدد ضحايا المذبحة بثمانين ألف شخص[6]، كذلك يرى عماد الـدين خليـل أن الأعداد التي أوردها المؤرخون عن أعداد الضحايا مبالغ فيها والسبب أن الهـول الـذي رافـق الممارسات في بغداد كان يعين على المبالغة في تقدير حجم الوقائع، كذلك غيـاب العديـد مـن المصنفات والمرويات، كذلك يضيف تحيز المؤرخين خاصة أنهم لم يكونوا شهود عيـان علـى الأحداث[7].

ويرى الباحث أنه بشيء من التحليل الموضوعي للروايات ستتضح بعض الحقائق، حيث ذكر الخضري أن سكان بغداد في ذلك الوقت كانوا أقل من ذلـك خاصـة أن مسـاحة بغـداد محصورة، ولكن الروايات التاريخية المعاصرة للأحداث مثل روايات الفوطي وهو من سـكان العراق وعاصر الأحداث يروي أن من كان في بغداد تحت الحصار ليس سكان بغداد فقط بل هم جميع أهل جنوب العراق الذين نزحوا للعاصمة للاحتماء بها ربما لحصانتها، "وأجفل أهل السواد من بين يديه إلى بغداد حتى امتلأت شوارعها، فضاقت على وسعتها عنهم فقعدوا في الطرقـات والدكاكين"[8]، ويؤكد هذه الرواية رواية أخرى للفوطي وهو يتحدث عن ضحايا المذبحة حيـث يقول: "فلم يبق من أهل البلد ومن التجأ إليهم من أهل السواد إلا القليل"[9]، وهذا ينفي ما اعتقـده

(1) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٠٤.
(2) ابن تيمية: منهاج السنة، ج٣، ص٣٨.
(3) محمد: هولاكو في بغداد، ص٤٦.
(4) الخضري: تاريخ الأمم الإسلامية، ج٢، ص٤٤٨.
(5) جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٩٣.
(6) المغول، ص٢٢٠.
(7) الوحدة والتنوع في تاريخ المسلمين، ص١٤٢.
(8) الحوادث الجامعة، ص٢٣٠.
(9) المصدر نفسه، ص٢٣٥.

المؤرخون المعاصرون أن هناك أعداد نزحت من بغداد، فالرواية تؤكـد العكـس أن السـكان تكدسوا في العاصمة، ويبدو هذا منطقياً لما عرف عن بغداد من حصانة أسوارها ومناعتها.

كما أن إحكام سيطرة المغول على بغداد ببناء الأسوار وحفر الخنادق ونقـاط التفتـيش والسدود في الماء كما أسلف الباحث في الصفحات السابقة، يؤكد أنه لم يستطع أحد الإفـلات أو الهرب والخروج من بغداد. وعليه فجميع من كان في العاصمة من أهل السواد تعرضوا للموت، بالإضافة إلى الوباء الذي حصد من تبقى من الذين استطاعوا الاختفاء، ويبدو أن الذين نجوا من المذبحة هم أهل الذمة، وشيعة بغداد وأحيائها، ومن المرجح أن هؤلاء هـم المقصـودون فـي خطاب هولاكو أن بغداد "أصبحت ملكاً لنا فليستقر الأهالي ولينصرف كل شخص إلى عمله"[(١)]، أو أن ذلك الخطاب جاء بعد انتهاء هولاكو من مذبحته، وهناك رواية للهمذاني تؤكد أن المغول أجبروا على الخروج من المدينة تحت ضغط الوباء وخوفاً على حياتهم، حيث يقول الهمـذاني: "رحل هولاكو خان عن بغداد بسبب عفونة الهواء"[(٢)]، وهذا مؤشر على قضاء الوباء على مـن تبقى من سكان المدينة، حيث فر المغول من المدينة إلى خارجها فما حال من بقي داخل المدينة؟

أما بالنسبة لسكان بغداد وتعدادهم، فهناك رواية للطبري يُستدل من خلالها على ضخامة عدد سكان بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية حيث روى الطبري أثناء حديثه عـن الفتنـة التـي وقعت في بغداد سنة (٢٥٥هـ=٨٦٨م) قال: "وقيل أنه عبر الجسرين من العامة في ذلك الوقت ١٠٠,٠٠٠ إنسان في الزواريق"[(٣)]، ويعلق أحد المؤرخين على رواية الطبري، فإذا كـان هـذا عدد الذين عبروا النهر فما قولك بمن لم يعبروا؟ "فلا نبالغ إذا جعلنا عدد سكان بغداد في ذلـك العهد نحو مليون ونصف أو مليونين"[(٤)]، ناهيك بما كان من العمارة حول بغداد وفي سائر بـلاد السواد، حيث قال ابن حوقل وقد رآها في أثناء القرن الرابع للهجرة: "وبين بغداد والكوفة سواد مشتبك غير متميز تخترق إليه أنهار من الفرات"[(٥)]، ولقد ذكر المؤرخون أن بغداد احتوت على ٦٥,٠٠٠ حمام في عهد المأمون[(٦)]، ويذكر المؤرخون أن كل حمام في ذلك الوقت يحتاج إلـى خمسة نفر، حمامي، وقيم، وزبال، ووقاد، وسقاء، يكون ذلك ثلاثمائة ألف رجـل[(٧)]، إذا كـان العاملون بهذا الحجم وهذا العدد في بغداد في عهد المأمون فما هي أعداد السكان الذين يسـكنون المدينة، كذلك كم سيصبح عدد سكانها في القرن السابع الهجري، فمن المرجح أن عـدد سـكان بغداد في عهد المستعصم عندما وقعت المذبحة كان عدة ملايين، حيث قدرها جرجـي زيـدان

---

(1) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٩٣.
(2) جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٩٣.
(3) تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص١٧٣٠.
(4) زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، ج٢، ص١٨٨.
(5) صورة الأرض، ص١٦٦.
(6) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج١، ص٢٨٧.
(7) الخواجة نظام الملك الطوسي: سياسة نامة، ص٥٥.

بمليونين في القرن الثالث فمن المرجح أن العدد تضاعف بعد أربعة قرون، لـذلك فالباحـث لا يذهب حيث ذهب المؤرخون المعاصرون أن عدد ضحايا المذبحة ثمانون ألف، بـل يُـرَجح أن عدد ضحايا المذبحة يفوق مليون شخص بناءً على ما تم عرضه من حقائق.

أما بالنسبة لما طرحه عماد الدين خليل من مبالغة المؤرخين فالباحث اعتمد في رأيـه على الروايات المعاصرة للأحداث ولم يعتمد على آراء المؤرخين فقط. أما غيـاب المصـنفات والمرويات، فبالرغم من غيابها إلا أن هناك عشرات المصادر التي أجمعت على ضخامة عـدد ضحايا المذبحة رغم اختلاف هذه المراجع زماناً ومكاناً كما سبق عرضه من الباحث(*).

فمن المرجح أن هذه المذبحة كان لها ضحايا في باقي العراق وبلاد الشام ما يوازي عـدد مـن ذبحوا في بغداد خاصة إذا تم تحليل تبعات هذه المذبحة مثل انتشار الوباء الذي عم معظم العراق ووصل إلى بلاد الشام وراح ضحيته آلاف السكان.

ومن المؤكد أن مذبحة العراق من أبشع الجرائم في تـاريخ البشـرية، ولكـن العـالم المتحضر اليوم وما يمارسه أصبح لا يختلف عما اقترفه المغول في العراق بل إن جرم أمريكـا في العراق اليوم أعظم وأشد لأنها تدين بدين سماوي من جهة ولأنها أكثر تحضراً من المغـول البدو الوثنيين، بل إن سياسة العقاب الجماعي التي تستخدمها أمريكا اليوم لهي أشد وأنكى، ومـا يزيدها جرماً أنها ترتكب باسم الديمقراطية والدفاع عن الحريات بل وتدعي أنها راعية حقـوق الإنسان. وعليه فإن كل من يتعاون مع مغول اليوم، سيكون جرمه أكبر وأشد وسيكتب التـاريخ ذلك، وربما يأتي مؤرخون في المستقبل يدافعون عنهم.

وسيسلط الباحث الضوء في الفصل الرابع على موقف المغـول مـن شـيعة العـراق، وموقفهم من مقدسات وأضرحة ومشاهد الشيعة بعد أن تم احتلال العراق وبُسِطت السيطرة عليه بمساعدة شيعة العراق.

(*) بالنظر إلى المصادر التي أوردت أعداد ضحايا المذبحة فهي تختلف زماناً ومكاناً فمنها في العراق ومنها في الشام ومنها في مصر وكذلك كل مصدر في زمن معين.

الفصل الرابع

علاقة الشيعة بالمحتل المغولي للعراق

المبحث الأول : موقف المغول من الأحياء والمقدسات الشيعية

المبحث الثاني: استخدام المغول للشيعة في حكم الأقاليم.

المبحث الأول

موقف المغول من الأحياء والمقدسات الشيعية

لقد أسفرت مذبحة بغداد عن قتل المغول جميع من قدروا عليهم من الرجـال والنسـاء والولدان والكهول والشبان، ولم ينج سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى والشيعة أتباع الوزير ابن العلقمي[١]، وبعد أن عاد جزء كبير من شيعة بغداد الذين تم إخراجهم قبيل ساعة الصفر من بدء المذبحة بواسطة النصير الطوسي[٢]، كانت الخطوة التالية وصولهم إلى بيوتهم آمنين، تحفهم الحراسة من كل جانب، وتم فرز أحد القادة ليتولى قيادة الجند المخصصـين لحراسـة بيـوتهم ومناطقهم، فهو المسئول عن تأمين الحياة لشيعة العراق في الحلة والكرخ، والكوفـة، ومنطقـة النيل والمشهدين[٣]، ويبدو أن أحياء الشيعة بعد هذا الإجراء أصبحت آمنه أثناء تحركات جـيش المغول في المدينة بعد إتمام عملية الاستباحة، ويبدو أن الأولوية في هذه المرحلة هي صـياغة نظام سياسي جديد في العراق، لذلك وضعت ترتيبات أمنية وإدارية مؤقتة حتى تستتب الأمـور، وتبدأ عملية توزيع الحصص والحقائب الوزارية على المخلصين من الأتباع.

ويروى الهمذاني أن المغول بعد فراغهم من بغداد والقضاء على كل من فيها انحـدروا إلى منطقة الحلة والكوفة، لأنهم اطمأنوا إلى تأييد وولاء سكان هذه المناطق الشيعية لهم، حيـث قدموا المساعدة وأمنوا عتادهم واستقبلوهم استقبال الفاتحين و "أقاموا الأفراح ابتهاجاً بقدومهم"[٤]، ثم رحل المغول إلى مدينة واسط التي نفذوا فيها مذبحة مروعة تشبه مذبحة بغداد وراح ضحيتها أربعون ألف مسلم سني كما أسلفنا[٥]، وتم بعد ذلك إرسال قـوات عسـكرية لمدينـة النجـف لحراستها وتأمين حياة الشيعة بها[٦].

ويذكر ابن العبري أن المغول اعتمدوا كنيسة السوق الثالث للنصـارى كمكـان آمـن لحمايتهم بها، فقد جمع الجاثليق فيها جميع النصارى فلم يصابوا بأذى، ولقد حاول كثيـر مـن أغنياء المسلمين الذهاب إلى هذه الكنيسة والنجاة بحياتهم ولكن محاولاتهم فشلت فيبدو أن هنـاك عيون للمغول في كل مكان، ويعرفون تصنيفات سكان البلاد جيداً ويميـزون بـين النصـراني والسني والشيعي، فلم تذكر الروايات التاريخية نجاة أحد من أهل السنة أو أحيائهم، حيث ذكرت الروايات أنه لم يسلم غير أهل الذمة والشيعة وبعض كبار التجار الأغراب الذين لهـم علاقـات مسبقة مع أمراء المغول ومن هو شارد الذهن من المسلمين السنة[٧]، ويبدو أن المغـول كـانوا

---

(1)الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ٢٣٥؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٠١، ٢٠٢.

(2) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص ٢٨٩.

(3) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ٢٣٧.

(4) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص ٢٩٦.

(5) المصدر نفسه، ج٢، مج٢ ص ٢٩٦؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٤٥.

(6) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٩٦.

(7)الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ٢٣٥؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٠١.

حريصين على عمليات التجارة التي توفر لهم كل ما يحتاجون إليه من متاع الدنيا والكماليات من السلع، حيث استبقوا طبقة التجار الذين كانوا يتاجرون مع بلاد خراسان ويقومون بدور التبـادل التجاري بين الشرق والغرب.

ولا يستهجن هذا الإجراء من المغول، خاصة أن المغول قوم محاربون أشداء، ولكـنهم لا يتقنون فنون التجارة، فهم بحاجة ماسة للتجار في بلادهم، كذلك نذكر أن جنكيز خان خـاض حرباً ضروساً ضد الدولة الخوارزمية كان سببها قتل مجموعة من التجار[*]، والباحث يطـرح احتمالاً آخر لاستبقاء طبقة التجار الأغراب دون قتلهم وهذا الاحتمال هو أن بعض هؤلاء التجار كانوا يعملون لصالح المغول في العراق، ويقومون بعمل استخباري لصالحهم، إضافة إلى أنهـم ينقلون إلى بلادنهم أخبار انتصارات المغول وجبروتهم، فينشرون الخوف والرعـب ويمهـدون لمزيد من التوسع والاحتلال.

على أية حال قام المغول بتعيين نقيب على الشيعة في العراق وهو أحد قياداتهم ويـدعى مجد الدين بن طاوس العلوي، ويبدو أن علاقاته وثيقة بالمغول إذ كان ضـمن العمـلاء الـذين يقومون بالاتصال بهولاكو[١]، ووضعت الحراسات على ثلاثة دور لقادة الشيعة في بغداد كانـت ملجئ لبعض الشيعة أثناء سير العمليات العسكرية، وهي دار الوزير ابن العلقمي ودار صـاحب الديوان ابن الدامغاني، ودار صاحب الباب ابن الدوامي وما عدا المناطق التي حـددت للقـوات العسكرية وفرق التدمير، فقد استبيح كل مكان[٢]،

ويعلق مؤرخ أجنبي على حماية المغول للأحياء الشيعية في العراق وعلى تكالب الشيعة على موالاة الاحتلال فيقول: "وقد اختار الشيعة نقيب الأشراف ليكون ممثلاً لهم ولمصالحهم أمام السلطات"[٣]، ويبدو أنه اعتراف سريع بالحكومة الجديدة والكيان الجديد الذي تم إقامتـه علـى أنقاض دولة الخلافة الإسلامية.

ويورد أحد المؤرخين المحدثين أن مؤرخي الشيعة يعترفون بسلامة مناطقهم من الغـزو المغولي وأنها لم تصب بأذى حيث يذكر أن محمد جواد مغنية وهو مؤرخ شيعي معاصر ذكـر أن من أسباب استعادة الأدب والفن العراقي دوره هو سلامة الحلة من سيوف المغول الماحقـة حيث أنجبت الكثير من الشعراء والأدباء، ويعلق المؤرخ على كلام مغنية أنـه بـالغ فـي دور منطقة الحلة في ذلك[٤]، ويبدو أن هذا اعتراف صريح من مؤرخي الشيعة بسلامة أحيائهم مـن الغزو المغولي للعراق وهذا رد صريح على المؤرخ عبد الفتاح بدوي الذي يستبعد خيانة أهـل

(*) أنظر: الفصل الأول، الأحوال السياسية.
(1) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٢٣٧.
(2) المصدر نفسه، ص٢٣٥؛ العيني: عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص ١٧٤.
(3) شبولر: العالم الإسلامي في العصر المغولي، ص٤٧.
(4) الزبيدي: حضارة العراق، ص١٤٩.

الحلة[١]، كما ويبدو أن شيعة العراق أعماهم التعصب المذهبي فزين لهم تفضيل الوثني الكـافر على من يخالف مذهبهم من أهل دينهم[٢]، فلقد كان الهدف هو الانتقام من العباسـيين السـنة[٣]، ويذكر الهمذاني أن هولاكو أثناء قدومه إلى بغداد كان يحيط به مجموعة من المستشارين الشيعة مثل الطوسي والأمير عطا ملك الجويني والوزير سيف الدين البيتكجي وهو يعد وزير هولاكـو ومدير أمور مملكته، وبعد أن فرغ هولاكو من حملته على بغداد طلب الأمير مـن هولاكـو أن يصدر أمراً ويرسل قوات عسكرية مغولية إلى منطقة النجف ليتم المحافظة على السكان الشيعة هناك وبالفعل أرسلت القوات إلى أحياء الشيعة[٤].

ويبدو أن بغداد أصبحت بيئة جاذبة للشيعة من كل مكان حيث يذكر مؤرخوهم أن كثيراً من علمائهم بدأوا يفدون إلى العراق، كما بدأ الشيعة يقدمون من باقي مناطقهم في العراق للإقامة في بغداد وتولي مناصب مرموقة في الكيان الجديد[٥].

ومن المرجح أن العراق وخاصة بغداد لم تعد بيئة مشجعة للإقامة بالنسبة لأهل السـنة الذين بدأوا يتعرضون لظلم وتسلط الشيعة فضلاً عن المغول[٦]، فقد تحدث ابـن بطوطـة عـن زيارته لبغداد في سنة (٧٢٧هـ =١٣٢٧م) وأورد شعراً لإمامها القاضي أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر، يتحدث فيه عن أن بغداد قد غدت مدينة للقلة الغنية، وأن الشعب والعامة قـد أصبحوا فيها غرباء، كأنهم مصحف في بيت زنديق، إذ يقول:

بغداد دار لأهل المال واسعـة ... وللصعاليك دار الضنك والضيق

ظللت أمشي مضاعاً في أزقتها ... كأنني مصحف في بيت زنديق![٧].

ولقد احتفظ المغول ببعض المؤسسات والقصور في بغداد، بل قاموا بترميمهـا بعـد أن أحرقوا أجزاء منها، فقد وزعت دور الخلفاء والأمراء على كبار النصارى والمـوالين للكيـان الجديد، وتم الاستفادة من بعضها كمقرات للدولة.[٨]

ويرى بعض الباحثين المعاصرين في تفسير ترك المغول بعض الأنظمـة القديمـة، "أن تلك الأقوام الغازية لم تكن تمتلك أساساً إدراكاً لمقومات البناء ... لذلك لم يكـن أمـام حكامهـا سوى الإبقاء على الأنظمة السابقة والمحافظة عليها"[٩]، وربما هذا ينقض احتجاج حسن الأمـين ببعض النصوص التي أوردها بعض المؤرخين عن بقاء بعض الأنظمة سارية كما هي منذ دولة

(1) تاريخ المذهب السني، ص٣٢٤.
(2) براون: تاريخ الأدب في إيران، ص٥٨٨.
(3) الششتري: مجالس المؤمنين، ص٤٠٠.
(4) جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٣١٠.
(5) الطهراني: الأنوار الساطعة، ج١، ص١١٦.
(6) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٨، ص ٢٧٣.
(7) رحلة ابن بطوطة، ج١، ص١٤٥.
(8) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٨، ص ٢٧٣.
(9) نخبة من الباحثين العراقيين، حضارة العراق، ج١٠، ص٧٢.

الخلافة، فقد احتج الأمين بذلك على أن المغول لم يخربوا البلاد، والنص الذي احتج بـه أورده القلقشندي وهو: "وأوقافها جارية في مجاريها لم تعترض أيدي العدوان في دولة هولاكو ولا فيما بعدها بل كان وقف مستمر بيد متوليه ومن له الولاية عليه، وإنما نقضت من سوء ولاة أمورها لا من سواها"[١]، ويرى الباحث أن الأمين كان يجب عليه أن يذكر أن ذيل النص يُحَمِّلْ التخريب للولاة، وهم من قوم الطوسي وابن العلقمي الذين عينهم المغول [٢].

ويبدو أن شيعة العراق كانوا يعيشون نشوة الانتصار، بعد تخلصهم مـن السـنة الـذين يفترض أنهم إخوانهم في الدين.

إذ أنه وبعد انتهاء هولاكو من عملياته العسكرية في بغداد و تعيين نقيب لهم، و تعيـين حراسات على مناطقهم وأحيائهم، قامت وفود الشيعة بزيارات متتالية إلى مركز قيادة الاحـتلال حيث يوجد هولاكو، وتقدموا له بالهدايا العظيمة[٣]، ويبدو المشهد واضحاً، وكأن هـذه الوفـود تهنئ نفسها وتهنئ المحتل الجديد بالنصر والفتح وتجدد البيعة والعهد معهـم، ويعتـرف أحـد مؤرخي الشيعة أن الفضل يعود لابن العلقمي ودهائه في تخفيف الدمار عن بغداد[٤].

وها هو التاريخ يعيد نفسه ويتكرر المشهد عينه في العراق حيث رأى العالم كله علـى شاشات التلفزة قادة الشيعة وجماهيرهم وهم يرحبون بجنود الاحتلال ويعانقونهم ويتحالفون معهم على إبادة أهل السنة في العراق وتدمير حضارته وآثاره ومكتباته وعلمائه، بعـد أن شـجعوهم على غزوه وكانوا لهم عيوناً وسيوفاً، ولا غرابة في أن يكون لابن العلقمي الفضل في نجاة كثير من المناطق الشيعية في العراق، بل إن الفضل يعود لكل شيعي شارك مع قوات الاحتلال فـي احتلال بلده وتسهيل العمليات العسكرية فيه ضد إخوانه المسلمين، إذ يقول الشيعة أنه لولا هـذه الجهود "لما اختلف مصير بغداد عن مصير تيسفون التي انقطع عنا جـل أخبارهـا"[٥]، إنهـم يبررون موقفهم ويعدون الخيانة حكمة ودهاء وحسن تصرف[٦].

فمن المرجح أن شيعة العراق في هذا المقام قد أخطأوا التقدير وانحرفوا عن الجادة فهم يعـدون نجاتهم إنجازاً عظيماً لهم، على حساب دماء باقي المسلمين في العراق ودافعهم هـو التعصـب المذهبي، والتفوق على إخوانهم السنة، ولقد عبر عن ذلك شبولر عندما قال: "وهكذا بدءوا يبنون لأنفسهم تنظيماً خاصاً، وينشطون في نشر عقيدتهم بين أهل السنة الذين كانوا يتفوقـون علـيهم عددياً"[٧]، وفي الوقت نفسه يعارض الباحث ما ساقه شبولر من مبرر لنجاة الشيعة حيث يقـول:

---

(1) صبح الأعشى: ج٤، ص٣٥٠.
(2) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ٣٣٥.
(3) الطهراني: الأنوار الساطعة، ج١، ص١٥٢.
(4) المصدر نفسه، ج١، ص١٥٢.
(5) المصدر نفسه، ج١، ص١٥٢
(6) المصدر نفسه، ج١، ص١٥٢
(7) شبولر: العالم الإسلامي في العصر المغولي، ص٦٥.

"ولم يتعرض المغول لكل من المسيحيين والشيعة الذين كان نصير الدين الطوسي يتكلم باسمهم ويدافع عنهم"[1].

ويرى الباحث أن الطوسي هو صاحب فضل في تنسيق الجهود والخطوات بين المغول والشيعة في العراق، ولكن نجاة الشيعة لم تكن تحتاج إلى وساطة عند المغول، فلقد كانوا جزءاً من جيش المغول، فضلاً عن الخدمات الجليلة التي قدموها له قبل وأثناء عمليات الاحتلال، ومن المرجح أن المغول ما زالوا بحاجة لهم حتى بعد إتمام عمليات الاحتلال لتسهيل كثير من مهمات الحكم وإدارة البلاد لا سيما أن المحتل الجديد لا يتمتع بكثير من مهارات الإدارة والحكم، ولكن الباحث لا يستغرب انقلاب المغول على الشيعة في المستقبل القريب خاصة بعد تمكنهم من البلاد، إذ أن تقريبهم للشيعة متوقف على مدى حاجتهم إليهم، ومدى نجاح المغول في حكم البلاد.

ويبدو أن المؤسسات الدينية والمقدسات في العراق خضعت لسياسة ممنهجة تقوم على سحق مقدسات ومؤسسات المسلمين السنة، وفي الوقت نفسه تعزيز وتقوية وزيادة ورعاية مقدسات ومؤسسات الشيعة، فمنذ بداية اجتياح قوات المغول للعراق وتمكنها من البلاد، تم إحراق جميع المؤسسات والمقدسات الدينية لأهل السنة مثل جامع الخليفة[2]، حيث يروى الهمذاني أنه تم إحراق أكثر الأماكن المقدسة، حتى قبور الخلفاء أحرقت، ودمرت المؤسسات الدينية للمسلمين وأتلف ما بها من ممتلكات ومقتنيات ووثائق وكتب قيمة[3]، ودمرت المساجد والجوامع والربط والمدارس[4]، ونبشت قبور الخلفاء وأحرقت وبرزت العظام والجماجم، ودمرت الرصافة التي يعتز بها المسلمون السنة، فقد احتضنت هذه المنطقة قبور رموز وعلماء وخلفاء المسلمين، وأورد الفوطي شعراً في ذلك

"استبيح الحريم إذ قتل الأحياء   منهم وأحرق الأموات"[5].

كما تم القضاء على جميع الكوادر السنية في البلاد، من علماء، وحفظة قرآن، ومدرسين وفقهاء، وخطباء[6]، كما تعرضت المقدسات والمؤسسات الإسلامية السنية إلى النهب والسلب من قبل جنود المغول وكذلك من الشيعة الذين كانوا آمنين على أنفسهم في البلاد يصولون ويجولون، كما ابتز شيعة العراق إخوانهم السنة وحصلوا منهم على معظم نفائس التراث الإسلامي[7].

(1) شبولر: العالم الإسلامي في العصر المغولي ، ص٤٧.
(2) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ٢٣٥؛ الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٩٢.
(3) جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٩٢.
(4) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٠١.
(5) الحوادث الجامعة، ص٢٤.
(6) المصدر نفسه، ص ٢٣٥؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٠٣.
(7) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ٢٣٧.

ويبدو أن الوقت أصبح ملائماً لحكام العراق من الشيعة الذين عينهم الاحتلال بعد انتهاء العمليات بأن يصدروا أمراً بتعطيل المساجد والمدارس والمؤسسات الدينية والـ ربط، وألا تقـام صلاة الجمعة في البلاد[١]، ويصف السبكي حال العراق بعد الاحتلال فيقول: "وأريقت الخمـور في المساجد والجوامع ومنع المسلمون من الإعلان بالأذان"[٢]، ويعلق على ذلك قائلاً: "هذه بغداد لم تكن دار كفر قط، جرى عليها هذا الذي لم يقع منذ قامت الدنيا"[٣]، ويبدو أن السـبكي كـان متأثراً جداً بما يحدث في العراق، التي أصبحت في نظره دار كفر، أثنـاء حكـم الشـيعة لهـا بتفويض من المغول .

لكن المشهد على الجانب الآخر كان مختلفاً إذ يروى المؤرخون أن مقدسـات الشـيعة ومؤسساتهم سلمت من أي اعتداء، بل أرسلت قوات مغولية لحراستها، حيث تم إرسال قوات إلى النجف لحراسة مشهد أمير المؤمنين على رضي ا عنه[٤]، وأما ما يرويه الهمذاني أن مشـهد موسى الجواد قد طالته النيران[٥]، فمن المرجح أن هذا المشهد لم يكن مقصوداً بـالحرق بـدليل تأمين المغول للشيعة في العراق وحراسة المغول لهم ولبيوتهم ولمقدساتهم ولكن وصول النيران إلى مشهد موسى الجواد ناتجة عن شدة النيران في البلاد، كذلك بسبب مجـاورة هـذا المشـهد لمسجد أبي يوسف صاحب أبي حنيفة وصاحب كتاب الخراج الذي لم يسلم من الحرق فيما يبدو لوجوده في حي الكاظمية الشيعي[٦]. ومما يدعم ما ذهب إليه الباحث أن الهمذاني لم يـذكر أي حادثة حرق أو اعتداء على مقدسات وأضرحة الشيعة أو مساجدهم، بـل نجـده يـذكر حمايـة مقدساتهم بقوات عسكرية مغولية بأمر من القيادة العليا للمغول[٧].

كما تم الحفاظ على جميع المقدسات الشيعية في الحلة[٨]، والكوفة، والنجـف والنيـل[٩]، وفي الوقت الذي تعطلت فيه جميع مؤسسات أهل السنة في العراق وتوقفت عن العمل بقرار من حكام العراق الجدد بعد قتل العلماء والخطباء والحفظة وجميع الكوادر الدينيـة وهـدم وتـدمير المؤسسات، كانت مدارس ومساجد الشيعة تعمل بوتيرة أقوى من السابق، وتنشـط فـي نشـر المذهب الشيعي في البلاد[١٠].

(1) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢١٣؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص ١٨٣؛ العيني: عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص١٧٥.
(2) طبقات الشافعية الكبرى، ج٨، ص٢٧٣.
(3) المصدر نفسه، ج٨، ص٢٧٣.
(4) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص ٢٩٦.
(5) المصدر نفسه، ج٢، مج٢ ص٢٩٢.
(6) الحوادث الجامعة، ص٢٣٥.
(7) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٩٦.
(8) ابن العبري: مختصر الدول، ص٢٣٧؛ الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ٢٣٧.
(9) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ٢٣٧؛ الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص ٢٩٦.
(10) العيني: عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص ١٧٤.

ويعلق شبولر على ذلك بوصفهم أنهم استغلوا هذه الظروف في العمل على نشر أفكارهم في العراق[1]، كما صدرت الأوامر من حكام العراق الشيعة بالبدء بحركة عمرانية لبناء مدارس للشيعة، حيث كانت من النوع غير المعتاد، حيث وصفها المؤرخون بأنها هائلة وذلك بهدف نشر المذهب الشيعي وتخريج كوادر جديدة تحمل مبادئ هذا المذهب[٢]، ولقد فسـر ابـن كثيـر أن الهدف من هذه الخطوات هو إزالة المذهب السني كلياً، وإظهار المذهب الشيعي، بحيث لا يبقى في البلاد مذهب معترف به من الحكومة غيره، وذلك تمهيداً لإقامة خلافة شيعية، وهذا يتطلـب إبادة "العلماء والمفتين"[٣].

ويبدو أن الواقع الجديد كان بحاجة لكثير من الطاقات الشيعية والعقليات والشخصـيات المحورية، فلذلك تم استقبال شخصيات وعلماء شيعية، دخلت بغداد، بعد أن رحلت عنها زمـن الحكم العباسي، إذ يروي المؤرخ الشيعي الطهراني أن العالم الشيعي "على بن موسى بن جعفـر الداودي" المولود بالحلة والذي كان يقيم في بغداد أيام العباسيين ثم رحل عنها، عاد إليها في عهد المغول، وتولى نقابة الطالبيين "من قبل نصير الدين الطوسي عن هولاكو ثلاث سنين وأحد عشر شهراً مع امتناعه عن ذلك في عهد المستنصر العباسي"[٤]، حيث كانت علاقته حميمة مع الوزير ابن العلقمي وولده عز الدين أبي الفضل[5]، وفي مقابل عودة علماء الشيعة إلى العراق وتـوليهم المناصب المهمة وعملهم الدءوب على نشر مذهبهم كان العلماء السنة النـاجون مـن سـيوف المغول وعملاءهم يهجرون البلاد إلى مصر وغيرها[٦].

وكانت العراق تشهد زيارات وجولات لنصير الدين الطوسي، وزير الأوقاف في دولـة هولاكو، حيث كان يتفقد أحوال شيعة العراق ومقدساتهم ومشاهدهم، وأضرحتهم، حيث قام بجمع كميات كبيرة من الكتب وأخذها إلى المرصد الذي بناه في مراغة[٧]، ويبدو أن جولات الطوسي في البلاد كانت تهدف إلى إفراغ المدارس السنية من باقي الكتب التي نجت من الحرق أو الغرق أو الابتزاز، خاصة وأن جولته شملت بالإضافة إلى بغداد مدناً أخرى مثـل واسـط والبصـرة وغيرها[٨]، ومن الواضح أن جولاته في مدن العراق كانت تعزز مكانة الشـيعة فـي العـراق

(1) شبولر: العالم الإسلامي، ص٦٥.
(2) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٠٢؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص ١٨٣؛ العيني: عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص ١٧٤-١٧٥.
(3) البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٠٢.
(4) الأنوار الساطعة، ج١، ص١١٦.
(5) المصدر نفسه، ج١، ص١١٦.
(6) العيني: عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص٢٩٥.
(7) المصدر نفسه، ص٣٨٧.
(8) المصدر نفسه، ص٣٨٧.

خاصة وأن الطوسي يعد المفكر والمدبر الأول لهولاكو في شئون مملكته فضلاً عن أنه من كبار رجالات دولة المغول[1].

ويؤكد الباحث الشيعي حسن الأمين حماية المغول للمؤسسات الإسلامية السنية، ويستدل بأن ابن بطوطة وصف المدرسة المستنصرية عندما زار العراق عام (٧٢٧هـ=١٣٢٦م)[2]، ومن المؤكد أن رأي الأمين لا يصمد أمام النقد العلمي التاريخي، خاصة أن المؤرخين أوردوا أن المغول قاموا بالإبقاء على بعض المؤسسات في العراق للاستفادة منها لتكون مباني حكومية يتم إدارة البلاد من خلالها، ووزعت بعض المباني على الحكام الجدد للبلاد[3]، كما أن ابن بطوطة وصف بناء المدرسة المستنصرية ولم يتحدث عن الدراسة فيها وأنها ما زالت تعمل وتخرج العلماء مثلما كانت من قبل[4].

فمن المرجح أن المغول قد أبقوا بعض المباني للاستفادة منها ولم يدمروها تدميراً كاملاً بحيث يتم تسويتها مع الأرض، يؤكد ذلك رواية ابن خلدون حيث ذكر أن هولاكو عزم بعد سيطرته على العراق تدمير مباني بغداد وحرقها تماماً ولكن كبار قادته نصحوه بالإبقاء على ما تبقى من هذه المباني للاستفادة منها[5]، ويبدو أن المباني المميزة هي التي اهتم المغول برعايتها وإعادة ترميمها لتكون قاعدة أساسية لإدارة البلاد، أما باقي مباني المدينة فقد دُمرت وخُرِّبَت، حيث لاحظ رنسيمان أن بغداد بعد أربعين سنة لم تعد سوى مدينة لا تتجاوز عشر حجمها السابق[6]، حيث وصف أحد المؤرخين أحوال العراق بعد ثلاث سنوات من الاحتلال أي في عام (٦٥٩هـ=١٢٦٠م) بقوله: "استهلت هذه السنة ... وليس للمسلمين خليفة، وبغداد خراب، وبلادها غير آمنة تحت ظلم وجور"[7]، حيث كانت العراق تحت حكم الشيعة التابعين للاحتلال[8]، فمن المرجح أن هناك مبانٍ معينة تم ترميمها واستصلاحها وليس كما ظن بروكلمان بأن أغلب المدينة لم تخرب[9]، وهذا ما أكده رنسيمان[10].

ويروي المؤرخون أن علماء العراق السنة في عهد الاحتلال عاشوا تحت رقابة كبيرة على تحركاتهم وكلماتهم. وأحياناً يقوم بعض الشيعة بالوشاية على بعض العلماء، فيتم اعتقاله لدار

(1) الرازي: محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين، ص١٨؛ العيني: عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص١٧٣.
(2) الأمين: الاسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي، ص ٥٠.
(3) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٨، ص ٢٧٣.
(4) ابن بطوطة: الرحلة، ص١٤٣-١٤٦.
(5) تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص٦١٢؛ العيني: عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص ١٧٦.
(6) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص٥٢٢.
(7) العيني: عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص٢٨٧.
(8) المصدر نفسه، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص٢٨٧.
(9) تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٢٩٠.
(10) تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص٥٢٢.

الوزارة، حيث يتم ضربه ضرباً مبرحاً يؤدي إلى موته فيما بعد[1]، ويرى شبولر أن من نتـائج الغزو المغولي للعراق انتشار المذهب الشيعي في المنطقة[2]، ويرى هذا المؤرخ في كتاب آخر أن الغزو المغولي واعتناق بعض الإيلخانات المغول للمذهب الشيعي أدى إلى اضطهاد المسلمين السنة وتحسين أحوال النصارى، وكذلك تمتع الشيعة بحرية الدعوة لمذهبهم، وساءت علاقـاتهم مع مصر[3].

(1) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص٣١٠.
(2) العالم الإسلامي، ص٥٨.
(3) المغول في التاريخ، ص٨٦، ٨٨.

المبحث الثاني

استخدام المغول للشيعة في حكم الأقاليم

وبعد أن انتهى المغول من إخضاع العراق والسيطرة عليه، قام هولاكو بعقد اجتماع عاجل مع فريق من كبار قيادات الشيعة في العراق، وتقرر في هذا الاجتماع منح إدارة البلاد لفريق من الشيعة كحكام للبلاد تحت سلطة المغول[١]، وتم توزيع عدد من المناصب الرئيسة على هؤلاء فقد كلف الوزير مؤيد الدين ابن العلقمي بالوزارة، وفخر الدين الدامغاني صاحب الديوان وعلى بهادر شحنة[٢].

وهناك شخصيات أخرى حصلت على مناصب عالية في دولة الاحتلال مثل نجم الدين أحمد بن عمران، حيث يروي الفوطي أنه كان زمن الخليفة عاملاً وليس له أي منصب يذكر، ولكنه أثناء عمليات الاحتلال وبعد الاحتلال حضر بين يدي هولاكو وقدم له معلومات مهمة "وأنهى إليه من حال العراق ما أوجب تقديمه وتشريفه وتعيينه في الأعمال الشرقية"[٣]، حيث كان أحد أعضاء اللجنة المخولة بإدارة شئون العراق بعد الاحتلال[٤]، كذلك ابن الدرنوس[٥]، وشرف الدين العلوي المعروف بالطويل، وهناك بعض الشخصيات كانت تعمل في الحكومة في عهد الخليفة وتم إسناد مناصب رفيعة لها في حكومة الاحتلال، ويبدو أن هذه الشخصيات قدمت خدمات جليلة للاحتلال أثناء الغزو وقبله لذلك تم الحفاظ على حياتها وإسناد مناصب رفيعة لها، حيث يذكر الفوطي أن تاج الدين علي بن الدوامي الذي كان حاجب الباب أيام الخليفة، وكان مرافقا للوزير ابن العلقمي أثناء مقابلاته لهولاكو أثناء عمليات الحصار وبعد الاحتلال عين صدراً للأعمال الفراتية وبعد وفاته كلف ابنه بالمنصب نفسه، أما نظام الدين عبد المنعم البندنيجي، الذي كان أيام الخليفة قاضي القضاة، فقد تم الحفاظ على حياته أثناء المذبحة، وأسند إليه المنصب نفسه حيث كان له عدد من اللقاءات مع هولاكو بعد الاحتلال[٦].

ويرى الباحث أن الفريق الذي أوكل بإدارة العراق تم اختيارهم بإمعان، فمن المرجح أنهم قدموا خدمات عظيمة للمحتل وأنه يكافئهم بهذه المناصب، وتم فرز اثنين من كبار قادة المغول لمتابعة حكام الأقاليم من الشيعة. وكان برفقتهم ثلاثة آلاف من فرسان المغول "ليعملوا على استتباب الأمن"[٧]، وكان للقيادة المغولية مكان خاص بها تقيم به يسمى الدركاه حيث كان

---

(1) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ٢٣٨؛ ابن العبري: مختصر الدول، ص٢٣٧.
(2) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص ٢٩٥؛ الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ٢٣٨؛ العيني: عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص ١٧٦.
(3) الحوادث الجامعة، ص ٢٣٨.
(4) المصدر نفسه، ص ٢٣٨.
(5) ابن العبري: مختصر الدول، ص٢٣٧.
(6) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ٢٣٨.
(7) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص ٢٩٥.

الحكام يأتون إليه "لتلقي التعليمات"[(١)]، ثم يعودون إلى أعمالهم[(٢)]، ويبدو أن العـراق أصـبحت مهيأة لحكم هذا الفريق، خاصة بعد قضاء المغول على معظم الشخصيات المحورية السنية فـي البلاد، والقضاء على معظم رجالات الحكم والإدارة السابقين، فالمغول مطمئنون إلى عدم حدوث ثورات ضدهم، فبعد أن جاءوا بجيش يقدر بـ ٢٠٠ ألف جندي لاحتلال العراق، يتركون اليوم فقط ثلاثة آلاف فارس "ليعملوا على استتباب الأمن"[(٣)]، وتجهيز المقرات والمؤسسات الحكوميـة لتكون صالحة لاستخدام حكام العراق الجدد[(٤)]، لقد قسم حكام العراق البلاد إلى خمـس منـاطق إدارية وضعوا على رأس كل منها موظفاً باسم صدر، كما قاموا بإلغاء وظائف قديمة وعينوا في بغداد نائب شرطة وخازن ديوان وصدر وقوف[(*)]، وهذه الوظائف كانت زمن الحكم العباسي[(٥)]. وهكذا فإن معظم المناصب المهمة أصبحت من نصيب الشيعة الذين قدموا خدمات للمحتل، فقـد تم اختيار أحد كبار الشيعة ليكون نائباً للشرطة وهو عز الدين بن الموسوي العلوي، كذلك أوكل منصب كاتب السلة، لعز الدين بن أبي الحديد[(٦)]، الذي كان شاعراً أديباً شيعياً، بل كان الكاتـب الخاص لابن العلقمي وبمثابة الجهاز الإعلامي للشيعة، فقد كان مقرباً من ابـن العلقمـي ومـن الشخصيات المساندة للغزو المغولي "وكان حظياً عند الوزير ابن العلقمي لما بينهما من المناسبة والمهاربة والمشابهة في التشيع"[(٧)]، وبعد وفاة ابن أبي الحديد وضع مكانه أحد النصاري وهـو ابن الجمل النصراني[(٨)].

كما امتدت سيطرة الحكام الشيعة وعملاء المغول إلى المساجد، حيث قاموا بترتيب أئمة المساجد وأشرفوا على تعيينهم واختيارهم حسب مواصفات خاصة[(٩)]، ويظهـر مـن روايـات المؤرخين أن الوزير ابن العلقمي كان قد أعد برنامجاً خاصاً للتعامل مع المسـاجد والمـدارس والربط التي كانت تابعة للسنة، ففي المرحلة الأولى كان قد تخلص مـن أغلـب كـوادر هـذه المؤسسات بالقتل أثناء الحصار ثم خلال المذبحة، وبعد ذلك تم تعطيل هذه المؤسسات بقرار من ابن العلقمي، ويروي السبكي ذلك بقوله: "وأريقت الخمور فـي المسـاجد والجوامـع، ومنـع المسلمون من الإعلان بالأذان فلا حول ولا قوة إلا با العلي العظيم"[(١٠)]، وفي الوقـت نفسـه

(1) الهمذاني: جامع التواريخ ، ج٢، مج٢ ص٢٩٥.
(2) المصدر نفسه، ج٢، مج٢ ص٢٩٥.
(3) المصدر نفسه ، ج٢، مج٢ ص ٢٩٥.
(4) المصدر نفسه ، ج٢، مج٢ ص ٢٩٥.
(*) لم يجد الباحث لها تعريف في كتب المعاجم.
(5) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ٣٣٢-٣٣٣.
(6) المصدر نفسه، ص٢٣٨؛ الطهراني: الأنوار الساطعة، ج١، ص٨٨.
(7) العيني: عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص ١٩٤.
(8) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ٢٣٨.
(9) المصدر نفسه، ص٢٣٧-٢٣٩.
(10) طبقات الشافعية الكبرى، ج٨، ص٢٧٣.

كانت مساجد ومدارس الشيعة تعمل بوتيرة أقوى من السابق وبدأوا في بناء مـدارس عظيمـة البناء لنشر المذهب الشيعي[1].

أما المرحلة الأخيرة من الخطة وهي الإشراف المباشر من قبل حكام العـراق الشـيعة على المساجد والمدارس والربط في العراق وتعيين خطباء وأئمة ومدرسين يتمتعون بمواصفات خاصة ترضي قيادات السلطة الجديدة والمحتل[2]، ويبدو أن شيعة العراق كانوا يؤسسون لمرحلة جديدة، يكون فيها المذهب الشيعي هو الغالب في المنطقة على حساب إخوانهم السنة، وقد عبـر عن ذلك أحد المؤرخين الأجانب[3]، بل يعتقد شبولر أن من نتائج الغزو المغولي للعراق انتشار المذهب الشيعي في المنطقة[4]، حيث أدى اعتناق بعض أيلخانات إيران المذهب الشـيعي إلـى اضطهاد السنة وتمتع الشيعة بالحرية، وحرية التبشير لمذهبهم[5]، ويؤيد ما ذهب إليه شبولر أحد المؤرخين العرب[6]، ولقد سكن حكام العراق في بيوت وقصور كبار رجال الدولة العباسية فـي بغداد الذين قتلوا على يد الاحتلال المغولي، حيث أعطيت دار الخليفة لشخص من النصارى[7]، كذلك قام جاثليق النصارى بطلب السكن في دار علاء الدين الطبرسـي المعـروف بالدويـدار الكبير، هذه الدار التي تقع على شاطئ دجلة[8]، فسكنها ودق الناقوس على أعلاهـا، واسـتولى على دار الفلك التي كانت رباطاً للنساء تجاه هذه الدار، وعلى أربطة أخرى مجاورة لها، وتـم إزالة الكتابة العربية التي على الأبواب وكتب بدلاً منها بالسريانية، وحدث ذلك في كثيـر مـن المباني الأخرى[9]، ويبدو أن العراق تعرضت لحملة طمس للتراث العربي الإسلامي فمسـحت اللغة العربية عن المباني واستبدلت بالسريانية، كما تعرض شهداء مجزرة العراق إلـى حملـة تشويه إعلامي، وربما هذا هو ما دفع ابنة أبي العباسي أحمد بن الخليفة المستعصم عند زواجها من أحد أبناء الأمراء من آل الجويني أن تشترط عليه شرطين في عقد الزواج أولاً ألا يشـرب الخمر وثانياً أن يكتب في عقد الزواج أن أباها وجدها شهداء[10].

تولى الشيعة إدارة العراق من خلال حكام يتلقون أوامرهم المباشرة من القيادة المغوليـة الذين يعملون لصالحها حيث تم اعتماد مكان جديد للقيادة المغولية في العراق يسـمى الأردو أي مخيم الملك، وكان الحكام يتسابقون لرفع التقارير والمعلومات عن زملائهم، حيث كانت سياسـة

---

(1) العيني: عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص ١٧٣.
(2) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ٢٣٨.
(3) شبولر: المغول في التاريخ، ص٢٤٣.
(4) العالم الإسلامي، ص٥٨.
(5) شبولر: المغول في التاريخ، ص٨٦.
(6) محاسنة: دراسات في التاريخ الإسلامي، ص١٢٢.
(7) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٨، ص ٢٧٣.
(8) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ٢٣٨.
(9) المصدر نفسه، ص٢٣٨، ٣٢٩.
(10) المصدر نفسه، ص٢٦٣.

المغول تقضي بأن من يثبت بحقه تعاطفاً مع النظام السابق يتم قتله فوراً، ومـن تصـل عنـه معلومات أنه لا يطبق سياسة الاحتلال، يتعرض للقتل مثلما حدث مع صدر واسط والبصرة[١].

لقد كان هؤلاء الحكام يعملون ضمن منظومة المحتل الجديد، وربما كان لبعضهم آمـال وطموحات يعمل على تحقيقها، لكن المحتل صاحب السلطة العليا له أجندته الخاصة ومصالحه، ومن المرجح أن سياسته هي من تحكم الجميع، والغريب أن مؤرخي الشيعة المعاصرين يكيلون المدح والثناء لحكام العراق في العصر الإيلخاني أي عصر الاحتلال المغولي فيقول أحدهم: "وقد عهد هولاكو أمر تنظيم العراق وإدارته بعد الفتح إلى مسلمين يعرفون شؤونه ويعطفـون علـى أهله فعملوا على إعادة تعميره ونشر الاستقرار فيه"[٢]، ولا غرابة أن يسمي جعفـر خصـباك الشيعي الاحتلال المغولي للعراق وقتلهم مئات الألوف من المسلمين فتحاً لأنـه جـاء بمباركـة ومساعدة شيعة في جميع المجالات، والباحث يسأل خصباك أين الاستقرار الذي نشر في العراق والمؤرخون المعاصرون للأحداث يوردون أن العراق في تلك الحقبة شـهدت حركـة نـزوح وهجرة للسكان المسلمين إلـى مصـر[٣]، أيـن الاسـتقرار والعينـي يصـف بغـداد سـنة (٦٥٩هـ=١٢٦٠م) أي بعد ثلاث سنوات من الاحتلال فيقول: "استهلت هذه السنة ... وبغـداد خراب، وبلادها غير آمنة تحت ظلم وجور"[٤]. إنه استقرار يشبه استقرار عراق اليوم تحت حكم الشيعة والأمريكان الذي لم يمر عليه يوم منذ أن وقع في أيدي المحتلين وعملائهم دون أن يسقط فيه عشرات الضحايا من العراقيين، والذي صار أهله أفقر الناس بعد أن كانوا أغنياء ينعمـون بخيرات بلادهم الكثيرة.

ويعد بعض مؤرخي الشيعة أن العهد الإيلخاني هو عصر حكم العراقيين أنفسهم بأنفسهم، إذ كان حكامه عراقيون، ويدعي هؤلاء أن اختيار الحكام كان يتم على أساس الكفاءة والدين[٥].

إن ادعاءات مؤرخي الشيعة لا تصمد أمام النقد العلمي التاريخي، لأن الذي قام باختيار حكام الأقاليم للعراق هو هولاكو المحتل الوثني، باتفاق المؤرخين المعاصرين للأحداث[٦]، فهـل هولاكو كان يتحرى أن يكون الرجل ذو دين كي يسند له منصباً رفيعاً؟

لقد كان لهولاكو مستشارين كبار من الإيرانيين الشيعة مثل نصير الدين الطوسي وعلاء الدين عطا ملك الجوينى[٧]، وربما كان لهؤلاء المستشارين تأثيراً عند اختيار الشخصيات التـي

(1) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٢٤٣.
(2) خصباك: العراق في عهد الملوك الإيلخانيين، ص ١٤٣.
(3) العيني: عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص ٢٩٥.
(4) المصدر نفسه، ص٢٨٧.
(5) الأمين: الاسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي، ص ٢٨٨.
(6) ابن العبري: مختصر الدول، ص٢٣٧؛ الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ٢٣٨؛ الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص ٢٩٥.
(7) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص ٢٨٢؛ براون: تاريخ الأدب في إيران، ج٢، ص٢٨٣

سيتم الاعتماد عليها من قبل الاحتلال لإدارة العراق، حيث كان الطوسي وزيراً للأوقاف في إمبراطورية المغول في جميع البلاد التي تحت حكم المغول[1]، ويرى حسن الأمين أن الطوسي كان مقياسه في الاختيار هو "حب آل البيت"[2]، وربما يدعم ما ذهب إليه الأمين أن الطوسي قام بتكليف ابن أبي الحديد ببعض المهام بعد الاحتلال مباشرة[3]، حيث عرف عنه أنه شيعي متغال في التشيع و علاقاته وثيقة مع قادة الشيعة في العراق[4].

ويبدو أن المقياس كان عند اختيار حكام العراق في عهد الاحتلال هو مدى إخلاصهم للاحتلال وتقديمهم خدمات لهم قبل وأثناء الاحتلال للمغول، ويؤكد ما ذهب إليه الباحث رواية الفوطي المعاصر للأحداث التي تبين أن أحد الخدام في عصر الخليفة العباسي وهو نجم الدين أحمد بن عمران، أصبح في عهد الاحتلال صاحب منصبٍ رفيع، وأحد حكام الأقاليم، وذلك بسبب تقديمه خدمات ومعلومات عن أحوال العراق لهولاكو مما "أوجب تقديمه وتشريفه وتعيينه"[5].

أما ادعاء الأمين أن حكام العراق يحكمون أنفسهم بأنفسهم فهو ادعاء لا يصمد أمام روايات المؤرخين المعاصرين للأحداث أمثال الفوطي الذي أورد أن هؤلاء الحكام كانوا متابعين بصورة مباشرة من قيادة المغول التي كان لها مكان خاص بها، وتقوم باستلام التقارير من هؤلاء الموظفين الذين يسيرون أعمال الحكم في العراق، ومن يشذ عن سياسة الاحتلال يتم معاقبته إما بالقتل أو السجن أو العزل، كما أن بعض هؤلاء الحكام ليسوا عراقيين أمثال علي بهادر[6]، وأرى أنهم مجرد موظفين يطبقون أجندة الاحتلال وسياسته وصلاحياتهم محدودة، ولقد كان المغول بحاجة لهؤلاء الحكام بعد الاحتلال مباشرة ليكونوا حلقة الوصل بينه وبين الشعب وربما للاستفادة من معرفتهم لخبايا البلاد، فهذه سياسة المحتل حتى في العصر الحاضر.

ويرى بعض المؤرخين المحدثين أن مؤرخي العصر الإيلخاني بالغوا في مدح حكام هذا العصر، لأن هؤلاء الحكام كانوا أصحاب الأمر والنهي، فهو يشكك في روايات ابن طباطبا التي امتدح فيها بعض حكام العصر الإيلخاني أي عصر الاحتلال المغولي للعراق فضلاً عن أن ابن طباطبا هو شيعي متحيز لمذهبه[7]، ولقد ذهب مؤرخون أجانب أيضاً للتشكيك في روايات

(1) ابن العبري: مختصر الدول، ص٢٥٥.
(2) الإسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي، ص٢٩٤-٢٩٥.
(3) الطهراني: الأنوار الساطعة، ج١، ص٨٨.
(4) العيني: عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص ١٩٤.
(5) الحوادث الجامعة، ص٢٣٨.
(6) المصدر نفسه، ص٢٤٣.
(7) الزبيدي: حضارة العراق، ص١٥١

ابن طباطبا المؤرخ الشيعي، خاصة وأنه كان يكتب وهو تحت الاحتلال فلا يستطيع أن يكتب ما يشاء إن أراد كتابة الحقيقة مجردة بكل موضوعية[١].

أما ادعاء مؤرخي الشيعة أن اختيار حكام الأقاليم للعراق بعد الاحتلال تم على أسـاس الكفاءة والخبرات الإدارية[٢]، فهذا الادعاء لا يقوى على الصـمود أمـام روايـات المـؤرخين المعاصرين للأحداث، فالعيني عند حديثه عن وفاة أحد هؤلاء الحكـام وهـو البـدر المراغـي الخلافي المعروف بالطويل يقول: "مات في سنة [٦٦٠هـ=١٢٦١م]، كان قليل الـدين تاركـاً للصلاة، كان جدلياً يحب الخلاف والجدال"[٣]، فأين كفاءة هذا الرجل تارك الصلاة قليل الـدين، كما أن مؤرخي الشيعة يكيلون المدح لأحد حكام العراق في عصر الاحتلال المغولي وهو عماد الدين القزويني وهو غير عراقي[٤]، ولكن الصفدي عندما ذكره قال عنه: "وزيـر بغـداد أبـو الفضل عماد الدين القزويني الوزير الكبير صاحب الديوان ببغداد ولي العراق لهولاكو بعد ابـن العلقمي فكان ظالماً فقتل سنة تسع وخمسين وستمائة"[٥].

والسؤال الذي يطرح نفسه: لماذا تم الحفاظ على حياة هؤلاء الرجال ولم يقتلوا؟ لماذا لم يتم الحفاظ على حياة رجال آخرين في الدولة العباسية يتميزون بالعلم والكفاءة أكثر من هـؤلاء أمثال سليمان شاه بن برجم الايوائي؟ وهو عالم فلك وشاعر وأديب ويكتـب شـعراً بالفارسـية أيضاً[٦]، لماذا لم يتم الاستبقاء على حياة مجاهد الدين أيبك الدويدار الصغير؟ الذي قـال عنـه الذهبي: "أحد الأبطال المذكورين والشجعان الموصوفين"[٧]، وهو أحد علماء الكيمياء وهو مـن أفضل القادة العسكريين في الدولة العباسية[٨]، ولماذا لم يتم الاستفادة من هؤلاء العلماء والقـادة العظام؟ وهناك آلاف غيرهم قتلوا وسارع المغول لسـفك دمـائهم وداسـتهم سـنابك جيـوش المغول[٩].

ويبدو أن هؤلاء الرجال الذين تم اختيارهم لحكم العراق تحت مظلة الاحتلال كانوا على استعداد للتضحية والدفاع عنه، والمؤكد أن المغول اختاروهم لذلك السبب، ومما يدعم ما ذهـب إليه الباحث، أن المغول عندما هزموا أمام جيش مصر بقيادة قطز، وتزعزعت عزيمتهم وقتـل منهم عشرات الألوف من الجنود والفرسان، أعلنت بعض مناطق العراق الثورة على الاحـتلال المغولي، مثل الموصل التي صمدت وظلت تقاوم ما يقارب من عام كامل تحت الحصار ولـم

---

(1) براون: تاريخ الأدب في إيران، ج٢، ص٥٨٧.
(2) الأمين: الاسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي، ص ٢٨٨.
(3) عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص٣٤٣.
(4) الأمين: الاسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي، ص ٢٩٠.
(5) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١٧، ص٣٤٣.
(6) أنظر: الجويني: تاريخ جهانكشاي، ج٣، ص٤٦١.
(7) سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص٣٧١.
(8) المصدر نفسه، ج٢٣، ص٣٧١.
(9) أنظر: المصدر نفسه، ج٢٣، ص١٨١.

يستطع المغول هزيمة الموصل إلا بالخديعة والغدر بعد أن تم الاتفاق على الصلح، ولبس جنود المغول ملابس جنود أهل الشام ومصر ليوهموا أهل الموصل بوصول نجدة إسلامية إليهم[1].

ويرى الباحث أن حكام العراق من الشيعة لو وقفوا إلى جانب شعبهم ضد الاحتلال المغولي بعد هزيمته في عين جالوت عندما ثارت بعض مناطق ومدن العراق لكان من الممكن طرد الاحتلال، ولكنهم في هذه المرحلة كانوا إلى جانب الاحتلال ويدافعون عنه ووقفوا سداً منيعاً ضد أي حركة تحرر من الخارج أو الداخل.

حيث يروي المؤرخون أن الخليفة العباسي المستنصر الذي جاء على رأس جيش من مصر إلى الشام ثم العراق لاستعادتها من المغول، تمكن من تحقيق بعض الانتصارات، ولكن حكام العراق أمثال علي بهادر شحنة العراق تصدى له وأنزل به هزيمة نكراء[2]، ويرى الباحث أن هزيمة المغول في عين جالوت أضعفت موقف المغول واهتزت ثقتهم بأنفسهم وانهار عنادهم، في الوقت نفسه أشعلت روح المقاومة والتصدي عند المسلمين في العراق فعبر شعب العراق عن ذلك بثورة الموصل وصمودها الأسطوري، لذلك فالباحث يُحَمل حكام الأقاليم مسئولية كبيرة في هذه المرحلة، فهم الذين حافظوا على أمن البلاد لصالح المغول وأخمدوا الشعوب عن الثورة ضد المحتل، وهم من تصدى لجيش تحرير العراق القادم من مصر عندما كان المغول غارقين في هزائمهم.

وبالرغم من هذه الخدمات الجليلة التي قدمها الشيعة للاحتلال إلا أن المؤرخين أوردوا أن المغول قد امتدت أيديهم إلى قتل الشيعة، وارتكاب الفواحش مع نسائهم أحياناً[3]، فمن المرجح أن أحداث قتل الشيعة التي حدثت أثناء اجتياح المغول للعراق، كانت أحداثاً فردية غير مسئولة، لكن الموقف المعلن من القيادة كان واضحاً وجلياً وهو حماية مناطق ودور ومقدسات الشيعة[*]، أما بعد أن دخلت جيوش المغول العراق وتمت له السيطرة الكاملة على جميع مناطق العراق، وتم ترتيب إدارة العراق من قبل عملاء الاحتلال، فإن الأوضاع قد تغيرت وأصبح الاحتلال ليس بحاجة للشيعة، فقد انتهى دورهم ومن الطبيعي أن يسعى لتحقيق مصالحه الخاصة، حتى وإن أدى ذلك إلى قتل بعض حلفائهم الشيعة.

---

(1) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص ٣١٤.
(2) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٣٩.
(3) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص٣٦٣؛ الكتبي: فوات الوفيات، ج٢، ص ٢٥٦؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١، ص١٥١؛ ابن الوردي: تتمة المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص١٩٦.
(*) تم مناقشة ذلك في الفصل الثالث.

ويؤكد ما ذهب إليه الباحث قول ابن العلقمي بعد الاحتلال: "وجرى القضاء بعكس ما أملته"[1]، حيث تعرض لمعاملة سيئة وإهانة من المغول[2]، ولكن الغريب أن كل هذه الإهانة تهون على ابن العلقمي ما دام قد تخلص من أهل السنة حيث كان يقول: "بعد أن قتل الدويدار ومن كان على مثل رأيه لامبالاة بذلك"[3]، وذكر الشيرازي المعاصر للأحداث أن الوزير ابن العلقمي لم يلق ما كان يؤمله من المغول، بل إن المغول نظروا إليه نظرة ازدراء واحتقار، ويفسر الشيرازي سوء معاملة المغول لابن العلقمي، بأنها احتقاراً له جزاء على خيانة ابن العلقمي لخليفته الذي وثق به وسلمه مقاليد البلاد، ولذلك جعله المغول تابعاً لشخص يدعى ابن عمران كان خادماً في دولة المستعصم[4]، وفي ذلك يقول ابن كثير: "ثم حصل له بعد ذلك من الإهانة والذل على أيدي التتار الذين مالأهم، وزال عنه ستر ا وذاق الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وأبقى"[5]، ويروي آخرون أن ابن العلقمي عومل معاملة بعض الغلمان عند المغول[6]، ويذكر السبكي أنه أصبح عند المغول "أخس من الذباب"[7]، ويصف الذهبي حال ابن العلقمي بأنه "ذاق الهوان"[8]، ويرى الباحث أن هناك إجماع من المؤرخين على أن ابن العلقمي تلقى معاملة سيئة من المغول[9]، ولكن بعض المؤرخين أوردوا أن هولاكو بعد احتلال العراق بمدة يسيرة قام بقتل ابن العلقمي[10]، ولقد ذكر العيني نقلاً عن كتاب تاريخ بيبرس بأن هولاكو قام بقتل ابن العلقمي بعد أن وبخه وحقره لخيانته لولي نعمته[11]، كما أن بعض المؤرخين المعاصرين يحملون مسئولية قصر حياة ابن العلقمي بعد الاحتلال للمغول، حيث يقول حسن ابراهيم حسن: "إذا كان المغول قد قربوا إليهم ابن العلقمي فإنهم مع ذلك قد تخلصوا منه، إذا أن حياته لم تمتد بعد مقتل الخليفة المستعصم أكثر من ثلاثة أشهر"[12]، ولكن أحد مؤرخي الشيعة المحدثين يرفض الروايات التي تتحدث عن قتل المغول لابن العلقمي حيث يعد أن المؤرخين الذين يذكرون قتل المغول لابن العلقمي يهدفون تأكيد تهمة الخيانة على ابن العلقمي[13].

---

(1) الكتبي: فوات الوفيات، ج٥، ص٢٥٦؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١، ص١٥١.
(2) الكتبي: فوات الوفيات، ج٥، ص٢٥٦؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١، ص١٥١.
(3) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١، ص١٥١؛ الكتبي: فوات الوفيات، ج٥، ص ٢٥٦.
(4) تاريخ وصاف، ص٤١-٤٢.
(5) البداية والنهاية،ج١٣، ص ٤١-٤٢.
(6) بدران: منادمة الأطلال، ج١، ٢٢٩؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٥، ص٢٧٢.
(7) طبقات الشافعية الكبرى، ج٨، ص ٢٧٣.
(8) سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص٣٦٢.
(9) الشيرازي: تاريخ وصاف، ص٤١-٤٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢١٣؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص ٣٦٢؛ السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٨، ص ٢٧٣؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٥، ص٢٧٢؛ بدران: منادمة الأطلال، ج١، ص٢٢٩.
(10) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص٦١٣؛ القلقشندي: مآثر الأناقة، ج٢، ص٩٢.
(11) عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص٢٠٣.
(12) تاريخ الإسلام: ج٤، ص١٦٢.
(13) الأمين: الاسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي، ص ٢٨٢.

فمن المرجح أن المغول لم يقتلوا ابن العلقمي بسيوفهم، ولكن الرجل مات غبناً[1]، وحزناً وأسفاً[2]، وغماً[3]، وكمداً[4]، هكذا عبر المؤرخون عن حال ابن العلقمي قبل الموت، والباحث يرجح أن ابن العلقمي قد تعرض لعملية إذلال وإهانة وتحقير من المغول فضلاً عن صدمته الشديدة من المغول الذين لم يحققوا له ما كان يتمناه، حيث كان يصبوا لإقامة دولة شيعية يكون له الأمر والنهي فيها فلم يوافقوه على ذلك ولم يتحقق طموحه[5]، وقد عبر عن حالته السبكي، فقال: "وأما الوزير فإنه لم يحصل على ما أمل"[6]، وذكر أحد المؤرخين أن ابن العلقمي كان يندب حظه "وما ينفع الندب بعد فقد الميت والعويل بعد الخراب والدمار"[7]، إذ أنه كان يؤسس لمرحلة جديدة ويخطط لإقامة دولة شيعية اثنا عشرية، فانهارت طموحاته وآماله[8]، بل إن من المؤرخين من صرح بأن ابن العلقمي طلب من المغول إقامة خلافة علوية ولكن المغول لم يستمعوا لمطلبه[9]، ومن المحتمل وجود اتفاقية مسبقة بين المغول والشيعة بإقامة دولة أو خلافة شيعية، ولكن الظاهر أن المغول تنكروا لأي صفقة أو اتفاقية أبرمت بين الطرفين حيث كان ابن العلقمي يقول: "وجرى القضاء بعكس ما أملته"[10]، وعبر عن ذلك السبكي قائلا: "وأما الوزير فإنه لم يحصل على ما أمل وصار عندهم أخس من الذباب وندم حيث لا ينفعه الندم"[11]، وعبر الذهبي عن ذلك بأن ابن العلقمي "حفر للأمة قليبا فأوقع فيه قريباً وذاق الهوان"[12]، ويبدو أن موت ابن العلقمي كان بسبب حالة نفسية سيطرت عليه بعد الاحتلال، إذ أصابه الحزن والغم والكمد بسبب خيبة أمله وعدم تحقيق آماله وآمال الشيعة، حيث بدأ الاحتلال يعمل على تحقيق أهدافه حسب أجندته الخاصة، وتنكر للشيعة، كذلك زادت حالة ابن العلقمي سوءاً بسبب حالة التحقير والإهانة التي تعرض لها من قبل المغول، كذلك عند عقد مقارنة بين وزارته في ظل الخلافة الإسلامية ووزارته في حكومة الاحتلال يتضح مدى الفرق بين منصبه الأول والثاني، الذي كان وزيراً في حكومة الاحتلال اسما لا مسمى، وعبر ابن خلدون عن ذلك بقوله: "واستبقى ابن العلقمي على الوزارة والرتبة ساقطة عندهم فلم يكن قصارى أمره إلا الكلام في

---

(1) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص ٣٦٢؛ السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٨، ص ٢٧٣.
(2) بدران: منادمة الأطلال، ج١، ص٢٢٩.
(3) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص ٣٦٢.
(4) ابن العماد: شذرات الذهب، ج٥، ص٢٧٢.
(5) المصدر نفسه، ج٥، ص٢٧٢.
(6) طبقات الشافعية الكبرى، ج٨، ص ٢٧٣.
(7) بدران: منادمة الأطلال، ج١، ص٢٢٩.
(8) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٨، ص ٢٧٣؛ العيني: عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص ١٧٥؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٥، ص٢٧٢.
(9) ابن العماد: شذرات الذهب، ج٥، ص٢٧٢.
(10) المصدر نفسه، ج٥، ص٢٧٢؛ بدران: منادمة الأطلال، ج١، ص٢٢٩؛ الكتبي: فوات الوفيات، ج٥، ص٢٥٦.
(11) طبقات الشافعية الكبرى، ج٨، ص٢٧٣.
(12) سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص٣٦٢.

المدخل والمخرج متصرفاً من تحت آخر أقرب إلى هولاكو منه"[1]، وذكر آخر "وولي مع غيـره وزارة التتار على بغداد بطريق الشركة"[2]، والملاحظ أن اليافعي نفسه الذي ذكر أن وزارة ابن العلقمي في حكومة الاحتلال كانت بالشركة تجده في معرض حديثه عن وزارة ابن العلقمي أثناء الخلافة الإسلامية، ذكر أن ابن العلقمي كان ملكاً، فقد نعته "بالملك"[3]

يقول العيني في ترجمته لابن العلقمي: "حصل له من التعظيم والوجاهة في أيام المستعصم مـالم يحصل لكثير من قبله من الوزراء"[4]، ويقول ابن كثير: "وقد حصل له من التعظيم والوجاهة في أيام المستعصم مالم يحصل لغيره من الوزراء ثم مالأ على الاسلام وأهله الكفار"[5]، وعبر عـن حاله في وزارة الاحتلال فقال: "ثم حصل له بعد ذلك من الإهانة والذل على أيدي التتار الـذين مالأهم وزال عنه ستر ا وذاق الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وأبقى"[6]، وتبـدل موكب ابن العلقمي العظيم الذي تحيط به الفرسان والحراسات، فقد كان موكب ابن العلقمي أثناء وزارته في الخلافة الإسلامية يضاهي موكب سلطان فقد تبدل ذلك "وحفر للأمه قليبا فأوقع فيـه قريبا وذاق الهوان وبقي يركب كديشا وحده بعد أن كانت ركبته تضاهي موكب سلطان فمـات غبنا وغما وفي الآخرة أشد خزيا وأشد تنكيلا"[7]، كما تعرض ابن العلقمي لانتقادات كثيرة ولوم عظيم من قبل الشيعة، لأنه هو وجماعته من جلب الدمار والعذاب للـبلاد[8]، ويبـدو أن قيـادة الشيعة قد أملت القاعدة بآمال كثيرة، لتحوز على مساندتها وتأييدها لهذه المجازفـة والمخـاطرة غير المحسوبة، كما أن ابن العلقمي تعرض لحقد وانتقاد من أهل السنة وخاصة العامـة، حيـث يذكر المؤرخون أن امرأة رأته وهو في الذل والهوان أثناء وزارته في حكومة المغـول وهـو يركب فرسه، فقالت له: "يا ابن العلقمي هكذا كان بنو العباس يعاملونك فوقعـت كلمتهـا قلبـه وانقطع في داره إلى أن مات كمدا وغبينة وضيق وقلة وذلة في مستهل جمادي الاخرة من هـذه السنة"[9][*]، فقد كانت الشهور القليلة التي عاشها ابن العلقمي بعد احتلال العراق، صعبة عليـه حيث انتقده حتى جمهور الشيعة وحملوه المسئولية[10]، إضافة إلى كراهية من عامة السنة الذين عايشوه أثناء وزارته في الخلافة الإسلامية، حيث كان ملكاً[11] يسير بموكب عظيم وتحيط بـه

(1) تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص٦١٣.
(2) اليافعي: مرآة الجنان، ج٤، ص١١٢.
(3) المصدر نفسه، ج٤، ص١٠٥.
(4) عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص٢٠٢.
(5) البداية والنهاية، ج١٣، ص٢١٣.
(6) المصدر نفسه، ج١٣، ص٢١٣.
(7) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص ٣٦٢.
(8) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١، ص١٥١.
(9) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ٢١٣.
(*) لقد أورد السبكي القصة نفسها، أنظر: طبقات الشافعية الكبرى، ج٨، ص٢٧٣.
(10) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١، ص١٥١.
(11) اليافعي: مرآة الجنات، ج٤، ص١٠٥.

العساكر، والسلاطين والأمراء "تأتي فتقبل عتبة داره"[١]، كما رأوا دوره في تسليم البلاد للاحتلال، وعانوا الويلات من ذبح أبنائهم وأحبائهم نتيجة تعاونه مع المحتل، وتوفي ابن العلقمي يوم الخميس[٢]، في بغداد(سنة٦٥٦هـ=١٢٥٨م) وعمره ثلاث وستون سنة، وعلق الفوطي المعاصر له بعد أن ذكر ترجمته وختمها بالقول: "إلا أن خيانته لمخدومه تدل على سوء أصله"[٣]، ولقد هجاه كثير من الشعراء[٤]، وتولى خلفاً له الوزارة ابنه شرف الدين[٥]، حيث توفي في نفس العام أيضاً[٦].

ومن المرجح أن ما تعرض له ابن العلقمي خلال الثلاثة أشهر الأخيرة في حياته أثناء وظيفته في حكومة الاحتلال، تنسف ما ادعاه أحد مؤرخي الشيعة في معرض حديثه في الدفاع عن ابن العلقمي ونفى تهمه الخيانة عنه حيث استدل المؤرخ الشيعي على براءة ابن العلقمي من تهمة الخيانة الكبرى، بوثوق هولاكو بابن العلقمي وتسليمه مقاليد العراق بعد قتل الخليفة، حيث قال أبن طباطبا: "ونسبة الناس إلى أنه خامر، وليس ذلك بصحيح، ومن أقوى الأدلة على عدم مخامرته سلامته في هذه الدولة، فإن السلطان هولاكو لما فتح بغداد وقتل الخليفة سلم البلد إلى الوزير، وأحسن إليه وحكمه. فلو كان قد خامر على الخليفة لما وقع الوثوق إليه)[٧]، ويرى الباحث أن ما أورده المؤرخون المعاصرون لابن العلقمي وللأحداث يعارض ما يراه ابن طباطبا، من الوثوق بابن العلقمي والإحسان إليه[٨]، كذلك أنه هو من تسلم البلاد وكان الآمر الناهي في العراق.

ويبدو أن هناك إجماع من المؤرخين على أن المغول أساءوا لابن العلقمي وكذلك تعرض ابن العلقمي لموجة قوية من الإهانة والإذلال والتحقير، كذلك ابن العلقمي لم يكن هو من يدير البلاد بل كان هناك لجنة هو أحد أفرادها وهذه اللجنة تابعة لقيادة المغول[*]، والغريب تفرد ابن طباطبا بهذه الرواية، والمؤكد أن تشيع هذا المؤرخ وتعصبه لمذهبه هو الذي دفعه للوقوف موقف المدافع عن ابن العلقمي، وقد صدق براون في ابن طباطبا حينما ذكر أن تعصبه لمذهبه كان أقوى من تجرده وموضوعيته في روايته ودفاعه عن ابن العلقمي[٩].

---

(1) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٨، ص ٢٧٣.
(2) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٢٩٨.
(3) الحوادث الجامعة، ص٢٤١؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢١٣.
(4) أنظر: ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢١٣.
(5) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص ٢٩٨؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢١٣.
(6) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢١٣؛ العيني: عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص ١٧٦.
(7) الفخري في الآداب السلطانية، ص٣٣٨.
(8) الشيرازي: تاريخ وصاف، ص٤١-٤٢؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص٣٦٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢١٣؛ السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٨، ص ٢٧٣؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٥٠؛ العيني: عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص ١٧٦.
(*) لقد تعرض الباحث لهذه القضية بالتفصيل في الصفحات السابقة.
(9) تاريخ الأدب في إيران، ج٢، ص١٩٦.

أما بعض المؤرخين المعاصرين فإنهم اتخذوا من قِصَر حياة ابن العلقمي بعد احتلال العراق دليلاً على عدم خيانته، حيث حمل حسن إبراهيم حسن مسئولية موت ابن العلقمي السريع للاحتلال المغولي وتصور أن المغول تخلصوا من ابن العلقمي[١]، كما استند هذا المؤرخ إلى روايات ابن طباطبا التي يكيل فيها المدح لابن العلقمي، ويصفه بالعفة والنزاهة[٢]، ويرى الباحث أن موت ابن العلقمي وقصر عمره لا يقوى دليلاً على براءته أمام روايات المؤرخين الذين أدانوه، كما أن حسن إبراهيم حسن في هذا المقام يناقض ابن طباطبا حيث يحمل حسن مسئولية موت ابن العلقمي للمغول ويعتبرهم تخلصوا منه، ولكن ابن طباطبا المؤرخ الشيعي ينفي أن يكون ابن العلقمي قد تعرض لأي سوء من المغول، بل ذكر أنهم أسندوا إليه قيادة البلاد، وأحسنوا إليه ووثقوا به[٣]، فابن طباطبا وحسن إبراهيم حسن يناقضان بعضهما رغم دفاع الاثنين عن ابن العلقمي وهذا يكفي للرد على حسن من رواية ابن طباطبا الذي يحتج برواياته.

ويرى أحد المؤرخين المعاصرين الشيعة أن اشتراك ابن العلقمي في اللجنة الإدارية للبلاد من قبل المغول ليس دليلاً على خيانته، فكثير من الشخصيات كانت ضمن هذه اللجنة[٤]، فمن المرجح أن الخيانة العظمى تثبت على ابن العلقمي لكثرة عدد المؤرخين الذين أيدوها أو أشاروا إليها، وكونه قَبِلَ التعاون مع الغزاة الوثنيين وارتضى أن يعمل تحت سلطتهم.
ويرى باحث معاصر أنه لا قيمة للرأي القائل بأن تعاونه كان بدافع انقاذ ما يمكن إنقاذه، وتخليص البلاد ومن تبقى من العباد من بطش المغول وتعسفهم، حيث يعد هذا الرأي مردود وغير وارد، كما يرى أن حكم الخيانة يسري دون شك على كل من تعاون مع المغول والبرابرة الوثنيين من كبار الموظفين وأمراء الأطراف[٥].

وعلى أية حال دخلت العراق مرحلة جديدة من عمرها تحت الاحتلال المغولي، وكان المجتمع العراقي يتكون من المسلمين بقسميهم السنة والشيعة[٦]، وكذلك النصارى[٧]، واليهود[٨]، ودخلت عناصر جديدة في المجتمع العراقي وهم المغول، حيث كانت هي الطبقة الحاكمة، فهم الغزاة الفاتحون للبلاد[٩]، أما المسلمون فهم أهل البلاد الأصليين، الذين كانوا فريقين فريق ناصر

(1) حسن: تاريخ الإسلام، ج٤، ص١٦٢.
(2) أنظر: الفخري في الآداب السطانية، ص٢٩٩-٣٠٠.
(3) المصدر نفسه، ص٢٩٥.
(4) الأمين: الاسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي، ص ٢٨٤.
(5) فوزي: الدولة العباسية السقوط والانهيار، ص٢٥٩.
(6) الجزجاني: طبقات ناصري، ص٣٠٥.
(7) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ٣٢٩.
(8) المصدر نفسه، ص٣١١.
(9) الجوزجاني: طبقات ناصري، ص٣١٠.

الإحتلال وقدم له المساعدة وهم الشيعة[1]، وفريق دفع ثمن خيانة شيعة العراق، فقتـل وسـجن وشرد الكثيرون وهؤلاء هم المسلمون السنة[2].

أما الشيعة فلقد كان حكام البلاد في عهد الاحتلال منهم، كما كان بعض قياداتهم الـذين جاءوا بصحبة الجيش الغازي للعراق أمثال نصير الدين الطوسي وعـلاء الـدين عطـا ملـك الجويني[3]، وهم من أصل فارسي[4]، قد حصلوا على مناصب رفيعة في إمبراطورية المغول[5]، فقد كانوا من أهم المستشارين لهولاكو[6]، وتولى آل الجويني الشيعة الفرس حكم العراق من قبل المغول في سنة (٦٥٧هـ=١٢٥٨م)[7]، وشهد عصر آل الجويني صراعاً عنيفاً بـين أمـرائهم على سلطة العراق، ولقد كان هؤلاء الحكام يتبعون للخان المغولي، وسـمي عصـر الاحـتلال المغولي للعراق بالعصر الإيلخاني، الذي استمر ما يقارب الثمانون عاماً[8].

أما النصارى فقد هللوا في كل البلاد فرحاً وابتهاجاً بتداعي بلاد الإسلام وسقوطها بيـد المغول[9]، حيث شهدت بلاد الشام مسيرات للنصارى يرفعون فيها الصليب ويجوبون الشـوارع ويجبرون المسلمين على الوقوف للصليب كلما مروا بجماعة منهم، وهم يهتفون ظهـر الـدين الصحيح، ويشتمون الإسلام ويسيئون إليه[10].

والجدير بالذكر أن هولاكو كان بصحبته أثناء حملته على العراق زوجته النصرانية طقز خاتون حيث يقول ابن العبري "وارتفع بها شأن المسيحيين في كل الأرض"[11]، فنصارى العـراق تـم حمايتهم واستثناؤهم من الإصابة بأي سوء، بل منحت بعض المباني والقصور لقادة ومسـئولي النصارى، ومنح هولاكو بطريرك النساطرة من الأوقاف المستمرة. ومنحه من دور الخلافة مـا اتخذه مقراً له، وكنيسة لقومه[12]، ولقد أشاد كتابهم بهولاكو وطقز خاتون، فشبهوهما بقسطنطين وهيلينا وأن ا أعدهما للانتقام من أعداء المسيح[13]، ويبدوا أن زوجة هولاكو كان لهـا تـأثير كبير في تمتع النصارى بحرية وصلاحيات واسعة في عهد الاحتلال المغولي للعـراق، حيـث استولى النصارى على كثير من الأربطة التابعة للمسلمين، وسيطروا علـى بعـض القصـور

---

(1) الذهبي: سير أعلام النبلاء العبر، ج٥، ص٢٢٥؛ السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٨، ص ٢٦٢.
(2) العيني: عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص٢٩٥.
(3) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص ٢٨٢.
(4) ابن العبري: تاريخ الزمان، ص٣٣٠.
(5) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٢٥٠.
(6) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص ٢٨٢.
(7) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ٢٤٤.
(8) أنظر: المصدر نفسه، ص٣١٩.
(9) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢، ص٢١٩.
(10) اليافعي: مرآة الجنان، ج٤، ص١١٣.
(11) تاريخ الزمان، ص٢٩٨.
(12) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٨، ص ٢٧٣.
(13) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص٥٢٢.

وعملوا على تغيير الطابع العربي الإسلامي لها، ووضعوا بها التماثيل، وحولوا بعض الأربطة مقابر لكبار رجالاتهم[1]، ولقد تسلط النصارى على المسلمين في بداية الاحتلال وأذاقوا المسلمين خاصة السنة صنوف العذاب، حيث لم يكن هناك من يحميهم مثل الشيعة وأهل الذمة، وطالب النصارى أن يقع الجهر بشرب الخمر وأكل لحم الخنزير وأن يجبر المسلمون على فعل ذلك في شهر رمضان فألزم المسلمون بالفطر في رمضان وأكل الخنزير وشرب الخمر[2].

ويبدو أن سطوة الاحتلال كانت قوية في البداية، ولكن الباحث يود أن يسأل مؤرخي الشيعة أين كان المسلمون من الشيعة عندما كان يجاهر بشرب الخمر وأكل لحم الخنزير و إجبار المسلمين على ذلك؟

إن انتشار هذه المحرمات في حكم عملاء المغول من الشيعة يذكرنا بحال العراق اليوم تحت الاحتلال الأمريكي والحكم الشيعي، فقد انتشرت في عهدهم الخمور والمخدرات وفتحت البلاد لأجهزة المخابرات الإسرائيلية ومُكن لليهود والفرس بالرغم من ادعاء الحكومة أنها شيعية إسلامية يقودها رجال المجلس الإسلامي الأعلى وحزب الدعوة الشيعي.

ماذا كان موقف قيادة الشيعة من هذه الممارسات؟ من المرجح أن الاحتلال لم يعد يكترث برأي عملائه، لأنهم هم الآن من يحتاجون الاحتلال ويتوسلون إليه لقضاء حوائجهم وتصريف مصالحهم، بعد أن تمت عمليات الاحتلال على كامل التراب العراقي، ويبدو أنها سنة من سنن الحياة أن العملاء دائماً هم الخاسرون، وأحداث العصر الحاضر تؤيد ما ذهب إليه الباحث فعملاء إسرائيل في لبنان كانوا خاسرين، وكذلك هو حال عملاء أمريكا في العراق. كما أن النصارى استطاعوا الحصول على مراتب عالية ومناصب مرموقة في العهد الإيلخاني[3]، وكان الإيلخان غالباً ما يشترك في الأعياد النصرانية بنفسه ويحضر القداس، وقد أجاز بناء كنيسة صغيرة في البلاط الملكي، وأوقف الأوقاف لمصلحة الكنائس، كما فُضلَ النصارى على المسلمين في المعاملة، وقد تمتعت الطوائف النصرانية الأخرى بعطف الحاكم أيضاً، حيث زادت الأبرشيات عدداً ومساحةً، وزاد نفوذهم وأصبح لهم الحق في إعادة بناء كنائسهم وتوسيعها والسير بمواكبهم علناً[4].

أما اليهود الذين نجوا من مذابح المغول أثناء عمليات الحصار وكذلك أثناء مذبحة بغداد، فقد استطاعوا الوصول إلى مراكز مرموقة في العهد الإيلخاني، فقد اعتمد المغول عليهم، حيث تسلط اليهودي المعروف بابن الصفي على ديوان العراق وسلب أموال الناس وأذاقهم العسف والهوان طيلة حكم هولاكو (٦٥٦هـ - ٦٦٣هـ = ١٢٥٨م – ١٢٦٤م) ولقد رفع هذا اليهودي

(1) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ٣٢٩.
(2) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٨، ص ٢٧١.
(3) المصدر نفسه، ص٣١٥.
(4) الجزجاني: طبقات ناصري، ص٣٠٥.

أخويه إلى أعلى المناصب ولقب أحدهما بفخر الدولة والآخر بأمين الدولة، وتوافد اليهود إلى العراق ومنهم جماعات من تفليس في القفقاس، حيث جعلهم سعد الدولة ولاة على تركات المسلمين، فتصرفوا حسب أهوائهم مستهترين بالشريعة الإسلامية، مما أدى إلى قيام أهل بغداد بالثورة عليهم، وكتب الشعراء شعراً في وصف طغيان اليهود على المسلمين[1].

ويبدو أن النسيج الاجتماعي للمجتمع العراقي في عهد الاحتلال المغولي أصابه التمزق الحاد، فعناصر المجتمع تتسابق نحو المحتل الجديد للحصول على الامتيازات والمراكز، ومن المرجح أن الاحتلال لن يعطي شيئاً مجانياً، لذلك سيكون تقرب أي عنصر من عناصر المجتمع للاحتلال على حساب العناصر الأخرى، وهذا يحدث مزيداً من التمزق والفرقة في جسد المجتمع الذي ما زال يعاني من آثار مذابح الاحتلال.

ويرى الفوطي أن المجتمع العراقي عانى كثيراً من سياسات حكام العراق فقد اتبعوا طرقاً شتى لجمع الأموال من الناس، واستخدموا القهر والتعسف في سبيل ذلك، حيث كانت تتم حملات جمع للأموال في أحيان كثيرة بهدف مساعدة طارئة للحكومة، غير الضرائب المفروضة على كل شيء، حتى دور العراق وصل الأمر إلى تسجيلها ودفع الناس ضريبة مالية عن كل بيت[٢]، فضلاً عن معاناة المسلمين من تهميش العمل بالشريعة الإسلامية والعمل حسب نصوصها في المعاملات بين المسلمين[٣]، ولقد تلقى العنصر البشري في المجتمع العراقي ضربة قوية باحتلال العراق، فقد قتل وفقد الكثير من الرجال، كما تعرض عنصر النساء إلى القتل والاغتصاب وهتك الأعراض، ولقد بلغ استهتار المغول بأرواح الناس إلى قتل الأطفال بالجملة[٤]، ومن الواضح أن سياسة الاحتلال التعسفية، قد أثرت سلباً على دور المرأة في المجتمع، وأدت إلى انخفاض مستواها الفكري والعلمي حدت من الحرية التي تمتعت بها في عصر الخلافة. وبالرغم من ذلكُ تظهر روايات المؤرخين المعاصرين تمسك المجتمع العربي الإسلامي بقيمه وتقاليده والحفاظ على المرأة وحقوقها، وصونها، بل استمر الزواج والطلاق على الطريقة والشريعة الإسلامية[5]، واستمرت ملابس العراقيين كما هي في العصر العباسي، بل إن حكام العراق المغول أخذوا يقلدون ملابس المسلمين، كذلك النساء احتفظن باللباس الإسلامي الذي يمتاز بالبساطة والحشمة، وعند الخروج للأسواق كانت النساء يخرجن متبرقعات

(1) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ٣١١.
(2) المصدر نفسه، ص٢٨٠.
(3) المصدر نفسه، ص٣١١.
(4) الذهبي: دول الإسلام، ج٢، ص١٢٣؛ الديار بكري: الخميس، ج٢، ص٤٢٠؛ الجوزجاني: طبقات ناصري، ص٤٢٧-٤٢٨.
(5) أنظُر: الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٢٨٥.

أو يضعن الخمار على وجوههن، وفي المناسبات والاحتفالات والأفراح يضعن القناع وهو غطاء من القماش يغطي الرأس والوجه معاً فلا يظهر منهن شيء[1].

ويشير الفوطي إلى انتشار الخرافات في المجتمع خاصة في صفوف الشيعة، فمنهم من يقول: رأيت قبر الحسين نزل على الأرض من السماء فيسير الشيعة لزيارته، ومنهم من يقول: إنه رأى قبر بعض أولاد الأئمة الشيعة يطير في السماء[٢]، كما يتحدث عن انتشار بعض الظواهر السيئة في المجتمع العراقي مثل تزييف العملة، وانتشار القتل والجرائم، والسرقة والسطو، ويبدو أن سياسة الاحتلال وثقل الضرائب على السكان أدى إلى انتشار تزييف العملة والسرقات وغيرها، فقد عانى السكان من أشكال متنوعة من الضرائب لم يعهدوها من قبل، فقد جُمِعَ سكان المدن وكتبت أسماؤهم في مجموعات وجُعِلَ على كل مجموعة أمير وفرض على كل شخص ضريبة يؤديها في كل سنة، فضلاً عن ضرائب البيوت[٣].

ويذكر الفوطي ظهور الجراد الذي قضى على مزارع العراق وحقوله ونخيله، وذلك في عام (٦٧٢هـ=١٢٧٣م)[٤]، وذكر ابن العبري أن عام (٦٧٥هـ=١٢٧٦م) حدث في العراق "غلاء عظيم ومجاعة"[5]، وغلت الأسعار[٦]، وذكر العيني عن سنة (٦٥٩هـ=١٢٦٠م) أن بغداد كانت خراباً، ولا يسودها الأمن، وانتشر بها الظلم والجور من قبل حكامها المغول[٧]، ويبدو أن المجتمع العراقي لم ينعم بحياة هادئة مطمئنة طوال عهد الاحتلال، فقد عانى من نقص الأموال والأنفس والثمرات وهي مرتكزات الحياة الآمنة المطمئنة، وهذا يناقض ما ادعاه أحد مؤرخي الشيعة المعاصرين أن العصر الأيلخاني تمتع به أهل العراق بالأمن والاستقرار[٨].

ويبدو أن احتلال العراق من قبل المغول ترك أثره على مجمل الحياة في العراق ولكنه لم يحدث تغييراً جوهرياً في مظاهر الحياة الاجتماعية، ويُفَسر ذلك بأن المغول لا يمتلكون حضارة، بل إنهم متخلفون حضارياً، وعندما احتكوا بالمسلمين في عهد الاحتلال تأثروا هم بالمجتمع العراقي الإسلامي ولم يؤثروا فيهم، كذلك كان عدد من استقر في العراق من المغول قليل جداً حيث كان لهم مراكز قيادية يقومون فيها، ويديرون البلاد عن طريق حكام عملاء لهم ينفذون سياستهم، والمرجح أنهم لم يكونوا طبقة اجتماعية متميزة بحيث يتمكنون من التأثير في المجتمع العراقي ويتركون بصمات واضحة في هذا المجتمع، كذلك فإن امتلاك المجتمع العراقي

---

(1) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٢٧٦.
(2) المصدر نفسه، ص ٢٨٣.
(3) المصدر نفسه، ص٢٤٣.
(4) المصدر نفسه، ص٢٧٠.
(5) مختصر تاريخ الدول، ص٢٥٠؛ تاريخ الزمان، ص٣٢٤.
(6) مختصر تاريخ الدول، ص٢٥٠؛ تاريخ الزمان، ص٣٢٤.
(7) عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص٢٨٧.
(8) خصباك: العراق في عهد الملوك الإيلخانيين، ص ١٤٣.

المسلم حصانة ذاتية متمثلة بالقيم والمظاهر الاجتماعية التي تراكمت عبر العصور والتي تستند في جوهرها إلى القرآن والسنة، جعل المجتمع العراقي يحتوي الغزاة ويؤثر فيهم بدل أن يحدث العكس ويتأثر المغلوب في الغالب كالمعتاد.

أما بالنسبة للناحية الاقتصادية، فقد شهد العراق تدهوراً اقتصادياً ملحوظـاً فـي العهـد الإيلخاني، فقد أصبحت العراق إحدى ولايات الدولة المغولية التي كانت تبريز قاعدتها[١]، كمـا أن تعرض العراق قبل غزو المغول لموجة أو مسلسل من التخطيط لتدمير اقتصاده ضل يـؤثر في اقتصاد البلاد، كذلك تأثر الاقتصاد بالكوارث الطبيعية التي تعرض لها العراق في السـنوات الأخيرة من عمر الدولة العباسية في ظل إهمال متعمد من قبل إدارة العراق برئاسـة حكومـة الوزير الشيعي ابن العلقمي[*]، كما أن عمليات الغزو والاحتلال والتخريـب أدت إلـى إتـلاف أنظمة اقتصادية كثيرة في العراق، فضلاً عن استخدام المغول لجـذوع النخيـل للقـذف بهـا بالمنجنيقات بدلاً من الحجارة لعدم توفر الحجارة في المنطقة التي وجد بها المغول أثناء عمليات حصار ودك العاصمة بغداد[٢].

ويبدو أن عمليات التخريب والتدمير والحصار وعمليات الإهمال المتعمدة وعدم الترميم، كان لها أثر كبير في تخريب نظام الري واندثار أنهار وقنوات عديدة وتراجع الأرض الزراعية، وفي عهد الاحتلال المغولي لا بد أن التراجع سيكون أكبر، خاصة أنـه لا يمكـن تصـور أيّ ازدهار اقتصادي في ظل اضطراب سياسي وإداري ونكبات وأوبئة متلاحقة[٣]، ويرجح الباحث عدم امتلاك القوة الغازية أسساً لمقومات البناء والتطوير، حيث أبقت حكومة المغول على أنظمة الأرض وتقسيماتها كما هي، إذ لم تشر المصادر إلى أنظمة جديدة تم اعتمادها، والتغيرات القليلة التي حدثت شملت فقط الجانب الضريبي، حيث أصبحت أكثر ثقـلاً وتعسـفاً، كمـا اسـتغلت الأراضي الوقفية بشكل خاص أسوأ استغلال، ويكفي الإشارة إلى أنها وضعت تحـت إشـراف نصير الدين الطوسي وأولاده من بعده معظم حقبة الاحتلال الإيلخاني[٤]، ولقـد وصـف أحـد المؤرخين العراق في ذلك الوقت بأنها مدمرة، تعاني من ويلات الإهمال وانحسار العدل[٥]، كما رصد مؤرخ آخر أحوال العراق في العهد الإيلخاني، حيث تعرضت الأراضي الزراعيـة إلـى موجات من الجراد والأوبئة وتم القضاء تماماً على أغلب الأراضي الزراعية والنخيل[٦]، وقـد

---

(1) أنظر: الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٣٠٦-٣٠٧.

(*) أنظر: الفصل الثاني من البحث حيث ناقش الباحث هذه القضية بالتفصيل في المبحث الثاني الذي بعنوان (تهيئة البلاد للسقوط).

(2) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص ٢٨٧.

(3) ابن العبري: مختصر تاريخ الدول، ص٢٥٠؛ تاريخ الزمان، ص٣٣٤؛ الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٢٧٠؛ العيني: عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص ٢٩٥.

(4) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ٣١٢، ٢٤٣؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٢٥٠.

(5) العيني: عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص ٢٨٧.

(6) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ٢٧٠.

ترافق ذلك مع نظام قاسٍ من تقسيم الناس حسب نظام ضريبي جديد ابتدعه الحكام الجدد، كما تم استخدام كل الطرق المشروعة وغير المشروعة في الحصول علـى الضـرائب، فضـلاً عـن الضرائب الطارئة للحكومة من حين لآخر التي يتم ابتزازها من السكان[١]، ولقد شـهدت بـلاد العراق مجاعات متكررة، وغلاءً للأسعار، دفع بعض الناس إلى بيع أولادهم، وإلقـاء الـبعض أنفسهم في نهر دجلة من شدة ضيق الحال، "وأكل الناس ورق الجزر والسلجم والبصل ونبـات الأرض كعروق القصب والبردي والحلفاء وغيرها، وانقضت السنة والناس على ذلك، ولقوا شدة عظيمة من الغلاء وكسر الدراهم"[٢].

ويبدو أن سوء أحوال العراق هو ما دفع كثير من السكان للهجرة إلى بـلاد أخـرى[٣]، وكان لوقوع العراق تحت الاحتلال المغولي أثراً سلبياً على الحركة التجارية، إذ من المرجح أن العلاقات التجارية التي كانت تربط العراق بمصر والشام أيام الدولة العباسية قد انقطعت، خاصة مع وجود عداء قائم بين الكيان الجديد في العراق وبين مصر وبلاد الشام التي مازالـت تحـت إمرة المماليك الذين أوقعوا هزيمة نكراء بالمغول في عين جالوت[٤]، ومن المرجح أن النشـاط التجاري للعراق وبدل أن يتجه إلى مصر وسوريا فقد اتجه ناحية الشـرق حيـث إمبراطوريـة المغول، ومن الطبيعي أن يصاب النشاط الخارجي بالضعف والركود وذلك لعدم تـوفر الأمـن والاستقرار، فقد شهد العهد الأيلخاني صراعات مريرة بين حكام العراق على السلطة، ممـا أدى إلى انعدام الأمن في الطرقات التي تسير فيها القوافل[٥]، كذلك فإن إنهـاك التجـار وأصـحاب رؤوس الأموال بالضرائب أدى في بعض الأحيان إلى إغلاق الأسواق[٦]، كما تـأثرت الناحيـة التجارية بتراجع الزراعة بسبب الضرائب والإهمال والأوبئة وموجات الحشرات الضارة التـي كانت تجتاح العراق من حين لآخر[٧].

فمن المرجح أن تراجع الزراعة وانحسار التجارة أثر على الصناعة في العراق، فضلاً عن الخراب والدمار والقتل الذي أصاب مدن العراق، فهذا يوضح مدى ما فقدته العـراق مـن الأيدي الماهرة في الصناعة. فقد وصفها ابن بطوطة عندما زارها في عهد الاحتلال بأنهـا مـا تزال خراباً[٨]. وهناك مؤرخ معاصر يشاطر الباحث الرأي حيث يرى أن الحياة المدنيـة فـي العراق تدهورت بعد الغزو المغولي بسبب الخراب وهدم المدن وهروب الصـناع والحـرفيين

---

(1) الفوطي الحوادث الجامعة ، ص٢٤٣،٢٨٠.
(2) المصدر نفسه، ص٣٠٦، ٣٠٧.
(3) العيني: عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص ٢٩٥.
(4) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص ٣١٤.
(5) أنظر: الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٣١٩.
(6) المصدر نفسه، ص٢٨٠،٢٥٠،٢٤٣.
(7) المصدر نفسه، ص٢٤٣-٢٥٠.
(8) تحفة النظار، ج١، ص١٤٨.

والتجار أو قتلهم[١]، ويؤكد ذلك وجود روايات تاريخية تؤكد وجود حركة هجرة من العراق إلى مصر فراراً من الاحتلال[٢]، كذلك ضخامة الأعداد من البشر الذين قتلوا أثناء الغزو المغولي للعراق[٣].

أما الحياة العلمية والأدبية في عهد الاحتلال، فقد منيت بخسارة فادحة بسبب إحراق ملايين الكتب والمخطوطات أو إغراقها في نهر دجلة، إضافة إلى قتل العلماء والأدباء والصناع، حيث هاجر من نجا منهم إلى القاهرة التي تحولت إلى مركز جديد للعروبة والإسلام[٤]، وعبر أحد المؤرخين الأجانب عن هذه الخسارة بقوله: إن ذلك "أصاب مكانة اللغة العربية في إيران بضربة قاصمة، فاقتصر استعمالها بعد ذلك على العلوم الفقهية والفلسفية فإذا وصلنا إلى نهاية القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري) لم نعد نصادف إلا القليل النادر من الكتب العربية التي تم تأليفها في إيران"[٥]، ويعبر ابن طباطبا عن الوضع الثقافي المتردي للعراق في عهد المغول بقوله: "وأما في الدولة المغولية فكسدت تلك العلوم كلها، ونفقت فيها علوم أخرى وهي علم السياقة والحساب لضبط المملكة وحصر الدخل والخرج والطب لحفظ الأبدان والأمزجة والنجوم لاختيار الأوقات وما عدا ذلك من العلوم فكاسد عندهم"[٦].

ويؤكد شبولر أن احتلال المغول للعراق كان ضربة قوية للغة العربية، وانتصار للغة الفارسية، لأن المغول طمسوا جميع مراكز الإشعاع العربية، وثبتوا مع الأيام الطابع الإيراني، فالمغول شعب بلا خلفية ثقافية أو حضارية متميزة[٧]، ويصف أحد الباحثين المعاصرين العصر الإيلخاني بأنه عصر تأخر وظلمة للأدب والفن وأن من أسباب هذا الضعف والتأخر للأدب والفن والفكر والثقافة هو "فقدان عنصر العروبة في الدولة الحاكمة"[٨]، فقد أورد أحد المؤرخين المعاصرين للعصر الإيلخاني، وجود حملة ضد اللغة العربية، وقيام حكام هذا العصر بمسح كل ما هو عربي واستبداله بلغات أخرى[٩]، كما قيدت حرية التعبير من قبل حكام العراق، وضيقت الحكومات على العلماء، فقد تم تتبعهم وتقييد حركتهم، ومراقبتهم، وإذلالهم، وقتل من يجرؤ على معارضة سياسة الحكومة أو التشهير بها، وللأسف فقد كان من يقوم بتتبع العلماء والوشاية

(1) فوزي: الدولة العباسية السقوط والانهيار، ج٢، ص٢٥١.
(2) العيني: عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص ٢٩٥؛ المقريزي: الخطط، ج١، ص٣٦٤-٣٦٥.
(3) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٠١؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص١٨١؛ العيني: عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص ١٧٤؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٤٩؛ السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٨، ص ٢٧١.
(4) المقريزي: الخطط، ج١، ص٣٦٤-٤٦٥؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٥١؛ ابن خلدون: المقدمة، ج١، ص٣٣٨؛ المكي: سمط النجوم العوالي، ج٣، ص٥١٩.
(5) براون: تاريخ الأدب في إيران، ص٥٦٤.
(6) الفخري في الآداب السلطانية، ص٢٦٠.
(7) العالم الإسلامي في العصر المغولي، ص١٥.
(8) الزبيدي: حضارة العراق، ص١٤٩، ص١٥٩.
(9) أنظر: الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ٣٢٩.

عليهم إخوانهم في الدين من الشيعة[1]، وقام كبير علماء الشيعة نصير الدين الطوسـي بجولـة داخل مدن العراق بهدف جمع الكتب العلمية، من المدارس فقد "أخذ كتباً عظيمة وكثيـرة مـن سائر المدارس"[2].

ويروي أحد الباحثين المعاصرين أن ضعف الأدب العربي في عصر الاحتلال المغولي للعراق سببه أن اللغة الفارسية أصبحت لغة التأليف والكتابة لأنها لغة الحكام، فأصبحت عنايـة الأدباء بتعلمها أشد من عنايتهم بتعلم العربية[3]، ويرى الباحث أن المسلمين في العراق قد دفعوا ثمناً باهظاً من أرواحهم، وحضارتهم وثقافتهم في عهد الاحتلال المغولي للعراق، فبعض الخانات اعتمد اعتماداً كبيراً على النصارى وامتلأ بلاطه بالرهبان[4]، والبعض اعتمد على مستشـارين من الشيعة[5]، ولقد وصل أحد الباحثين الأجانب إلى نتيجة مفادها أنه عندما كان أحـد خانـات المغول يعتنق المذهب الشيعي يؤدي ذلك إلى اضطهاد السنيين وتحسين أحوال النصارى وسوء العلاقات مع مصر[6].

وبينما كان خانات المغول يقدمون الرعاية للشيعة ويـزورون مشـاهدهم وأضـرحتهم ويقدمون لهم الأموال ويحفرون الأنهار لخدمتهم[7]، كانوا يضطهدون السنة ويقربون النصارى، ومن الخانات الذين مارسوا الاضطهاد على السنة أرغون (٦٨٣-٦٩٠هـ = ١٢٨٤- ١٢٩١م) والسلطان جغتاي الذي سن قوانين ضيقت عليهم في ممارسة شعائرهم الدينية مثـل مـا يتعلـق بالوضوء وذبح الحيوانات وكان من ألد أعداء المسلمين ولا يستطيع أن يسمع كلمة مسـلم فـي بلاطة إلا إذا كانت للتحقير والإهانة[8].

وهنا يسأل الباحث مؤرخي الشيعة أين الرخاء، والاستقرار الذي نعم به المسلمون فـي عهد الاحتلال؟ إن ما ذكر في دائرة المعارف الشيعية من حركة عمرانية قام بها حكام العـراق من إجراء الأنهار، وبناء المدارس، وتعمير المشاهد الشيعية ومشهد الكاظمين[9]، حدث في عهد آل الجويني، وكان يهدف إلى تحقيق أهداف خاصة بهم وموجهٌ لخدمة شيعة العراق وليس لخدمة سكان العراق عامة وهذا ما أكدته روايات المؤرخين المعاصرين لهذه الأحداث[10]، والملاحـظ أن شيعة العراق لم ينعموا بالرخاء والرعاية في كل عصور الاحتلال المغولي للعراق، فقد كانوا

(1) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص٣١٠.
(2) العيني: عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص ٣٨٧.
(3) الصياد: المغول، ص٢٨١.
(4) الجزجاني: طبقات ناصري، ص٣٠٥.
(5) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص ٢٨٢.
(6) شبولر: المغول، ص٨٨.
(7) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٣٣٣-٣٣٥.
(8) الجزجاني: طبقات ناصري، ص٣٠٥.
(9) الأمين: ص٨-٩.
(10) الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٢٣٥، ٣٣٣.

يقربون إذا ما اعتنق الخان الأعظم للمغول المذهب الشيعي، ويعاملون بقسوة كباقي المسلمين إذا كان الخان المغولي نصراني أو وثني ويكره المسلمين، وبالرغم من الجـرائم والتـدمير الـذي ارتكبه هولاكو ضد العراق وأهله السنة[1]، فقد وصل الأمر إلى اعتباره وكأنه خليفة مسلم فقـد قام زعيم الفكر الشيعي الإثنا عشري نصير الدين الطوسي برثائه بقصيدة شعرية عند وفاتـه[2]، وذلك بالرغم من أن هولاكو لم يقم بأي إصلاح بخصوص العراق[3].

وأين هي حسنات نصير الدين الطوسي التي تحدث عنها الباحث الشيعي حسن الأمـين وهو يدافع عنه ويهاجم ابن تيمية الذي حمله مسئولية جلب الـدمار علـى العـراق وأهلـه[4]، ويتساءل الباحث ماذا عاد على الطوسي نتيجة خيانته لدينـه وخدماتـه للاحـتلال؟ إن عصـر الاهتمام بالنصير الطوسي لم يدم طويلاً، فقد توفي هولاكو عام (٦٦٣هـ=١٢٦٤م)[5]، وعـاش الطوسي بعد هولاكو ما يقارب العشر سنوات إذ توفي في سنة (٦٧٢هـ = ١٢٧٣م)[6]، ولقـد أورد الفوطي المعاصر للطوسي أن وفاته لم تكن طبيعية، حيث ذكر الفوطي أن الطوسـي قـد انتحر، حيث يقول: "وضع نصير الدين الطوسي الرصد بمراغة وعين فيه جماعة يتولون عمله إلى أن انتحر"[7].

ويبدو أن الطوسي بعد وفاة هولاكو قد أُهمِل من قبل خانات المغول، وربمـا تعـرض لنفس ما تعرض له ابن العلقمي من الإهانة والإذلال والتحقير، فلم يذكر المؤرخون المعاصرون له أي إنجاز أو عمل قام به في العشر سنوات الأخيرة من عمره، حتى قيامه بجولته فـي مـدن العراق لتفقد أوقافها وجمع ما تبقى من الكتب، كان هذا الحدث في عام (٦٦٢هـ=١٢٦٣م) أي قبل وفاة هولاكو بعام حيث قال العيني عن ذلك: "أن النصير الطوسي وفد إلى بغداد من جهـة هولاكو"[8]، والباحث يرجح تعرض الطوسي لمعاملة سيئة مثلما حدث مع ابن العلقمي، وذلك في السنوات الأخيرة من عمره دفعه ذلك إلى اليأس من الحياة، وإنهاء حياته بالانتحار، وربما تناول سُماً، حيث عثر الباحث على رواية لأحد المؤرخين يقول: أشيع أنه مات مسموماً[9].

تُرى ولماذا سكت معاصرو الطوسي من مؤرخي الشيعة عن حادثة الانتحـار؟ يـرى الباحث أن الانتحار يعد مثلبة في الناس القادرين على التصرف الصحيح، فكيف بشيخ فلاسـفة

---

(1) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص ٢٨٢؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص ١٨١؛ السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٨، ص ٢٧٠؛ روم لاند: الإسلام والعرب، ص١١٧.
(2) أنظر: الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص٣٤١.
(3) الأعسم: الفيلسوف نصير الدين الطوسي، ص٤٧.
(4) الاسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي، ص ٧٦،٧٧.
(5) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢ ص ٣٤١.
(6) الكتبي: فوات الوفيات، ج٢، ص ٢٥٦.
(7) الحوادث الجامعة، ص٢٤٥.
(8) عقد الجمان، حوادث (٦٤٨-٦٦٤هـ)، ص٣٨٧.
(9) ابن العبري: تاريخ الزمان، ص٣٣٠.

العصر وإمام الفكر الشيعي بلا منازع؟! أحد الباحثين المعاصرين يفسر حادثة انتحار الطوسي، بأنه كان يعيش حياة ضنكى في أيامه الأخيرة، ويعاني من حالة نفسية صعبة، وكذلك كان يعاني من مرض غريب تسبب له بآلام شديدة، ويعتقد أن شدة الألم مع وجود حالة نفسية صعبة تسيطر عليه فضلاً عن كبر سنه وضعفه وعدم قدرته على تحمل كل ذلك دفعه لإنهاء حياته(١)، ويستند هذا الباحث لرواية أحد مؤرخي الشيعة التي ورد فيها إصابة الطوسي بمرض خطير يسبب آلاماً شديدة(٢).

إن نهاية الطوسي وابن العلقمي هي نهاية متوقعة ولم تكن غريبة وشاذة، فهـذه نهايـة عملاء الاحتلال في كل الأزمان، ولم يشهد التاريخ اهتمام أي احتلال بعملائه بعد حصوله على خدماتهم، إذ أنهم يصبحون يشكلون ثقلاً ويتحولون إلى عبء على الاحتلال، عنـدها يتوجـب إهمالهم، واحتقارهم وربما التخلص منهم، وهذا ما سيحدث في عراق العصر الحاضر، فعمـلاء الاحتلال الأمريكي، لن تستمر رعاية الاحتلال لهم، فقريباً سيصبحون عبئاً على أسيادهم وسوف يتخلون عنهم، وسيلفظهم الشعب، ومهما قدم هؤلاء لأسيادهم من خدمات، لن يشفع ذلـك لهـم، وعليهم أن يأخذوا من خيانة ابن العلقمي والطوسي وشيعة العراق عبرة وموعظة، فقد مات ابن العلقمي والطوسي، وبقي المؤرخون الأجانب قبل العرب يعدونهم خونة وعملاء سلموا بلادهـم للمحتل الكافر(٣)، وبقيت كتابات الطوسي تشهد على خيانته فقد قال أحد الباحثين المعاصـرين: "لكن التاريخ على أية حال يشهد على أن نصير قد سكت عن الحادث، ولم يدافع عـن انهيـار عرش المسلمين بل على العكس وجدناه، يؤرخ لفتح بغداد من وجهة نظر مراقب فـي الجانـب المغولي، في رسالته المشهورة [رسالة فتح بغداد]"(٤)، ولكنها سنة التدافع، فقد اقتضت حكمة ا تبارك وتعالى أن يكون التدافع هو القانون الذي يحكم حركة التاريخ على هذه الأرض فما تكـاد لحظة من لحظات البشرية تمر إلا ويتحقق فيها قوله تبارك وتعالى {ولولا دفع ا الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض}(٥).

---

(1) الأعسم: الفيلسوف نصير الدين الطوسي، ص٥٤.
(2) الخونساري: روضات الجنات، ج٦، ص٦٠٦.
(3) براون: تاريخ الأدب في إيران، ص٥٨٨.
(4) الأعسم: الفيلسوف نصير الدين الطوسي، ص٤٤.
(5) قرآن كريم: سورة البقرة، آية ٢٥١.

وفي نهاية هذا المبحث يتساءل الباحث عن الدوافع التي جعلت شيعة العـراق يخونـون دينهم ووطنهم وأمتهم ويرجون المغول أن يحتلوا بلادهم ويساندونهم بكل إمكاناتهم.
وأستطيع الإجابة على هذا السؤال من خلال النقاط الموجزة الآتية:
أولاً: لا يشعر شيعة العراق بالانتماء إلى الخلافة الإسلامية العباسية، لأن الخلفاء من السنة وهم يرون أنّهم مغتصبون لها، وأن الأحق بها هم أبناء علي بن أبي طالب رضي ا عنه(*)[1]
ثانياً: معظم قادة الشيعة في العراق الذين ناصروا المغول، من أصول فارسية وهؤلاء يحقـدون على العرب ويتمنون زوال حكمهم، ولم يسلم من حقدهم وحقد أجدادهم حتى الصـحابة الكـرام وعلى رأسهم أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب[2]، وسبب حقدهم هو أن امبراطورية الفـرس سقطت على أيدي العرب، وهم ينتظرون الفرص للانتقام منهم، وقد فعلوا ذلك كلما سنحت لهـم الفرصة[3]، وقد رأينا في عصرنا كيف قام قادة شيعة العراق ذوي الأصول الفارسية بتحـريض أمريكا على احتلال العراق، وكيف صاروا جنوداً تحت قيادتهم، وكيف ينتقمون من سنة العراق ومقدساتهم.
ويكفي دليلاً على وجود الحقد وتوارثه عبر التاريخ وبقائه إلى يومنا هذا أنه ما يزال لأبي لؤلؤة المجوسي قاتل الخليفة عمر بن الخطاب مقام في إيران يزوره الشيعة ويقدسونه[4].
ثالثاً: القمع الذي تعرض له شيعة العراق من حكامهم السنة منذ العهد الأموي والذي حدث بسبب كثرة تمرداتهم على ولاتهم وعصيانهم لهم والتآمر للإطاحة بهم[5]، فقد أدى هذا القمع إلى كـره الحكام والحقد عليهم وتَمَني زوال حكمهم ولو على يد محتل كافر[6].
رابعاً: جبن شيعة العراق وعدم قدرتهم الذاتية على التوحد لإزالة الحكام السنة(*) دفعهم للتحالف مع أعداء الأمة والاستعانة بهم لعلهم يصلون بمساعدتهم إلى حكم العراق، وهذا ما حـدث فـي القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، وما يحدث اليوم في عصرنا[7].

(*) أنظر: ملحق رقم (٥)، حيث يظهر تسلسل أئمة الشيعة من بعد علي بن أبي طالب.
(1) أنظر: الشهرستاني: الملل والنحل، ج٢، ص١٤٤، ص١٤٥؛ الخطيب: الخطوط العريضة، ص٢٦، ص٢٧؛ تامر: معجم الفرق الإسلامية، ص١١٨.
(2) ابن تيمية: مجموع الفتاوي، ج٣٥، ص١٨٥؛ النوبختي: فرق الشيعة، ص٢٢؛ الكشي: الرجال، ص١٢٠؛ القزويني: منهاج الشريعة في الرد على ابن تيمية، ص٥٠-٥١؛ الكليني: الكافي، ص٣٩١؛ الصياد: المغول، ج١، ص٢٧١.
(3) الرافعي: الإسلام في حضارته ونظمه، ص٦٩١.
(4) الخميني: تحرير الوسيلة، ج١، ص٣٠٢؛ شريعتي: عن التشيع والثورة، ص٥.
(5) أنظر: الأصفهاني: مقاتل الطالبين، ص٢٢٤، ص٤٢٨.
(6) شريعتي: عن التشيع والثورة، ص٧.
(*) بالرجوع إلى تاريخ الطبري، ج٦، ص١٧٠؛ ابن تيمية: الإمامة والسياسة، ج١، ص١٥١. يظهر كيف تطور الفكر الشيعي بفعل المنافسة الداخلية والصراع فيما بينهم حتى أدى إلى تشعب الحركة الشيعية إلى عدة فرق في نهاية القرن الأول حيث أخذ كل فريق يدعي الوصية عن أبي هشام مما أدى إلى حدوث صراع داخلي كبير وتفرقهم إلى فرق ثم تطور فكرهم في بدايات القرن الثاني الهجري حيث تم الوصول إلى العصمة والتعيين من الله.
(7) الكاتب: تطور الفكر السياسي الشيعي، ص٥١.

خامساً: عقائد الشيعة التي وضعها أئمتهم والتي ترى حكام السنة كفاراً وحكوماتهم كافرة يجـب محاربتها بكل الطرق، وترى أنه لا حرمة لدماء السنة باعتبارهم كفرة، ولا غرابة في ذلك، فهم يكفرون أصحاب رسول ا صلى ا عليه وسلم، وعلى رأسهم أبي بكر وعمر وعثمان[1].

سادساً: الحرب الأهلية بين السنة والشيعة عبر القرون الماضية، ومناصرة السـلطات الحاكمـة السنية للسنة[2] ولّد حقداً وغيظاً لدى الشيعة على الخلافة الإسلامية، وكـون لـديهم الاسـتعداد للتخاص منها ولو بمحالفة الأعداء[*][3].

(1) الطوسي: المبسوط، ص٢٨١، عن الكاتب: تطور الفكر السياسي الشيعي؛ الطبرسي: مستدرك الوسائل، ج٣، ص٤٨١؛ الخونساري: روضات الجنات، ج٦، ص٣٠٠-٣٠١؛ القمي: الكنى والألقاب، ج١، ص٣٦٥.

(2) أنظُر: ابن الجوزي: المنتظم، ج٩، ص١٥، ١٦، ص٢٦، ص٢٧، ٢٩، ص٣٠، ص٣٢، ص٥٨؛ ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص١٤٥-١٥٧.

(*) أنظُر: الأصفهاني: مقاتل الطالبين، ص١٤٣، ص١٤٥، ٢١٣، حيث قام الشيعة بتأليف هذا الكتاب لشهدائهم الذين سقطوا على يد السلطات السنية وهم يطالبون بحقهم المسلوب على حد تعبيرهم

(3) الزين: الشيعة في التاريخ، ص١٩٩، ص٢٠٢.

الخاتمة ونتائج البحث

توصلت الدراسة إلى عدد من النتائج وفي ما يأتي بيان لأهمها.

- ليس للخليفة العباسي الناصر لدين الله أي علاقة في توجيه نشاط المغول العدواني ناحية الغرب بعد أن كانوا غارقين في توسعاتهم في بلاد الصين، حيث أن سبب توجه المغول ناحية الغرب هو خرق الدولة الخوارزمية لمعاهدة تجارية كانت بينها وبين المغول بقيادة جنكيز خان، حيث قامت الدولة الخوارزمية بقتل معظم رجالات القافلة التجارية التابعـة للمغول، وحدثت المواجهة العسكرية بين الطرفين بعد رفض الدولة الخوارزمية طلبـات المغول لتسوية الأزمة.
- لم تصمد الدولة الخوارزمية أمام ضربات المغول رغم تفوقها عسكرياً وعدديا وحضارياً ويعود ذلك لعدم نجاعة الخطط العسكرية التي أعدتها هـذه الدولـة لمواجهـة جيـوش المغول، حيث قامت خطتها على توزيع قواتها بين المدن، ولم تعمل على تجميع جيوشها ومواجهة المغول بمجرد عبورهم النهر لأراضي الدولة الخوارزمية، كمـا أن الدولـة الخوارزمية كانت تعاني من ضعف في قيادتها حيث ارتكبت القيادة العديد من الأخطـاء على المستوى الداخلي والخارجي، وقد أضعفت هذه الأخطاء من قدرة الدولة على صـد العدوان.
- كانت الخلافة الإسلامية قبيل الغزو المغولي للعراق تمر بأوضاع سياسية صعبة، تمثلت بالعديد من الأخطار مثل مذابح المغول في الشرق وسيطرتهم على الدولة الخوارزميـة، وخلافات الأمراء والسلاطين المسلمين مع بعضهم البعض في العراق والشام ومصـر، والخطر الصليبي حيث احتل الصليبيون أجزاء من البلاد الإسلامية، وما تـزال مصـر تتعرض لحملات صليبية وخطر فرق الإسماعيلية التي كانت قد أقامت لها دولة ونشرت الخوف والرعب في العالم الإسلامي.
- لقد عانى المجتمع العباسي من حالة ضعف وتمزق اجتماعي وتدهور اقتصـادي قبيـل غزو المغول للعراق وذلك بسبب سـوء الإدارة للـبلاد المتمثلـة بمؤسسـة الـوزارة، والصراع السني الشيعي، واستغلال اليهود والنصارى للحرية الزائدة التي منحتهم إياهـا الدولة، فكانوا من عوامل الفساد الاقتصادي والاجتماعي، فضـلاً عـن غيـاب الأمـن الداخلي والخارجي.
- لم يكن إسقاط الخلافة الإسلامية هدف المغول عند غزوهم الدولة الخوارزميـة، فبعـد قضاء المغول على الدولة الخوارزمية ثم على السلطان جلال الـدين منكبرتـي عـام

(٦٢٩هـ=١٢٣١م) كان الطريق مفتوحاً أمام المغول حتى العراق، ولكن المغول لم يقصدوا الخلافة الإسلامية، بل أخذوا يتوسعون في بلاد الصين ثم أوروبا الشرقية ولم تتوقف جيوشهم عن الزحف داخل أوروبا إلا بعد وصول أنباء وفاة الخاقان أوكتاي في العاصمة (٦٣٩هـ= ١٢٤١م).

- لقد كان لشيعة العراق اتصالات سرية بالمغول، بإجماع ثقات المؤرخين هدفها جر المغول للعراق وإزالة الخلافة الإسلامية هناك.
- تعددت طرق ووسائل اتصال شيعة العراق بالمغول، فاستخدموا إرسال الرسل وعقد اجتماعات سرية، كما استخدموا الرسائل السرية التي كتبت حتى على رؤوس الرجال، وبناءً على هذه الاتصالات كانت عمليات تهيئة البلاد للسقوط.
- لم يكن حادث الكرخ الشهير هو السبب في اتصال شيعة العراق بالمغول فلقد كانت للشيعة اتصالات سرية مع المغول قبل هذا الحادث بكثير.
- كانت هناك اتصالات بين الخواجة نصير الدين الطوسي والمغول منذ أن كان في قلاع الإسماعيلية، حيث عمل النصير على تكوين شبكة من العملاء مكنته وأعوانه من المساعدة في تسليم قلاع الإسماعيلية للمغول دون قتال يذكر، موفراً عليهم سنوات من الحرب.
- بعد مساعدة الطوسي في تسليم قلاع الإسماعيلية، أصبح الطوسي المستشار الأول لهولاكو وكاتب الرسائل له.
- ينفي مؤرخو الشيعة خيانة شيعة العراق بحجة أن المؤرخين الذين ذكروا الرواية من السنة ولم يعاصروا الحادثة مكاناً وزماناً، وأثبت الباحث أن هناك علماء من الشيعة ذكروا الحادثة، كما أن هناك مؤرخ شيعي ذكر خيانة الشيعة وقد عاصر الحادثة مكاناً وزماناً، فضلاً عن أنه من سكان بغداد.
- كان هولاكو متردداً في غزو العراق، وزاد تردده بما ذكره أحد المنجمين المرافقين لحملة هولاكو بأن غزو العراق سيعود على هولاكو بالوبال والموت، ولكن الخواجة نصير الدين الطوسي الشيعي استطاع تقوية عزيمة هولاكو، وتشجيعه وتبسيط الأمر له بالحجج والبراهين، حتى عقد العزم وأصدر الأمر بتحرك القوات العسكرية نحو بغداد.
- استغل شيعة العراق ضعف الخليفة المستعصم، فعملوا على وصول العلقمي لرآسة الحكومة، وتقريب الشيعة في المناصب الحساسة في الدولة، ثم عزل الخليفة عن مسرح الأحداث لتنفيذ باقي عناصر مخطط تهيئة البلاد للسقوط.

- استطاع العلقمي القضاء على القوة العسكرية للعراق، بسياسة تسريح الجند والضـباط، وترقين القيد، وتخفيض الرواتب، وعدم استيعاب جدد، والإهمال في التدريب والتجهيز، فوصل بالجيش من مائة ألف جندي إلى عشرة آلاف جندي أثناء وزارته.
- لقد استطاع العلقمي وكبار رجال الدولة من الشيعة تهيئة البلاد للسقوط حيث عمل على إضعاف أهل السنة وتقوية نفوذ الشيعة، وحل الجيش وضرب اقتصاد الـبلاد، وأهمـل إدارة البلاد، وإشاعة الفلتان الأمني، وإشاعة ثقافة المهادنة وعدم جدوى المقاومة.
- شارك شيعة العراق بقوات عسكرية كانت في مقدمة جيش هولاكو القادم لغزو العراق.
- استطاع الجيش العراقي تحقيق نصر على جيش المغول في اليوم الأول، حيث تراجـع المغول ولاحقهم جيش العراق، وأرسل الأسرى ورؤوس القتلى إلى مدينة بغداد، واحتفل الناس بذلك، ولكن بعض فرق الشيعة قامت بتحويل النصر إلى هزيمة بعـد أن فتحـت السدود المقامة على دجلة خلف جيش العراق فغرق الجيش.
- لم يقتصر موقف الشيعة من المغول على شخصيات بعينها بل كان موقفاً عاماً وشـعبياً، حيث استقبلت جموع الشيعة قوات المغول بالأفراح والمهرجانات وقدمت لهم المساعدات عند عبورهم النهر.
- استطاع الوزير العلقمي ونصير الدين الطوسي وأعوانهما توجيه ضربة قوية للعـراق، حيث عملوا على تسليم الخليفة وكبار رجال الدولة بالخديعة للمغول أثناء حصار بغداد.
- عمل شيعة العراق على إفراغ البلاد من كل الشخصيات المحورية من علماء وقضـاة، ورجال حكم وإدارة أثناء حصار بغداد، وذلك بالخديعة بعد أن تم القبض على الخليفـة، وذلك بهدف تأمين دخول قوات الاحتلال دون مقاومة.
- لم يكن هولاكو يريد قتل الخليفة حيث تم عقد اتفاق بين هولاكو والخليفة ولكـن كبـار مستشاري هولاكو من الشيعة أمثال الطوسي وكذلك الوزير ابن العلقمي أصروا علـى قتل الخليفة حيث ابتدع الطوسي طريقة لقتل الخليفة بحيث لا يسيل دمه تمشياً مع عادات المغول ونبوءات المنجمين.
- لم يكن احتلال المغول للعراق بسبب قوتهم العسكرية ولكن بسبب خيانة الشيعة ووصول العراق لحالة من الضعف الشديد على أيديهم.
- لم يتورع شيعة العراق من الاستفادة من حصار بغداد فعملوا على ابتزاز أهـل السـنة حيث كانوا يقدمون لهم أخس الطعام ويأخذون بدلاً منه أنفس الكتـب وأثـاث البيـوت، فاستغنى بذلك خلق كثير منهم.
- علماء الشيعة في العصر الحديث يفتخرون بموقف الطوسي والعلقمي والشيعة العراقيين من الغزو المغولي للعراق.

- لقد منيت الحضارة العربية الإسلامية بخسارة عظيمة بفقدانها آلاف العلماء الذين قتلـوا ومكتبات العراق التي أحرقت وأغرقت وأتلفت أو نهبت.
- لقد ارتكب المغول أبشع الجرائم في العراق من قتل وحرق وتدمير، في الوقـت نفسـه كانت أحياء ومقدسات وأضرحة الشيعة سالمة آمنة، بل حددت أماكن من قيادة المغـول للشيعة للاحتماء بها وفرزت حراسات عسكرية لحمايتها.
- ليس هناك مبالغة في عدد ضحايا مذبحة بغداد التي أوردها المؤرخـون المعاصـرون للأحداث وهذا ما أثبته الباحث بالبراهين.
- اعتمد المغول على شيعة العراق في حكم الأقاليم حيث تم اختيار لجنة من الشيعة لحكـم البلاد تتلقى القرارات من حاكم مغولي له مركز قيادة في العراق.
- لم يدم احترام المغول لعملائهم في العراق، حيث تلقى العلقمي معاملة سيئة بعد استتباب الأوضاع فيها لصالح المغول، كما أن نصير الدين الطوسي مات منتحراً.
- تميز عصر الاحتلال المغولي للعراق بالتراجع الحاد للبلاد علـى جميـع المسـتويات الاقتصادية والعلمية والأمنية والأدبية.
- إن موقف الشيعة من غزو المغول للعراق، هو موقف نابع من عقيدة الشيعة القائمة على أنهم أصحاب حق مسلوب منذ خلافة أبي بكر، فهم يعدون كل الحكومات التـي قامـت والتي ستقوم حكومات باطلة يجب محاربتها وإسقاطها بكل السبل. عدا حكم علـي ابـن أبي طالب والأئمة من بعده.

التوصيـات

لقد تبين للباحث من خلال دراسته لموضوع موقف الشيعة من غزو المغول للعـراق أن هناك موضوعات جديرة بالبحث، وما تزال تخلو منها المكتبة العربية، وهي بحاجة إلى اهتمـام وجهود الباحثين، وهذه الموضوعات هي:

١. النزاع السني الشيعي في الدولة الأموية والعباسية.

٢. جلال الدين الخوارزمي وحروب الاسترداد.

وختاماً فإنني أحمد الله عز وجل كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه الذي شرح صدري للبحث في هذا الموضوع، ومنحني القدرة على خوض غماره ويسر لي كل ما أعانني علـى إخراجه بهذه الصورة، وأسأله سبحانه أن يجعل كل ما بذلته فيه جهاداً في سبيله، أجده فـي ميزان حسناتي يوم القيامة.

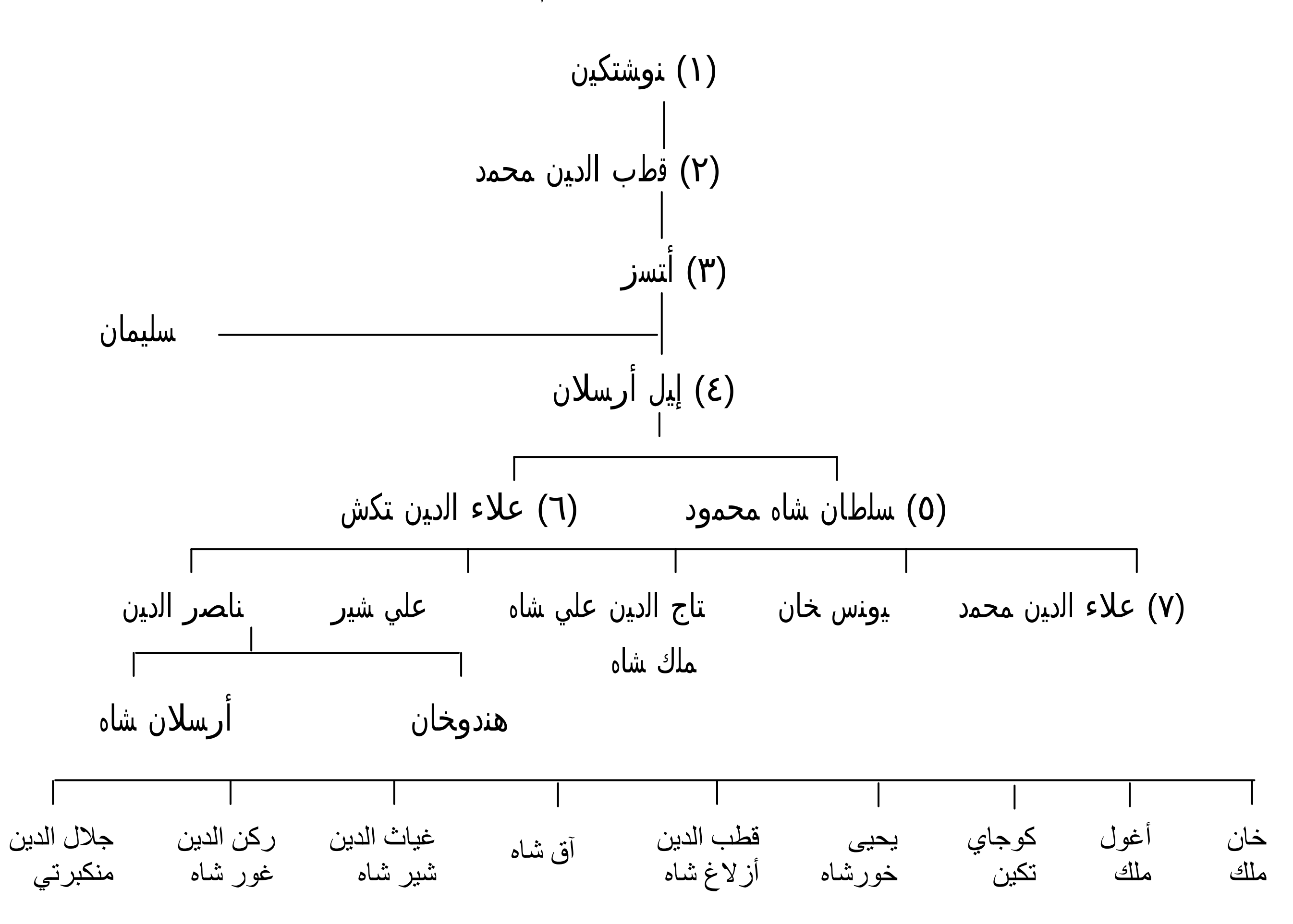
والفضل لله وحده في كل صواب وتوفيق وخير جاء به البحث، وأمـا الخطـأ والزلـل والنسيان، فمن نفسي، ومن الشيطان، وأستغفر الله عنه وأتوب إليه وأسأله سبحانه أن يغفـر لي ذنبي كله، دقه وجله، علانيته وسره.

وصلي اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الملاحـــــق

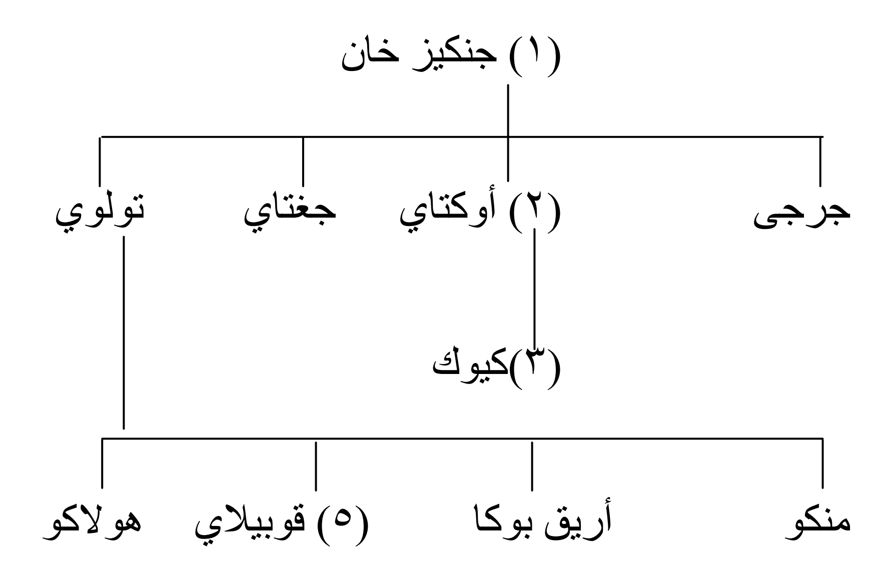
سلاطين خوارزم



ملخص من كتاب النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي.

ملحق رقم "١"

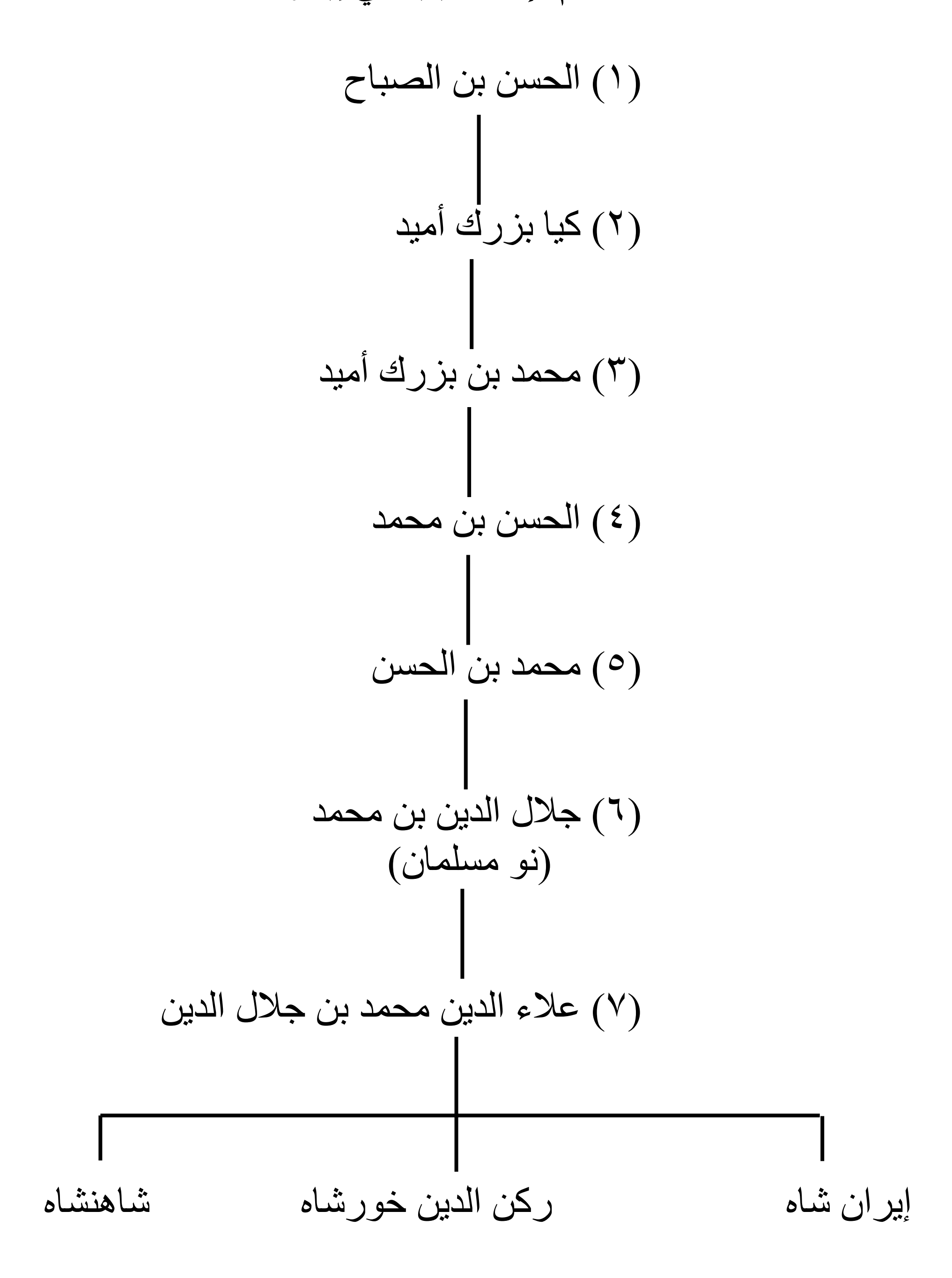
خانات المغول



ملخص من كتاب الهمذاني: جامع التواريخ.

ملحق رقم "٢"

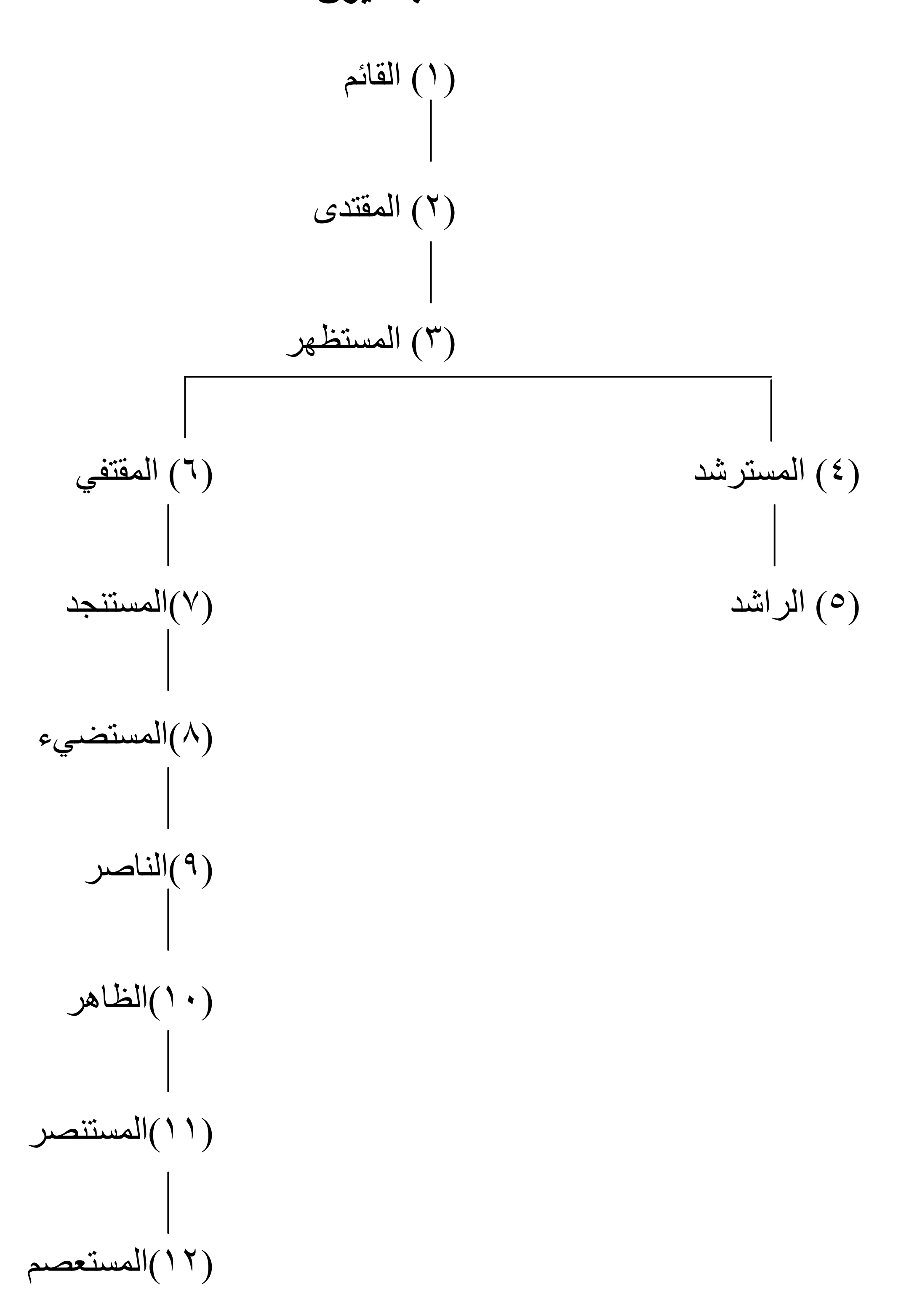
حكـــام الإسماعيلية في إيـــران



ملخص من كتاب ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة

ملحق رقم "٣"

الخلفاء العباسيون



ملخص من كتاب ابن كثير: البداية والنهاية

ملحق رقم "٤"

أئمة الشيعة

علي بن أبي طالب (المرتضى)

- الحسن (المجتبي)
- الحسين (شهيد كربلاء)
- محمد الحنفية (الكيسانية)

الحسين (شهيد كربلاء)
↓
علي زين العابدين (السجاد)

- محمد الباقر
- زيد (الطائفة الزيدية)

محمد الباقر
↓
جعفر الصادق

- اسماعيل (الطائفة الإسماعيلية)
- موسى (الكاظم) (الطائفة الإمامية)

موسى (الكاظم) (الطائفة الإمامية)
↓
علي (الرضا) – عهد إليه المأمون بالخلافة لكنه مات قبل المأمون
↓
محمد (التقي)
↓
علي (التقي)
↓
الحسن (الزكي)
↓
محمد (الحجة) – وهو المهدي المنتظر في رأي الأمامية- (الاثنى عشرية ينتظرون عودته)

١. اسماعيل (الطائفة الإسماعيلية)
٢. محمد (المكتوم)
٣. جعفر (الصدق)
٤. محمد (الحبيب)
٥. عبيد الله المهدي (أول الخلفاء الفاطميين) (يقال أنه يهودي –ابن كثير- البداية والنهاية)
٦. القائم بأمر الله أبي القاسم محمد
٧. المنصور بالله أبي الطاهر اسماعيل
٨. المعز لدين الله ابي تميم معد (باني القاهرة وأول خلفائهم في مصر)
٩. العزيز بالله أبي المنصور نزار
١٠. الحاكم بأمر الله أبي علي المنصر (ادعى الألوهية وعمل الغيب وأضاف اسمه "الحاكم" إلى البسملة)
١١. الظاهر لاعزاز دين الله أبي الحسن علي
١٢. المستنصر بالله أبي تميم معد

- المستعلي بالله أبي القاسم أحمد (الطائفة المستعولية)
- نزار (الطائفة النزارية) (يقولون بأن الإمامة انتقلت إلى ابنه نزار بالنص وأن نزار حمل في بطن جارية عبر بلاد الأعداء إلى قلاع الحشاشين جنوب بحر قزوين)

المستعلي بالله أبي القاسم أحمد
↓
الآمر بأحكام الله أبي القاسم أحمد

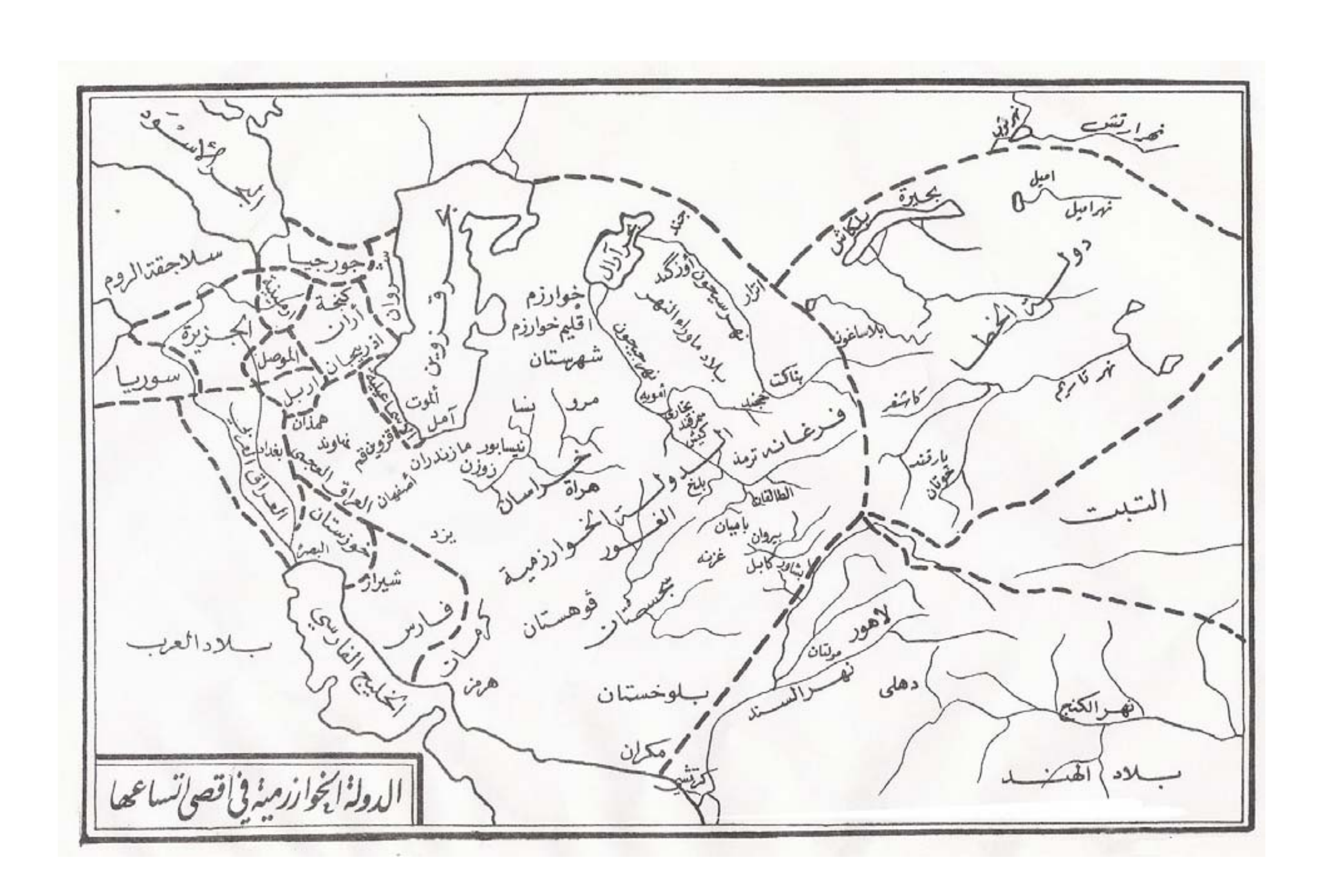
الحافظ لدين الله أبي الميمون عبد الحميد بن أبي القاسم

- الظافر بأمر الله أبي منصور اسماعيل
↓
الفائز بنصر الله أبي القاسم عيسى بن الظافر (لم يعقب فانتقلت الخلافة إلى ابن عمه)

- يوسف
↓
العاضد لدين الله أبي محمد بن عبد الله بن يوسف الحافظ (أنهى حكمه صلاح الدين الأيوبي قبيل موته وضم مصر للخلافة العباسية)

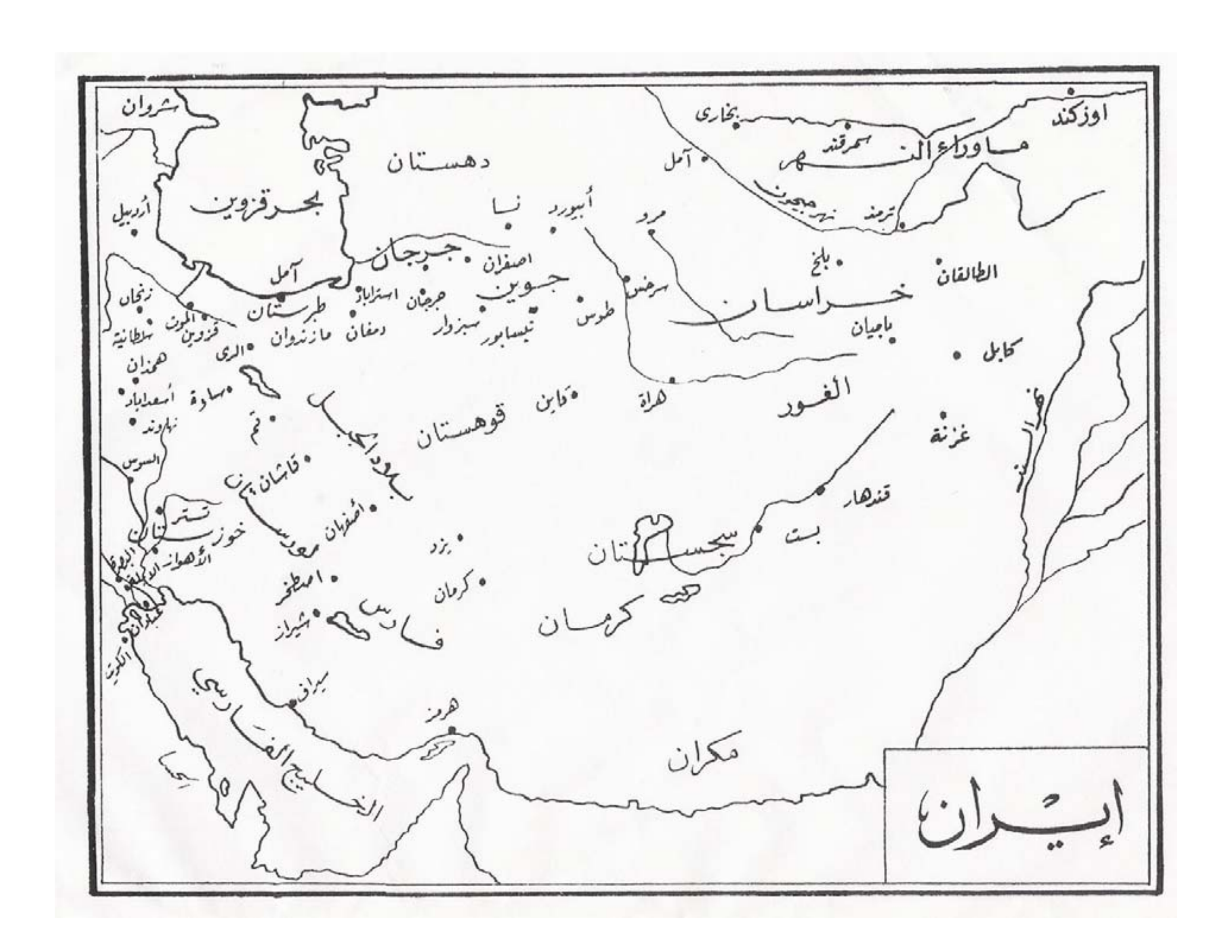
ملخص عن كتاب ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة.

ملحق رقم "5"



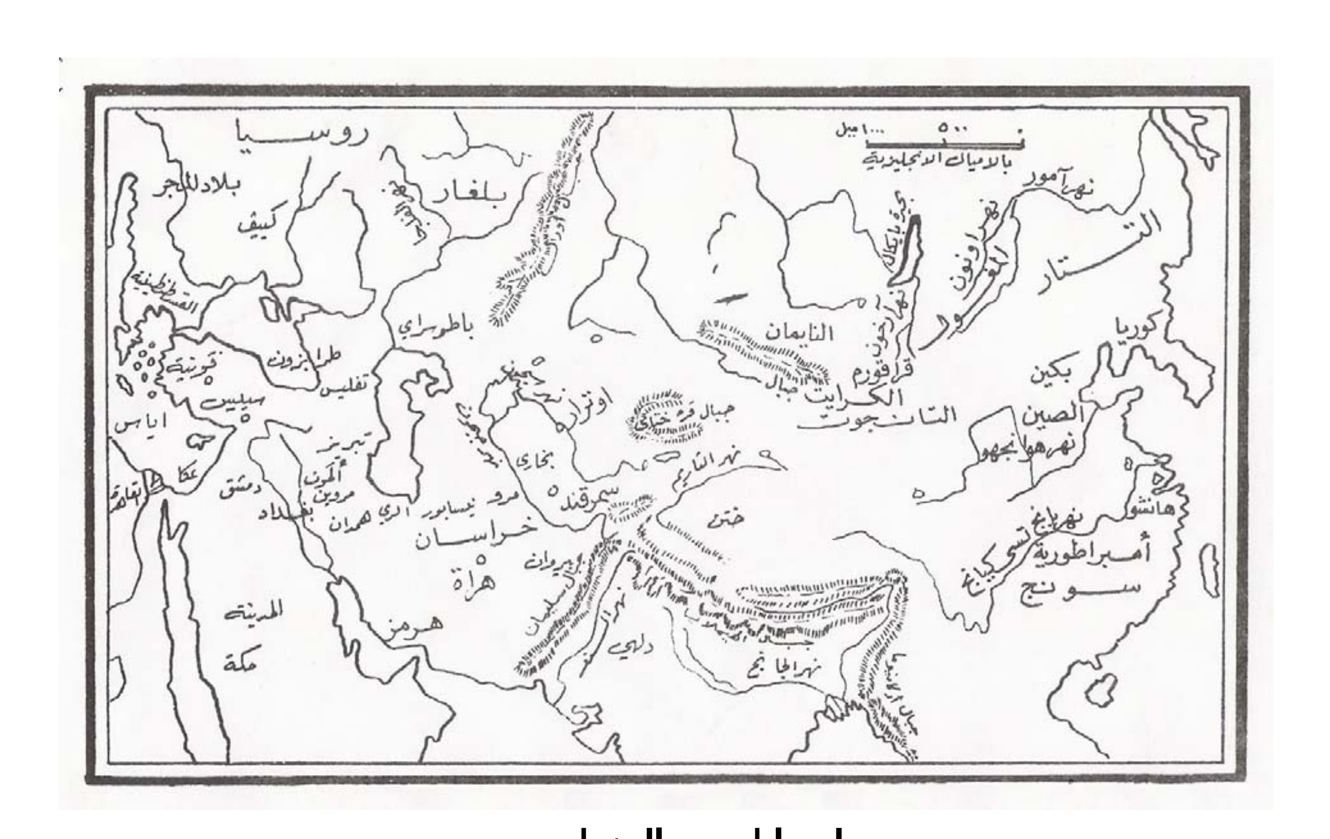
نقلاً عن: أبو غضيب: أطلس تاريخ العالم القديم والمعاصر.

ملحق رقم "٦"



نقلاً عن: أبو غضيب: أطلس تاريخ العالم القديم والمعاصر،

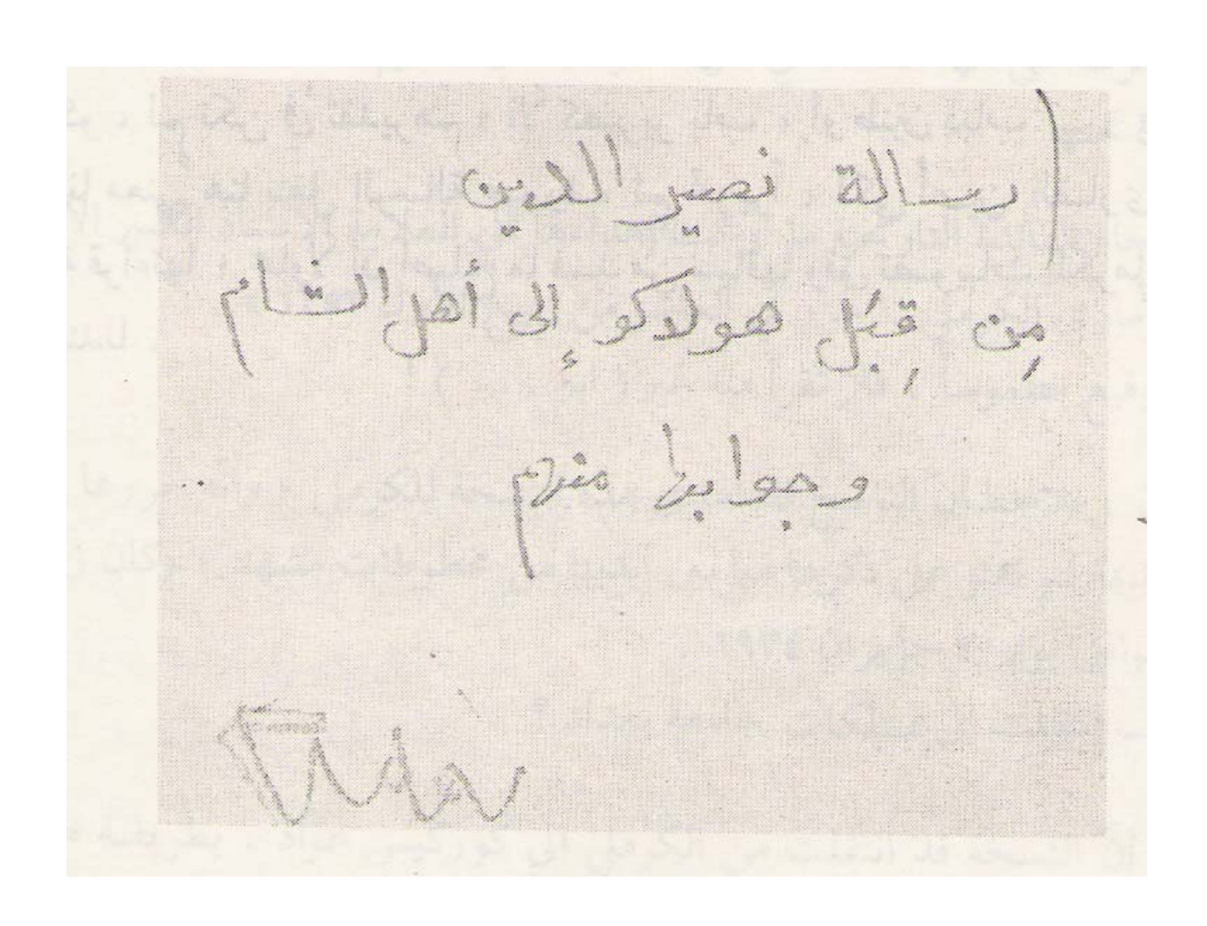
ملحق رقم "٧"



إمبراطورية المغول

نقلاً عن: أبو غضيب: أطلس تاريخ العالم القديم والمعاصر،

ملحق رقم "٨"


رسالة نصير الدين
من قبل هولاكو الى أهل الشام
وجوابها منهم

مخطوطة مكتبة الدراسات العليا، كلية الآداب/ جامعة بغداد، رقم ٩٧٥.

نقلاً عن الأعسم: الفيلسوف نصير الدين الطوسي.

ملحق رقم "٩"

(1)

المكاتب رسالة نصير الدين من قبل هلاكو

بسم الله الرحمن الرحيم وله الحمد والمجد الى اهل الشام وجوابها منهم

قل اللهم فاطر السموات والارض الذي يعلم به جمال الدين

(بكتمر) و(علاء الدين القيمري) وسائر امراء الشام والاجناد .

اعلموا انا جند الله خلقنا من سخطه وسلطنا على من حل عليه

غضبه لا نرق لشاكٍ ولا نرحم عبرة باكٍ قد نزع الله الرحمة من

قلوبنا فالويل كل الويل ممن لم يكن من حزبنا وقد خربنا البلاد

وايتمنا الاولاد واظهرنا في الارض الفساد خيولنا سوابق ورماحنا

خوارق وسيوفنا صواعق وقلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال من رام

سلمنا سلم ومن رام حربنا ندم ملكنا الايام وجارنا لا يضام

فان انتم قبلتم شرطنا واطعتم امرنا كان لكم ما لنا وعليكم ما علينا .

وان انتم خالفتم وابيتم وعلى غيكم تماديتم فلا تلوموا الا انفسكم .

الحصون بين ايدينا لا تمنع والعساكر لقتالنا لا ترد ولا تدفع

ودعاؤكم علينا لا يستجاب ولا يسمع لانكم اكلتم الحرام واظهرتم البدع

وضيعتم الايمان وتبعتم الجمع وتباغيتم الجهل والطغيان فابشروا

بالمذلة والهوان اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون

في الارض بغير الحق وبما كنتم تفسقون وسيعلم الذين ظلموا اي

منقلب ينقلبون وقد ثبت عندكم انا كفرة وحق عندنا انكم

فجرة وقد سلطنا عليكم الله بيده امور مقدرة واحكام مدبرة

فعزيزكم لدينا ذليل وكثيركم لدينا قليل من الامن والخوف لمن

(2)

ص٢

هو بين ايدينا طويل فانا ملوك الارض شرقا وغربا واصحاب

الاموال صلبا ونجبا وتأخذون كل سفينة غصبا فيزوا [illegible] لكم طرق

الصواب واسرعوا الينا برد الجواب من قبل ان تستعير الحرب

اوزارها وترقى اليكم شرارها فلم يبق لكم باقية وتضحي الارض

منكم خالية وينادي عليكم منادي الفنا فهل تحس منهم من احد

او تسمع لهم ركزا وقد انصفناكم اذ راسلناكم ونثرنا جواهر

الكلام والسلام (جواب) قل اللهم على كل شيء قدير والحمد لله

والصلاة على سيدنا محمد النبي الامي على كتاب ورد فحواه عن الحضرة

الخاقانية والسدة السلطانية نصر الله اشدها وجعل الصحيح مقبولا

عندها وبان انكم مخلوقون من سخطه مسلطون على من حل عليه

غضبه ولا ترقون لشاك ولا ترحمون عبرة باك قد نزع الله الرحمة

من قلوبكم وذلك من اكبر عيوبكم فهذه صفات الشياطين لا صفات

السلاطين كفى بهذه الشهادة لكم واعظا وبما وصفتم به انفسكم [illegible]

وآمرا قل يا ايها الكافرون لا اعبد ما تعبدون ففي كل كتاب لعنتم

وبكل قبيح وصفتم وعلى لسان كل رسول ذكرتم وعندنا خبركم من حيث

خلقتم وانتم الكفرة كما زعمتم الا لعنة الله على الكافرين وقلتم اننا اظهرنا

الفساد ولا [illegible] بالاصول ولا يبالي بالفروع

ونحن المؤمنون حقا لا يدخل علينا عيب ولا يصدنا غيب القرآن علينا

نزل وهو رحيم بنا لم يزل تحققنا تنزيله وعرفنا تأويله انما النار

لكم خلقت ولجلودكم احرقت اذا السماء انفطرت ومن اعجب العجب

[illegible]

3

المليوث (١٣) والكماة بالكماة

تهديد الرجوم بالنجوم والسباع بالضباع والكماة بالكماة خيولنا
برقية وسهامنا يمانية وسيوفنا مضرية واكتافها شديدة المضارب
ووصفها في المشارق والمغارب فرساننا ليوث اذا ركبت وافراسنا
لواحق اذا طلبت سيوفنا قواطع اذا ضربت وليوثنا سواحق اذا
نزلت جلودنا دروعنا وجواشننا صدورنا لا يصدع قلوبنا شديد
وجمعنا لا يراع بتهديد بقوة العزيز الحميد لا يهولنا تخويف ولا يزعجنا
ترجيف ان عصينا فتلك طاعة وان قتلناكم فنعم البضاعة وان
قتلنا فبيننا وبين الجنة ساعة قلتم قلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال
فالقصاب لا يهوله كثرة الغنم وكثرة الحطب يكفيه قليل الضرم افيكون
من الموت فرارنا وعلى الذل قرارنا الا ساء ما يحكمون الفرار من
الرزايا لا المنايا فهجوم المنية عندنا غاية الامنية ان عشنا فسعيدا
وان متنا فشهيدا الا ان حزب الله هم الغالبون ابعد امير المؤمنين
وخليفة رسول رب العالمين تطلبون منا الطاعة لا سمعا لكم ولا طاعة
تطلبون ان نسلم اليكم امرنا قبل ان ينكشف الغطاء ويدخل
علينا منكم الخطا هذا كلام في نظمه تركيك وفي سلكه تسليك
ولو كشف الغطا ونزل القضا لبان من أخطا اكفر بعد الايمان
ونقض بعد التبيان قولوا للكاتب الذي وصف مقالته وحرر
رسالته ما قصرت بما قصرته واوجزت وبالغت وافدت
ما كان عندنا كتابك الا كصرير باب او طنين ذباب قد عرفنا
اظهار بلاغتك واعلان فصاحتك وما انت الا كما قال القائل
حفظت شيئا وغابت عنك اشياء

(4)

كتبت سيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون لك هذا الخطاب
وسيأتيك الملك الناصر وبكتمر وعلاء الدين القيمري وساير
امراء الشام ينصرون الانتصار الى جهنم وبئس المهاد وضرب
اللمم بالصماصم الحداد وقل لهم اذا كان لكم سماحة ولديكم هذه
الفصاحة فما الحاجة الى قراءة ايات وتلفيق حكايات
وتصنيف مكاتبات وها نحن نوصل الكتب مع علاء الدين السيستي
ولا تعدنا مكان السلم بل قتلنا ما حضر والسلام
... بامكان

عثرت على هذه النسخة في خزانة خراسان
في ضمن نسخة خطية قديمة

ودجان الفائدة التاريخية اوجب
اهداءها الى العلامة الاستاذ الكبير
الاب انستاس ماري الكرملي
حرره في ٢٠ العاشر من ربيع الاول
١٣٥٢

رسالة نصير الدين من قبل هولاكو إلى أهل الشام وجوابها منهم

قل: اللهم فاطر السموات والأرض؛ الذي يعلم به جمال الدين بكتمر وعلاء الدين القيمري وسائر أمراء الشام والأجناد.

اعلموا أنا جند ا ، خلقنا من سخطه، وسلطنا على من حل عليه غضبه؛ لا نرق لشاك، ولا نرحم عبرة باك. قد نزع ا الرحمة من قلوبنا، فالويل، كل الويل، لمن لم يكن من حزبنا: قد خربنا البلاد، وأيتمنا الأولاد، وأظهرنا في الأرض الفساد. خيولنا سوابق، ونواصينا خوارق، وليوثنا سواحق، وقلوبنا كالجبال، وعدونا كالرمال؛ من رام سلمنا سلم، ومن رام حربنا ندم؛ فملكنا لا يرام، وجارنا لا يضام.

فان قبلتم شرطنا، وأطعتم أمرنا، كان لكم ما لنا، وعليكم ما علينا. وإن أنتم خالفتم وأبيتم، وعلى غيكم تماديتم؛ فلا تلوموا إلا أنفسكم.

الحصون بين أيدينا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا ترد ولا تدفع، ودعاؤكم علينا لا يستجاب ولا يسمع؛ لأنكم أكلتم الحرام، وأظهرتم البدع، وحنثتم بالأيمان، وضيعتم الجمعة، وتنافرتم بالحسد والطغيان؛ فاستبشروا [إذ استبدلتم النفوس......] بالمذلة والهوان. فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق، وبما كنتم تفسقون؛ وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

وقد ثبت عندكم أننا كفرة، وحق عندنا أنكم فجرة؛ وقد سلطنا عليكم من بيده الأمور مقدرة، والأحكام مدبرة. فعزيزكم لدينا ذليل، وكثيركم لدينا قليل، والأمن والخوف لمن هو بين أيدينا طويل؛ فإنا ملوك الأرض، شرقاً وغرباً؛ وأصحاب الأموال سلباً ونهباً؛ وآخذون كل سفينة غصباً. فميزوا بعقولكم طرق الصواب، وأسرعوا إلينا برد الجواب. من قبل أن تستعر الحرب نارها، وترمي إليكم شرارها فلا تبقي منكم باقية؛ وتضحى الأرض منكم خالية؛ وينادي عليكم منادي الفناء: فهل تحسبن منهم من أجاب، أو تسمع لهم ركزاً؟ وقد أنصفناكم [إذا أعذر من أنذر، وأنصف من حذر] وسألناكم. ونشرنا جواهر الكلام والسلام.

جواب أهل الشام

قل: اللهم على كل شيء قدير، والحمد ، والصلاة على سيدنا محمد النبي، الأمي.

[جواب] على كتاب ورد فجراً من الحضرة الخاقانية، والسدة السلطانية، نصر ا أشدها وجعل الصحيح مقبولاً عندها؛ وبان أنكم مخلوقون من سخطه، مسلطون على من حل عليه غضبه، ولا ترقون لشاك، ولا ترحمون عبر باك، قد نزع ا الرحمة من قلوبكم، وذلك من أكبر عيوبكم؛ فهذه صفات الشياطين، وصفتم به أنفسكم ناهياً وآمراً.

قل: يا أيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون. ففي كل كتاب لعنتم، وبكل قبيح وصفتم، وعلى لسـان كل رسول ذكرتم؛ وعندنا خبركم من حيث خلقتم، وأنتم الكفرة كما زعمتم؛ ألا لعنـة ا علـى الكافرين.

وقلتم: إننا أظهرنا الفساد، ولا عز من أنصار فرعون من تمسك بالأصول، ولا يبالي بـالفروع. ونحن المؤمنون حقاً؛ لا يداخلنا عيب، ولا يصدنا غيب، القرآن علينا نزل، وهو رحيم بنـا لـم يزل، تحققنا تنزيله، وعرفنا تأويله. إنما النار لكم خلقـت، ولجلـودكم أضـرمت؛ إذ السـماء انفطرت. ومن أعجب العجب تهديد الليوث بالرتوت، والسباع بالضباع، والكماة بالكراع.

[إن] خيولنا برقية، وسهامنا يمانية، وسيوفنا مضرية، وأكتافها شديدة المضارب، ووصـفها فـي المشارق والمغارب؛ فرساننا ليوث إذا ركبت، وأفراسنا لواحق إذا طلبت، سـيوفنا قواطـع إذا ضربت، وليوثنا سواحق إذا نزلت، جلودنا دروعنا، وجواشننا صدورنا، لا يصدع قلوبنا تشريد، وجمعنا لا يراع بتهديد، بقوة العزيز الحميد اللطيف لا يهولنا تخويف، ولا يزعجنا ترجيـف. إن عصيان قتلك طاعة، وإن قتلناكم فنعم البضاعة؛ وإن قتلنا، فبيننا وبين الجنة ساعة.

قلتم: قلوبنا كالجبال، وعدونا كالرمال؛ فالقضاء لا يهوله كثرة الغنم، وكثرة الحطب يكفيه قليـل الضرم. أفيكون من الموت فرارنا، وعلى الذل قرارنا؟ ألا ساء ما يحكمون! الفرار من الدنايا لا من المنايا؛ فهجوم المنية، عندنا، غاية الأمنية. إن عشنا فسعيداً، وإن متنا فشهيداً، ألا إن حـزب ا هم الغالبون. أبعد أمير المؤمنين، وخليفة رسول رب العالمين، تطلبون منا الطاعة؟! لا سمعاً لكم ولا طاعة! تطلبون أن نسلم إليكم أمرنا قبل أن ينكشف الغطاء، ويدخل علينا الخطاء.

هذا كلام في نظمه تركيك، وفي سلكه تسليك. ولو كشف الغطاء، ونزل القضاء، لبان من أخطـأ الكفر بعد الإيمان، ونقض بعد التبيان.

قولوا لكاتبكم الذي رصف مقالته، وفخم رسالته، ما قصرت بما قصدت، وأوجزت وبالغت. وا ما كان عندنا كتابك إلا كصرير باب، أو طنين ذباب؛ قد عرفنـا إظهـار بلاغتـك، وإعـلان فصاحتك. وما أنت إلا كما قال القائل: حفظت شيئاً، وغابت عنك أشياء!

كتبت: سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون. لك هذا الخطاب؛ وسيأتيك الملك الناصر، وبكتمر، وعلاء الدين القيمري وسائر أمراء الشام ينفرون الإيصال إلى جهنم، وبئس المهاد، وخرب اللمم بالصماصم الحداد. وقل لهم: إذا كان لكم سماحة، ولديكم هذه الفصاحة؛ فما الحاجة إلى قـراءة آيات، وتلفيق حكايات، وتصنيف مكاتبات؟ وها نحن [أولاء]، في أواخر صفر موعدنا الرسـتن؛ وألا تعد بإمكان السلم، وقد قلنا ما حضر والسلام!

رسالة جنكيز خان الأولى لخوارزم شاه بعد قتل تجار القافلة.

من المعهود من الملوك أن التجار لا يقتلون، لأنهم عمارة الأقاليم، وهم الذين يحملون إلى الملوك ما فيه التحف والأشياء النفيسة، ثم إن هؤلاء التجار كانوا على دينك، فقتلهم نائبك، فإن كان أمراً أمرت به، طلبنا بدمائهم، وإلا فأنت تنكره وتقتص من نائبك.

ولكن خوارزم شاه قتل رسول جنكيز خان.

ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص١١٩.

الرسالة الأخيرة من جنكيز خان إلى خوارزم شاه بعد فشل المفاوضات لتسوية الأزمة

تقتلون أصحابي وتجاري وتأخذون مالي منهم، استعدوا للحرب فإني واصل إليكم بجمع لا قبل لكم به.

ابن الأثير: الكامل، ج١٢، ص٣٦٣.

ملحق رقم "١٠"

مفتتح رسائل جنكيز خان الذي كان يفتتح به رسائله الموجهة لملوك الإسلام يـدعوهم للطاعة:

من نائب رب السماء ما سح وجه الأرض ملك الشرق والغرب قان قان.

ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص١٥٦.

ملحق رقم "١١"

رسالة تاجر مجهول من الري إلى أصحابه بالموصل سنة ٦٢٧هـ يحدثهم عن أعمال المغول في الري وأذربيجان:

إن الكافر –لعنه ا - ما نقدر أن نصفه ولا نذكر جموعه حتى لا تنقطع قلوب المسلمين فإن الأمر عظيم. ولا تظنوا أن هذه الطائفة التي وصلت إلى نصيبين والخابور، والطائفة الأخرى التي وصلت إلى إربل ودقوقا كان قصدهم النهب، إنما أرادوا أن يعلموا هل في البلاد من يردهم أم لا! فلما عادوا أخبروا ملكهم بخلو البلاد من مانع ومدافع، وأن البلاد خالية من ملك وعساكر فقوي طمعهم وهم في الربيع يقصدونكم وما يبقى عندكم مقام، إلا إن كان في بلاد الغرب، فإن عزمهم على قصد البلاد جميعها فانظروا لأنفسكم.

ابن الأثير: الكامل، ج١٢، ص٥٠٣.

ملحق رقم "١٢"

وصية منكوقا آن لأخيه هولاكو لما سلمه قيادة الجيش الذي أرسله لفتح الغرب (غربي الصين):

إنك الآن على رأس جيش كبير وقوات لا حصر لها، فينبغي أن تسير من توران إلى إيران:

سر من توران إلى إيران مظفراً

واعل باسمك إلى الشمس الساطعة

وحافظ على تقاليد جنكيزخان، وقوانينه في الكليات والجزئيات، وخص كل مَنْ يطيـع أوامـرك ويجتنب نواهيك، في الرقعة الممتدة من جيحون حتى أقاصي بلاد مصر، بلطفك وبأنواع عطفك وإنعامك. أما مَنْ يعصيك فأغرقه في الذلة والمهانة مع نسائه وأبنائه وأقاربه وكل من يتعلق به. وابدأ بإقليم قهستان في خرسان، فخرب القلاع والحصون:

اجعل كردكوه وقلعة لنبه سر

بحيث يكون رأسهما إلى أسفل وجسدهما إلى أعلى

ولا تبق في الدنيا قلعة قط

ولا كومة واحدة من التراب

فإذا فرغت من هذه المهمة فتوجه إلى العراق، وأزل من طريقك اللور والأكراد، الذين يقطعون الطرق على سالكيها. وإذا بادر خليفة بغداد بتقديم فروض الطاعة فلا تتعرض له مطلقاً، أما إذا تكبر وعصى فألحقه بالآخرين من الهالكين. كذلك ينبغي أن تجعل رائدك في جميع الأمور العقل الحكيم والرأي السديد، وأن تكون في جميع الأحوال يقظاً عاقلاً وأن تخفف على الرعية التكاليف والمؤن، وأن ترفه عنهم. وأما الولايات الخربة فعليك أن تعيد تعميرها في الحال. وثق أنك بقوة ا العظيم سوف تفتح ممالك الأعداء حتى يصير لك فيها مصايف ومشـاتي عديـدة. وشـاور دوقوز خاتون في جميع القضايا والشئون.

الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢، ص٢٣٦-٢٣٧.

ملحق رقم "١٣"

بيان وجهه هولاكو إلى حكام إيران سنة ٦٥١هـ طالباً مساعدتهم في إخضـاع قـلاع الملاحدة كالموت وغيرها:

بناء على أمر القاآن قد عزمنا على تحطيم قلاع الملاحدة وإزعاج تلك الطائفة، فـإذا أسـرعتم وساهمتم في تلك الحملة بالجيوش والعدد والآلات فسوف تبقى لكم ولايتكم وجيوشكم ومسـاكنكم وستحمد لكم مواقفكم، أما إذا تهاونتم في امتثال الأوامر وأهملتم فإنا حين نفرغ بقوة ا من أمر الملاحدة فإننا لا نقبل عذركم ونتوجه إليكم فيجري على ولاياتكم ومساكنكم ما يكون قـد جـرى عليهم.

الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢، ص٢٤٠.

ملحق رقم "١٤"

رسالة هولاكو إلى المستعصم با آخر خلفاء العباسيين يعاتبه ويهـدده ويطالـب منـه الخضوع سنة ٦٥٥هـ

لقد أرسلنا إليك رسالة وقت فتح قلاع الملاحدة وطلبنا مدداً من الجند ولكنك أظهرت الطاعة ولم تبعث الجند وكانت آية الطاعة والاتحاد أن تمدنا بالجيش عند مسيرنا إلى الطغاة فلم ترسل إلينـا الجند والتمست العذر ومهما تكن أسرتك عريقة وبيتك ذا مجد تليد

فإن لمعان القمر قد يبلغ درجة

يخفى معها نور الشمس الساطعة

ولابد إنه قد بلغ سمعك على لسان الخاص والعام ما حل بالعالم والعـالمين علـى يـد الجـيش المغولي منذ عهد جنكيز خان إلى اليوم، والذل الذي حاق بأسر الخوارزميين والسلجوقية وملوك الديالمة والأتابكة وغيرهم ممن كانوا ذوي عظمة وشوكة، وذلك بحول ا القديم الدائم، ولم يكن باب بغداد مغلقاً بوجه أية طائفة من تلك الطوائف، واتخذوا منها قاعدة ملك لهم فكيف يغلق فـي وجهنا رغم ما لنا من قدرة وسلطان؟.. ولقد نصحناك من قبل والآن نقول لـك: احـذر الحقـد والخصام ولا تضرب المخصف بقبضة يدك ولا تلطخ الشمس بالوحل فتتعب. ومـع هـذا فقـد مضى ما مضى، فإذا أطاع الخليفة فليهدم الحصون ويردم الخنادق ويسلم البلاد لابنه ويحضـر لمقابلتنا. وإذا لم يرد الحضور فليرسل كلاً من الوزير وسليمان شاه والدويدار ليبلغوه رسـالتنا دون زيادة أو نقص، فإذا استجاب لأمرنا فلن يكون من واجبنا أن نكن له الحقد، وسنبقي له على دولته وجيشه ورعيته. أما إذا لم يصغ إلى النصح وآثر الخلاف والجدل، فليعبئ الجند وليعـين ساعة القتال فإننا متأهبون لمحاربته وواقفون له على استعداد. وحينما أقود الجيش إلـى بغـداد، مندفعاً بسورة الغضب، فإنك لو كنت مختفياً في السماء أو في الأرض.

فسوف أنزلك من الفلك الدوار

وسألقيك من عليائك إلى أسفل كالأسد

ولن أدع جيشاً في مملكتك

وسأجعل مدينتك وإقليمك وأراضيك طعمة للنار

فإذا أردت أن تحفظ رأسك وأسرتك فاستمع لنصحي بمسمع العقل والذكاء، وإلا فسـأرى كيـف ستكون إرادة ا .

الهمذاني: جامع التواريخ ج٢، مج٢، ص٢٦٨.

ملحق رقم "١٥"

رسالة الخليفة الجوابية حملها لهولاكو شرف الدين ابن الجوزي وبدر الـدين محمـود وزنكي النخجواني:

أيها الشاب الحديث! المتمني قصر العمر ومن ظن نفسه محيطا ومتغلبا على جميع العالم مغترا بيومين من الإقبال متوهماً أن أمره قضاء مبرم وأمر محكم لماذا تطلب مني شيئا لن تجده،

كيف يمكن أن تتحكم في النجم وتقيده

بالرأي والجيش والسلاح

ألا ليعلم الأمير أنه من الشرق إلى الغرب ومن الملوك إلي الشحاذين ومن الشيوخ إلى الشـباب ممن يؤمنون با ويعملون بالدين، كلهم عبيد هذا البلاط وجنود لي، إنني حينما أشـير بجمـع الشتات سأبدأ بحسم الأمور في إيران ثم أتوجه منها إلى بلاد توران وأضع كـل شـخص فـي موضعه وعندئذ سيصير وجه الأرض جميعه مملوءاً بالقلق والاضطراب غير أني لا أريد الحقد والخصام ولا أن أشتري ضرر الناس وإيذاءهم، كما أنني لا أبغي من وراء تردد الجيـوش أن تلهج ألسنة الرعية بالمدح أو القدح، خصوصاً وأنني مع الخاقان وهولاكو خان قلب واحد ولسان واحد. وإذا كنت مثلي تزرع بذور المحبة فما شأنك بخنادق رعيتي وحصونهم، فاسلك طريـق الود وعد إلى خرسان، وإن كنت تريد الحرب والقتال:

فلا تتوان لحظة ولا تعتذر

إذا استقر رأيك على الحرب

إن لي ألوفاً مؤلفة من الفرسان والرجال

وهم متأهبون للقتال

وإنهم ليثيرون الغبار من ماء البحر وقت الحرب والطعان

الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢، ص٢٦٩-٢٧٠.

ملحق رقم "١٦"

رسالة جوابية من هولاكو إلى الخليفة المستعصم با وقد امتلأ غضباً للرسالة السابقة:

إن ا الأزلي رفع جنكيز خان ومنحنا وجه الأرض كله من الشرق إلى الغرب، فكل من سـار معنا وأطاعنا واستقام قلبه ولسانه، تبقى له أمواله ونساؤه وأبناؤه، ومـن يفكـر فـي الخـلاف والشقاق لا يتمتع بشيء من ذلك.

ثم عاتب الخليفة بشدة قائلاً:

لقد فتنك حب الجاه والمال والعجب والغرور بالدولة الفانية، بحيث لم يعد يـؤثر فيـك نصـح الناصحين بالخير. وإن في أذنيك وقراً فلا تسمع نصح المشفقين، ولقد انحرفت عن طريق آبائك وأجدادك وإذن فعليك أن تكون مستعداً للحرب والقتال، فإني متوجه إلى بغداد بجـيش كالنمـل والجراد. ولو جرى سير الفلك على شاكلة أخرى فتلك مشيئة ا العظيم.

الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢، ص٢٧١.

ملحق رقم "١٧"

رسالة ثانية من الخليفة إلى هولاكو أرسلها له على يد بدر الدين قاضي بندنيجان:

لو غاب عن الملك فله أن يسأل المطلعين على الأحوال إذ إن كل ملك - حتى هذا العهد - قصد أسرة بني العباس ودار السلام بغداد كانت عاقبته وخيمة ومهما قصدهم ذوو السطوة من الملوك وأصحاب الشوكة من السلاطين فإن بناء هذا البيت محكم للغاية وسيبقى إلى يوم القيامة. وفي الأيام السالفة قصد يعقوب بن الليث الصفار الخلفية وتوجه بجيش لجب إلى بغداد فلم يبلغ أربه، إذ مات بعلة الزحار، والأمر كذلك مع أخيه عمرو، إذ قبض عليه إسماعيل بن أحمد الساماني وكيله وأرسله إلى بغداد، لكي يجري عليه الخليفة ما حكم به القضاء. وكذلك جاء البساسيري بجيش عظيم من مصر إلى بغداد وقبض على الخليفة وسجنه في الحديقة. وفي بغداد جعل الخطبة والسكة مدة عامين باسم المستنصر الذي كان خليفة الإسماعيلية في مصر. وفي النهاية علم طغرلبك بذلك فأسرع من خرسان وقصد البساسيري في جيش جرار وقبض عليه وقتله، وأخرج الخليفة من السجن وأعاده إلى بغداد وأجلسه على عرش الخلافة. وكذلك قصد السلطان محمود السلجوقي بغداد فعاد منهزماً وهلك في الطريق. وجاء محمد خوارزم شاه بجيش عظيم قاصداً استئصال هذه الأسرة فابتلى في روابي استر آباد بالثلج والعواصف بسبب غضب ا عليه وهلك أكثر جنده، وعاد خائباً خاسراً ثم لاقى ما لاقى من جدك جنكيز خان في جزيرة آبكسون. فليس من المصلحة أن يفكر الملك في قصد أسرة العباسيين، فاحذر عين السوء من الزمان الغادر.

الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢، ص٢٧٥-٢٧٦.

ملحق رقم "١٨"

رسالة قائد طلائع الجيش المغولي الزاحف على بغداد سلطان جوق إلى قبجاق قراسنقر قائد طلائع جيش الخليفة، وذلك لما زحف المغول على بغداد وتهيـأ الطرفـان للحـرب الفعلية: وهي محاولة لاستقطاب كبار ضباط جيش العراق:

إنني وإياك من جنس واحد[ذلك أن الاثنين كانا من أصل خوارزمي] وبعـد البحـث والتـدقيق إلتحقت بخدمة هولاكو بسبب الفقر والاضطرار، ودخلت في طاعته، وهو الآن يعاملني معاملـة طيبة، فأنقذ أنت أيضاً حياتك وترفق بها، وأشفق على أولادك وقدم الطاعة حتى تأمن على دارك وأولادك ومالك وروحك من هؤلاء القوم.

الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢، ص٢٨٢.

جواب قراسنقر على رسالة سلطان جوق السابقة:

من يكون هؤلاء المغول حتى يقصدوا أسرة العباسيين. لقد شاهدت هذه الأسرة الكثير من أمثال دولة جنكيز خان التي تترنح من كل ريح عاصف. ثم إن العباسين قد استمروا حكاماً أكثر مـن خمسمائة سنة، وكل مخلوق قصدهم بسوء قضى عليه الزمان. وإذن فليس من العقل والكياسة أن تدعوني لأنضم إلى جانب الغصن الغض لدولة جنكيز خان. وكان الأولى بـالود والمسـالمة ألا يتجاوز هولاكو خان الري بعد فراغه من فتح قلاع الملاحدة، وأن يعود إلى خرسان وتركستان، لأن قلب الخليفة متأثر وساخط بسبب زحف هولاكو بجيوشه. فإذا كان هولاكو نادماً حقاً علـى فعلته فعليه أن يعيد الجيش إلى همذان، لكي نجعل الدويدار شفيعاً فيتضرع بدوره إلـى الخليفـة عله يزول ألمه ويقبل الصلح فيغلق بذلك باب القتال والجدال.

الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢، ص٢٨٣-٢٨٤.

ملحق رقم "١٩"

رسالة هولاكو للخليفة قبل الهجوم النهائي على بغداد مباشرة:

إذا كان الخليفة قد أطاع فليخرج، وإلا فليتأهب للقتال. وليحضر إلينا قبل كـل شـيء الـوزير وسليمان شاه والدويدار ليسمعوا ما نقول.

الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢، ص٢٨٤.

رسالة الخليفة النهائية لهولاكو وذلك بعد أن أيقن بالبوار بعد هزيمة جيشه وبدء بغـداد بالسقوط في يد هولاكو، فأرسل الخليفة هذه الرسالة مـع الجـاثليق والـوزير ليقـولا لهولاكو ما يلي:

إن الملك قد أمر أن أبعث إليه بالوزير، ها أنذا قد لبيت طلبه فينبغي أن يكون الملك عند كلمته.

الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، مج٢، ص٢٨٧.

جواب هولاكو للخليفة عن الرسالة السابقة:

إن هذا الشرط قد طلبته وأنا على باب همذان. أما الآن فنحن على باب بغداد. وقد ثـار بحـر الاضطراب والفتنة، فكيف أقنع بواحد ينبغي أن ترسل هؤلاء الثلاثة.

يعني بالثلاثة الدويدار وسليمان شاه والوزير.

جامع التواريخ للهمذاني ج٢، مج٢-٢٨٧.

ملحق رقم "٢٠"

قال الشيخ شمس الدين الكوفي الواعظ، يذكر واقعة بغداد ويرثي أهلها، ويذكر خرابها:

إن لم تقــرح أدمعي أجفــاني … من بعد بعدكم فمـا أجفـــاني

إنسان عيني مذ تناءت داركــم … ما راقه نظر إلــى إنســان

يا ليتني قد مت قبـل فراقكــم … ولساعة التوديـع لا أحيانــي

مالي وللأيـــام شتت شملهــا … حــالي، وخلانـي بلا خلان

ما للمنازل أصبحـت لا أهلهــا … أهلي ولا جيرانهـا جيرانــي

وحياتكم ما حلهـا من بعدكـــم … غير البلى والهدم و النيــران

ولقد قصدت الدار بعد رحيلكــم … ووقفت فيها وقفة الحيــران

وسألتهــا لكن بغيــر تكلــم … فتكلــمت لكن بغير لســان

أين الذين عهدتهــم ولعزهــم … ذلا تخر معــاقد التيجــان

كــانوا نجــوم من اقتدى فعليهـم … يبكي الهدى وشعائر الإيمـان

قــالوا غدوا لمــا تبدد شملهــم … وتبدلوا من عزهـم بهــوان

كدم الفصاد يراق أرذل موضــع … أبداً ويخرج من أعز مكــان

أفنتهم غير الحوادث مثـل مــا … أفنت قديماً صاحب الإيـوان

لمــا رأيت الدار بعـــد فراقهـم … أضحت معطلة من السكــان

ما زلت أبكيهم وألثم وحشــــة … لجمالهم مستهدم الأركــان

حتى رثى لي كل من ما وجـده … وجدي ولا أشجانه أشجانــي

أترى تعود الدار تجمعنا كمــا … كنا بكل مســرة وتهــان

إذ نحن نغتنم الزمان ونجتنــي … بيد الأمان قطوف كل أمـاني

والدار تخدمنا جميع صــروفـه … والوقت يعدينا على العــدوان

والعيش غض والدنــو ممزق … بيد الوصال ملابس الهجران

هيهات قد عز اللقــاء وسددت … طرق المزار طوارق الحـد

ما لي أردد نــاظري ولا أرى … الأحباب بين جماعة الإخوان

والهفتي واوحدتي واحيرتــي … واوحشتي واحر قلبي العاني

مالي أنيس بعدكم غير البكـــا … والنوح والحسرات والأحزان

يا ليت شعري أين سارت عيسكم … أم أين موطنكم من البلــدان

الكتبي: فوات الوفيات، ج١، ص٤٩٩-٥٠١.

ملحق رقم "٢١"

قال أبو عبد ا محمد بن الحسين بن أبي بكر بن أحمـد الموصـلي المعـروف بـابن الشروي

ذهب الحياء و خفت الأحـ ـلام ... وجرت دموع العين وهي سجام

واستقبح الصبر الجميل وقد هوى ... نجم الهدى وتضعضع الإسـلام

يا صاحبي بلغ -هُديت- رسالـة ... من مدنف أودت به الأسقـ ـام

واركب جواد العز واخترق الفلا ... فلسيرك التبجيل والإعظـ ـ ـام

وانزل على بغداد واندب أهلهـا ... دار السلام وقل عليك سـ ـلام

فإذا رأيت وقد عفت من أهلهـا ... واعتادها بعد الضيـاء ظـ ـلام

فانشد هناك وقل بقلب والـ ـهٍ ... يا دار مـا صنعت بك الأيـ ـام

وتمشي في تلك الرسوم ونادها ... لم يبق فيك بشاشـ ـة تستـ ـام

يا دار كيف تركت آل محمـ ـد ... تا ما الك يا ديـ ـار ذمـ ـام

عهدي بربعك للعلـ ـوم مواطن ... إذ أنت للحور الحسان مقـ ـام

عرم الزمان على الذين عهدتهم ... بك قاطنين و للزمـان عـ ـرام

ويلاه يا بغداد أورثت الحشـا ... ناراً لها بين الضلوع ضـ ـرام

ما أنت إلا من بقايا كربـ ـلا ... ولو انتسبت لصحت الأرحـ ـام

فلأندبن على القتيل بكربـ ـلا ... وعليهم مـ ـا دامت الأعـ ـوام

حتى يقال صبا الشروي الـ ـذي ... عدم الشباب ومسـه الإعـ ـدام

الكتبي: عيون التواريخ، ج٢٠، ص١٤٠-١٤١.

ملحق رقم "٢٢"

مرثية أمير المؤمنين المستعصم با وذكر واقعة بغداد

للشاعر الفارسي سعدي الشيرازي

قال سعدي الشيرازي

حبست بجفني المدامع لا تجـري … فلما طغا الماء استطال على السكر

نسيم صبا بغداد بعد خرابهـــا … تمنيت لو كانت تمر على قبـري

لأن هلاك النفس عند أولى النهـى … أحب له من عيش منقبض الصـدر

طبيباً جس نبضي مداويــــاً … إليك،فما شكواي من مرض تبـري

لزمت اصطباراً حيث كنت مفارقاً … وهذا فراق لا يعالج بالصبـــر

تسائلني عما يـوم حصرهـــم … وذاك مما ليس يدخـل في الحصـر

أديرت كؤوس الموت حتى كأنـه … رؤوس الاسارى ترجحن من السكر

لقد ثكلان أم القرى و لكعبــــة … مدامع بالميزاب تسكب في الحجـر

بكت جدر المستنصرية ندبـــة … على العلماء الراسخين ذوى الحجـر

نوائب دهر ليتني مت قبلهـــا … ولم أر عدوان السفيه على الحبـر

محابر تبكي بعدهم بسوادهـــا … وبعض قلوب الناس أحلك من حبـر

لحى ا من يسدي إليه بنعمـــة … وعند هجوم الناس يألف بالغـــدر

مررت بصم الراسيـات أجوبهــا … كخنساء من فرط البكاء على صخـر

أيـا ناصحي بالصبر دعني وزفرتي … اموضع صبر والكبود على الجمـر؟

تهدم شخصي من مداومة البكـــا … وينهدم الجرف الدوارس بالمخـــر

وقفت بعبادان ارقـب دجلـــة … كمثل دم قان يسيل إلى البحـــر

وفائض دمعي في مصيبة واســط … يزيد على مد البحيـرة والجــزر

فجرت مياه العين فازددت حرقـــة … كما احترقت جوف الدماميل بالفجـر

ولا تسألني كيف قلبـــك والنـوى … جراحـة صدري لا تبين بالسبــر

على المرء عار كثرة المال بعـــده … وانك يا مغرور تجمـــع للفخـــر

عفا ا عنـا ما مضى من جريمـة … ومن علينا بالجميل من الصبـــر

وصـــان بلاد المسلمين صيانـــة … بدولة سلطان البلاد أبي بكـــر

مليك غدا في كل بلـــدة اسمـــه … عزيزا وحبوبـا كيوسف في مصـــر

لقد سعد الدنيـــا به دام سعــــده … وأيده المولى بألويـة النصـــــر

كذاك تنشأ لينـــة هو عرقهـــا … وحسن نبـات الأرض من كرم البـذر

ولو كان كسرى في زمان حياتـ ـه　　لقال الهي اشدد بدولتـ ـ ـ ـ ـه ازري

يشكر الرعايا صين من كل فتنـ ـة　　وذلك إن اللب يحفـ ـظ بالقشـ ـ ـ ـ ـ ـر

يبالغ في الإنفاق والعـ ـدل والتقـ ـى　　مبالغة السعدي في نكت الشعـ ـ ـ ـ ـر

وما الشعر أيم ا لسـ ـت بمـ ـدع　　ولو كان عندي ما ببابـ ـل من سحـ ـ ـر

هنالك نقادون علمـ ـأ وخبـ ـ ـرة　　ومنتخبوا القـ ـول الجميل من الهجـ ـ ـر

جرت عبراتي فـ ـوق خدي كآبـ ـة　　فأنشأت هذا في قضية مـ ـا يجـ ـ ـري

ولو سبقتني سادة جل قدرهـ ـ ـ ـم　　وما حسنت مني مجاورة القـ ـ ـ ـ ـدر

ففي السمط الياقوت ولعل وجامـ ـة　　وان كـ ـان لي ذنب يكفر بالعـ ـ ـذر

وحرقة قلبي هيجتني لنشرهـ ـ ـ ـا　　كما فعلت نـ ـار المجامر بالعطـ ـ ـ ـر

سطرت ولولا غض عيني على البكا　　لرقرق دمعـ ـي حسرة فمحا سطري

احدث أخبارا يضيق بهـ ـا صدري　　واحمل اصـ ـارا ينوء بهـ ـا ظهري

ولا سيما قلبي رقيـ ـق زجاجـ ـ ـة　　وممتنع وصل الزجاج لـ ـدى الكسـ ـ ـر

ألا إن عصري فيه عيشي منكـ ـد　　فليت عشاء الموت بادر في عصـ ـري

خليلي ما أحلى الحيـ ـاة حقيقـ ـ ـة　　واطيبها، لولا الممـ ـات على الأثـ ـ ـر

ورب الحجى لا يطمئـ ـن بعيشـ ـه　　فلا خير في وصـ ـل يردف بالهجـ ـ ـر

سواء إذا مامت وانقطع المنـ ـ ـى　　امجزن بتن بعد موتك ام بتـ ـ ـ ـ ـ ـر

نقلاً عن محفوظ: المتنبي وسعدي، ص٧٣-٧٧.

ملحق رقم "٢٣"

قال الشيخ تقي الدين إسماعيل بن إبراهيم بن أبي اليسر التنوخي من قصيدة له، عـدة أبياتها ست وستون، بقي منها إثنان وعشرون:

لسائل الدمع عن بغداد أخبـار ... فما وقوفك و الأحباب قد ساروا

يا زائرين إلى الزوراء لا تفـدوا ... فما بذاك الحمى والدار ديـار

تاج الخلافة والربع الذي شرفت ... به المعالم قد أعفـاه إقفـار

أضحى لعطف البلى في ربعه اثر ... وللدمـوع على الآثـار آثـار

يا نارَ قلبي من نار لحرب وغى ... شبت عليها ووافى الربع إعصار

علا الصليب على أعلى منابرها ... وقام بالأمر من يحويـه زنـار

وكم حريم سبته الترك غاصبـة ... وكان من دون ذاك الستر أستار

وكم بدور على البدرية انخسفت ... ولم يعـد لبـدور منه إبـدار

وكم ذخائر أضحى وهي شائعـة ... من النهـاب وقد حازتـه كفـار

وكم حدود أقيمت مـن سيوفـهم ... على الرقاب وحطـت فيه أوزار

ناديت والسبي مهتوك تجرهـم ... إلى السفاح من الأعداء دُعّـار

وهم يساقون للموت الذي شهدوا ... الموت يا رب من هذا ولا العـار

وا يعـلم أن القـوم أغفلـهم ... ما كان من نعـم فيهن إكثـار

وأهملوا جانب الجبار إذ غفلـوا ... فجاءهم من جنود الكفر جبـار

يا للرجـال لأحـداث تحدثنـا ... بما غدا فيه إعـذار و إنـذار

من بعد أسر بني العباس كلهـم ... فلا أنار لوجه الصبـح إسفـار

ما راق لي قط شيء بعد بينـهم ... إلا أحاديث أرويها وأسمـار

لم يبق للدين والدنيا وقد ذهبـوا ... شوق لمجد وقد بانوا وقـد باروا

إن القيامة في بغداد قد وجـدت ... وحدها حين للإقبـال إدبـار

آل النبي وأصل العلم قد سبـوا ... فمن ترى بعدهم تحويه أمصـار؟!

ما كنت آمل أن أبقى وقد ذهبوا ... لكن أتى دون ما أختار أقـدار

ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٥١-٥٢.

ابن العماد: شذرات الذهب، ج٥، ص٢٧١-٢٧٢.

السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٤٧٣.

ملحق رقم "٢٤"

قال شمس الدين الكوفي الواعظ:

بانوا ولي أدمـــع في الخـد تشتبـك ... ولوعة في مجـال الصـدر تعترك

بالرغـــم لا بالرضـى مني فراقهـم ... ساروا ولم أدر أي الأرض قد سلكوا

يا صـاحبي ما احتيالي [بعـد] بعدهم ... أشر عليّ ... فأن الرأي مشتـرك

عـــزّ اللقـاء و ضاقت دونـه حيلي ... فالقلـب في أمـره حيران مرتبك

يعـوقني عن مـرادي ما بليـت بـه ... كما يعوق جناحي طائـر شـرك

أروم صبـــــرا وقلبي لا يطاوعني ... وكيف ينهض من قد خانـه الورك

إن كنت فاقد إلف نح عليـه معـــي ... فإننـــا كلنـا في ذاك نشتـرك

يا نكبـــة ما نجا من صرفهـا أحد ... من الورى فاستوى المملوك والملك

تمكنت بعد عـــز فـي أحبتنـــا ... أيدي الأعادي فما أبقوا و لا تركوا

لو أن ما نالـهم يفــدى فديتـهم ... بمهجتي و بما أصبحت أمتـلك

ربع الهداية أضحى بعـــد بعدهـــم ... معطـلاً، ودم الإسـلام منسفـك

والشرك منجـــبر و الملك منكســـر ... والحـق مستتر والستـر منهتـك

ذاك السـواد شبــاب الدهر كان وقد ... شاب الزمان و دال الفاحـم الحلك

كانوا وكانت حمـــاة العز تحرسـهم ... من الأعادي فلما نكبـوا فتكــوا

أيــــن الذين على كل الورى حكموا ... أين الذين اقتنوا أين الألى ملكـوا

وقفـت من بعدهـم في الدار اسألهـا ... عنهم وعما حووا فيها وما ملكـوا

أجابني الطلل البـالي و ربعهـم الـ ... خالي نعم ههنا كانوا وقـد رحلوا

لا يحسبوا الدمع ماء في الخدود جرى ... وإنما هي روح الصـــب ينسبك

الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٣٣٤-٣٣٥.

الكتبي: عيون التواريخ ٢٠: ١٣٧ مع اختلاف في ترتيب بعض الأبيات وزيادة

ملحق رقم "٢٥"

وقال شمس الدين الكوفي الواعظ يذكر خراب بغداد وقتل الخليفة:

عنـ ـدي لأجـ ـل فراقكـ ـ ـم آلام ... فإلام أعـ ـ ـذل فيـ ـ ـ ـكم ألام

من كـ ـان مثـ ـلي للحبيب مفـ ـارقاً ... لا تعذلوه فالكـ ـ ـلام كـ ـ ـلام

نعم المساعد دمعي الجـ ـاري على ... خـ ـدي إلا أنـ ـه نمـ ـ ـ ـام

ويذيب روحي نوح كل حمامـ ـ ـة ... فكأنما نوح الحمـ ـ ـام حمـ ـام

إن كنت مثلي للأحبـ ـ ـة فاقـ ـداً ... أو في فؤادك لوعـ ـة و غـ ـرام

قف في ديـ ـار الظاعنين ونـ ـادها ... يا دار ما صنعت بك الأيـ ـ ـام

أعرضت عنك لأنهـ ـم مذ أعرضوا ... لم يبق فيك بشاشـ ـ ـة تستـ ـام

يا دار أين الساكـ ـنون وأين ذياك ... البهاء وذلك الإعظـ ـ ـ ـ ـام

يا دار أين زمان ربعـ ـك مونقـ ـاً ... وشعـ ـ ـارك الإجلال والإكرام

يا دار مذ أفلـ ـت نجومـ ـك عمـ ـنا ... و ا من بعد الضيـ ـ ـاء ظلام

فلبعدهـ ـم قرب الردى ولفقدهـ ـم ... فقد الهدى وتزلزل الإسـ ـ ـلام

فمتى قبلت من الأعـ ـادي ساكناً ... بعد الأحـ ـبة لا سقاك غمـ ـام

يا سـ ـادتي أما الفـ ـؤاد فشيـ ـق ... قلق و أما أدمـ ـعي فسجـ ـام

والدار مذ عدمت جمال وجوهكم ... لم يبق في ذاك المقام مقـ ـ ـام

لا حـ ـظ فيها للعيون وليس للأقـ ... ـدام في عرصاتها إقـ ـ ـدام

وحياتكم إني على عهد الهـ ـوى ... بـ ـ ـ ـاقٍ ولم يخفر لدي ذمام

فدمي حـ ـلال إن أردت سـ ـواكم ... والعيش بعدكم علي حـ ـ ـرام

يا غائـ ـبين وفي الفـ ـؤاد لبعدهم ... نار لها بين الضلـ ـوع ضرام

لا كتبكـ ـم تأتي ولا أخباركـ ـم ... تروى ولا تدنيكـ ـم الأحـ ـلام

نغصـ ـتم الدنيـ ـا علي و كلمـ ـا ... جـ ـد النوى لعبت بي الأسقـ ـام

ولقيت من صرف الزمان وجوره ... ما لم تخيله لي الأوهـ ـ ـ ـام

يا ليت شعري كيف حال أحبـ ـتي ... وبأي أرض خيمـ ـوا وأقـ ـاموا

مالي أنيـ ـس غيـ ـر بيت قالـ ـه ... صب رمته من الفراق سهـ ـام

وا ما اخترت الفـ ـراق و إنمـ ـا ... حكمت علي بذلك الأيـ ـ ـ ـام.

الكتبي: فوات الوفيات، ج١، ص٤٩٧-٤٩٨.

ملحق رقم "٢٦"

المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم

ثانياً: المصادر العربية

ابن الأثير الجزري، علي بن أحمد بن أبي الكرم (ت:٦٣٠هـ=١٢٣٢م)

١. الكامل في التاريخ، تحقيق محمد يوسف الدقاق (دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٧)

الإدريسي، أبو عبد ا محمد بن محمد الحمودي، (ت: ٥٦٠هـ=١١٦٤م)

٢. نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، (بيروت، عالم الكتب، ط١، ١٤٠٩هـ=١٩٨٩م)

الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (ت: ٣٥٧هـ= ٩٦٧م)

٣. مقاتل الطالبين، تقديم كاظم المظفر، (النجف، المكتبة الحيدرية، ط٢، ١٩٦٥م)

ابن أبي أصيبعة، أبو العباس أحمد بن القاسم بن طليقة بن يونس السعدي الجزري (ت: ٦٦٨ هـ=١٢٦٩م)

٤. عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق، نزار رضا (بيروت، دار مكتبة الحياة، ١٩٦٥م)

ابن بطوطة، أبو عبد ا محمد بن عبد ا اللواتي الطنجي (ت: ٧٧٩هـ=١٣٧٧م)

٥. رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، (بيروت، دار صادر، ١٣٨٤هـ=١٩٦٤م)

البغدادي، عبد القاهر بن محمد البغدادي، الاسفرائيني التميمي، (ت: ٤٢٩هـ=١٠٣٧م)

٦. الفرق بين الفرق، (بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت)

البلاذري، أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر، (ت: ٢٧٩هـ=٨٩٢م)

٧. فتوح البلدان، ٣ق، في ١م، نشره ووضعه ملاحقه وفهارسه صلاح الدين المنجد، (القاهرة، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٧م)

ابن تيمية، شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية الحراني، (ت: ٧٢٨هـ=١٣٢٧م)

٨. مجموعة الفتاوي، ٣٥ مجلداً اعتنى بها وخرج أحاديثها عامر الجزار، أنور الباز، (مكتبة العبيكان، ط١، ١٤١٨هـ=١٩٩٧م)

٩. منهاج السنة النبوية، تحقيق محمد رشاد سالم، (القاهرة، مكتبة ابن تيمية، د.ت)

ابن تغري بردي، جمال الدين يوسف أبو المحاسن، (ت: ٨٧٤هـ=١٨٩٦م)

١٠. النجوم ١٢٢٩هـ= الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج١٦، (طبع دار الكتاب المصرية، د.ط، ١٩٤٠م)

ابن جبير، أبي الحسين محمد بن أحمد بن جبر الكناني الأندلسي (ت:٦١٤هـ=١٢١٧م)

١١. رحلة ابن جبير ، تقديم محمد مصطفى زياده، (القاهرة، بيـروت، دار الكتـاب اللبناني، د.ط، د.ت)

ابن الجوزي، جمال الدين ابي الفرج عبد الرحمن بن علي (ت:٥٩٧هـ=١٢٠٠م)

١٢. المنتظم في تواريخ الملوك والأمـم، تحقيـق سـهيل زكـار (بيـروت، دار الفكر،١٩٩٥م)

الجوزجاني، أبو عمر منهاج الدين عثمان بن سراج الدين (ت:٦٩٨هـ=١٢٩٨م)

١٣. طبقات ناصري، ألف في الفترة ما بين ٦٥٧-٦٥٨هـ، نشر ولـيم ناسـوليس ومولوي خادم حسين ومولوي عبد الحي (كلتة، ١٩٦٤م)

الجويني، علاء الدين عطا ملك بن بهاء الدين محمد (ت:٦٨١هـ=١٢٨٢م)

١٤. تاريخ جهانكشاي، نشـر وتصـحيح محمـد بـن عبـد الوهـاب القزوينـي (ليدن،١٣٢٩م-١٣٥٥هـ = ١٩١١م-١٩٣٧م)

ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي، (ت:٣٨٠هـ=٩٩٠م)

١٥. صورة الأرض، القسم الأول، (ليدن، مطبعة بريل،١٩٣٨م)

ابن أبي الحديد، عز الدين عبد الحميد المدائني، (ت: ٦٥٦هـ=١٢٥٨م)

١٦. شرح نهج البلاغة، ج١١، تحقيق محمد أبو الفضـل إبـراهيم (بيـروت، دار الجيل، ط١، ١٩٨٧م)

الحنبلي، عبد الحي بن أحمد بن محمد العسكري، (ت: ١٠٨٩هـ=١٦٧٨م)

١٧. شذرات الذهب، ج١٠،تحقيق عبد القادر الأرنؤوط، محمود الأرنؤوط، (دمشق، دار ابن كثير، ط١، ١٤٠٦هـ)

ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، (ت:٦٨١هـ=١٢٨٢م)

١٨. وفيات الأعيان وإنباء أبناء الزمان، ج٨ ، تحقيق احسان عبـاس (لبنـان، دار الثقافة، د.ت)

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، (ت: ٨٠٨هـ=١٤٠٥-١٤٠٦م)

١٩. العبر وديوان المبتدأ والخبر ، يعرف بتاريخ ابن خلدون تحقيق سـهيل زكـار، (بيروت، دار الفكر، ٢٠٠٠م)

٢٠. مقدمة ابن خلدون، ج٣، (بيروت، دار القلم، ط٥، ١٩٨٤م)

الخواجة نظام الملك، أبو علي حسن بن علي الملقب الخواجة نظام الملك الطوسي

٢١. سياسة نامة سير الملوك ألف سنة٤٨٥هـ ترجمة يوسف حسين بكار (بيروت، دار القدس، د.ت)

أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي (ت: ٢٧٥هـ=٨٨٨م)

٢٢. السنن، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، (بيروت، دار الفكر، د.ت)

الديار بكري، (ت:٩٦٦هـ=١٥٥٨م)

٢٣. تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، القاهرة، د.ط، ١٢٨٣هـ=١٨٦٦م)

الدمشقي، عبد القادر بن محمد التميمي الدمشقي، (ت: ٩٨٧هـ=١٥٧٠م)

٢٤. الدارس في تاريخ المدارس، ج٢، تحقيق إبراهيم شمس الدين (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٠هـ)

الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، (ت: ٧٤٨هـ=١٣٤٧م)

٢٥. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، (بيروت، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤١٩هـ=١٩٩٩م)

٢٦. سير أعلام النبلاء، ج٢٣، تحقيق، شعيب الأرناؤوط، ومحمد نعيم العرقوسي، (بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٩، ١٤١٣هـ)

٢٧. دول الإسلام، (حيدرأباد الدكن، ط١، ١٣٣٧هـ)

٢٨. العبر في خبر من عبر، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م)

الرازي، الإمام فخر الدين محمد بن عمر الخطيب الرازي

٢٩. محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين راجعه وقدمه طه عبد الرؤوف سعد، (دار الكتاب العربي)

السبكي، تاج الدين بن علي بن عبد الكافي، (ت: ٧٧١هـ=١٣٦٩م)

٣٠. طبقات الشافعية الكبرى، ح١٠، تحقيق محمود محمد الطناحي عبد الفتاح محمد الحلو، (هجر للطباعة والنشر،ط٢، ١٤١٣هـ)

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، (ت: ٩١١هـ=١٥٠٥م)

٣١. تاريخ الخلفاء، راجعة وعلق عليه جمال محمود مصطفى (القاهرة دار الفجر للتراث، ط١، ١٩٩٩م)

سبط ابن الجوزي، يوسف بن قزاوغلي، (ت: ٦٥٤هـ=١٢٥٦م)

٣٢. مرآة الزمان، تحقيق سهيل زكار (دمشق، دار الإحسان،ط١، ١٩٨٤م)

ابن الساعي، تاج الدين علي بن أنجب الساعي، (ت: ٦٧٤هـ=١٢٧٥م)

٣٣. مختصر أخبار الخلفاء، القاهرة، المطبعة الأميرية ١٣٩٠هـ)

الشهرستاني، أبي الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد، (ت: ٥٤٨هـ=١١٥٣م)

٣٤. الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلاني (بيروت، دار المعرفة، د.ط، ١٤٠٠هـ=١٩٨٠م)

أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي، (ت: ٦٦٥هـ=١٢٦٧م)

٣٥. الروضتين في أخبار الدولتين، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد (القاهرة، د.ط، ١٩٥٦م، ١٩٦٢م)

الششتري، نور ا بن شريف المرعشي (ت:١١٠٩هـ=١٦٩٧م)

٣٦. مجالس المؤمنين،ألف سنة ١٠١٠هـ، (طهران، د.ط، ١٢٩٩هـ)

الشابشتي، الحسن علي بن محمد

٣٧. الديارات، تحقيق لوركيس عواد، (بغداد، ط٢، ١٩٦٦م)

الشيرازي، وصاف الحضرة أديب شرف الدين عبد ا بن فضل ا الشيرازي

٣٨. تاريخ وصاف، (بمباي، د.ط، ١٢٦٩هـ)

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أبيك، (ت: ٧٦٤هـ=١٣٦٣م)

٣٩. الوافي بالوفيات، ج٢٩، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى (بيروت، دار إحياء التراث، د.ط، ١٤٢٠هـ=٢٠٠٠م)

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، (ت: ٣١٠هـ=٩٢٢م)

٤٠. تاريخ الرسل والملوك، ح١١، تحقيقق محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة، دار المعارف بمصر، د.ط، ١٩٦٨م)

الطهراني، الشيخ أعايزرك الطهراني

٤١. الأنوار الساطعة في المائة السابعة، ح١، تحقيق على نقى فزوي (بيروت، دار الكتاب العربي، ط١ ، ١٩٧٢م)

ابن طباطبا، محمد بن على بن طباطبا، المعروف بابن الطقطقا، (ولد ٦٦٠هـ=١٢٦١م)

٤٢. الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، (بيروت، دار صادر، د.ت)

ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي، (ت: ٣٢٨هـ=٩٤٩م)

٤٣. العقد الفريد، خرجه وضبطه وصححه وعنون موضوعاته ورتب فهارسه: أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري، (القاهرة، مطبعة لجنة التـأليف والترجمـة والنشر، ١٩٦٧م)

ابن العبري، أبي الفرج غر يغور يوس بن أهرون الملطي المعروف بابن العبري، (ت: ٦٨٥ هـ=١٢٨٦م)

٤٤. تاريخ مختصر الدول، وضع حواشيه خليل المنصور، ومحمد علـي بيضـون (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٨=١٩٩٧م)

٤٥. تاريخ الزمان، نقله إلى العربية الأب اسحق أرمله، (بيـروت، دار المشـرق، ١٢٨٦م-١٩٨٦م)

العيني، بدر الدين محمود العيني، (ت: ٨٥٥هـ=١٤٥١م)

٤٦. عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، حقيقة ووضع حواشية محمد محمد أمـين (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، ١٤٠٧هـ=١٩٨٧م)

الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد بن محمد المشهور بأبي حامـد الغزالـي، (ت: ٥٠٥هـ ـ =١١١١م)

٤٧. فضائح الباطنية، راجعة محمد علي قطب، (صيدا، بيروت، المكتبة العصـرية، د.ط، ١٤٢٢هـ=٢٠٠١م)

٤٨. إحياء علوم الدين (مصر، مطبعة مصطفى حلبي، ١٣٤٦م)

الفوطي، كمال الدين أبي الفضل عبد الرزاق بن أحمد الشـيباني البغـدادي المعـروف بـابن الفوطي، (ت: ٧٢٣هـ=١٣٢٣م)

٤٩. الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، تحقيـق مهـدي الـنجم، منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنة والجماعة (بيـروت، دار الكتـب العلمية، ط١، ١٤٢٤هـ=٢٠٠٣م)

أبو الفداء، الملك المؤيد عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن علي بن محمـود بـن عمـر بـن شاهنشاه ين أيوب، (ت: ٧٣٢هـ=١٣٢١م)

٥٠. تاريخ أبي الفداء المختصر في أخيار البشر، علق عليه ووضع حواشيه محمـود ديوب، (بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت)

ابن قتيبة، أبو محمد عبد ا بن مسلم الدينوري، (ت: ٢٧٦هـ=٨٨٩م)

٥١. الإمامة والسياسة، (منسوب لابن قتيبة)، تحقيق طه الزيني، (القـاهرة، مطبعـة الحلبي، د.ت)

القلقشندي، أحمد بن علي بن أبي اليمن، (ت: ٨٢٥هـ=١٤١٨م)

٥٢. صبح الأعشى في صناعة الإنشا، (مصر، المؤسسة المصرية العامـة، نسـخة مصورة عن الطبعة الأميرية، د.ت)

٥٣. مآثر الأناقة، ج١٣، تحقيق عبد الستار أحمد فراج (الكويت، مطبعـة حكومـة الكويت، ط٣، ١٩٨٥م)

القزويني، زكريا بن محمد بن محمود، (ت: ٦٨٢هـ = ١٢٨٣م)

٥٤. آثار البلاد وأخبار العباد، (بيروت، دار صادر، ١٣٨٩هـ ١٩٦٩م)

الكتبي، محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي، (ت: ٧٦٤هـ=١٣٦٢م)

٥٥. فوات الوفيات، ج٢، تحقيق علي بن يعوص، عادل أحمد عبد الموجود (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠٠م)

٥٦. عيون التواريخ، تحقيق فيصل السامر ونبيلة عبـد المـنعم داود (بغـداد، دار الرشيد، د.ط، ١٩٨٠م)

الكليني، أبي جعفر محمد بن يعقوب بن اسحق الكليني الرازي، (ت: ٣٢٩هـ=٩٤٠م)

٥٧. الأصول من الكافي، (دار الكتب الإسلامية، ط٣، ١٣٨٨هـ)

ابن كثير، عماد الدين أبوالفداء اسماعيل، (ت: ٧٧٤هـ=١٣٧١م)

٥٨. البدايــة والنهايــة فــي التــاريخ، ج١٤، (القــاهرة، د.ط، ١٣٥١هــ - ١٣٥٨هـ=١٩٣٢م-١٩٣٩م)

الكشي، أبي جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي، (ت: ٤٦٠هـ=١٠٦٧م)

٥٩. اختيار معرفة الرجال، المعروف برجال الكشي، صححه حسـن المصـطفوي (١٣٤٨هـ)

المكي، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك الشافعي العاصمي المكي، (ت:١١١١هـ=١٦٩٩م)

٦٠. سمط النجوم العوالي، ح٤، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض (دار الكتب العلمية، د.ط، ١٤١٩هـ=١٩٩٨م)

المقدسي، أبو عبد ا محمد بن أحمد، (ت: ٣٨٠هـ=٩٩٠م)

٦١. أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ح١، (بيروت، وزارة الثقافة، د.ط، ١٩٨٠م)

المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، (ت: ٨٤٥هـ=١٤٤١م)

٦٢. الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (بيـروت، طبع بمطبعة الساحل الجنوبي الشياح، ١٩٥٩م)
٦٣. السلوك لمعرفة دول الملوك، نشره ووضع حواشيه محمـد مصـطفى زيـادة (القاهرة ١٣٥٣هـ=١٩٣٤م)

مجهول، م.م الرمزي،

٦٤. تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار، ٢ مجلد، قـدم له وعلق عليه ووضع فهارسه إبراهيم شمس الدين، منشورات محمد علي بيضون لنشـر كتـب السـنة والجماعـة ، (بيـروت، دار الكتـب العلميـة، ط١، ١٤٢٣هـ=٢٠٠٢م)

مسكوية، أبو علي أحمد بن محمد

٦٥. تجارب الأمم، (شركة التمدن الصناعي بمصر،١٩١٥م)

النسوي، شهاب الدين محمد بن أحمد بن علي النسوي، (ت: ٦٤٠هـ)

٦٦. سيرة جلال الدين منكبرتي، تحقيق حافظ أحمد حمـدي (القـاهرة، دار الفكـر العربي، د.ط، ١٣٧٣هـ=١٩٥٣م)

النوبختي، الحسن بن موسى النوبختي، ت: (٢١٠هـ = ٨٢٥م)

٦٧. فرق الشيعة، (بيروت، دار الأضواء، ط٢، ١٤٠٤هـ=١٩٨٤م)

النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، (ت: ٧٣٣هـ=١٣٣٢م)

٦٨. نهاية الإرب في فنون الأدب، ج٢١، (مصر، المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والنشر، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، د.ت)

ابن النديم، محمد بن إسحاق أبو الفرج، (ت: ٣٧٨هـ=٩٨٨م)

٦٩. الفهرست، اعتنى بها وعلق عليها الشيخ إبراهيم رمضان (بيروت، دار الفتوى، ط١، ١٤١٥هـ=١٩٩٤م)

الهمذاني، رشيد الدين فضل ا بن عمـاد الدولـة أبـي الخيـر بـن موفـق الدولـة، (ت: ٧١٨هـ=١٣١٨م)

٧٠. جامع التواريخ، تاريخ المغول تاريخ هولاكو، نقله عن الفارسية محمد صـادق نشأت، محمد موسى هنداوي، فؤاد عبد المعطي الصياد (القاهرة، د.ط، ١٩٦٠م)

ابن الوردي، زين الدين عمر، (ت: ٧٥٠هـ=١٣٤٩م)

٧١. تتمة المختصر في أخبار البشر، (القاهرة، د.ط، ١٢٥٨هـ=١٨٦٨م)

اليافعي، الإمام أبي محمد عبد ا بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي اليمنـي المكـي، (ت: ٧٦٨هـ=١٣٦٦م)

٧٢. مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حـوادث الزمـان، ج١٤، وضـع حواشـيه خليـل المنصـور، (بيـروت، دار الكتـب العلميـة، ط١، ١٤١٧هـ=١٩٩٧م)

اليونيني، قطب الدين موسى بن محمد اليونيني، (ت: ٧٢٦هـ=١٣٢٦م)

٧٣. ذيل مرآة الزمان، تصحيح وزارة التحقيقات الحكمية والأمور الثقافية للحكومة الهندية، (القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، ط١، ١٣٨٠هـ=١٩٦٠م)

أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم، (ت: ١٨٢هـ=٧٩٢م)

٧٤. الخراج، (القاهرة، المطبعة السلفية، ط٤، ١٣٩٢هـ=١٩٧٢م)

ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبد ا بن عبد ا ، (ت: ٦٢٦هـ=١٢٢٨م)

٧٥. معجم البلدان، ح٥، (بيروت، د.ط، دار صادر، دار بيروت، ١٩٥٧م)

ثالثاً: المراجع العربية

الأفغاني، أحمد

١. سراب في إيران، (ط١، د.د، ١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م)

أبو طالب، محمد نجيب

٢. الصراع الاجتماعي في الدولة العباسية، تقديم الطاهر لبيـب (تـونس، مدينـة سوسه، دار المعارف للطباعة والنشر، د.ط، ١٩٩٠م)

الأمين، حسن

٣. دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، ج٤ (بيروت، دار التعارف للمطبوعات، ط١، ١٤١٠هـ = ١٩٩٠م)

٤. الإسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي (بيروت، الغدير للطباعة والنشر، ط١، ١٤١٧هـ = ١٩٩٧م)

الأمين، محسن

٥. أعيان الشيعة (بيروت، دار صادر، ط١، ١٣٧٩هـ = ١٩٥٩م)

الأعسم، عبد الأمير

٦. الفيلسوف نصير الدين الطوسي مؤسس المنهج الفلسفي في علم الكلام الإسلامي (بيروت، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٩٧٥م)

أبو غضيب، هاني خيرو

٧. أطلس تاريخ العالم القديم والمعاصر (نابلس، المكتبة الجامعية، ٢٠٠٤م)

بدران ، عبد القادر، (ت: ١٣٤٦هـ=١٩٢٧م)

٨. منادمة الأطلال، ح١، تحقيق زهير الشاويش (بيروت، د.د، ط٢، ١٩٨٥م)

بيضون، جميل وآخرون

٩. تاريخ المشرق الإسلامي من القرن الخامس حتى القرن السابع الهجري (عمان، دار الأمل للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٨٩م)

بدوي، عبد المجيد أبو الفتوح

١٠. التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الإسلامي من القرن الخامس الهجري حتى سقوط بغداد (المنصـورة، دار الوفـاء للطباعـة والنشـر، ط٢، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م)

بو فرحات، هدى

١١. قصة وتاريخ الحضارات العربية، تاريخية جغرافية حضارية وأدبيـة العـراق والأردن (القاهرة، دار النفائس، ط٢، د.ت)

تامر، عارف

١٢. معجم الفرق الإسلامية (بيروت، دار المسيرة، ١٩٩٠م)

الجميلي، رشيد عبد ا

١٣. تاريخ الدولة العربية الإسلامية العصور العباسية المتأخرة، (وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، الجامعة المستنصرية، ط١، ١٩٨٩م)

حسن، حسن إبراهيم

١٤. تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، (القاهرة، مكتبة النهضـة، ط٧، ١٩٦٤م)

حمدي، حافظ

١٥. الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي، (القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٥٠م)

حسنين، عبد النعيم محمد

١٦. إيران والعراق في العصر السلجوقي (بيـروت، دار الكتـب الإسـلامية، ط١، ١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م)

حبيب، كمال السعيد

١٧. الأقليات السياسية في الخبرة الإسلامية من بداية الدولة النبوية وحتى نهاية الدولة العثمانية (٦٢٢م-١٩٠٨م) (القاهرة، مطبعة مدبولي، ط١، ٢٠٠٢م)

خصباك، جعفر

١٨. العراق في عهد المغول الايلخانيين (بغداد، مطبعة العاني، د.ط، ١٩٦٨م)

الخميني، آية ا

١٩. الحكومة الإسلامية (بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشـر، ط١، آذار مـارس ١٩٧٩م)

٢٠. تحرير الوسيلة (بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط١، د.ت)

الخونساري، محمد باقر الموسي الخونساري الأصبهاني

٢١. روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات، (طهـران، د.ط، ١٣٠٧هـ ـ = ١٨٩٠م)

خليل، عماد الدين

٢٢. الوحدة والتنوع في تاريخ المسلمين (دمشق، دار الفكر، ٢٠٠٢م)

الخطيب، محمد

٢٣. الحركات الباطنية في العالم الإسلامي عقائدها وحكم الإسلام فيها (عمان، مكتبة الأقصى، د.ط، د.ت)

الخشت، محمد عثمان

٢٤. حركة الحشاشين، تاريخ عقائد أخطر فرقة سرية في العالم الإسلامي (القـاهرة، مكتبة ابن سينا، د.ط، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م)

الخطيب، محب الدين

٢٥. الخطوط العريضة للأسس التي قام عليها دين الشيعة الإمامية الاثنـى عشـرية (القاهرة، د.د، د.ط، د.ت)

الخضري، محمد بك

٢٦. تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية) (القاهرة، دار الفكر العربي، ط١، د.ت)

الدوري، عبد العزيز

٢٧. تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري (بغداد، د.د، ط١، ١٩٤٨م)

الرفاعي، أنور:

٢٨.الإسلام في حضارته ونظمـه، ج١، (دار الفكـر المعاصـر للطباعـة والنشـر والتوزيع، ط٢، ١٩٨٢م).

الزبيدي، علي أحمد

٢٩. حضارة العراق (بغداد، د.د، ط١، ١٩٨٥م)

الزين، محمد حسين

٣٠. الشيعة في التاريخ، (بيروت، دار الآثار للطباعة والنشر، د.ت)

السبتي، عبد ا

٣١. تحت راية الحق، قدم له مرتضى آل ياسين الكاظمي (طهران، ط١، ١٩٨٥م)

الساعدي، محمد الشيخ حسين

٣٢. مؤيد الدين ابن العلقمي وأسرار سقوط الدولة العباسية (النجف، ط١، ١٩٧٢م)

شلبي، أبو زيد

٣٣. تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي (القاهرة، مكتبة وهبة، ط٦، د.ت)

شريعتي، علي

٣٤. عن التشيع والثورة، ترجمة وتقديم، إبراهيم الدسوقي شـتا، (القـاهرة، مطبعـة الأمين، ط١، ١٤١٦هـ = ١٩٩٦م)

شبارو، عصام

٣٥. تاريخ المشرق العربي الإسلامي منذ دخول السلاجقة حتى دخـول العثمـانيين القاهرة (بيروت، دار الفكر اللبناني، د.ت)

شندب، محمد حسين

٣٦.الحضارة الإسلامية في بغداد في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري (دار النفائس، ط١، د.ت)

الشيخ عيد، يوسف إبراهيم

٣٧. أثر الحركات الباطنية في عرقلة الجهاد ضد الصليبيين (عمـان، دار المعـالي، ط١، ١٤١٩هـ = ١٩٩٨م)

الصياد، فؤاد عبد المعطي

٣٨. المغول في التاريخ (بيروت، دار النهضـة العربيـة للطباعـة والنشـر، د.ط، ١٩٧٠م)

صبحة، ناجي وآخرون

٣٩. صفحات من التاريخ الإسلامي (القاهرة، د.د، ط٢، ١٤١٠هـ=١٩٩٠م)

ضيف، شوقي

٤٠. تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني، (القاهرة، دار المعـارف، د.ط، ١٩٧٢م)

طقوش، محمد سهيل

٤١. تاريخ الدولة العباسية (القاهرة، دار النفائس، ط٢، د.ت)

الطبرسي، النوري ميرزا محمد حسين النوري الطبرسي، (ت:١٣٢٠هـ)

٤٢. فصل الخطاب في تحريف كتاب رب الأرباب (طهران، د.د، ط١، د.ت)

٤٣.مستدرك الوسائل، (طهران، د.ط، ١٣٢١هـ=١٩٠٣م)

العبادي، أحمد مختار

٤٤. قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام ، (د.ط، بيروت، ١٩٦٩م).

العدوي، إبراهيم أحمد

٤٥. التاريخ الإسلامي آفاقه السياسية وأبعاده الحضارية (القاهرة، مكتبـة الأنجلـو، د.ت)

عويس، عبد الحليم

٤٦. أوراق ذابلة من حضارتنا "دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسـلامية" (القـاهرة، دار الصحوة، ط٢، ١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م)

عزام، خالد

٤٧. موسوعة التاريخ الإسلامي العصر العباسي (١٣٠٢هـ - ٦٥٦هـ ـ) (الأردن، دار أسامة للنشر والتوزيع، د.ت)

العش، يوسف

٤٨. تاريخ عصر الخلافة العباسية، (دمشق، دار الفكر، ط١، ١٩٨٢م)

العريني، السيد الباز

٤٩. المغول، (بيروت، دار النهضة العربية، د.ط، ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م)

العزاوي، عباس

٥٠.تاريخ العراق بين احتلالين (بغداد، د.د، ط١، ١٣٥٣هـ = ١٩٣٥م)

العفيفي، عبد الحكيم

٥١. موسوعة ١٠٠٠ حدث إسلامي (القاهرة، أوراق شرقية، د.ط، د.ت)

عبد المعطي، محمد عبده وآخرون

٥٢.تاريخ العلوم والحضارة الإسلامية، أشرف عليه وراجعه وقدم له، عزت محمـد خيري، محمد إبراهيم حور، (مطبوعات جامعة الإمارات العربية المتحـدة، ط١، ١٤٠٩هـ = ١٩٨٩م)

عمارة، محمد

٥٣. الوعي بالتاريخ وصناعة التاريخ (القـاهرة، دار الرشـد، ط٢، ١٤١٧هـ ـ = ١٩٩٧م)

الغرابي، علي مصطفى

٥٤. تاريخ الفرق الإسلامية ونشأت علم الكلام عند المسلمين (القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٢، ١٩٨٥م)

الفقي، عصام الدين عبد الرؤوف

٥٥. الدولة العباسية (القاهرة، مكتبة نهضة الشرق، ١٩٨٧م)

فوزي، فاروق عمر
٥٦. الخلافة العباسية السقوط والانهيار (القاهرة، دار الشروق، ط١، ١٩٩٨م)
القمي، عباس
٥٧. الكنى والألقاب (النجف، صيدا، ط١، ١٣٥٨م، النجف ١٩٥٦م)
القزويني، مهدي بن صالح الموسوي الكاظمي
٥٨. منهاج الشريعة في الرد على ابن تيمية (النجف، الذريعة، ط١، ١٣٤٧هـ=١٩٢٨م)
القزاز، محمد صالح داوود
٥٩. الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية (النجف، مطبعة القضاء، ١٣٩٠هـ = ١٩٧٠م)
قطب، محمد
٦٠. شبهات حول الإسلام (القاهرة، د.د، ط٤، ٢٠٠٥م)
محمود، إسماعيل
٦١. الحركات السرية في الإسلام (بيروت، دار القلم، ط١، ١٩٧٣م)
المعاضيدي، عبد القادر سلمان
٦٢. حضارة العراق (بغداد، ط٢، ١٩٨٤م)
المجذوب، عبد العزيز
٦٣. الصراع المذهبي في أفريقيا (القاهرة، دار الكتب الإسلامية، ط١، ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م)
محمد، عبدو
٦٤. هولاكو في بغداد (اللاذقية، مطبعة العلم، دار الحوار، ط١، ١٩٨٤م)
محاسنه، محمد حسين وآخرون
٦٥. دراسات في التاريخ الإسلامي (الأردن، دار الأمل، ط١، ١٩٩٠م)
نعمة، عبد ا
٦٦. فلاسفة الشيعة، (بيروت، دار صادر، ط١، د.ت)
النبراوي، فتحية وآخرون
٦٧. قضايا العالم الإسلامي ومشكلاته السياسية بين الماضي والحاضر (الإسكندرية، منشأة عارف، ط١، ١٩٨٣م)
نخبة من الباحثين العراقيين
٦٨. حضارة العراق (بغداد، ط١، ١٩٨٥م)

رابعاً: المراجع الأجنبية

براون، إدوارد جرانفل (ت: ١٩٢٦).

١. تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي، ترجمه إلى العربية إبـراهيم أمين الشواربي (القاهرة، د.ط، ١٣٧٣هـ = ١٩٥٤م)

بروكلمان، كارل

٢. تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية نبيه أمين فـارس ومنيـر البعلبكـي (بيروت، دار العلم للملايين، ط١، ١٩٤٩م)

تسيهر، جولد

٣. العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة علي حسن عبد القادر وآخرون (القـاهرة، د.ط، ١٩٤٦م)

حتي، فليب وآخرون

٤. تاريخ العرب (مطول) (بيروت، دار الكشاف للنشر والتوزيع، ط٤، ١٩٦٥م)

رنسيمان، ستيفن

٥. تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ترجمة السيد الباز العريني (بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٩م)

زيدان، جرجي

٦. تاريخ التمدن الإسلامي، مراجعة وتعليق حسين مؤنس (القـاهرة، دار الهـلال، د.ط، ١٩٣١م)

سترنج، لي

٧. بغداد في عهد الخلافة العباسية، نقله إلى العربية بشر يوسف فرنسيس، (بغـداد، د.د، ط١، ١٣٥٥هـ=١٩٣٦م)

شبولر، برتولد

٨. العالم الإسلامي في العصر المغولي، نقله إلى العرب خالد أسعد عيسى، راجعـه وقدم له، سهيل زكار (دمشق، دار الإحسان للطباعـة والنشـر، ط١، ١٩٨٢م = ١٤٠٢هـ)

٩. المغول في التاريخ، ترجمة يوسف شاب الشام (دمشق، طلاس لدراسات الترجمة والنشر، ط١، ١٩٨٩م)

١٠.تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة أحمد سعيد سليمان (الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦م)

فامبري، أرمنيوس

١١. تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر، راجعه وقدم له، يحيـى الخشاب (القاهرة، مكتبة نهضة الشرق، د.ت)

لاند، روم

١٢. الإسلام والعرب، نقله إلى العربية، منير البعلبكي (بيروت، دار العلم للملايـين، ١٩٨٥م)

متز، آدم

١٣. الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (القاهرة، مكتبـة الخـانجي، ط٤، د.ت)

Abstract

The study investigates Iraq's sheeaa involvement in the Mongol invasion of Iraq. The study shows that the abbacy khalif Al'naser Ldean Allah had no roll in directing the Mongol invasion westward. This invasion overcame the Khawarisimian state resistance because of the inefficiency of the military and administrative strategy. This invasion faced little resistance because of detriating political, economical, and social situations of the Islamic khelafaa. The study also shows that the Mongols had no intention or destroying the Islamic khelafaa after their invasion of the Khawarisimian state. The study establishes that Iraq's Sheeaa had secret communications with the Mongols to persuade the Mongols to invade Iraq and destroy the Islamic khelafaa. These communications clearly shows Iraq's Sheeaa betrayal to the Islamic khelafaa.

The study has found that Iraq's Sheeaa effectively participated in the Mongol invasion of Iraq and offered every possible assistance to the invading army including the deception of the Abassi khelaf which led his death along with his senior staff. Iraq's Sheeaa benefited from the Mongol invasion, the Sheeaa community in Baghdad was left unharmed, while the rest of Baghdad was destroyed completely, and their cooperation with the invaders made them the new rollers or Iraq as agents to the Mongol occupation

The study has proven that their were no exaggeration in the number of human casualties due to the Mongol invasion. Finally, the acts of Iraq's Sheeaa during and after the Mongol invasion are acts resident in their faith and convictions as they consider themselves claimers of a lost right in the Islamic Khelafaa.